د. أحمد خيري العمري

الفردوس المستعار و الفردوس المستعاد

ثوابت وأركان من أجل خيار حضارة أخرى





آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

الدكتور
أحمد خيري العمري

الفردوس المستعار
و
الفردوس المستعاد

ثوابت وأركان من أجل خيار حضارة أخرى





آفاق معرفة متجددة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفردوس المستعار
و
الفردوس المستعاد

ثوابت واركان من اجل خيار حضارة اخرى



2011=1432

دار الفكر – دمشق – برامكة



٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

Http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

الفردوس المستعار

والفردوس المستعاد

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ١٩٣٣.٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-531-7

التصنيف الموضوعي: ٣٢٠ (العلوم السياسية)

٥٩٢ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة الثالثة: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

ط١/٢٠٠٦م

المحتوى

إهداء

من نوع خاص جداً..

أهدي هذا الكتاب إلى القناص الأمريكي الذي قتل - بدم بارد - الخالة منى عبد الهادي العبيدي وزوجها الدكتور أحمد الراوي.. وخمسة وعشرين شخصاً آخرين من المدنيين تصادف أنهم مرّوا من أمام مكمنه على مشارف مدينة الرمادي ظهيرة يوم الرابع عشر من تموز (يوليو) ٢٠٠٤..

بدلاً من رصاصات مماثلة كالتي أطلقها عليهم، أهدي هذا الكتاب إليه.. وإلى كل زملائه الآخرين..

أهديه إليه، وإلى دقته في التصويب: رصاصة واحدة فقط على رأس زوجها.. وتسليه بإطلاقه بضع عشرة رصاصة عليها..

أهديه إلى القيم التي دفعت به إلى هنا، وإلى رأسه الفارغ إلا من نظرته المحددة سلفاً لكل الأمور، وإلى حضارة الرجل الأبيض التي جاء لينوب عنها.. وإلى ثقافة (البوب كورن) التي جاء لينشرها..

أهديه إليه، عندما يعود إلى بلاده، سواء بكفن أو على عكازة أو عكازتين.. أو سالماً يمشي على قدميه..

وأهديه إليه، عندما يحتضن زوجته، وأولاده، ويجلس بينهم بينما يحكي بطولاته مع أولئك المتوحشين الذين هم نحن...، ورسالته التي أداها في جرنا إلى درب الحضارة..

لقد أدى قسطه على أكمل وجه في حوار الحضارات الذي يتحدثون عنه، كانت تلك الرصاصات المنفلقة هي سطوره التي أداها بشكل عملي.. أبلغ وأكبر تأثيراً من كل الأقوال..

هذا الكتاب هو ردي عليه، وهو سطوري أنا في ذلك الحوار.

وكما كان هو دقيقاً في التصويب، آمل أن أكون أكثر دقة.

د. أحمد خيري العمري

مُقَدِّمَة

أقول إنه سرطان، وأقول أيضاً إنه أمر جيد..

عندما تفتح نتيجة الفحص المختبري الخاص بدمك، وتجد أن النتيجة العلمية الباردة هي أن جسدك ينهشه السرطان، فإن ذلك على الأكثر سيكون خبراً سيئاً لك ولأحبائك..

لكن الحقيقة أن النتيجة المختبرية هي مجرد إعلان لحقيقة ما يدور منذ فترة داخل جسدك. السرطان لم يبدأ لحظة أجريت الفحص، أو لحظة قرأت النتيجة. السرطان على الأغلب بدأ قبل ذلك بفترة طويلة ودون أن تشعر به. ولو أن النتيجة كانت مخطئة، وقرأت فيها أن الأمر مجرد التهاب عابر، لتنفست الصعداء أنت ومن حولك، ولكن السرطان كان سيستمر بالانتشار في جسدك دون أن يقاومه شيء.

النتيجة المختبرية، على قسوتها، ستجعلك تسرع بمواجهة المرض بشكل جذري وحاسم، وكنت قبلها تقنع بالمهدئات والمسكنات والمضادات الحيوية، بل إن النتيجة المختبرية ربما تجعلك تعيد النظر في أسلوب حياتك، وتحاول أن تصلح من بعض الأمور العالقة فيها.

ولولا ذلك لكنت واصلت حياتك كما هي، مخدراً بأوهام المضادات والمسكنات، إلى أن يأتي الكشف عن الحقيقة متأخراً وبعد فوات الأوان.

السرطان يصفعك ويجعلك تستنفر قواك محاولاً التشبث بالحياة.

لذلك أقول، نعم إنه سرطان..

لكنه خبر جيد.

***

سقوط عاصمة الخلافة (!) بأيدي القوات الأمريكية في نيسان (أبريل) ٢٠٠٣ كان تلك النتيجة المختبرية التي أعلنت أن السرطان قد انتشر في جسد أمتنا. لم يبدأ السرطان لحظتها بل كان قد بدأ منذ قرون متطاولة، لكننا دأبنا على الإنكار وعلى المزيد من الإنكار.. دأبنا على التظاهر أن لا شيء جدياً هناك، وسددنا آذاننا عن صرخات بعض المفكرين الذين راحت صرخاتهم في الوديان، تمسكنا بأن كل مشاكلنا هي محض التهابات عابرة وطبيعية، تكفيها بعض المضادات والمسكنات والعقاقير، ظللنا نصرخ أننا خير أمة أخرجت للناس، أن هزائمنا ليست سوى نكسات وكبوات، يكفينا بعض التوحد لقهر العالم كله، والعودة كما كنا في عهد حضارتنا الزاهرة.. ظللنا نغض النظر والبصر والسمع عن حقيقة أمراضنا الحقيقية المحصنة بالقداسة والتفسير (السلطوي المؤسساتي) للنصوص الدينية؛ من تمجيد للاستبداد وتكريس للسلبية وقتل لكل معاني الإبداع والإيجابية التي جاء الإسلام أصلاً بها...

لم يكن ما نعاني منه محض حمى أو زكام أو صداع بسبب الإرهاق..

كان السرطان ينهش نهشاً في ثقافتنا وفكرنا، وكنا نتجاهل ذلك بالتعامي عن الحقائق وأخذ المسكنات حتى المخدرات..

وكان سقوط بغداد بأيدي الأمريكان هو مجرد مرحلة متقدمة من مراحل المرض الذي كان يفتك بنا دون أن نعلم...

كان سقوط بغداد، هو تلك النتيجة المختبرية التي كاشفتنا بحقيقة إصابتنا بالسرطان.

نعم أقول إنه سرطان.

وأقول أيضاً: إنه أمر جيد.

۞ ۞ ۞

الجيد في الأمر؛ أنه يعد هناك مجال لنا لنصدق ما كنا نصدقه منذ قرون، أن الأمر ليس سوى حمى أو زكام..

الجيد في الأمر أن السرطان سيجبرنا على مواجهة الحقائق بدلاً من ممارسة التهرب والإنكار، سيجبرنا السرطان على أن نأخذ الأمور بجذرية، بجدية، بحزم، بلا مواربة، بلا مجاملة..

الجيد في الأمر أن السرطان سيجعلنا نعيد النظر في كل شيء..

كل شيء!

۞ ۞ ۞

الصراع مع السرطان لا يشبه الصراع مع أي مرض آخر، إنه ليس مثل كل الأمراض المزمنة الأخرى، التي تتكيف حياتك معها وتتقولب بقوالب علاجاتها، وممنوعاتها ومسموحاتها وعقاقيرها وفحوصها الدورية.. لا! كل الأمراض الأخرى ستتلبد حواسك معها ..**إلا السرطان**. وحده سيستفز إرادة الحياة في داخلك.

وحده السرطان سيجعل خلاياك تنتفض، تغير جلدها، تقاوم، تجدد نفسها..، تحاول أن تكون على قدر المواجهة..

وحده السرطان يمكن له أن يجعلك تقوم، وتنهض من قبر حياتك

الروتينية - التي هي محض تنفس وتثاؤب وعيش بيولوجي - وتحاول أن تقارع ذلك الوحش الكاسر الذي استوطن خلاياك..

وحده السرطان يمكن أن يكون صفعة على وجهك؛ توقظك من كل أوهامك التي أودت بك إلى الهاوية...

نعم أنه السرطان..

وبالرغم من ذلك، بل بسبب ذلك، أقول: إنه أمر جيد..

❀ ❀ ❀

والأمر الجيد أيضاً مع هذا السرطان أنك لا تخرج منه كما دخلت أبداً.

إذا نجوت، إذا استطعت أن تصارع المرض ومعك كل إرادتك وقوتك، وكل قابلياتك غير المكتشفة قبل السرطان..، إذا (فعلتها) وهزمته، فإن حياتك لن تعود أبداً كما كانت.

لقد جعلتك المعركة تعيد اكتشاف ذاتك. جعلتك تنقب في كهوفك ومغاورك المجهولة، تستخرج منها معادن ثمينة ما عرفت بوجودها يوماً.. جعلتك تتعلم كيف تستخدمها في مقارعة ذلك الوحش الذي استوطن خلاياك..

إذا نجوت، فإنك حتماً قد صرت شخصاً أقوى.. لن تعود الشخص الركيك نفسه الذي داهمه المرض على غفلة منه.. لا، إذا نجوت، ستكون شخصاً أقوى..

«ما لا يقتلك، يجعلك أقوى»...



هذه الحقيقة الإحصائية الطبية مع مرضى السرطان الإكلينيكي، هي **حقيقة أيضاً في كل أزمة قاصمة تمر بها في حياتك الشخصية.. إنك لا تنجو من شيء إلا وخرجت منه أقوى مما دخلت إليه..**

يصدق ذلك مع مرض السرطان، ويصدق أيضاً مع الأزمات الشخصية الطاحنة، ويصدق أكثر مع كل ما نمر به اليوم.. مهما اختلفنا في تسميته..

إنها هذه الحضارة القادمة إلينا كالسرطان والتي زحفت ببطء، رويداً رويداً، وبالتدريج..

إلى أن قرأنا نتيجة الفحص المختبري علناً، يوم سقوط بغداد، وعرفنا أنه السرطان..

وأقول مرة أخرى: إنه شيء جيد..

❀ ❀ ❀

مع السرطان الأمريكي، وبما أنه صار جلياً أن الأمر صار مسألة **(حياة أو موت)**، وأنه **(صراع من أجل البقاء)**، لم يعد من الممكن إلا أن نعيد النظر ونعيد استكشاف ذواتنا من أجل النجاة من أنياب الوحش الكاسر..

مع هذا السرطان، لم يعد بالإمكان الركون إلى وسائلنا التقليدية في المواجهة: الشعارات الرنانة، الأناشيد الحماسية، التشنجات، العنف المجاني الذي يفتقر إلى التخطيط والهدف، السلبية، الخمول، التأويلات التي تعلق على شماعة القضاء والقدر كل ما يدور..

لم يعد بالإمكان، مع هذا السرطان، المقاومة بثقافة أسهمت، برّكاكتها وضعفها وسلبيتها، في تسهيل دخول السرطان...

مع هذا السرطان لا يمكن أن يكون هناك مجال للنجاة إذا بقينا نحن كما نحن.. هذا السرطان لا يحمل سوى خيارين: إما أن نستسلم له، ونموت.. أو أن نتغير لنواجهه.

وإذا واجهنا وحدث أن نجونا، فإننا سنكون أقوى.. لأننا تغيرنا.

«ما لا يقتلك، يجعلك أقوى..».

❁ ❁ ❁

ولهذا أقول: إنه أمر جيد.

ففي ثقافتنا الإسلامية وفكرنا الإسلامي مشاكل جمة.. وهي مشاكل أساسية ومفصلية و(غير طارئة)، بمعنى أنها نشأت وأخذت موضعاً داخل هذا الفكر منذ نشوئه أصلاً..

إنها جزء من هذا الفكر، بل إنها تسيطر عليه وتسيره في بعض الأحيان، وذلك كله جعل من صياح المفكرين والمثقفين المطالبين بالتجديد، يذهب أدراج الرياح، كهمسة في واد مقفر، مقابل سطوة المؤسسة الدينية التقليدية التي جعلت من نفسها وصية على الإسلام والقرآن وكل ما يمت لهما بصلة..

كانت المؤسسة بالمرصاد بمواجهة أي محاولة للتغيير.. وكانت محاولات التغيير تواجه - تقليدياً - بالتخوين والتكفير والتبديع، وكان ذلك يقطع على الفور الامتدادات الجماهيرية لأفكار التجديد والتغيير، ويحصرها ضمن إطار النخب وأبراجها العاجية.. ذلك كله لم يعد ممكناً الاستمرار فيه الآن، والسكين قد بلغت العظم.. والسرطان قد أعلن عن نفسه كما فعل..

ذلك كله فينا قبل أن يأتوا.. وقبل أن يعلن السرطان عن نفسه.

ذلك كله يجب أن يتوقف الآن.

إنه السرطان..

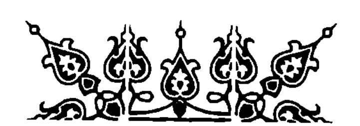
ومع السرطان لا بد من العلاج الجذري، خيار البتر والاستئصال يجب أن يكون قائماً..

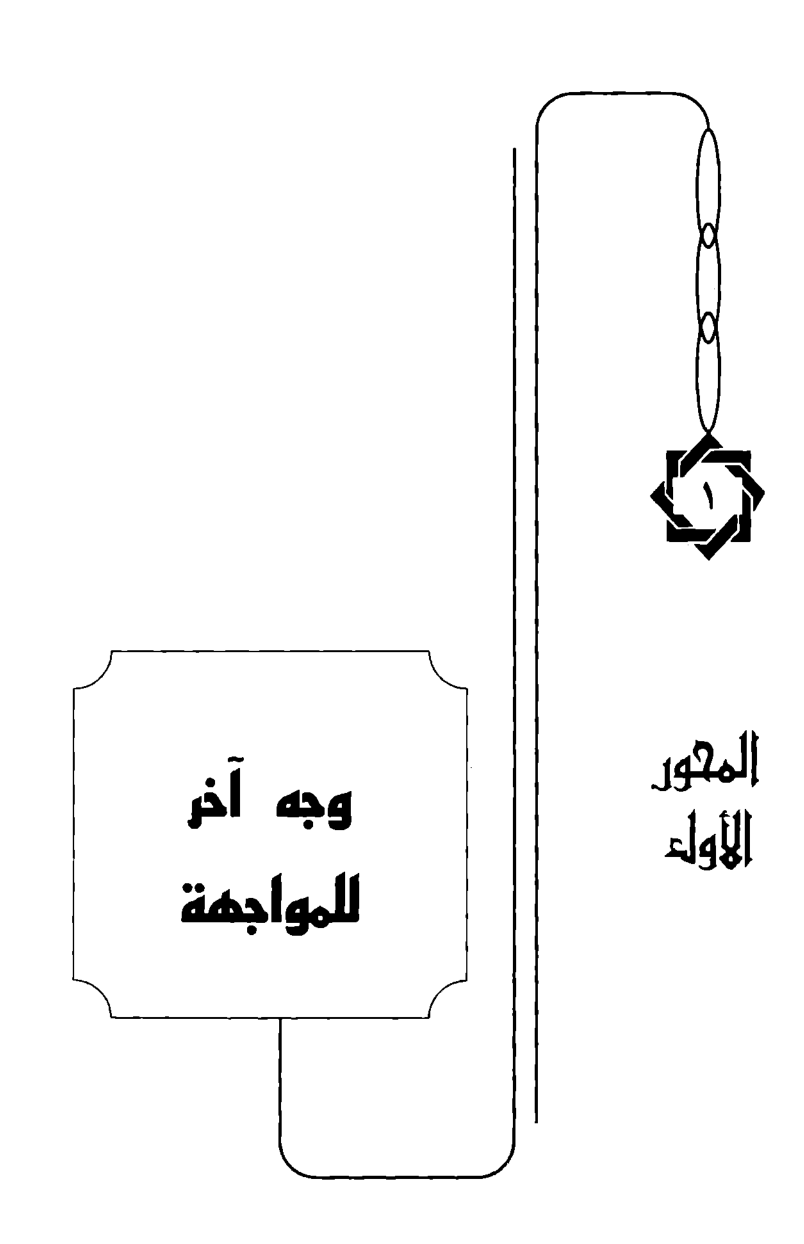
وخيار البحث عن بدائل يجب أن يكون موجوداً.

نعم إنه السرطان هذه المرة، وأجوبة التلفيق والتزويق والتخدير والترقيع التي اعتشنا عليها لن تجدي معه.. ولا بد من خيارات أخرى..

ولولا هذا السرطان لما شعرنا بالحاجة لذلك..

ولهذا أقول، بل وأصر: **إنه سرطان، وأيضاً إنه أمر جيد.**




١
المحور
الأول
وجه آخر
للمواجهة

الفصل الأول

دين جديد!

كان سقوط بغداد بأيدي القوات الأمريكية تاريخاً جديداً ومختلفاً تماماً عن كل ما سبق.

كانت لحظة السقوط بحد ذاتها حدثاً استثنائياً ونادراً جداً. ويمكن القول: إنها أرخت لتاريخ جديد أكثر مما افتتحت مرحلة تاريخية جديدة..

وكان مشهد السقوط حافلاً بالمعاني والرموز والدلالات. سيذكر ذلك التاريخ فيما بعد وسيكتب عنه المؤرخون لاحقاً، أنه كان الحدث الأهم في عصرنا الحالي ولفترة طويلة لاحقة.

كانت بغداد، في مشهد السقوط، تمثل رمزاً واضحاً لدولة الخلافة الزاهرة التي انتهت إلى ما انتهت إليه بالتدريج، إلى أن سقطت ذلك الصباح النيساني، ونقل سقوطها على رؤوس الأشهاد..

وكان التمثال يمثل كل أنظمة الاستبداد والقمع التي اعتاشت على الشعارات الفارغة، والفتاوي السلطانية، والتحالفات المريبة العابرة مع القوى الدولية..

وكانت قوات الاحتلال تمثل تلك الحضارة الأخرى، الحضارة الغازية التي جاءت لتقول، بوضوح شديد: **أنا ربكم الأعلى، ولا أريكم إلا ما أرى..**

كان ذلك واضحاً جداً، منذ القراءة الأولى لمشهد السقوط المدوي ذلك..

خلف تلك السطور الواضحة، كان هناك شيء آخر لم يكن بذلك الوضوح..

وكان في النهاية يمثل العنصر الأهم في المشهد كله..

كان عنصراً حقيقياً بعيداً عن الرموز والدلالات.. وكان هو العنصر الأهم في المشهد كله.

إنهم الناس!.

الناس هم العنصر الأهم في ذلك المشهد..

الناس الحقيقيون، الذين يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ناس الشوارع والمصانع والحقول والسجون والمستشفيات.. أولئك الذين يسكنون قلب الحقيقة لا أبراجها العاجية ولا رفوفها المنسية ومجلداتها التي يتكاثر عليها الغبار.

الناس!

وكان هناك محاولات مدروسة للترويج أن الناس في عمق المشهد وقلبه كانوا قد اتخذوا موقفاً واضحاً محدداً.. سواء مع قوات الاحتلال.. أو ضدها..

ولم يكن ذلك حقيقياً أبداً مع الجانبين.. إنما كان الجوهر الأهم في عمق المشهد هو مفترق الطريق الذي ارتسم بين ثنايا المشهد..

مفترق الطريق الذي يرمز للخيار الذي علينا أن نتبناه..

خيار آخر غير كل ما سبق مما أدى إلى ما أدى إليه.. ولكن، غير ما يقسروننا عليه أيضاً..

.. ولم يكن هناك توصيف معين لحالة الاختلاف تلك بين الترحيب بالمحتل والتنديد به. لم يكن الأمر صراعاً بين الشباب وكبار السن - كما قد يتبادر إلى الذهن عند الوهلة الأولى - فقد كان هناك من الكبار من انحاز إلى الاحتلال، وكان هناك من الشباب من وقف ضده..

ورغم أن الاختلاف، قد لبس أحياناً لبوس الطائفية البغيض، لهذا السبب أو ذاك، فإن المراقب الواعي سيتمكن من كشف هذا القناع.. فالحوار نفسه موجود داخل كل طائفة، وإن كان بصوت أقل ارتفاعاً، ونبرة أقل حدة.

ففي الطائفة التي وصفت عادة بأنها قاومت الاحتلال، كان هناك مرحبون سريون، وأيضاً علنيون، بالاحتلال، بل كان هناك مرحبون أصلاً سرعان ما تحولوا إلى مناهضين، بمجرد أنهم عرفوا أن الاحتلال سيقلب الطاولة عليهم، وعلى مكانة طائفتهم..

وكان هناك في الطائفة التي وصفت بأنها مرحبة بالاحتلال، أصوات منددة بالاحتلال وبقيمه، ومناهضة لشعاراته وزعاماته..

ورغم أن الحوار، في ظاهره، كان يدور على الاحتلال والموقف منه، إلا أنه فتح دفاتر وملفات طائفية مغرقة في تعصبها، من كلا الجانبين، أو على الأقل من طرف من كلا الجانبين، وكان هذان الطرفان، يتخذان من الاحتلال والموقف منه، عكازة وتكئة، لتصفية مواقف طائفية..

ولكن حقيقة الأمر في جوهره، أنه كان بعيداً عن الحوار الطائفي الساكن داخل صممه منذ قرون، كان جوهر المشهد مختلفاً جداً عن الشعارات، والأخبار العاجلة في الفضائيات وتصريحات السياسيين..

❊ ❊ ❊

وفي لحظة تاريخية عاصفة كالتي نمر بها، على فدائي الفكر أن يخرج من عنق الطائفية وقفصها الضيق، ويبتعد عن إطار ردود الأفعال وكتب الجدال والجدل المضاد، ليرى الأمر من زاوية أكثر شمولية..

في لحظة تاريخية كهذه، علينا أن ننسل من تلك التفاصيل الصغيرة التي تحكمنا وتشوش علينا رؤية الجوهر الأعمق..

في لحظة تاريخية كهذه، وأمريكا قد عبرت المحيطات والقارات وجاءت إلينا بقضها وقضيضها، فإن على الفكر الحقيقي أن يقتحم جوهر الحقيقة، مهما بدا ذلك نشازاً عن جوقة المنددين والمؤيدين..

الفكر الحقيقي، لن يقدم باقة ورود ورياحين للغازي المحتل ولقيمه ومشاريعه، لكنه في الوقت نفسه، **ليس حزاماً ناسفاً يتوسط خصر شاب كان يمكن أن يبني في حياته مجتمعاً آخر**.. وهذا الفكر، بالتأكيد، ليس فكر الجدل الطائفي المقيت والفكر التقليدي الذي اعتاشت مجتمعاتنا على فُتاته من بدء عصور الانحلال حتى اليوم..

.. الفكر الحقيقي عليه أن يواجه الحقيقة بشكل مختلف، بشكل جذري، بشكل حقيقي.. بشكل عميق.

(وقد نجد أن هذا العمق، يتناقض ويتعارض مع السطح المرئي، قد نجد أن الجمل التي بين السطور، تقول شيئاً آخر غير السطور نفسها..).

❊ ❊ ❊

كان أكثر ما استوقفني، وأنا أراقب وأحلل حوارات الناس وجدلهم، أن هناك فئة واسعة، كانت قد تجاوزت مسألة تقبل الاحتلال - حتى الترحيب به - إلى حدود أخرى، **تصل إلى الولع والتوله بكل ما هو أمريكي**..

كانت هذه الفئة، تتركز خصوصاً في أصحاب الشهادات

والاختصاصات العلمية العالية، وبمعزل عن الانتماء الطائفي والعرقي الذي يحكم مسبقاً على أي منهم؛ فيضع واحداً في خانة الترحيب والتهليل، والآخر في خانة التنديد والمقاومة. لكن ولعهم هذا كان فوق كل انتماء طائفي أو قومي.. كان ولعاً عابراً للانتماءات..

وأستطيع أن أقول أن هذا الولع، كان يشكل أيضاً انتماء بطريقة ما..

❁ ❁ ❁

في البداية، تعاملت مع الأمر على أنه سلوك المغلوب أمام الغالب، أي كما سيتعامل أي مغلوب أمام أي غالب، كظاهرة حضارية معروفة ومشخصة، منذ عصر ابن خلدون على الأقل، والذي راقب وحلل ما نراه اليوم، من سلوكيات النفسية المهزومة التي تعبر عن نفسها في مظاهر شتى، مثل ارتداء الملابس التي يرتديها المنتصر، وتبني لكنته، وانتشار تسريحات الشعر المميزة له..

ذلك كله رآه ابن خلدون، ورأيناه نحن، وسيراه أي **مراقب لأي مهزوم أمام أي منتصر..**

ولأن تقليد المظاهر، هو مجرد سلوك سطحي يخفي وراءه دوافع وحوافز عميقة.. فقد لاحظت أن الأمر أعمق حتى مما يبدو للوهلة الأولى..

كان الأمر أعقد بكثير من مجرد فخ هزيمة نفسية يسقط فيها المهزوم بشكل عابر أو غير عابر..

كان في الأمر هذا التقليد الذي شخصه ابن خلدون، بما كان فيه من بعض المازوشية تجاه المنتصر السادي..

.. لكن، حتى هذا كان سيبقى قاصراً عن عمق الأمر..

❁ ❁ ❁

كان أول ما شدني إلى عمق الظاهرة، أنها لم تقتصر على من كانت مظاهرهم توحي بأنهم سيرحبون بالاحتلال، أي إنهم ليسوا ممن تعودنا على وصفهم بالمتأمركين مظهراً..

على العكس من هذا، كان هناك، عبر النقاش، والحوار الأصم، مظاهر لتدين، حجاب ولحى.. (وكان هناك أيضاً مظاهر تأمرك طبعاً) لكن كلها اصطفت معاً، في التأييد للاحتلال.. وكانت مظاهر التدين هذه، غير خالية من التزام حقيقي بالشعائر والعبادات، أي إن الحجاب هنا، لم يكن مجرد **غطاء للشعر**، كما أنه لم ينتج عن واقع اجتماعي فرض قسراً، بل حدث طوعاً ورغبة في التقرب إلى الله سبحانه وتعالى..

كذلك الأمر مع بقية مظاهر التدين.. لم يكن أي منها قسراً..

❊ ❊ ❊

- وقبل أن يتبادر أي تفسير طائفي يصنف المتدينين في طائفة معينة، ويلقي بعبء التفسير على مشجب الطائفية، أحب أن أشير إلى أن الأمر لا علاقة له بطائفة بعينها، فقد رأيت وسمعت من الجميع.

.. وعندما يكون الأمر هكذا عند بعض نخب المتدينين، فإنك تعلم حتماً أنه أوضح عند من هم غير المتدينين، من النخب نفسها.

❊ ❊ ❊

سيكون هناك كلام جميل عن الديمقراطية وفرصتها السانحة، وآخر عن الحرية، وكلام أجمل عن حقوق الإنسان، وكل هذا جميل لا يمكن لأحد أن يشكك في شرعيته وشرعية المطالبة به، لكن مع مرور الوقت، ستكتشف أن هذه العبارات شيء، والترحيب بأمريكا وبمشاريعها شيء آخر، صحيح أن الترحيب بأمريكا يتكئ على تلك الشعارات، لكن تخلي أمريكا عن هذه الشعارات أو تطبيقها لم يكن يدفعهم للتخلي عن أمريكا،

إنما إلى إيجاد التبريرات، والمناورات، والمقارنات، التي ستجعلهم متمسكين بأمريكا.

كانت علاقتهم بأمريكا، في عمقها وجوهرها، بعيدة عن تلك الشعارات، بعيدة عن ذلك المنطق..

❊ ❊ ❊

أشدد أنهم ليسوا خونة أو عملاء، كما تعودنا أن نرمي كل من يخالفنا في هذه الأمور تحديداً.

أشدد أنهم - في معظمهم - وطنيون على طريقتهم، وأنهم - على الأغلب - لم يتعاملوا قط مع أي أجنبي محتل - على الأقل لم يتعاملوا وجهاً لوجه - بغض النظر عن رغبتهم في ذلك...

وأكرر أنهم متدينون، وأن مظاهر بعضهم أبعد ما تكون عن التأمرك التقليدي، وأنهم أقرب في بعض الأحيان، إلى مظاهر التدين التقليدي..

ولكن مع ذلك، وعلى الرغم من ذلك، تراهم يقفون مع المشروع الأمريكي.. أقر هنا أنني لا أعرف رقماً إحصائياً محدداً يوضح حجمهم الحقيقي، ونسبتهم إلى بقية قطاعات الشعب.. لكنني أعرف أن (وزنهم النوعي) هو المهم، وليس حجمهم الإحصائي؛ فهؤلاء يمثلون قطاعاً واسعاً بشكل محسوس من الطبقة الوسطى، أي من الطبقة الفاعلة اجتماعياً، والتي يعول عليها في التنمية...

إذن، وزنهم النوعي لا يتحدد بعددهم الإحصائي، إنهم (النخب) التي تمارس دوراً إضافياً عبر التأثير في الطبقات الأدنى ثقافياً وتعليمياً، والتي ستقلد بدورها هذه النخب في تطلعاتها وطروحاتها...

وأستطيع أن أؤكد، أن حجم هؤلاء المرحبين، ضمن النخب المثقفة، كان واسعاً، دون التورط بأرقام غير دقيقة.

وأستطيع أن أؤكد، أن الأمر بالنسبة إلى هؤلاء كان أبعد وأعمق بكثير من أن يكون قد بدأ مع بداية الاحتلال. كانت أمريكا قد دخلت رؤوسهم منذ زمن بعيد، بعيد جداً، وسارت فيهم مسار الدم، ولم يعد بالإمكان التمييز بين ما ورد طارئاً من أمريكا، وما كان موروثاً أصيلاً فيهم.

نعم، دخلت أمريكا إلى هناك، قبل أن تدخل إلى أي مكان آخر، الثغرة التي فتحتها أمريكا في أسوار عاصمة الخلافة، كانت قد أحدثتها أصلاً في رؤوس هؤلاء (ورؤوس غيرهم أيضاً..)

من هناك، وقبل وقت طويل جداً من التدخل العسكري، والاحتلال المباشر، جاءت أمريكا إلى هؤلاء، رمزاً للقوة والنجاح، رمزاً للسعادة والعيش الرغد، رمزاً للهيمنة والسطوة، رمزاً لكل ما يتمناه المرء، وللوصول إلى القمة، ولو عبر الانطلاق من القاع.

وكانت أميركا رمزاً لكل هذا، دخلت عبر كل هذا، عبر إعلامها الأخطبوطي وشاشته الفضية، وسحر الأضواء الساطعة وجاذبية البريق اللامع..

وبغض النظر عن مصداقية هذا الرمز أو زيفه، فإن أمريكا تماهت مع صورتها الإعلامية في عقول هؤلاء، (وعقول غيرهم ممن يجهلون ذلك) ولم يعد بالإمكان التمييز بين حقيقة أمريكا، وصورتها المنعكسة - بل المتجذرة - في الأذهان.

لم يعد بالإمكان التمييز بين أمريكا كما هي، وأمريكا كما يروج لها (ليس عندنا فقط بل حتى عندهم فالإعلام الأخطبوطي يُمارس دورها هناك أيضاً..)

صار نمط الحياة الأمريكية، بكل ما فيه من نجاح، وزهو، وبريق، واستمتاع بالحياة، هو النمط الذي نريده لحياتنا..

لقد رضعنا ذلك منذ طفولتنا، وسار فينا دون أن نشعر، وعندما شعرنا، فقد قمنا ببعض الإضافات على هذا النمط، ووضعنا شعارات عريضة تضيف صبغة إسلامية للجوهر الأمريكي...

لقد أخذنا ذلك النمط أُنموذجاً لما نريد لحياتنا أن تكون، لقد أخذنا (أمريكا)، هضمناها، دون أن ندري..

من هناك، بدأ الأمر.

❀ ❀ ❀

مقابل تلك الصورة الزاهية، كان هناك واقع بغيض زاد من بريق الصورة الأولى.

كان هناك الاستبداد البغيض، بأدواته وأساليبه المنتمية إلى عصور الانحطاط، وأنظمة حكم شمولية تنافس الديناصورات في استعدادها للانقراض، وكان هناك إخفاق تنموي لا منافس له، وفشل لا يجارى على كافة الأصعدة، ونسبة أمية عالية في أمة كانت القراءة أول فرض في الدين الذي أسسها، وكان هناك جمود ديني على لحظة جمعت بين التخلف والتشدد والخرافة والاستبداد، كله في لقطة واحدة.

وكان هناك، فوق هذا كله، الفقر، والحاجة، والعوز، وقمع القابليات، وضياع المواهب، ومحاربة الإبداع والتجديد..

كان هناك في الواقع، فرد مقموع، ومهزوم، ومكبوت... والمكبوت المقموع فيه لم يكن محض رغبات جسدية أو مادية، بل حقيقته الداخلية كلها، طاقته الإنسانية كلها كانت قد قمعت وكبتت عبر هذا الواقع..

ومقابل هذا الواقع البائس المحبط، كانت هناك تلك الصورة البرّاقة الزاهية، لن يحدث فرقاً كبيراً كونُها حقيقة أو مزيفة.. فقد كانت مجرد مقارنتها بالواقع المحبط يمنحها قوة الحقيقة.

والمواجهة بين تلك الصورة الزاهية، وذلك الواقع المحبط كانت محسومة سلفاً.

كانهذا هو ما حدث بالضبط في رؤوسنا.. وأدى إلى فتح تلك الثغرة في الأسوار.

كان هذا هو الموجز.

وقد رأيتم، بالبث المباشر، التفاصيل.

❁ ❁ ❁

هذه هي أمريكا، **(نمط الحياة، ونموذج الحرية والنجاح والسعادة)** التي جاءت إلينا، ودخلت في رؤوسنا قبل أن تأتي قاذفاتها وبوارجها وطائراتها.. وتدخل أراضينا.. وبطريقة لا شعورية تماماً، وجد الكثيرون أنفسهم أمام واقع جديد، بشعارات جديدة وبراقة وزاهية تداعب تلك الصور التي وضعناها أمام ذلك الواقع، وجدوا أن مشروع الاحتلال قد يحقق أحلامهم التي طالما دفنها ذلك الواقع الكئيب.

أقول: إنهم ليسوا خونة ولا عملاء...

لكن أمريكا تمثل كل قيم النجاح والتفوق التي يريدونها لأنفسهم ولبلادهم أيضاً... كانوا يريدون لهذا الحلم الأمريكي الذي سكن رؤوس غيرهم أن يتحقق، وربما بعضهم قرر أن يدخل بعض التعديلات، ويضيف بعض الرتوش، لكن مقاييس النجاح والتميز والتفوق كانت قد غرست فيهم، وشكلت رؤاهم وآفاقهم...

لم يكونوا يحبون أمريكا أكثر مما يحبون بلادهم.. لكنهم آمنوا تماماً أن أفضل حب لبلادهم، هو أن تنجح التجربة الأمريكية.. أن يتحقق نموذج النجاح الأمريكي بكل بريقه وزهوه على أرض أوطانهم..

بعضهم كان يريد ذلك بلا تحفظ. وبعضهم كان سيدخل بعض التحفظات.. ويجري بعض التعديلات.. لكن النموذج والنمط الأمريكي، كانا سيكونان هناك، في النخاع..

الرقم واحد!

يؤمن الأمريكيون، ضمن ما يؤمنون به، أن أمريكا هي الدولة الأعظم في العالم، وأنها الرقم واحد، NO.1، مدعومين بمقومات قوة حقيقية، اقتصادية وعسكرية، واستقرار اجتماعي واضح المعالم منذ نهاية الحرب الأهلية..

هذا الإيمان بالتميز الأمريكي (American exceptionalism) ـ أو الاستثناء الأمريكي[1] ـ هو أكثر من مجرد روح وطنية واعتزاز من المواطنين ببلدهم، بل هو أيديولوجية رأت النور منذ أواسط القرن التاسع عشر، متأثرة خصوصاً بالقفزات الاقتصادية السريعة التي شهدتها الولايات المتحدة منذ إعلان الاستقلال.. وبخصوصية الحرية الفردية والليبرالية والديمقراطية التي ميزت التجربة الأمريكية ككل.

لم يكن الإيمان بالتميز الأمريكي يشابه أيديولوجية قومية أو عرقية؛

---

(١) تعبير الاستثناء الأمريكي american exceptionalism استخدم للمرة الأولى من قبل توكوفيل في القرن التاسع عشر في كتابه (الديمقراطية في أميركا) democracy in america وقد تحول التعبير مع الوقت ليصير جزءاً من الأساطير الحضارية cultural mythos التي تشكل جزءاً من الذهنية الواعية واللاواعية عند عامة الناس.

للمزيد:

1: American Exceptionalism, Wikipedia free encyclopedia

2: American Exceptionalism: A Double - Edged Sword by: lipset, Seymour M Publisher. incorporated, company & norton, W.W.

لقد كان إيماناً بمجموعة من الصفات والخصائص منحت التميز للتجربة الأمريكية وجعلتها استثناء بين التجارب الحضارية الأخرى.

.. ومن حق الأمريكيين - طبعاً - أن يؤمنوا ببلدهم، وبالقيم التي تمثلها أمريكا، ليس لأن ذلك يمتلك مقومات الصواب أو لا يمتلكها، بل لأن هذا الأمر ليس استثناء أو بدعاً في تاريخ البشرية؛ ففي أحيان كثيرة، وبعضها غير بعيدة عن أذهاننا، كانت الأيديولوجية القومية تسود وتقود، وكان شعب معين يؤمن أن (بلداً معيناً) فوق الجميع، وكان ذلك يوظف عادة من قبل الشركات الرأسمالية ليشعل فتيل حرب هنا أو هناك. حدث ذلك مع ألمانية مثلاً في أوروبة، ومع اليابان في آسية.

إذن ليس الأمر بدعاً غريباً في التاريخ الحديث، أو القديم.

الغريب والفريد في الأمر، ليس أن الأمريكيين آمنوا بأمريكا؛ فذلك من حقهم أولاً، وهو ليس بدعةً تاريخية ثانياً، لكن الأمر المثير في ذلك الاستثناء الأمريكي American exceptionalism أنه تجاوز الأمريكيين إلى غيرهم.. وصار هناك الملايين، بل ربما مئات الملايين من البشر، في العالم كله على اختلاف أعراقهم وألوانهم وقومياتهم، وعلى اختلاف لغاتهم وأديانهم وثقافاتهم المحلية.. كلهم يؤمنون **بذلك الاستثناء الأمريكي... والتميز الأمريكي.**

كلهم يؤمنون بأمريكا، وإن لم يروها حقاً، وإن لم يطؤوها بأقدامهم.. حتى لولم يكونوا يتقنون لغتها. مئات الملايين من غير الأمريكيين، يؤمنون بأمريكا، يؤمنون بها حقاً، وبأنها هي الأولى في هذا العالم.. حتى لو كانوا يقولون غير ذلك.. وحتى لوكانوا لا يدركون ذلك. وهذا أمر، أستطيع أن أدعي أنه لم يكن موجوداً لهذا الحد مع إيمان الألمان بألمانيتهم أو اليابانيين بيابانيتهم .**نعم على الأقل لم يحدث أن آمن الناس، ببلد آخر غير بلدهم، كما فعلوا مع أمريكا..**

وهذا يجعل من هذا الإيمان أمراً يستحق النظر والتأمل، فهو هنا ليس أيديولوجية قومية - عرقية كما مع كل الأيديولوجيات القومية الأخرى. إنه ليس إيمان الأفراد ببلدهم، أو بحضارتهم، أو بوطنهم وتجربته الخاصة، بل هو إيمان بتجربة الآخر، وبتميزه، وبتفوقه، وبانتصاره وانتصار قيمه.. وهذا كله يضع المعتنق لهذا الإيمان، في خانة مستلبة، خاضعة، ودونية، وإيمان كهذا، ليس من الأيديولوجية في شيء.

وعلى عكس الأيديولوجيات التي تعتمد على المناظرة والبراهين العقلية، فإن الإيمان بأمريكا يعتمد على (صور ذهنية) راسخة تقدم (الإبهار الحسي) بديلاً عن كل جدل الأيديولوجيات التي قامت، والتي يمكن أن تقوم في هذا العالم.

الإبهار، هو هذه اللغة التي قدمتها أمريكا إلى المؤمنين.. كان إيمانهم قد بني على هذا الانبهار..

بهذا فإن الانبهار بأمريكا، هو عقيدة فيها من الحس والعاطفة، أكثر مما فيها من المنطق والجدل.. بل إنها تعتمد على (الإبهار الحسي) عبر تلك الصور الذهنية لتحسم أي جدل، وتنهي أي خلاف..



المعجزة الأمريكية

يشبه ذلك - كثيراً - دور المعجزات في الأديان التقليدية، أديانِ ما قبل الإسلام، حيث كانت المعجزة تؤدي دوراً حاسماً وقاطعاً في إنهاء (الجدل).

كانت المعجزة، بطبيعتها الحسية، تقدم (إبهاراً) يعجز القدرات الحسية للفرد... ويقضي على كل قدرة للجدل أو الرفض أو المساومة.

كانت المعجزة تحسم الأمر.. (وكان ذلك مع كل الأديان التقليدية إلى أن جاء الإسلام بمعجزته التي تعتمد على إيقاظ العقل وقيامته بدلاً من إعجازه وإسكاته..)

كذلك الأمر مع أمريكا، إنها تقدم صوراً وانعكاسات لها، تنشرها في العالم كله عبر إعلامها الأخطبوطي، وتتسرب هذه الصور بالتدريج بالتسلل إلى الرؤوس لتحتلها وتسيطر عليها، وتصبح متجذرة وراسخة في الأذهان.. وهذه الصور تقوم بدور المعجزة، إنها صور مبهرة، تعكس ذلك النجاح والتفوق والمتعة التي تمثل نمط الحياة الأمريكي..

وعندما يكون الواقع حولك محبطاً وكئيباً، فإن تلك الصور الذهنية، مع كل الإبهار المحتوى في داخلها، ستكون أكثر إبهاراً.. وأكثر إعجازاً.. ولن يمكنك إلا أن ترفع رايتك البيضاء مستسلماً، كما كان يفعل كل المتلقين أمام المعجزات في أديان ما قبل القرآن.

۞ ۞ ۞

وكما في كل الأديان، كانت المعجزة باباً نحوَ الإيمان بمجموعة من المعتقدات والمبادئ والقيم.. يعتنقها المؤمنون دون جدل أو شك؛ لأنهم سبق ورفعوا الراية البيضاء أمام المعجزة، كذلك الأمر مع أمريكا، صورها الذهنية المعجزة هي المعبر نحو حزمة من القيم والمبادئ، تتسرب بالتدريج، متسلحة بقوة الإعجاز، ومتقوية بذلك الواقع المحبط المحيط..

نعم، إنه دين جديد، يستشري كالوباء في العالم كله، ليس أيديولوجية، ولا فلسفة، ولا مذهباً فكرياً.. إنه دين جديد، بكل ما يمتلك الدين من إبهار، بكل ما يمتلك الدين من قوة، بكل ما يمثل من قيم تتجسد في نمط الحياة..

نعم، دين جديد هو، وسواء أسميناه العولمة أو الأمركة، أو نمط الحياة الأمريكية[١]، فإنه يؤثر كما تؤثر الأديان يوم انتشارها الأول.. إنه يقتحم الرؤوس، ويقتحم العقول، يقتحم البيوت، يفرق الأخ عن أخيه، والأب عن أولاده، والزوج عن زوجته.

إنها أمريكا، دين جديد وقد جاء ليغزو العالم كله..

شاء من شاء، وأبى من أبى...

والفرق الأساس بين هذا الدين الجديد، وكل الأديان الأخرى، أنه لا يخوض معارك معها، ولا يصطدم بها، ولا يظهر معارضة واضحة أو تناقضاً صارخاً حاداً معها؛ إنه يتقدم ببطء، ويظهر تكيفاً مع شعاراتها، لكنه بالتدريج، وبهدوء شديد، وربما دون أن يلاحظ أحد فإنه يقوم بسحب البساط من تحت الأديان القديمة، إنه يفرغها من محتواها القيمي والمعنوي ليستبدل بها قيمه (هو) ومبادئه (هو)، تستمر دور العبادة التقليدية في فتح أبوابها في استقبال المؤمنين، يستمر وجود الشعائر والطقوس.. فالدين الجديد لا يعتمد إلغاء الأديان السابقة، بل يحاول أن يتعايش معها ويتداخل معها، ليحور ويعدل معها بالشكل الذي يناسبه..

إنه لا يقاومها علناً أبداً، بل يحاول أن يركَبَها، أن يمتطيها، أن يقودها إلى أين يريد..

هذا هو الدين الجديد.



(١) أحب أن أشير هنا إلى أنني لم أبتدع هذا القول؛ فقد سبق أن قيل، ومن قبل الكثير من المفكرين، ومنذ خمسينات القرن الماضي، إن أمريكا، أو نمط الحياة الأمريكية، هي دين. كمثال: George Monbiot و America is a reliogion
The Guardian Tuesday July 29, 2003.
http:// www. quardian. co. uk / comment / story / 0$$3604, 1007741, 00. html

ولكي لا يساء فهم هذا المصطلح، أعلن أن لا علاقة له بأحكام التكفير، لا لأن الدين الجديد له معنى مجازي، بل لأن (التكفير) يصدر عن منهج مختلف، وينطق بلغة مختلفة، ويبث بترددات مختلفة وعلى موجات مختلفة. لا علاقة لهذا بذلك، وأترك أمر الكفر والإيمان لذلك الذي يعلم وحده ما في الصدور..

وأصر أنه دين جديد.

لنتابع تلك الصور الذهنية التي زرعت في عقولنا منذ نشأة عقولنا؛ تلك الصور التي عكست قدرة أمريكا وإعجازها لنا، بالضبط كما عكست ضعف واقعنا، وانبهارنا بها..

ما هي هذه الصور التي لعبت دور المعجزة في نشأة عقولنا؟

ناطحة السحاب!

مخيلتنا ستشتعل بمجرد الاسم، وسيكون الاسم مليئاً بالدلالات. لقد انتصروا على الأرض وقهروا كل من فيها، وها هم أولاء **يتناطحون في السماء.**

ستظل تنظر إليها وعيناك مفتوحتان على اتساعهما، ستحاول عد الطوابق عبثاً، ولن تستطيع الإكمال.. سيتلاشى الأفق قبل أن تنتهي تلك الطوابق، وسيتكرس في ذهنك أن هؤلاء البشر الذين تناطحوا مع السحاب، وسكنوا قربه، لا بد أن يكونوا من طينة أخرى، من عرق آخر، من حضارة أرقى.. إنهم (فوق).. قرب السحاب، وعنوانهم الحقيقي هناك، وهذا يدل على علو مكانتهم..

ستكرس صورة ناطحة السحاب وعلوها الشاهق ذلك في نفسك، وستلمع تلك الأضواء المنبعثة منها لتطرز ليل أمريكا بالغرف المضيئة

المعلقة في السحاب، وسيجعلك ذلك تعتقد أن لا ليل هناك في أمريكا.. ولا ظلام..!

حتى الظلمة عندهم مختلفة، ستقول في نفسك..

تمثال الحرية!

قبل أن تفهم معنى الحرية، ستعرف أن هذا هو تمثالها، وهو يطل على المحيط كما لو كان يشرف على العالم بأسره ليخبره أن الحرية ها هنا، سيكون تمثال الحرية هناك، مستقبلاً المهاجرين إلى العالم الجديد، ليبدل أفكارهم، ويقدم لهم رؤيته ونسخة عن (الحرية).. وأنت تحب الحرية، بل أنت مجبول عليها، فقد ولدتك أمك حراً، وتمثال الحرية سيصب لك قالباً عن فكرته عن الحرية، باعتبارها القالب الوحيد، وستقسر نفسك على إدخال رأسك في هذا القالب، لأنك لا تعرف قالباً أكثر ضخامة ويطل على العالم، كما يفعل هذا التمثال..

الشاطئ في كاليفورنيا..!

والربيع الدائم في كل فصول السنة، والناس يلعبون ويمرحون، حتى عريهم بريء وغير ملفت للنظر؛ كعري الأطفال.. والأمواج تضرب الساحل بقوة وعنفوان، لكنها لا تبدو عدوانية على الإطلاق، والناس لا يبدون خائفين منها.. بل إنهم روضوها كما هو واضح، ها هم أولاء يركبون الأمواج ويتزحلقون عليها.. ويبدو ذلك ممتعاً جداً. أليس ذلك معجزة؟ ألم يكن المشي على الماء معجزة في يوم ما؟

ها هم أولاء يفعلونها بشكل طبيعي جداً. لقد صار كل منهم يؤدي المعجزة بشكل عادي جداً.. لا بد أنهم يستحقون ما حصلوا عليه، لا بد أنهم (أفضل).. ستغرقك تلك الفكرة بينما يغمر وجهك الرذاذ المتناثر من الموجة الأخيرة.

الوصول إلى القمر!

العَلَمُ الأمريكي يرفرف، بينما الإنسان يخطو أولى خطواته على سطح القمر. كان حلم الإنسانية قبلها طيراناً محضاً، التحليق ضمن نطاق ارتفاعات معقولة فقط كما تحلق الطيور.

انظروا إلى الفرق الشاسع بين طموحات الإنسانية، وما فعلته أمريكا. انظروا إلى تلك الصورة؛ أول خطوة على سطح القمر، والعلم الأمريكي يرفرف.

ستبدو كل تلك المحاولات السابقة مضحكة ومثيرة للشفقة، تلك المحاولات التي نفخر بها عادة، والتي انتهت بتحطيم رؤوس أصحابها ستكون هباءً لا يقارن بتلك الصورة. سيكون الفشل مقابل النجاح، والخيبة أمام التفوق، وسيلمع العلم الأمريكي في خيالك، بينما هو يغلف بظله المشهد بأكمله.

الحيوية في الشوارع، الناس وهم يتراكضون ويتدفقون حيوية ونشاطاً. أسواق المال في (وول ستريت) والصراخ من أفواه عملاء البورصة الأنيقين رغم انشغالهم، (المترو) والناس يدخلون إليه ويخرجون منه. الـ Rush hour. إجازات نهاية الأسبوع؛ الـ Weekends. جمهور البيسبول وهياج النصر.. فتيات التشجيع وملابسهن المميزة وحركاتهن المتقنة. المذيعان وهما يتحاوران تعليقاً على المباراة. (البوب كورن) خلال ذلك كله. المطاعم السريعة للأكلات الجاهزة، و(البيتزا) تطلبها عبر الهاتف فيوصلها لك بعد دقائق - ساخنة كما طلبت - الـ Delivery boy الوسيم الذي يدرس في الجامعة ويعمل ليسد نفقات دراسته. القهوة السريعة من الماكنة. وكذلك علبة الصودا التي تفضلها. الشوارع ليلاً والأضواء الساطعة قد قلبتها نهاراً، وأضواء المرقص تتوهج لتذكرك بكل ما تتهرب

منه، والوجوه التي تضربها الأضواء الساطعة تذكرك بأنها لأفراد أحرار وقادرين على الاستمتاع بالحياة وفعل ما يريدون، الألعاب النارية تضيء الليل في يوم الاستقلال..

كل ذلك وأكثر.

الأطول.. الأكبر... الأول!

أطول جسر في العالم. (أكبر كاتدرائية في العالم). (أعلى) ناطحة سحاب في العالم. أكبر (شلال) في العالم، وأضخم (متحف) في العالم، وأطول (طرق خارجية). (وأكبر مطار) في العالم.

الأول، الأكبر، الأضخم، الأطول، كلها ستجمعها أمريكا بشغف. قد تحاول بعض الدول أن تأخذ هذا اللقب أو ذاك لفترة، لكنها لن تأخذ المعنى الذي تأخذه أمريكا من تلك الألقاب، من (الأضخم والأكبر والأعلى).

أمريكا هي الرقم واحد..

ولن يفرق معها كثيراً أن تكون هناك بعض طوابق أعلى (متعمدة) في مكان آخر في العالم..

هي الرقم واحد، وبفارق كبير عن كل ما يليها.

إنها الأولى... بلا منازع.

أكبر متجر في العالم!

... وطبعاً فيها أكبر متجر في العالم، وربما أكبر عشر متاجر في العالم، بل إن أمريكا كلها ستبدو لك كما لو كانت متجراً ضخماً مع مساحات استراحة صغيرة بين قسم وآخر.

إنه Mall of America، وأمريكا كلها قد تحولت لتصير هذا (المول)، إنه بطريقة ما رمز لحريتك في الاختيار.. اختيار ماذا؟ اختيار السلع طبعاً. سيكون هنالك كل ما لم يخطر على قلب بشر ولا رأت عين إنسان. سيكون هناك سلع من كل الأحجام والأنواع والألوان والاستخدامات؛ سلع تحتاجها، وأخرى لن تحتاجها. وستقضي يومك بأكمله وأنت تتسكع في أرجاء (المول) دون أن توفيه حقه، ستحتاج إلى أن تحتاج قليلاً في (الكافيتريا)، وربما ستترك أولادك في ملعب الأطفال الموجود ضمن (المول)، والمهم ألا تنسيك السلع أطفالك كلهم لأنها تكاد تفعل! أو المهم أن تجد لهم مكاناً في السيارة؛ لأن مشترياتك قد تملؤها. تستطيع أن تنام.. أو تقضي حوائج أخرى بينما أنت في (المول)، ففيه غرف معدة لذلك، كذلك تستطيع أنت وزوجتك أن تواعدا أصحابكما هنا، بل تستطيع أن تمارس رياضة الهرولة إن أحببت، في مكان مخصص لذلك...

إنه Mall of America ، وأمريكا كلها تبدو (مولاً) كبيراً.. تتخلله بعض الاستراحات الإعلانية!



ديزني لاند!

.. والطفل الذي داخلك لم يكبر أبداً، ولا تزال تلك الصورة تنشب في خيالك، وتنشب أيضاً في خيال أطفالك...

ستكبر أنت وتشيب، وستظل تلك الصورة الملونة الزاهية مطبوعة في ذهنك، صورة الميكيماوس ورفيقته، والبالونات الملونة، والأقزام السبعة. ومن بعيد يبدو قصر أسطوري سكانه سكنوا خيالك قبل أن يسكنوا القصر...

ستخرج كل تلك الشخصيات الكرتونية التي كونت خيالك في طفولتك من مكانها داخل الشاشة وداخل ذكرياتك، لتتجسد بشكل حقيقي على أرض الواقع في (ديزني لاند)... ستظل تلك الصورة تمسك بك من تلابيبك، وتأخذك في رحلة تجمع بين الإثارة والرعب والمتعة، كلها في آن واحد، في عربات الـ Roller Coaster، سيدور الزمان دورات عديدة، وستظل أنت حبيساً داخل دولاب الهواء العملاق.. وستظل فكرتك عن أمريكا متماهية مع لقطة الأطفال الذين يفيضون مرحاً وسعادة..

لن تصدق أن هناك طفلاً يبكي هناك.

لن تصدق أن هناك بكاء في أمريكا.

ما معنى (بكاء) أصلاً؟

هوليوود!

وذلك الجبل الصخري الشامخ، وتلك الأحرف البارزة فيه - والتي تشكل كلمة (هوليوود) - كما لو كانت تقول: إن أمريكا وجبروتها وصخرتها الحقيقية ها هنا، في (هوليوود)، في ذلك السحر المنبعث من الشاشة الذي طالما اجتذبك منذ بواكير طفولتك وأوائل تكون شخصيتك... (هوليوود)، وتلك الأستديوهات الضخمة التي أنتجت أفلاماً أشعلت مخيلتك، وحددت آفاق خيالك، ووضعت لك إطاراً لا تتصور نفسك خارجه، ومنذ الفيلم الأول الذي شاهدته، سواء كان فيلماً من أفلام ديزني، أو من أفلام الحركة والمطاردات، أو من أفلام الخيال العلمي والكائنات الفضائية، أو فيلماً مثيراً من أفلام الرعب والتشويق، أو مجرد فيلم رومانسي، فإن ذلك كله ترك بصمةً عليك، بل إنه قد اقتنصك وأنت (مبهور)، وصورك وأنت فاغر فمك من الدهشة والإعجاب، وسواء نسيت الفيلم وأبطاله وقصته ودعاباته، أو تذكرتها،

فإن المشهد الذي سيبقى في الأعماق هو مشهدك أنت بينما الإعجاب يطفح من خيالك... لقد اقتنصتك (هوليوود) في هذه اللقطة، واستثمرتها كرأس مال أمريكي لا ينضب، بل يزيد ربحه دائماً...

(هوليوود) و(بيفرلي هيلز) وتلك الربوة العالية التي ينزل إليها نجوم السماء ليسكنوا الأرض، ستنظر بدهشة إلى تلك البيوت الفارهة حيث تحدث تلك العلاقات الغرامية والخيانات والطلاقات التي تتابع أخبارها بشغف (رغم إعلانك الاستنكار أحياناً للانحطاط الأخلاقي الذي يدور هناك)... ستنقل لك الصحف أحياناً أن هؤلاء النجوم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وتعزز ذلك بصورهم بينما يفعلون ذلك، وسيزيد ذلك من انبهارك بهم وقد كنت تعتقد أنهم لا يتصرفون كما يفعل البشر العاديون من أمثالك...

(هوليوود). (بيفرلي هيلز). أضواء فوكس القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين، زئير الأسد الهصور في (مترو) جولدن ماير...

كل تلك علامات في حياتك الشخصية، كلها علامات فارقة في هويتك الشخصية.. إنها ألصق بك من علاماتك الفارقة الخارجية.. وهي أعمق من لون بشرتك وبصمة إبهامك ولون عينيك... (هوليوود) فيك، إنها أعمق مما تتصور.

ماكدونالدز!

.. والأقواس الذهبية التي تفتح لك الأبواب نحو تلك الوجبة السريعة التي تمثل أكثر من مجرد وجبة؛ تمثل نمطاً للحياة، تريده وتشتهيه وتتلذذ به أكثر مما تفعل الوجبة نفسها. في الوجبة سيكون هناك الهمبرغر المغطى بالكاتشب أو الخردل أو المايونيز، أو أي صلصة أخرى لم تسمع بها من قبل، وسيعكس ذلك ولع الأمريكيين بالغريب من الأمور عبر استكشاف

صلصات جديدة مكونةٍ من موادَّ غيرِ متجانسة أصلاً... وسيكون هناك رقائق البطاطا المقلية، وعلبة الكولا ستتوج الوجبة، وسيكون هناك على المدى البعيد والمتراكم، أمراض الكوليسترول وتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم والسكري، لكن ذلك كله لا يهم، طعم الوجبة نفسها لا يهم، فالأمر هو (الانتماء) لنمط حياة، أكثر منه إشباعاً لحاجة بايولوجية هي الجوع .**إنه محاولة لاقتحام الأقواس الذهبية وعبورها إلى ما وراءها، حيث نمط الحياة والقيم الحضارية...**

ماكدونالدز ليس مجرد وجبة سريعة، إنه أكثر من ذلك بكثير، وليس الكوليسترول وحده هو الذي سيترسب من أثر تلك الوجبة، لكن هناك قيماً ومثلاً ستتراكم في داخلك دون أن تعلم، لن تحدث هذه الترسبات تصلباً في الشرايين أو ضيقاً في الأوردة، لكنها ستتركك داخل **رؤية محددة، وقالب واحد تنظر من خلاله لذاتك وللآخرين ولكل العالم من حولك.**

۞ ۞ ۞

هذه هي الصورة التي زرعتها أمريكا في داخلنا وأدت دور **(المعجزة)** في الأديان التقليدية... هذه هي الصورة التي نادت فينا حواسنا وتركتنا مبهورين فارغين أفواهنا أمامها، أمام أمريكا..

هذه هي الصورة المزروعة بإتقان في دماغنا. صارت جزءاً منا، تماهت معنا وتماهينا معها. شكلت وعينا وموازيننا ومقاييسنا.

هذه هي الصور التي رسخت فينا تفوق أمريكا ورفاهها وسعادة مواطنيها، مقابل نماذج الإخفاق والفشل والتعاسة والبؤس التي تحيط بحياتنا..

ما كان يمكن لهذه الصور إلا أن تزداد قوة وبريقاً بالمقارنة، وما كان

يمكن لنا أن نفتح أفواهنا مدهوشين مبهورين عاجزين... ونسلم بها لأمريكا.. أمريكا التي هي الرقم واحد.

إنه دين جديد، وقد جاء ليجعلكم تعتنقوه دون أن تدركوا ذلك.. يخطئ من يتصور أنه قد جاء تواً عبر القاذفات والبوارج والطائرات القاصفة العملاقة... لا، لقد جاء أولاً عبر هذه الصور المزروعة في الأعماق... كانت هذه هي الاستراتيجية الأساسية.

كل ما حدث لاحقاً كان مجرد تحصيل حاصل في سلسلة التفاعل المتتابعة.

إنه دين جديد، وقد غزا العالم كله بمعجزاته[1]، وسلم الناس له معجزين طائعين، ولم يناقشوا قيمه ومثله كما لم يكن يفعل المؤمنون في الأديان التقليدية - مع المعجزات الحسية - قبل أن يأتي الإسلام ليختم الأمر بمعجزة القرآن الذي خالف المعجزات الحسية بقيامة العقل وإحيائه بدلاً من إسكاته وإعجازه.

هذه هي المعجزة مع هذا الدين؛ تصرف الناس كما فعلوا في أديان ما قبل القرآن... ففغروا أفواههم، وأوقفوا عقولهم، واعتمدوا على حواسهم التي وجدت نفسها عاجزة أمام معجزة الدين الجديد.

دين جديد. نعم، دين جديد...



ومن الخطوات اللاحقة التي تحصل نتيجة هذه الصور أنك ستحاول

(١) عليّ هنا أن أنبه إلى المفارقة الموجودة في هذا الأمر، فأمريكا مكروهة في العالم كله بسبب سياستها الخارجية، لكن قيمها ونمط حياتها وأسلوب العيش الذي تقدمه هو أمر مرغوب ورائج في العالم أجمع.

لاحقاً الولوج فيها عبر واقعك... ستكون أغلى أمانيك أن يكون واقعك مشابهاً للصور التي شكلتك.

أمريكا التي أبهرتك بمعجزات قوتها ونمط حياتها ستتدخل لتملي عليك أمانيك ونمط حياتك!

❀ ❀ ❀

المنزل الفاره، وربما (الفيلا) الفخمة..

الشرفة الواسعة مطلة على المسبح الرائق.. الماء فيه أزرق وصافٍ..

وخلف المسبح توجد الحديقة بحشيشها شديد الخضرة، لا ينافسه إلا الزرقة الشديدة على الماء في المسبح..

في جانب الحديقة ملعب كرة السلة الأنيق، وربما جانب مغلق لكرة المنضدة..

وفي المرآب بضع سيارات.. ألوانها مختلفة.. واحدة منها على الأقل، سيارة (سبورت) عائلية الحجم، لقضاء إجازات نهاية الأسبوع (الويك أند)..

هذه هي بعض تفاصيل الحلم الأمريكي..

❀ ❀ ❀

في داخل (الفيلا) أو - البيت - يوجد أثاث يبدو جديداً على الدوام؛ ربما لأنه جديد فعلاً، وربما لأنه يتم استبداله كل سنة.. الأثاث (مودرن) ولا بصمة مميزة له.. لكنه يشبه ما هو في مجلات الموضة والديكور.. لا قطعة أثرية فيه.. ولا شيء من رائحة (الوالد) أو (الوالدة).. فهؤلاء لا رائحة لهم في الحلم الأمريكي.. إلا إذا استطاعوا أن يدسوا أنفسهم فيه..

❀ ❀ ❀

المطبخ شاسع وواسع وتستطيع أن تنصب فيه ملعباً لكرة القدم، أو (البيسبول) ما دمنا في الحلم الأمريكي..

دواليب المطبخ خشبية دوماً.. ولامعة دوماً.. كل أدوات المطبخ تلهث لامعة كما لو أنها لم تستعمل قط.. وربما كانت لم تستعمل فعلاً قط..

الثلاجة كبيرة وتصلح أن تكون ملجأ ممتازاً. تفتحها فتهب عليك روائح ما لذ وطاب من تلك المعلبات - الملونة البراقة - التي تملأ رفوف الثلاجة.. لا شيء يبدو فيها منزلي الصنع... ربما هذا يفسر كون الأدوات المطبخية تلهث لامعة..

❁ ❁ ❁

الصالة واسعة، وفي وسطها، ينتصب جهاز التلفاز هائل الحجم، بحيث يمكن أن يتحلق حوله كل أفراد العائلة. يتغير الجهاز باستمرار ويستبدل به واحد أحدث على الدوام؛ مرة الشاشة مسطحة، ومرة مليئة بسائل هلامي، ومرة تتحرك الشاشة بشكل أوتوماتيكي نحو الجهة التي فيها مشاهدون... يتغير كل شيء ويبقى المكان الذي هو فيه ثابتاً - في الوسط - كما كان الوثن التقليدي يحتل مكانه.. عبر عصور التاريخ المختلفة..

الأطفال وسيمون وأذكياء وأنيقون ولا يشبهون أحداً ممن تعرفهم (إنهم لا يشبهونك أنت أيضاً) ومطيعون ويلقون بملاحظات ذكية، وملابسهم دوماً جميلة وجديدة ونظيفة كما لو أنهم مستعدون للتصوير دوماً.. شعرهم دوماً يلتمع مهما كان لونه، وهم دوماً يلعبون ويمرحون.. ويركضون حولك فرحين - خاصة إذا جئت لهم بما يشتهون من لعب وحاجات...

❁ ❁ ❁

أنت تهبط من سيارتك الفارهة.. ومعك أفراد عائلتك.. بين ضحكهم وصخبهم تحملون معكم أكواماً من الحاجات التي قضيتم اليوم في تسوقها..، كان يوماً متعباً جداً من هذه الناحية، لكنه كان أيضاً يوماً ممتعاً - كما بقية الأيام - فلا شيء أبداً يقارب متعة التسوق والتجول في أروقة (المول) أو (السوبر ماركت)، ولا شيء أبداً يقارب حمل الحاجات المرصوصة على الرف ووضعها في عربة التسوق التي تدفعها أمامك..

بين أكوام الأكياس الملونة، وصناديق الحاجيات، التي تنزلها تباعاً من صندوق سيارتك، سيخطر ببالك أنك لن تتمكن من استعمال كل مشترياتك، فضلاً عن استهلاكها.. لكن ذلك لا يهم طبعاً.. فأنت لم تشتر لتستعمل.. أو لتستفيد مما ابتعته.. أنت أصلاً لم تشتر إلا لتستمتع.. لإرضاء تلك النزعة اللحوحة التي غرسوها في أعماقك.. والتي سيخيل إليك أنها الهدف الأساسي من وجودك في هذا العالم..

تضع أكوام الحاجات في منتصف الصالة - مقابل التلفاز - بطريقة يبدوان معها متصلين بعضهما ببعض..

يبدوان كما لو كانا وجهين، لوثن واحد.. وأنت تتعبد له.. بطريقة أو بأخرى..

إياك أن تنكر!

❀ ❀ ❀

إياك!

❀ ❀ ❀

دعونا نترفع عن الإنكار. دعونا نواجه أنفسنا وذكرياتنا وهواجسنا وآمالنا وأحلامنا وخططنا للمستقبل وسعينا في الحاضر..

دعونا لا نتستر بالإنكار..

دعونا نعترف بالحقيقة..

❁ ❁ ❁

في أعماق كلّ منّا جزءٌ من هذا الحلم الأمريكي.. شظايا منه قد ترسبت بعمق في أعماق لاوعينا، أجزاء منه قد علقت في مخيلتنا.. نسبة كبيرة منه قد شكلت - فعلاً - جزءاً كبيراً من حوافزنا ودوافعنا.. يبدو الأمر هنا قديماً إلى درجة تعجز معها عن تذكر المرة الأولى التي وجدت فيها كل ذاك مغروساً فيك مرّة واحدة..

نعم.. إنه قديم جداً، لقد رضعته وأنت طفل، وسار فيك كما سار حليب أمك.. لقد صار جزءاً منك.. دخل في تكوينك... لا، لا تصدق أنه جزءٌ من فطرتك، أو من غرائزك، مهما حاولوا وأجهدوا أنفسهم في إثبات ذلك..

لكن الأمر غرس فيك منذ البداية، إلى درجة صار يبدو معها أنه جزء أساسي منك، غريزة فطرية أصيلة من غرائزك الأساسية.. لن أقول هنا أنها مؤامرة. أبداً. لقد حدث الأمر على هذا النحو وانتهينا..

نعم.. لقد حدث ذلك معنا جميعاً: بدرجة أو بأخرى.. بطريقة أو بأخرى.. دعونا نترفع عن الإنكار..

❁ ❁ ❁

على الحلم وتفاصيله قد تطرأ بعض التغييرات..

مثلاً؛ أن تكون الزوجة، بين (ديكورات) المطبخ الخشبية، مرتدية (الحجاب الشرعي).

وفي الصالة هناك، في طرفها الأقصى، يوجد لفظ الجلالة، ليزينها وليذكرنا.. فالذكرى تنفع المؤمنين..

وعلى (الصوفا) المودرن (الأنيقة) توجد سجادة الصلاة..

.. والأطفال!

لن يَمْنَعَ وسامَتَهم وأناقَتَهم وذكاءَهم أن يحفظوا جزءاً من القرآن الكريم بأحكام التجويد والترتيل والتلاوة..

لا.. تفاصيل كهذه ستغني المشهد، ولن تضير جوهر الأمر؛ جوهر الحلم الأمريكي الذي ينشب أظافره في أعناقنا..

نعم.. ما دامت كل هذه المظاهر التعبدية لن تؤثر في نمط الحياة الأمريكية وجوهرها.. ما دامت هذه لا تمس، فلا مشكلة قط في (الحجاب الشرعي)، وفي (لفظ الجلالة) المستخدم كزينة في الصالون..

❀ ❀ ❀

سيصرخون: قتلتمونا والله.. كلمة أخرى ويصير التبضع حراماً، والاستمتاع بالحياة يستوجب الحد! أين سيمضي بكم وبنا خرفكم وترهاتكم؟.. انظروا إلى أين وصل العالم، وإلى أين وصلتم أنتم وأين أوصلتمونا بفكركم المتخلف البدائي..

كفوا عن هذا.. دعونا نعيش..

وجربوا أنتم أيضاً، أن تعيشوا..

نعم.. ربما.

لكني.. لم أكن أتكلم عن التسوق، والتبضع، وشراء الحاجيات.. كنت أتكلم عن (ديانة جديدة).. عن نمط حياة.. كنت أتكلم عن ثقافة جديدة، ذات مظاهر عديدة ومتنوعة، قوامها الاستهلاك، ومحورها

الأساسي الاستهلاك، ودوامها الحقيقي لا يكون إلا بوجود الاستهلاك..

أتحدث عن حضارة كاملة، مبنية على قيم مختلفة، وثوابت مختلفة وأركان مختلفة.. وكل ذلك حدث أنه دخل إلينا دون أن نشعر به..

نعم، عن ديانة جديدة، معتنقوها قد يكونون من أي دين، مسلمون ينطقون بالشهادتين، أو مسيحيون يؤمنون بالمسيح الحي، أو يهود ينتظرون مخلصهم، أو هندوس يبجلون بقرتهم.. لكنهم - دون معرفة أو وعي - يتوحدون معاً في ديانة أبعد ما تكون عن أية ديانة توحيدية..

ديانة قوامها ذلك الحلم الذي يسكن الملايين، ويفرق الملايين، ويجعل بعضهم يخرج ليرحب بالمحتل،.. ما دام هذا المحتل، يحمل في طيات مشروعه وعوداً بتحقيق تلك العقيدة الدينية..

ذلك الحلم الأمريكي..

❀ ❀ ❀

في طلعة الشمس..

لا تهتم تلك العقيدة الدينية كثيراً برأيك في الحياة الآخرة، بل لا يهمها إن كنت تؤمن بالآخرة أو تنكرها..

لكنها، دون أن تعي أنت ما يدور، ستضعف صلتك بها، وستؤثر على إحساسك بالآخرة، وعلى استشعارك لمعانيها..

لا يفعل الدين الجديد ذلك بالتنظير المباشر، بل بشكل تدريجي.. هو أخطر من أي خطاب تنظيري. يفعلون ذلك بشكل خفي، هو أخبث في الحقيقة من أي أسلوب معلن..

.. يتقدم الدين الجديد إلى حواسك ليسيطر عليها، يقوم بتفعيلها حيناً

ويخدرها أحياناً أخرى، ويقصرها في كل الأحيان على حدود أبعاد محدودة، ثلاثة فقط، هي كل حدود العالم الذي تعرفه الديانة الجديدة..

.. وسيستبعد هذه الحواس، عن عوالم أخرى، عن أبعاد لامتناهية، تشكل جزءاً أساسياً من عقيدة الآخرة وتداعياتها النفسية..

❀ ❀ ❀

سيقول الدين الجديد، دون أن يقول حقاً، بينما أنت تحاول أن تتحسس جنتك وآخرتك، التي يفترض أن تكون دافعك وحافزك في حاضرك.. تقول لك جنتك: إن فيها **(أنهاراً من عسل ولبن صاف)** لتشجعك على المضي إليها.. على العمل من أجل الوصول إليها...

تحاول أن تركز.. تستجمع حواسك.. تحاول على الأقل ذلك لكنك لا تجدها أصلاً.. فحواسك قد استهلكها الدين الجديد، حواسك لم تعد إلا في إطاره وضمن حدوده..

وعندما تحاول أن تركز لتنفذ في المعنى (أنهار من عسل ولبن صاف) تجد الدين الجديد، وهو يستدرجك: عسل ولبن فقط؟!.. من أي نوع يا ترى، وماذا عن (البيبسي كولا)، و(الكوكا كولا)؟.. ماذا عن عشرات الأنواع من المشروبات الغازية المنعشة؟.. تقول: جنة عرضها السماوات السبع؟ نعم، هناك مشروب غازي سيذكرك بهذا.. اسمه أصلاً مشتق من (السبع العلى)[١].. وماذا عن العصائر الطازجة وغير الطازجة، والمزائج المتنوعة منها، وكلها منعشة وبراقة وبعلب ملونة، وتذكر بساحل البحر وبإجازة (الكاريبي)، وباختيارات الشباب ومرحهم وأوقاتهم الممتعة.. وماذا عن مشروبات الطاقة التي يقول لك إعلانها اللحوح: إنها ستمنحك

---

(١) السبع العلى هو مشروب (السفن آب) الشهير!

أجنحة تطير بها، وعضلات مفتولة تقربك من فتى الإعلان الوسيم الذي يفتح العلبة أمام عينيك مبتسماً كما لو كان يفتح عكاً؟.

يشحب في خيالك العسل واللبن الصافي.. تحاول شحذه بتذكر أن لا شيء مما في الجنة يشبه ما في الدنيا إلا بالاسم.. يقتنع خيالك بذلك، لكنه سيجنح للأسماء الأخرى، (البيبسي) و(الكوكا) **ورموز الثقافة الأمريكية الأخرى.. سيحاول تخيل كم هي لذيذة وممتعة، لو كانت في الجنة، وبأضعاف لذتها ومتعتها هنا في الدنيا، ما دام ليس في الدنيا مما في الجنة.. إلا محض أسماء..**

۞ ۞ ۞

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧٦/ ١٣].

تحاول أن تتخيل المشهد.. فيغطي على خيالك صوت الهواء المنعش القادم من جهاز التكييف الحديث الذي رأيته في الإعلان الليلة الماضية..

تهز رأسك وأنت تحاول التركيز، وتطرد صوت المكيف من أذنيك.. فتأتي صورة الإعلان الآخر عن مكيف الهواء المنعش الصامت، (الذي يحيل الغرفة إلى قطعة من الهواء المنعش) بصمت..

ثم تأتي صورة الإعلان الآخر عن المكيف السقفي ثلاثي الدفع، والآخر الذي تتحكم فيه عن بعد، والآخر الذي ينقي الهواء من الشوائب ويصفيه من الأتربة ويقتل الجراثيم التي قد تجترئ على الدخول..

.. وستتذكر ذلك المكيف اللامع الذي شاهدته في الواجهة الزجاجية يوم كنت وزوجتك تتبضعان.. وستتذكر أكثر كيف التمعت عينا زوجتك، وكيف التمعتا أكثر يوم قالت لك: إن صديقتها (فلانة) قد ابتاعت من هذا النوع ذاته، وكيف تكرر تلميحها من يومها **إلى ضرورة استبدال جهاز التكييف بذلك الحديث**. . ستحاول حساب تكلفة كل ذلك، وأنت تغرق

في عرق تتصور أن لن ينقذك منه إلا جهاز التكييف مزدوج الاستعمال..

(الذي لن ترى فيه شمساً ولا زمهريراً..)!

۞ ۞ ۞

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾
[الواقعة: ٥٦/ ٣٥-٣٨]

تحاول أن تتخيل هذا الإنشاء، فلا يخطر على بالك غير نجمات (هوليوود) وحسناواتها الفاتنات، وأساليب إثارتهن المتنوعة. لن يخطر في بالك سوى مسابقات ملكات الجمال، سواء تلك التي أغمضت عينك عنها أو تلك التي اختلست النظر إليها وأنت تسب سوق الرقيق المعاصر هذا..

نعم ..لا شيء سوى (هوليوود) وحسناواتها.. ستحاول أن تذكر نفسك بالزيف الموجود في كل شيء فيهن، من الشعر ونوعيته ولونه، إلى الرموش الاصطناعية، إلى الأسنان الملتمعة الابتسامة مزيفة اللون والبريق، والشفاه المكتنزة بفعل حقن الدهن لتجعلها أكثر إثارة.. إلى الصدر المحقون بالسليكون لضمان الحجم الأكثر إثارة..

.. نعم كل ذلك وربما أكثر..

ستحاول أن تتخيل أن الكواعب الأتراب في الجنة هن مختلفات تماماً عن رذيلات (هوليوود).. إنهن حقيقيات، بينما هؤلاء، مجرد دمى مزيفة..

نعم.. هذا صحيح.. لكنهن مع ذلك يشبهنهن!، أعني أن (الحور العين) لا بد وأن يكن يشبهن نجمات (هوليوود) في أفضل حالاتهن، فأنت مهما حاولت، لن تستطيع تخيل جمال وإثارة أكثر من ذلك..

لا بد أن تواجه نفسك.. لقد شكلت (هوليوود) إطار أفكارك وحدود خيالك، ودخلت حتى في تشكيل ذوقك وطراز شهواتك.. لقد دخلت غرفة نومك وانتهكت، هناك، كل خصوصياتك، بل وأملت عليك ما تفعله وما لا تفعله هناك.. أملت عليه ما تريده وما لا تريده..

لقد شكلت أمريكا، أدق خصوصياتك..

تحاول أن تركز في كتابك المقدس، في فردوسك الموعود، في أنهار العسل واللبن، والنعيم المقيم، والظل الظليل، والحور العين..

.. تحاول أن تتخيل، فتجد خيالك وقد أسرته أمريكا ووضعته في قفص الأبعاد المحدودة الذي لا تتقن سواه.. والحبيسة فيه هي الأخرى..

أكثر من ذلك، تجد أنت، أن عالمك كله، طموحاتك وأهدافك كلها، رغباتك كلها، أحلامك كلها، قد وجدت لنفسها مكاناً داخل القفص نفسه الذي وجدت فيه خيالك أسيراً..

تعود للتركيز في الحور العين.. تجد أمريكا مرّة أخرى بانتظارك..

أف.. لقد أفسدت أمريكا عليك دينك..

إياك أن تنكر!! إياك...



إياك!



نعم... فلنواجه أنفسنا..

أمريكا لم تدخل بلادنا إلا بعدما دخلت كل تفصيل من تفاصيل حياتنا..

دخلت مطابخنا وتدخلت في وصفات الطبخ المفضلة لزوجاتنا - ومن ثم في تذوقنا للأكل - فصار كل ما يأتي من هناك من طعام غير صحي وغير اقتصادي يمثل ذروة ما نتمناه على مائدة طعامنا، وأفضل ما نقدمه لضيوفنا..

دخلت في دولاب ملابسنا؛ فصار ما يلبسه هناك صعاليكهم ومتشردو الشوارع عندهم مقياس الأناقة لأولاد الذوات وأبناء النخب عندنا..

دخلت في أوقات فراغنا؛ كيف ستقضيه يا ترى؟ هل ستلعب لعبة (فيديو) أمريكية؟ أم ستتابع برنامج (الحوار) الأمريكي.. أم لعلك ستقضي الوقت في مشاهدة الفيلم الأمريكي أو متابعة لعبة كرة السلة الأمريكية وأنت تأكل (البوب كورن) الأمريكي وتشرب (البيبسي كولا) الأمريكية؟..

ولا أريد أن أذهب أكثر إلى غرفة نومك وأتدخل في خصوصياتك.. لكن الكثير مما يدور هناك - كما تعلم - في سريرك قد دخلت أمريكا فيه وأملته؛ باعتباره ذروة المتعة ووجهها الطبيعي الذي لا نقاش فيه..

كل ذلك ممكن، تستطيع أن تفعل ما تريد، وأينما ذهبت فستجد أمريكا هناك..

إنها في العالم كله..

كله!

أكثر من ذلك..

لو طلبت منك أن ترد فوراً ودون أن تفكر أبداً، وسألتك عن هدفك في الحياة، لكان ردك الفوري والعفوي يتضمن شيئاً من ذلك الحلم الأمريكي، وحيازة سلعه ورفاهيته ولانهائيات متعه..

نعم، ولو فكرت قليلاً، لجعلت ذلك ضمن (بناء أسرة إسلامية سعيدة) و(إرضاء الله ورسوله) و.. غيرها من الكلمات الكبيرة الجميلة..

لكن الواقع هو ما قلته دون أن تفكر، الواقع هو ما تفعله حتى لو لم تقله..

الواقع هو أن سُلَّم أولوياتك وترتيب أهدافك قد شكلته أمريكا.. بعض الرتوش هنا وهناك من مظاهر صلاة وتعبد لإله (سواها) لن تضيرها كثيراً.. إنها لن تهتم بتفاصيل لن تغير من جوهر الأولويات الذي أملته، ولن تهتم كثيراً أن نقرت بضع ركعات هنا وهناك أو ارتدت زوجتك الحجاب، أو حتى لو نبتت لك لحية على ذقنك..

كل ذلك غير مهم. ولا يؤثر على أمريكا..

إنها تريد دماغك..

وقد أخذته!

❁ ❁ ❁

مع تغير طبيعة الاقتصاد (العولمي) المعاصر، وتداخل اقتصاديات العالم وتقاطعاتها في تلك الشبكة المعقدة، اختفت بالتدريج عبارة (صنع في..) التي كانت سابقاً تعد علامة ورمزاً وطنياً لجودة تلك البضاعة أو رداءتها.. لم يعد لها معنىً محدد في هذا الاقتصاد المتشابك، فالبضاعة اليوم (التي نستوردها جاهزة طبعاً) قد تكون صنعت في ماليزيا والصين والهند وتايوان وكوريا وأستراليا وسنغافورة دفعة واحدة عبر تلك الشركات العابرة للقوميات التي تضع قدماً في كل دولة بحثاً عن الكلفة الأرخص والقوانين الأكثر تساهلاً..

لذلك؛ قد تصنع هذه الرقاقة الإلكترونية التي لا تكاد ترى في الهند، بينما يصنع الغطاء البلاستيكي في الصين، وتصنع الدوائر الكهربائية في كوريا، ويُشْرَف على التصميم في ماليزيا وأمريكا معاً..

عبارة (صنع في..) لم تعد مهمة.

وخصوصاً عبارة (صنع في أمريكا)..

لقد قلّت جداً مقارنة بالسابق.

لكن هذا غير مهم، خصوصاً بالنسبة إلى أمريكا... إنها كالأخطبوط تضع قدماً في كل مكان.. (بل إنها تضع قدماً حتى في القمر)، ولن يهمها شيء ما دامت عبارة (صنع في أمريكا) قد وضعت عليك شخصياً؛ على اهتماماتك، على أولوياتك، على أهدافك في حياتك.. على ذوقك وتذوقك وعلى مقاييسك..

هذا ما تريده أمريكا.. أن يكون دماغك (صنع في أمريكا) made in U.S.A..

كان الباقي مجرد تفاصيل..

۞ ۞ ۞

فلنعترف بذكاء أمريكا..

إنها لا تقول لك قط: إنه لا آخرة هناك.. وإنه لا فردوس ينتظرك عند نهاية رحلتك الدنيوية..

إنها لا تقول ذلك قط، لا لأنها مؤمنة بالآخرة وبالفردوس.. بل لأن ذلك ليس من شأنها..

ثم إنها تعرف أنها ستخسرك فوراً، زبوناً ومستهلكاً ومعتنقاً لأفكارها، لو قالت لك ذلك، كما خسرت أيديولوجيات أخرى فعلت ذلك ولم تكن بحذق الحلم الأمريكي.. لا، هي لن تكون كهؤلاء الخاسرين..

ستسكت عن ذلك ..بل أحياناً ستتكلم عن إيمانها بالآخرة وبالسماء وبالجنة الأبدية بشكل غامض ومبهم ومطاط.. لكنها أبداً لن تتورط في إنكار الآخرة..

۞ ۞ ۞

بدلاً من ذلك.. سيقوم الحلم الأمريكي بقتل مفهوم الجنة والفردوس في داخلك وتحنيطه.. لن تفعل ذلك بالأيديولوجية المادية وديالكتيكها وجدليتها المقيتة، من يفهم هذه الأمور على كل حال؟؟.. لكنها ستفعل ذلك بحذق وخبث ودهاء...

ستجعلك تحلم بجنتها؛ بسلعها التي لا تنفد، بنمط حياتها ونعيمها (غير المقيم)؛ لأنه ما يلبث أن يستهلك، ويحتاج إلى نعيم آخر (جديد).. (وهذا من أهم قواعد الجنة الموعودة..).

ستجعلك أمريكا (مرتبطاً) بأفكار فردوسها الذي شيدته وروجت له، وجعلت حدوده كل حدود العالم الذي تعرفه.. ستجعلك أمريكا لا تعرف شيئاً آخر غير هذا الذي تروج له نمطاً للحياة - بشكلها الأفضل الذي يمكن أن يعاش - ونموذجاً للسعادة بأقصى درجاتها التي يمكن أن تحس..

أمريكا لن تحارب بشكل مباشر جنتك - التي في أفكارك ورؤاك وحوافزك - لكنها، عوضاً عن ذلك، ستقدم جنتك..، ستقدم فردوسها الأرضي الذي سيشوش أفكارك ورؤاك وحوافزك..

ستقدم سلعها المترفة التي ستستبدل بها أحدث منها قبل أن تبلى، بل قبل أن تستعمل أحياناً، ستقدم نمط حياتها الذي يقدم المتعة والمرح والملذات الشخصية على ما سواها من أولويات..

ستقدم أمريكا لك جنتها نموذجاً واقعياً، أرضياً، قريباً منك؛ من متناول يديك وحياتك وحياة أولادك..

إنها لن تمس جنتك.. لكنها أيضاً لن تجعلكَ تفكر بها... لن تجعلك تمسها، أنت أيضاً..

أمريكا لن تتكلم حتى عن جنتك ..لكنها ستغمز لك، **بطرف عينها، وتقول لك: الجنة ها هنا..**

ستقول لك: «**يا غبي، في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل**»..

ستقول لك: «عصفور في اليد، خير من عشرة على الشجرة»..

فكيف بعشرة عصافير، ملونة، في اليد ..**وعصفور واحد، غامض، غير واضح، محجوب بحواجز الغيب غير المنظور؟..**

إياك أن تنكر!!

نعم دعونا نترفع عن الإنكار، مرة أخرى..

لقد دخلت أمريكا في رؤوسنا في قيمنا.. في كتبنا.. وفي رؤانا.. في غرف نومنا.. وفي أحلامنا..

لقد دخلت فينا أمريكا.. صارت جزءاً من وعينا ومن لاوعينا.. ودون أن ندري، دون أن نعي بوضوح، بدأ الغزو من هناك، من المكان الذي دخلت فيه أمريكا إلينا..

من رؤوسنا..



لم يكن غزو أمريكا غزو قذائف وصواريخ وطائرات قاذفة، وقنابل عنقودية، ويورانيوم منضب وغير منضب..

لا. كل ذلك، أتى لاحقاً..

قبل الأساطيل، والبوارج. قبل حاملات الطائرات..

كان هناك شيء آخر.. أهم وأسبق من التحركات العسكرية، مهَّدَ الطرق لها..

فتح الثغرات في الأسوار، ليَّن خطوط الدفاع..، خدرها.. بل وساهم في فتح الأبواب...

❁ ❁ ❁

.. وفي أحيان أخرى، ساهم ذلك (الشيء) في جعل بعضهم يخرج ليرحب بالاحتلال ويصفق ويهلل فرحاً بمقدمه..

إنه ذلك الحلم الأمريكي الذي رضعناه صغاراً؛ نشأ وعينا عليه شباباً،.. حتى صار يبدو كما لو كان جزءاً من فطرتنا.. من غرائزنا..

.. إنه هو ذلك الحسد والغبطة، الذي يبدو على الوجوه عندما نتحدث عن صديق لها تمكن من الحصول على التأشيرة الخضراء.. والتي ستمكنه من الوصول إلى ذلك الفردوس المليء بالفرص له ولأسرته (وربما لأصدقائه من بعده كما سأمل لو كنت منهم!)..

إنه نبرة الحسد في أصواتنا، ولمعة الغيرة في عيوننا، عندما نقول عن شخص: إنه حصل على جواز سفر الأمريكي، أو الجنسية الأمريكية، وكل الامتيازات التي سيحصلها تبعاً لذلك.. (هو، وأولاده).. إنه الحلم الأمريكي مجسداً في (استعراض دوريس داي) وتلك الحياة الراغدة التي لا تحمل أي هم، أو في (دالاس) و(ديناستي) وحلم الثراء الفاحش غير

المسبوق، أو (أوبرا) التي ستعلمك كيف تعيش حياتك بأفضل شكل وبأقل تكاليف، أو (فرندز) حيث النموذج البديل للعائلة التقليدية يتمثل في أصدقاء تختارهم بمحض إرادتك.

إنها تلك الهمسات عن الحياة هناك، وعن تلك السيارة التي لا تزال تعتبر حديثة جداً بمقاييس بلادك، ومقاييسك الشخصية على الأخص، بينما أخرجت من الخدمة هناك، وصارت خارج كل المقاييس المقبولة..

إنه الحديث عن فلان من معارفك - والذي كنت متفوقاً عليه في الدراسة، لكنه تفوق عليك في الحظ - حيث حصل على التأشيرة تلك اليوم؟.. لديه (كاديلاك).. ناهيك عن (اليخت).. وأزيدك أنه قضى الصيف الماضي في هاواي..

.. إنه ذلك الحلم الأمريكي الذي يغرس أنيابه في أعناقنا، لكنه ليس حلماً فقط؛ تسميته بالحلم ستجعله يبدو لطيفاً وقاصراً ويكاد يكون غير مؤذٍ..

لكنه في حقيقته ليس حلماً فحسب.. حتى ولا أيديولوجية ..إنه **أقرب ما يكون إلى العقيدة الدينية بكامل تفاصيلها.. بنمطها المحدد للحياة... برؤيتها للسعادة.. برؤيتها للعذاب.. بآليات ثوابها وعقابها..**

بفردوسها الموعود...

الشعارات غير مهمة هنا حقاً.. العلمانية والديمقراطية والعولمة والشرق أوسطية والتنمية والحرية.. كلها كلمات براقة وأغطية إيديولوجية للجدل تضم خلفها اليقين بذلك الفردوس الموعود. هذه الشعارات - رغم احترامي الشديد لبعض قيمها وبعض معطياتها - تستخدم للترويج لأشياء أخرى، ومروجوها يتصرفون أحياناً كما يتصرف الباعة الجوالون والسماسرة وهم يرغِّبون في بضاعة أو سلعة أو عقار معين...

كل أولئك المصفقين والمؤيدين ما كانوا ليهتموا بالعلمانية والديمقراطية والعولمة لو أنها لم تزين مجيئها بوعود الرفاهية والترف والسلع والكماليات..

.. ما اهتمامهم بها، إلا اهتمامهم بما سيأتي وراءَها.. أو ما هو مفترض أن يأتي.. من سلع وكماليات، من فردوس موعود..

أي شيء عدا ذلك سيكون - على الأغلب - محض شعارات..

وسيثبت ذلك قطعاً عندما تنتهك هذه الشعارات، والقيم التي تمثلها، من قبل الأمريكيين أنفسهم سنلاحظ أن هؤلاء المصفقين لن يبالوا بالأمر، لن يكترثوا إنما هو الإيمان بأمريكا..

كل الباقي مجرد تفاصيل.

❁ ❁ ❁

منذ أن انتبهت أن الإيمان بأمريكا، أو التأمرك، أو الإيمان بالمشروع الأمريكي، أو أي تسمية أخرى لهذه الظاهرة، يشبه العقيدة الدينية - **بمعناها الغيبي** - صرت أقضي الوقت في تأمل سلوك معتنقي هذه العقيدة، وتعليقاتهم وآرائهم على كل ما يمكن أن يتعرض لعقيدتهم ومعتقداتهم..

❁ ❁ ❁

لاحظت بذهول، أن إيمانهم بأمريكا غير مصحوب بقيد أو شرط.. إنهم مؤمنون بأمريكا (**بالمطلق**).. بما فيها من كل شيء - **لن أقول: بما فيها من سلبيات أو علل** - لأن أمريكا في رأيهم منزهة عن السلبيات وخالية من العلل..

نعم.. إيمانهم بأمريكا يقبلها دون أدنى مساومة.. دون التفكير

بالاعتراض..، دون إبداء أي ملاحظة أو أدنى قدرة على التشكك.. ويؤكد ذلك ما ذهبت إليه من أن الإيمان بأمريكا يطابق تماماً العقيدة الدينية، على الأقل من حيث تسليم المؤمنين بها للإرادة الإلهية، وعدم اعتراضهم على كل ما يدور باعتبار أنه (إرادة إلهية) عليا.. ألا يتهم المسلمون خصوصاً، ويتهم إسلامهم كله، بأنه استسلام سلبي للقضاء والقدر؟..

بل، ألم تكن كل العقائد الدينية التقليدية (ولا استثناء من هذا إلا الإسلام نفسه)، ألم تكن تعتمد على (الحس)؛ لإعجاز العقل وحمله على التسليم بانقياد تام دون قيد أو شرط، عبر دور المعجزة الحسية؛ التي كان دورها يعتمد على إبهار العقل وإعجازه، ومن ثم كان المتلقي

(يسلم) قياده.. لصاحب المعجزة..؟

كذلك الأمر مع أمريكا على ما يبدو.. لقد أبطل الحس التفاعل العقلي، أو حيده من الموضوع ووضعه جانباً..

.. وسلم هؤلاء قيادهم تماماً لأمريكا.. التي لا يأتي منها إلا الخير؛ فهي التي لا يأتيها الباطل من أمامها ولا من خلفها.. ولا عن يمينها ولا عن شمالها..

أمريكا كلها خير، حتى ما نتصور أنه شر من أفعالها، فهو ليس شراً في الحقيقة، إنما هو خير نعجز عن فهمه، أو هو (خير) في محصلته النهائية.. حتى وإن بدا شراً في بدايته..

وتقدست أمريكا التي أمرها كله خير!!

❀ ❀ ❀

لاحظت ذلك وأنا أراهم أمامي يبذلون الجهد في تفسير ما لا يمكن الخطأ في تفسيره في أنه، ببساطة، أخطاء أمريكية فادحة، سواء كانت عمداً أو سهواً..

السهو مرفوع عن أمريكا طبعاً - برأي هؤلاء - فكيف يمكن لأحد أن يفكر أن أمريكا.. بجلالة قدرها وعظمة مكانتها.. يمكن أن تسهو؟..

العمد إذن؟

العمد نعم.. إنهم يوافقون عليه.. لكنه ليس الخطأ العمد.. وإنما الصواب العمد.. الصواب المطلق الذي يغيب عن أفهامنا القاصرة..

❁ ❁ ❁

.. وعندما حلَّ السلب والنهب مثلاً في بغداد عقب السقوط، على مرأى ومسمع ورضى من قوات الاحتلال[1]، وتم إفراغ مؤسسات الدولة من محتوياتها تماماً، كان هؤلاء يطمئنوننا أن أمريكا ستعوضنا عن كل ذلك، بمحتويات أحدث وأكثر تقدماً وتقنية، **وأن ما يحدث من سلب ونهب وتدمير للبنى التحتية، إنما هو للتمهيد لذلك التعويض..** أي إنه لم يكن سوى مساهمة شعبية في عملية الإبدال..

وعندما شاءت أمريكا، أن تنشئ قناةً إعلامية لتروج لها وتحسن صورتها عند أولئك الذين لا يحبونها، اندفع هؤلاء الذين لا يؤمنون بها يروجون للقناة، وينصحون بمتابعتها، ويقارنون بين رقيِّها وتقدمها وأسلوبها المتطور، وبين بقية القنوات المتخلفة البدائية، وكل ذلك وبث القناة لم يبدأ بعدُ..!، وكل ذلك وهم كانوا سابقاً (يتهمون) القنوات الأخرى بأنها تستلم أموالاً من حكومات معينة، وكانوا يعدون ذلك كبيرة من الكبائر... لكنها عندما جاءت هذه القناة الجديدة، وهي تستلم نهاراً جهاراً كل مواردها من أمريكا، صار الأمر - في نظر هؤلاء - عادياً وروتينياً (والكل يفعل ذلك..)

---

(١) حتى لا أقول: تشجيع من قوات الاحتلال.

... تقرر أمريكا قراراً، فيهلل هؤلاء ويصفقون ويشيرون لنا بالحكمة المتدفقة من هذا القرار الذي سيثبت لاحقاً فشله وخطؤه حتى بالنسبة إلى المقاييس الأمريكية. فترجع أمريكا عن القرار، وتصدر قراراً آخر معاكساً تماماً للقرار القديم.. فيصفق هؤلاء للرجوع عن القرار، ولإصدار القرار الجديد، بالحماس نفسه الذي أبدوه عند إصدار القرار الأول.. يعترف بعض ساسة أمريكا باقتراف الأخطاء.. فيستغفر هؤلاء ربهم، ويستعيذون به من الغضب، ويلتفتون بوجوههم باتجاهنا وهم يشيدون بالتواضع الأمريكي الذي لن نقدره، والذي سنسيء فهمه لأنه لا يتناسب مع قيمنا وتقاليدنا..

.. وعندما تعم الفوضى كل شيء، وتسيطر العصابات المسلحة خارجة من جحورها وأوكارها، يقول لنا هؤلاء إنما أمريكا تريد ذلك قصداً وعمداً، إنها تريد إخراجهم إلى الهواء الطلق لكي تتمكن، فيما بعد، من القضاء المبرم عليهم.. فنسألهم، نحن الذين صرنا نعود إلى بيوتنا خائفين قبل غروب الشمس، عن ذنبنا في ذلك كله، فيتأففون ويستنكرون، قائلين: إنه ثمن الحرية، إنه ثمن الديمقراطية (وهم يقصدون أنه ثمن جنة السلع الاستهلاكية)، وعلينا أن ندفع شيئاً من الحساب.. أم أننا سنظل طيلة أعمارنا بهذه السلبية؟.. وعندما تعم الفوضى حتى تصيبهم بالضرر، لا يتراجعون ولا يستنكرون، لكنهم يقرون أن هناك، في خضم هذه الفوضى، خطة أمريكية ما، لا يعرفونها ولا يعرفها أحد إلا أمريكا نفسها (والراسخون في العلم من مقربيها، يقولون: آمنا) وأن هذه الخطة ستظهر فجأة فيصفو الجو، وسيضحك كثيراً من يضحك أخيراً..

يكادون يقولون: إن أمريكا تمتحنهم، تمتحن إيمانهم بها. تبتليهم لترى، في النهاية، هل يستحقون جنتها تلك؛ فردوسها الموعود، الذي من أجله يفعلون ما يفعلون، ويقولون ما يقولون؟..

نعم.. لا تخبُّط.. ولا فوضى... ولا أخطاء.. بل خطة محكمةٌ موضوعة بإتقان..

لا ورطة.. لا (فيتنام).. امتحان فقط، ابتلاء فقط... ليتميز الخبيث من الطيب..

وليتبين من الثابتُ حقاً، ومن سيهتز إيمانه..

نعم يحدث ذلك حقاً.. بلا أدنى مبالغة..

❀ ❀ ❀

طالما تصورت أن سلوك هؤلاء هو محض حالة نفسية مرتبطة بسلوك المهزوم أمام المنتصر..

كان ذلك حتى بعد الاحتلال.. لكن، لما جاءت أمريكا، وسقطت الأقنعة عن الكثيرين، وجدت أن الأمر أعمق من محض سلوك انهزامي وتقليد للمنتصر.. إنه عقيدة دينية حتى بمعناها الغيبي، **حتى بمعناها الذي يلغي العقل ويحيده عن أي شيء...**

لقد أبهرت أمريكا عقولهم بالحس، وأبعاده المادية التي تفوقت فيها، فكان ذلك (معجزتها) التي أعجزت عقولهم عن التفكير.. وجعلتهم محض تابعين مستسلمين لإرادتها العليا..

نعم.. إنه ذلك وأكثر.. ولعله كان ذلك منذ البدء.. لكن الظروف الحالية هي التي وضحت الحقيقة أكثر..

نعم.. إنه عقيدة دينية حتى بالمعنى التقليدي.. بين لحظة وأخرى أكاد أسمعهم يقولون، بين معاني كلامهم، لازمة تقليدية مثل: **سبحان أمريكا**، **أو: لا حول ولا قوة إلا بها**.. كتلك التي تعوّد المؤمنون بالله العلي القدير أن ينطقوا بها..

❀ ❀ ❀

ولم تبخل أمريكا بالامتحانات على المؤمنين بها، ولم يتهاونوا هم في إثبات أهليتهم للامتحان.

أعطتهم - خلال سنتين من بدء الاحتلال - كمية جيدة جداً من الانتهاكات لحقوق الإنسان في المعتقلات، وبعضهم كان موثقاً بالصور، بل بمئات الصور كما في معتقل أبي غريب، والقتل العشوائي للمدنيين، والاستخدام المفرط للقوة في قصف المناطق المدنية، والقتل على الشبهة عند اقتراب أي سيارة من أي نقطة تفتيش، هذا عدا عن فضائح السرقة المباشرة والاختلاس، وسوء إدارة الأموال التي تناقلتها وسائل الإعلام العالمية وطالت أسماء كبيرة جداً في الإدارة الأمريكية..

كل ذلك لم يجعل المؤمنين بالدين الجديد يرتدون عن إيمانهم؛ فهم لم يؤمنوا بحقوق الإنسان حقاً، أي إن الأمر لم يبتدئ معهم من حقوق الإنسان؛ إنما آمنوا بأمريكا وهي التي قالت وحكت عن حقوق الإنسان، فإذا تراجعت هي لسبب أو لآخر تراجعوا هم أيضاً بلا غضاضة..

إنها أمريكا..! وكل الباقي مجرد تفاصيل..

❁ ❁ ❁

رأيتهم يفعلون ذلك ليبرهنوا لي أن الأمر لا يتعلق بالشعارات الجميلة بقدر ما يتعلق بالإيمان بأمريكا..

كانت حجتهم الأولى أساساً في التبرير لكل ما كان يدور من انتهاكات: **«إن النظام السابق فعل أكثر»**..

ولما كان هذا النظام السابق - الذي دُعِمَ لعقود من قبل أمريكا ليس غيرها - منافساً تاريخياً يبز هولاكو وجنكيز خان وتيمورلنك ويضع كل الطغاة المعاصرين في جيبه الصغير، فإن هذه المقارنة - الصحيحة ظاهرياً

- كانت ستجعلنا نقبل بكل ما هو أقل ظلماً من النظام السابق، ولأن ظلمه كان قد وصل حدوداً لا نهائية فإن ما هو أقل (الذي يفترض أن نقبل به) سيكون أيضاً كثيراً جداً...

ثم إن النظام السابق لم يتشدق بالحرية وحقوق الإنسان، ولم يجعلها يوماً شعاره ومنطلقاته؛ كان نظاماً استبدادياً شمولياً - قلباً وقالباً - ولذلك لم يكن مفاجئاً أبداً أن ينتهج التعذيب وسوء المعاملة..

كان الأمر المفاجئ هو أن يفعل ذلك حامل شعلة الحرية وميثاق حقوق الإنسان الذي تشدق بأنه جاء ليخلص البلاد والعباد من نير الاستبداد...

بعد ذلك الجدل: «أن النظام السابق فعل أكثر» كان هناك مجموعة من التعديلات والتفسيرات والتبريرات التي تؤكد حقيقة ما ذهبت إليه من غيبية التعامل مع المشروع الأمريكي..

كان هناك حديث عن كون هذه محض (تصرفات أفراد) ولا تمثل حقيقة الأمريكيين - على الرغم من أن الحجم الكلي لهذه التصرفات كان يشير بعكس ذلك، وكان هناك حديث آخر عن **(التضخيم الإعلامي للأمر)** الذي سيجر إلى الحديث عن مناخ **الحرية والشفافية** المتوافرة في عهد الاحتلال الزاهر.. وكان هناك أيضاً حديث عن أن «الأمر ضروري لاستتباب الأمن» على الرغم من أن ذلك إذا صح هنا فسيصح في كل مكان، وكان الأمر يصل أحياناً إلى أن «العراقيين لا يصلح لهم إلا هذا» مع إشارات تاريخية تصل إلى الاستشهاد بالحجاج!.. وبين جملة وأخرى كان يطل شبح النظام السابق..

وكان هناك أيضاً تجاهل لهذه الحقائق الأرضية، تجاهل تام، وغض

نظر مطلق عن كل إساءة يمكن أن يكون قد تورط الأمريكان بها ..فقط تحليق صوفي ووجد لانهائي في (أمريكا) وكل ما تفعله..

❀ ❀ ❀

إنه الدين الجديد أيها السادة.. لا علاقة له بالمنطق كما لا علاقة له باللون والعرق.. لا علاقة له بالجغرافية أو بالتاريخ.. إنه الدين الجديد، وقد جاء ليفرق الجماعات، يصهر الروابط التقليدية.. الأم عن ولدها.. الزوج عن زوجته.. الأخ عن أخيه..

إنه الدين الجديد وعقيدته التي تستحوذ على العقول والألباب.. إنه الدين الجديد وفردوسه الموعود الذي يجعل الناس يتحملون ما تحملوه، ويقولون ما قالوه..

نعم.. ها هو ذا الدين الجديد، وقد جاء ليفسد عليكم دينكم، بل حتى ذوقكم وحسكم ومنطقكم..

شاء من شاء.. وأبى من أبى..

❀ ❀ ❀

ولن أقول أبداً: إن الأمر مقتصر على ما يدور في وطني، على الرغم من أن الأحداث تتزاحم فيه أكثر، والصور تتركز فيه أكثر..

لكني على ثقة أن هذه القصة؛ هذه التناقضات، موجودة في كل مكان في العالم فيه حضارةٌ أصيلة يوشك الوحش الكاسر أن يلتهمها، توجد معركة من نوع ما.. حوار من نوع ما..، ويوجد أولئك الذين يرحبون بالوحش القادم لالتهامهم؛ لأنهم يتصورون أحشاءه أكثر رحابةً من العالم بأسره..

في كل مكان فيه حضارة ضاربة في القدم، وقيم غير قابلة للنزول إلى (البورصة)، وتاريخ لا يمكن عرضه في مزاد (سوثبي) ونخلة عميقة

الجذور، وزيتونة ربما عمرها خمس مئة عام.. في كل مكان فيه شيء من هذا، سيدور شيء كهذا..

وكلما زاد عمق الحضارة، وزادت أصالتها، وحيوية القيم المحركة في داخلها، زادت ضراوة المعركة وشراستها..

وهذا يفسر بعض الجوانب مما يدور في وطني؛ البؤرة الأكثر اشتعالاً في العالم اليوم..

نعم، أسماء الأماكن التي تتصدر نشرات الأنباء، قد تكون عابرة على محور التاريخ.. وما نعده فضيحة مدوية قد لا يكون كذلك بعد عشر سنوات من التراكمات والتفاعلات.. لكن محور الحكاية الأساسي سيبقى واحداً.. سيبقى ثابتاً.. ولو تغيرت بعض التفاصيل هنا أو هناك..

إنها حكاية الدين الجديد الذي جاء حاملاً معه فردوسه، والدين القديم الذي عليه أن يجدد نفسه إذا أراد أن يصمد بوجه الدين الجديد..

۞ ۞ ۞

علينا أن نعترف، أن الأمور لا تسير على ما يرام..

فالبعوضة قد تدمي مقلة الأسد..

وسيفرح هذا جداً قبيلة البعوض والذباب وبقية الحشرات... كما أنه سيشمت خيوانات الغابة الأخرى التي طالما استعبدها الأسد وأذلها كونه ملك الغابة..

لكن، بعد ذلك، الأسد سيزداد هياجاً وغضباً، وربما سيصب جام غضبه على حيوانات الغابة وحشراتها وهوامها..

لكنه سيظل ملكاً للغابة..

وستظل البعوضة، مجرد بعوضة..

أقصى طموحاتها، أن تدمي مقلة الأسد (مرّة أخرى)..

.. الأمور إذن لا تسير على ما يرام..

۞ ۞ ۞

بمعنى آخر، قاذفة (الآر بي جي) يمكن لها أن تحرق دبابة أمريكية.. وتستطيع طلقة القناص أن تصيب رأس الجندي الأمريكي في مقتل، ويستطيع صاروخ (الستريلا) الصغير أن يسقط مروحية أمريكية من نوع (أباتشي).. كل ذلك ممكن.. وهو حاصل فعلاً..[1]

لكن أياً من هذه الأسلحة، لن يستطيع أن يقتل ذلك الفردوس الذي زرعته أمريكا في الرؤوس..

أيٌّ من هذه الأسلحة لن يستطيع أن يحارب الدين الجديد الذي جاء أول ما جاء ليس بالطائرات والصواريخ، وإنما بمعسول الوعود ومبهرج الإعلانات، بفكرة الرفاهية المعلبة في سلع، في ذلك الفردوس الأعلى حيث الاستهلاك هو الثواب الأقصى..

نعم.. (الآر بي جي) تحرق الدبابة، وعربة الهامر والهمفي.. (وتحرج الأمريكان)..

ولكنها، لا تصيب (الحلم الأمريكي).. الذي هو عقدة الأمر كله..

۞ ۞ ۞

.. ربما أصبح واضحاً أنه من السهل توريط أمريكا - كقوة عظمى - في حروب مقاومة من نوع ما يسمونه بحرب العصابات.. وربما أصبح واضحاً أن الجندي الأمريكي - رغم تفوق عدته وتقنياته - ليس نسخة من

(١) بأكثر مما قدرت أمريكا!

(رامبو) الذي لا يقهر.. فهو أيضاً يحبط ويكتئب ويخاف ويجرح ويهرب من الخدمة كي لا يقتل..

.. وربما أصبح جلياً أن الأعداد المتزايدة للقتلى الأمريكيين تحرج إدارتهم.. ويزداد ذلك الإحراج كلما ازداد وقت الاستنزاف.. وازداد عدد القتلى..

وربما، بعد كل شيء، ليس من الصعب تكبيد أمريكا بعض الخسائر، بل حتى حملها على تغيير بعض خططها - المرحلية - هنا أو هناك، وإبداء بعض التنازلات وبعض المساومات..

.. وربما ليس من المستحيل حمل أمريكا على الخروج بقواتها دون أن تأخذ كل مرادها..

لكن الأمر هو أن ذلك كله سيكون خارج الموضوع.. على الأقل في جانب واحد منه فقط..

أكرر ما قلته من أن الاحتلال لم يبدأ يوم دخلت الدبابات.. وإنما بدأ قبل ذلك بفترة طويلة، يوم بدأ الحلم الأمريكي بالدخول..

يوم صارت مقاييسنا تنصب على ما هو هناك، وتقارن بما هو هناك.. يوم صار: أن نكون هناك (أعز أمانينا).. وأن يصبح بلدنا مثل (هناك) هو أقصى طموحاتِ أفضلِ وطنيّينا..

ذلك هو الأمر.. إنه صار فينا، يملي علينا رؤانا وخيالاتنا وطموحاتنا، من هناك بدأ الاحتلال.. ومن هناك دخل الدين الجديد.. ومن هناك خرج بعضهم ليرحبوا به..

وهو أمر لن تنفع معه قاذفة.. أو صاروخ.. أو حتى قنبلة نووية..

❁ ❁ ❁

قوة الحلم الأمريكي

قوة الحلم الأمريكي تتأتى من كونه (حقيقياً)!

نعم.. إن فردوسه الموعود، هذا الذي يسيل له لعاب مئات الملايين، بل المليارات من البشر، هو بعد كل شيء فردوس مادي، موجود حقاً على هذه الكرة الأرضية، بغض النظر عن نظرتنا له، وحكمنا الأخلاقي عليه..

إنه فردوس حقيقي ..أو جحيم حقيقي، هذا شأن آخر، لكنه موجود..

إنه ليس في الكتب والمجلدات..

ليس في النظريات غير القابلة للتطبيق..

ليس في أحلام (المدينة الفاضلة).. وشعرائها ومنظريها الفارغين..

إنما هو هناك، حقيقة شاخصة أمام أعينكم.. ناطحات سحاب.. رفاهية باذخة.. مسابح فخمة.. سلع استهلاكية ووسائل راحة لا تنتهي.. حرية.. جنس وطرق مبتكرة.. وسائل لهو مذهلة ومتجددة.. دوماً متجددة..

إنها الحقيقة الشاخصة.. لا شيء يستوجب الانتظار إلى الآخرة.. إنها أمامكم..

(الجنة ها هنا).

❀ ❀ ❀

أكبر كذبة وأسخف كذبة وأخطر كذبة انطلت علينا، نحن المسلمين، أن المسلمين الأوائل، إنما صنعوا حضارتهم، من أجل فردوس أعلى، يعج بالحور الحسان وبالغلمان، وبأنهار اللبن والعسل وجنان، والسعادة الأبدية..

نعم.. كانت الآخرة في حساباتهم كما لم تكن في حساب أي مؤمنٍ برأي عقيدةٍ أخرى.

لكن ذلك كان (الفردوس) الذي يستحقونه.. كان من أجل فردوس آخر.. دنيوي.. يبنونه..

لم يكن الفردوس الأخروي هو كل ما في رؤوس أولئك الذين ضحوا برؤوسهم من أجل الفوز بما فازوا به.. إنما كان هناك فردوس آخر، فردوس حقيقي بمعنى حضوره الواقعي في حياتهم وحياة الأجيال التي تلتهم..

فردوسهم الواقعي لم يكن جواري وغلماناً، كما أنه لم يكن فردوس رفاهية وغنائم..

كان فردوساً بمعنى مختلف عما تعودناه من ذاك الذي تشكلت رؤانا ومفاهيمنا الدنيوية حوله..

لم يكن فردوس القطيع السائر نحو الهاوية وهو يركض نحو المزيد من السلع. لم يكن فردوس الجرذان الراكضة في (المترو) وهي تقضم حياتها يوماً بعد آخر. لم يكن فردوس الثمل بالشهوات حد الملل.. والتقيؤ الصباحي الممتزج بالكحول والقرف وأبخرة الجنس..

إنه فردوس التوازن والتلاؤم مع الفطرة الحقيقية الإنسانية الثابتة.. إنه فردوس العدالة الاجتماعية الحقيقية؛ حيث لا ثراء فاحش ولا فقر مدقع.. ولكن توازن يجفف منابع الجريمة، وحدود واضحة تحتوي نزعات الإنسان ورغباته دون أن تقزمها وتقسرها على قيود صغيرة؛ ولكن دون أن تعملقها وتحولها إلى مارد وقد انطلق من أسر قمقمه وقد تضخمت شهواته ونزواته..

في ذلك المجتمع - الفردوس، لكل شيء حجمه، ولكل شيء توازنه، ولكل شيء نسبته ضمن سلم أولوياته، ليس أولها - بالتأكيد -

القوة الشرائية للفرد والتي هي بطاقة التعريف الأهم في عرف الفردوس الأمريكي المنشود..

نعم.. لقد كان ذلك المجتمع هدفاً وغاية في الوقت الذي كانت فيه الجنة هدفاً وغاية.. كان ذلك المجتمع حافزاً على البناء ومحفزاً على التغيير بمثل ما كانت الحوريات وأنهار اللبن والعسل والخمرة غير الحرام..

نعم.. ما كان للغيب أن يطغى على الواقع، في الحقيقة، ما كان للغيب إلا أن يكون تابعاً للواقع، وتلك الجنة الموعودة، في ذلك الأفق غير المنظور، ما كانت إلا نتيجة نهائية، تحصيلاً حاصلاً، جائزةً - لذلك الجهد الدنيوي - لعمل الدنيا، بناءً على ذلك الفردوس الأرضي - الواقع..

وعلى الرغم من أنني أقر أن المدينة الفاضلة ليست سوى وهم يسكن خيال المنظرين الساكنين في أبراجهم العاجية.. إلا أنني أصر أن مجتمعاً متوازناً - وليس فاضلاً بالمطلق - هو شيء ممكن الحدوث..

❁ ❁ ❁

تاريخياً، عملت جملة من الظروف المعقدة (سياسية.. اجتماعية.. اقتصادية) على قضم ذلك التوازن البناء في ذلك الفردوس الأرضي الواقعي الذي بنته التجربة الإسلامية الأولى.. وبالتدريج، عمل هذا القضم.. على قلب هذا التوازن، وإفراغ الفردوس من محتواه القيمي والمعنوي، ومن ثم تحويله إلى مجتمع أرضي آخر، يغلب فيه الشر على الخير، ويفعل كل الموبقات متستراً تحت شعارات مختلفة..

والادعاء بأن المجتمع الإسلامي قد استمر ستة قرون لغاية سقوط الخلافة العباسية، أو ثلاثة عشر قرناً لحين سقوط الدولة العثمانية، هو ادعاء ركيك وسخيف ولا يستحق غير الشفقة..

لقد بدأ (القضم) مبكراً جداً في نسيج المجتمع الإسلامي، صحيح أن التوازن لم ينقلب إلا لاحقاً، إلا أن الفردوس الحقيقي لم يستمر أكثر من بضعة عقود..

وليس في ذلك مشكلة في الحقيقة.. فوجود التجربة ونجاحها على الواقع الأرضي وحده كفيل بجعلها (موجودة) كمثال صالح للتطبيق، إلى ما شاء الله.. وانهيار الأمم والمجتمعات.. حتى لو كانت على نموذج الفردوس الإسلامي هو سنة إلهية، لا بد من فهمها وفهم ظروفها - والتفاهم معها - من أجل التوصل إلى نقاط القوة التي جعلتها تستمر، أو نقاط الضعف التي جعلتها تنهار وتتوقف..

الذي حدث معنا، أننا فقدنا الفردوس مرتين..

مرة، لأنه فقد توازناته الداخلية، وبدأ (القضم) فيه مبكراً.

ومرة ثانية، بعد المرة الأولى، عندما فقدنا تلك القيم، المحركةَ نسغَ المجتمع، الذي جعل من الفردوس فردوساً حقيقياً..

لقد فقدنا تلك القيم.. نزعناها عن جلودنا بالتدريج، تعرينا منها وتعرت منا.. ولم نعد نميز فيما بينها وبين غيرها.. صارت محض أقوال مأثورة أو أمثالاً أو أحاديث، وحكايات تاريخية مشهورة..

.. لم تعد قيماً فاعلة في داخلنا..

.. لم تعد تحركنا..

.. لقد فقدناها..

.. فقدنا الفردوس مرتين..



.. عندما يدخل الفردوس الأمريكي ليحتل - ليحارب - يجب أن يكون هناك فردوس آخر ليصمد أمامه، يقاومه..، يحاربه.. أو يحل محله..

وفي حربنا هذه، خسرنا لأن الفردوس الأمريكي لم يجد أمامه من يحاربه.. لم يجد مقاومة تذكر من فردوس هو صنوه في الواقع كما في الخيال..

وجد الساحة خالية.. فدخلها.. واحتلها.. رفع أعلامه وشرع راياته..

لم يكن من الممكن من (الفردوس المفقود مرتين).. أن يحارب هذا الفردوس الأمريكي.. الواقعيّ حتى العظم..

فالفردوس المفقود (منزوع السلاح)..

أولاً، لأنه حكاية تاريخية أولاً وأخيراً.. مرت وانتهت ولم يعد لها مثيل على أرض الواقع..

وثانياً.. لأننا عجزنا عن التقاط قيمها الداخلية المحركة لها، عجزنا عن إبصار نقاط قوتها الحقيقية وفهم نقاط ضعفها.. لم تستنسل فينا.. لم تتناسل داخلنا، لم تتكاثر في عظامنا وتصبح عمودنا الفقري..

نعم.. إنه فردوس مفقود مرتين.. وهو منزوع السلاح لأنه كذلك..

(الآر بي جي) لا يصنع شيئاً للحلم الأمريكي، للفردوس (الأمريكاني).. وكذلك قذائف الهاون..

المعركة الحقيقية تكون بين فكرتين.. بين فردوسين.. والاثنان يجب أن يكونا حقيقيين...

لا فردوس يستطيع أن يحارب وهو محض خيال..



لكننا لا نملك الفردوس الأرضي..

لقد فقدناه، طردنا من ملكوته.. مرتين على الأقل، فهل إلى الرجوع إليه من سبيل؟

.. هل سنستطيع أن نستعيده مرة أخرى، ونكون له، ويكون لنا من جديد..؟

هل يمكن لفردوس مفقود، أن يصير فردوساً مستعاداً؟..

وفي النهاية، سينجلي غبار المعركة - التي لا يشترط قط أن تكون معركة بمعنى الصواريخ والقذائف - عن حرب بين فردوسين.. بين مفهومين لواقعين..، بين رؤيتين لنمطي حياة.. وبين تنظيرين مختلفين.. لحضارتين..

في نهاية الأمر، سينجلي غبار المعركة، عن صراع حاد وشرس.. بين فردوسين..

واحد منهما فردوس مستعار..

والآخر فردوس مستعاد..



.. الفردوس الأول، هو فردوس مستعار..

وهو مستعار أولاً، لأنه مستعار بالتعريف.. لقد ولد في مكان آخر وفي ظروف أخرى، وورث من ظروفه كل مميزاته.. وأيضاً كل عيوبه.. (نقاط قوته في محيطه قد تكون نقاط ضعفه القاتلة في محيط آخر)..، وهو يحمل معه كل مميزاته وعيوبه وتجاربه وخبراته التي تراكمت سلباً وإيجاباً عبر قرون تكوينه..

وفَرْضُه على محيط آخر - له ظروفه المختلفة - لن ينتج إلا مجتمعاً مسخاً هجيناً؛ لن يشعر مخلوقاته أنهم في الفردوس، بقدر ما سيشعرون أنهم قد أصيبوا بالانفصام الحاد بين واقعهم ومحيطهم، وبين فطرتهم الأصيلة وشخصيتهم المكتسبة..

.. وهذا كله أولاً..

وهو مستعار، ثانياً، لأنه كالقناع المستعار شديد البهرجة كثير المساحيق، يخفي وراءه وجهاً قبيحاً كثير الدمامل والحروق، **إنه مثل وجه المهرج الملطخ بالأصباغ وبالابتسامة المرسومة على الشفتين، لكن عينيه، تحت المساحيق، مملوءتان بالدموع، وقلبه، تحت الملابس الملونة، ينتحب بصمت عال..**

خلف القناع المبهرج - **المزيف**، هناك أعلى نسبة طلاق في العالم.. وأكبر معدل جريمة في العالم.. أعلى معدل اغتصاب.. أعلى معدل اغتصاب محارم أيضاً.. هناك أمهات بلا زواج.. وأطفال بلا آباء.. وأكبر معدل لتفكك أسري ممكن على الإطلاق.. وهناك نسب انتحار عالية جداً..

خلف القناع المبهرج يوجد الإدمان.. والإدمان على الإدمان.. والهرب من إدمان إلى إدمان..

خلف القناع المستعار الضاحك.. يوجد أكبر معدل للإصابة بالأمراض النفسية، وأكبر عدد من العيادات النفسية، وأكبر معدل للأطباء النفسيين للفرد الواحد..

.. وخلف القناع المستعار، يوجد كهل في مأوى العجزة، له عدة أبناء لكن لا أحد يسأل عنه، ولن يسأل أحد عنه، فقد سقطوا منه وسقط منهم في زحام (المترو) والركض السريع إلى لامكان..

.. وخلف القناع المستعار، توجد جثة متفسخة لامرأة متقدمة في العمر، ماتت في فراشها ولم يعلم بها أحد.. لم يُدَقَّ باب.. لم يَرِنَّ هاتفٌ... لم يسأل أحدٌ..

(ومضت أسابيع، حتى فاحت الرائحة.. وانزعج الجيران.. فدق الباب أحدهم..)

وخلف القناع المستعار، يوجد طفل يبكي في دولاب.. مضى عليه يومان هناك.. لم يفتح له أحد.. إلا من أجل بعض الطعام..لا، ليس مختطفاً عند عصابة.. لكن والديه يفرغان توترهما والضغوط المختلفة عليهما فيه.. إنه لا يعرف لماذا.. ولا هما يعرفان لماذا..

وهذا كله ثانياً..

.. وهو مستعار، ثالثاً، لأنه مخادع، ومناور، وكذاب، يطلق شعارات ويطبق سواها، يتشدق بمبادئ ويركلها سراً..، يدعي شيئاً وهو - في حقيقته - أشياء أخرى..

.. وهو مستعار، رابعاً، لأنه عار من كل القيم المشتركة في كل الحضارات الأصيلة العريقة وكل الأديان والشرائع السماوية، إنه عار منها لأنه لا يأتلف مع أي شيء لا يمكن تقويمه كسلعة وإنزاله إلى (البورصة) وسوق الأسهم والمضاربات..

لذلك كله، وربما أكثر بكثير من ذلك كله، فالفردوس الأمريكي.. فردوس مستعار..



أما الفردوس «المستعاد».. فهو لم يولد بعد..

لكنه مفقود وموجود في آن واحد..

وهو مفقود مرتين كما أشرت، لكنه موجود؛ بمعنى أنه **سيأتي حتماً.. سيأتي لا محالة، سيأتي كحتمية من الحتميات التي لا مفر من الإيمان بها**، سيأتي كسنة من السنن الكونية التي فهمها فريضة، والتعمق فيها عبادة.

لكن السُّنَّة الأخرى، المتعلقة بسنَّة حتمية استعادة هذا الفردوس، **تتعلق بنا نحن؛ ففي هذا العالم الذي تتشابك فيه الأسباب والمسببات، والأهداف والغايات، وتتعلق سنة بأخرى، وسبب بآخر، فإنه لا أمر هناك يكون قائماً بذاته منفرداً عن غيره..**

كل شيء، كل سنة، كل سبب مرتبط بغيره ارتباط قطعة (الدومينو) بالقطعة التي قبلها، والقطعة التي بعدها..

وإذا كان (الفردوس المستعاد) سنة، فذلك مرتبط بسنة أخرى، مرتبطةٍ فينا.. مرتبطة بإرادة الحياة عندنا.. إرادة التغيير.

استعادة هذا الفردوس، والتمترس فيه، **مرتبطة بنا، بسبرنا لأغواره، بفهمنا لخواصه، بدراستنا لنقاط قوته كما نقاط ضعفه.. باستعادتنا لقيمه وإعادة تقويمها..، بتنصيبه محركاً لحياتنا ونصباً لأهدافنا، وسلماً لأولوياتنا..**

❀ ❀ ❀

ليس الفردوس المستعاد (خلافة) ننادي بها، فتطلع لنا من عصور الاستبداد صور السلاطين ووعاظهم.. وسياطهم وخوازيقهم..

وليس الفردوس المستعاد شعارات براقة نطلقها دون تمعن، إنه ليس شعار (الإسلام هو الحل) نتشدق به، ونحن نحتاج إلى أن نعرف من جديد ما هو الإسلام حقاً حتى نعرف كيف نأخذ منه الحل..

كما أن الفردوس المستعاد ليس عملية (أسلمة) للفردوس الأمريكي، بإضافة شيء هنا، وحذف شيء هناك؛ إنه ليس عمليتي استئصال وتجميل جراحية لذلك الفردوس المستعار يكون بعدها كل شيء على ما يرام.. نفس عالم البهرجة الاستهلاكية المستعارة التي يساوي الفرد فيها مقدار قوته الشرائية، لكن هذه المرة؛ الزوجة بحجاب شرعي، والزوج بلحية حسب السنة، والأطفال يرتدون ملابس بيضاء.. حتى البيرة يمكن لها بهذه الحال أن تشهر إسلامها.. وتصير إسلامية..!

الأمر أعمق من هذا الهذر كله..

وقيم الفردوس المستعاد لن تتواءم بالضرورة مع قيم الفردوس المستعار - كما أنها لن تضادها بالضرورة - إنهما ببساطة قيم مختلفة قادمة من منطلقين مختلفين، وليس من واجب أي أحد.. أن يقسر ويلوي ويطوي قيم الفردوس المستعاد ليلائم قيم الفردوس المستعار؛ لنبرهن أن لا فرق كبيراً هناك بين الفردوسين وكفى الله المؤمنين القتال..

الأمر أعمق.. أدق.. وأكثر رهافة وحساً من كل ما يزعمون..

.. وقيم الفردوس المستعاد، التي قد تكون اليوم مدفونة تحت ركام التأويلات والتفسيرات والفتاوى والتبريرات والتحويلات، لا تزال موجودة، وربما يكفي بعض من الاستبصار، وبعض من التمرد، وبعض من اليقين، لنمسك بذلك المصباح المنير، ونحركه.. وإذا بذلك المارد ينبض حيوية وحياة واشتعالاً ويغادر قمقمه إلى أرض الواقع - أرض الفردوس المستعاد..

[ربما نستطيع أن نؤكد أن الحرب بين الفردوسين ليست هي شكل العلاقة الوحيدة الممكنة بينهما.. فهناك أيضاً الحوار، كما هو معلوم...

لكن الحوار لا يكون إلا بين أنداد والحوار بين المهزوم والمنتصر ليس حواراً بل هو إملاء للشروط من قبل المنتصر وقبول مستسلم لها من قبل المهزوم].

❀ ❀ ❀

.. وغبار المعركة الذي سينجلي عن الصراع بين الفردوس المستعار والفردوس المستعاد لن يكون على أرض أي واقع جغرافي في خطوط الطول والعرض..

لا ، ليست أي مدينة من المدن الملتهبة والمواقع الساخنة التي تتصدر الأخبار.. ولا أي مكان من ذلك المحور الهائل، محور طنجة - جاكارتا الذي آن له أن يستعيد فردوسه المفقود...

غبار المعركة، وأبخرتها، ودخانها ونيرانها، سيكون في داخل الرؤوس..

سيكون في رأسي.. وفي رؤوسكم.. وفي رؤوس أولادي.. ورؤوس أولادكم..

في كل رأس سيكون هذا الصراع بين ذلك الفردوس المستعار وذلك الفردوس المستعاد..

نعم.. ففي كل منا شيء من الفردوسين.. شيء من الحلمين..

الفردوس المستعار موجودٌ بقوةِ الحلمِ الأمريكي الخلاب اللعين في آن واحد (وإياك أن تنكر..)

والفردوس المستعاد موجود وكامن كمون الفطرة المتأهبة للوثوب..

والمعركة لا تزال قائمة.. والصراع لا يزال جارياً..

والنتيجة لم تحسم بعد..

قد نتخيل للحظات أو لدقائق أو لدهور أن لا فائدة.. لقد قضي الأمر.. والفردوس المستعار قد استطاع الانتصار.. لكن شيئاً أو آخر يستطيع أن يقلب الطاولة والموازين.. وإذا بذلك الفردوس الآخر - المفقود مرتين - قد تمكن من كسب جولة، وإذا بنا نستعيده ونقترب من ملكوته..

نعم.. النتيجة لم تحسم بعد..، والمعركة لا تزال ضارية..

وستجد نفسك، أنت.. نفسك..، منحازاً - دون أن تدري أحياناً - لذلك الفردوس المستعار..

.. وستأرجح طويلاً بين الفردوسين، وستقاوم نفسك بنفسك..

لكن المعركة ستظل مستمرة لفترة طويلة..

وجولة بعد أخرى، سيتشكل الفردوس المستعاد.. وسيصير مؤهلاً للصمود أكثر فأكثر..

❀ ❀ ❀

رؤوسكم ورؤوس أولادكم هي ساحة القتال..

ورؤوسكم هي التي ستنبئكم بآخر التطورات - بأفضل مما تستطيع أفضل وكالات الأنباء والقنوات الفضائية وأسوؤها..

فلا تغير المحطة إن لم تعجبك الصور المنقولة.. لكن التفت إلى رأسك.. واسأله.. أين انحيازه.. وأين هواه حقاً.. إلى ذلك المستعار أم إلى هذا المستعاد؟..

نعم. الأمر كله هناك في رأسك.. فلا تلتفت هَنا أو هناك بحثاً عن جواب.. ولكن التفت إلى رأسك..

ووحده الجواب الذي سيكون هناك - في الرؤوس - سيحدد ما يكون عليه الغد الذي ننتظره.

إنما هذه المرة لن ننتظره..

بل سنجعله يأتي..






الفصل الثاني
سيناريو الفقدان
وخطة الاستعادة

منذ أن بدأت البشرية ترسم طريقها الأول المبكر نحو النهوض والنضوج، ظهر واضحاً في ذاكرتها، أنه كان هناك خروجٌ ما، من فردوس ما، طردٌ ما من جنة ما، بسبب خطيئة ما..

في كل المعتقدات والموروثات، على اختلاف خلفياتها، على اختلاف مواقعها الجغرافية وانتساباتها العرقية؛ كان كان هناك آدم ما، لا يشترط أن يكون اسمه آدم، لكنه موجود بصفته أبا البشر. وهناك دوماً امرأة هي زوجته، ليس مهماً أن يكون لها اسم محدد، لكنها موجودة بصفتها أم البشر، وهناك معهما تلك الجنة؛ ذلك البستان الرائع، الذي تختلف أوصافه باختلاف مفهوم الجنة والعيش الرغد من مكان لآخر، وهناك دوماً غواية معينة.. خطيئة معينة يعاقبان عليها بالطرد من الجنة..

مسألة الطرد من الجنة تعد من القواسم المشتركة القليلة بين كل حضارات العالم وأديانها الإنسانية جمعاء، بشكل لا واعٍ.. ولكن أصيل ومؤكد..

بل إننا لو نبشنا قليلاً في ذاكرتنا الفردية، وتعمقنا في مغاورها وكهوفها لوجدنا ذكرى غائمة ومغبشة عن تلك الجنة؛ مسكننا الأول الذي شهد بواكير طفولتنا - بالمعنى الإنساني الشامل - وسنشعر بغصة وتأنيب ضمير لأننا اقترفنا - على ما يبدو - شيئاً ما.. استوجب طردنا من ذلك المكان الرائع..

نعم! إنها الذاكرة المغروسة بعمق في اللاوعي الإنساني، ترجمت نفسها عبر تعاقب العصور وتراكم الحضارات بشكل أسطوري، درامي، وغالباً ما اتحدت مع الموروث الديني لكل الأديان، حتى الوثنيّة منها..

لست الآن بصدد عقد دراسة مقارنة لموضوع الخروج من الجنة، وطرد آدم منها بين مختلف العقائد والأديان، لكني أشدد على أن كل قصة - رغم تشابه الخطوط العامة - تحمل في داخلها تفاصيل تعكس الخصوصية الحضارية للدين أو العقيدة التي تعبر عنها وتنتسب إليها القصة؛ مثل ذلك التفصيل المشهور الذي يُحمِّل حواء - أو أياً كان اسمها - مسؤولية الغواية والخروج من الجنة، انعكاساً لاحتقار بعض الأديان والحضارات للمرأة، وتحميلها عموماً كل أسباب المشاكل في المجتمع، وهو تفصيل غير موجود في النسخة القرآنية - الإسلامية من القصة - رغم أنه مشهور جداً وينسجم (عدم وجود) هذا التفصيل مع الرؤية القرآنية المميزة للمرأة عموماً..

لن أخوض في مزيد من المقارنات، رغم أنها غنية ومميزة، لكني أود التركيز في النسخة الأخيرة (القرآنية) من قصة الخروج من الجنة؛ **فالكثير من خصوصياتنا الحضارية ومميزاتنا التاريخية تكمن بين سطور تلك القصة..**

❁ ❁ ❁

آدم

عرضت قصة الخروج من الجنة في الخطاب القرآني، في ثلاثة مواضع؛ البقرة (٣٥ - ٣٨)، الأعراف (١٩ - ٢٥)، طه (١١٦ - ١٣٢)، وهذا يعني أنها تكررت مرتين في المرحلة التأسيسيةفي القرآن المكي، الأعراف وطه، وأعيدت مرة أخرى في القرآن المدني، عبر سورة البقرة..

والنصوص القرآنية الثلاثة قصيرة ومكثفة ومركزة. وهي ككل القصص في الخطاب القرآني، مليئة بالمعاني والرموز، والغوص فيها يتطلب رؤيتها من جميع الجهات.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ

تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

في (سيناريو) الخروج من الجنه هذا، توجد خطوط عامة، تكاد تكون بعد تفحصها والتعمق فيها خطوطاً عامة لكل خروج من كل جنة، لكل انهيار يأكل من الداخل في لب المجتمع، ويخرجه هو وأفراده من جنة استقرارهم ورغد عيشهم.

في تلك الآيات، هناك خطوط عامة لتلك السنة الإلهية التي ما تلبث أن تكرر وتعاد..

أول ما نلاحظ في هذا (السيناريو) وجود مجتمع مستقر، ويعيش حياة ناعمة ورغدة، بالمعنى المفتوح لكل المعاني..

لفظة (السكن) خصوصاً التي وردت مرتين في الخطاب القرآني، تذكرنا بالمعنى الأصلي للجذر (سكن)؛ إنه ليس المسكن بمعنى المنزل؛ العنوان البريدي الذي يكاد ينقرض مع طغيان العناوين الإلكترونية وانتشارها.. لكن الجذر الأصلي الذي من أجله صارت كلمة مسكن..

إنها السكينة! إنه التصالح مع النفس.. ومع الآخرين. إنه التصالح الذي يلم أطراف الجميع ويجمعهم تحت خيمة مجتمع واحد..

إنه مجتمع متصالح مع نفسه، دون صراع ينهشه من الداخل، وبالتأكيد دون صراع طبقات!

ويجرنا ذكر صراع الطبقات إلى موضوع آخر..

إنه العيش الرغد، و(كلا من حيث شئتما) التي تزين الآيات الكريمة..

هل كانت الجنة إذن مرتعاً لكل ما يخطر بالبال، ولما لا يخطر ببال أحد؟..

هل كانت الرغبات كلها محققة؟ وكل ما تتمناه تحصل عليه؟

هل كانت الجنة إذن نسخة سماوية من الحلم الأمريكي الذي يقدم لك كل ما تريد، وكل ما لا تريد، بل إنه يجعل من كل ما لا تريد ضرورة ملحة لا تستطيع إلا أن تريدها بإلحاح؟..

للوهلة الأولى يبدو أن جنة آدم هذا ما كانت عليه.. لكن الرؤية من الجهات الأربع ستغير هذه النظرة وتجعلها أكثر واقعية وانسجاماً..

فالنص في صورة طه، يحدد بالضبط (ماهية) هذه الحاجات التي امتلأت الجنة بها وسدتها داخل نفس آدم وزوجته..

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾. الجوع والعري والظمأ والأذى من تقلبات الجو..

هذه هي جنة آدم، وهذه هي الحاجات التي سدتها إذن؛ حاجات أساسية؛ حاجات المعايش الرئيسية التي لا يختلف اثنان على أولويتها على كل ما سواها من حاجات مفتعلة أو مكتسبة..

السكن. الغذاء. الماء. والملبس.

هذه هي الحاجات الأساسية عبر تاريخ التجربة الإنسانية بأسرها حتى اليوم، هذه هي الحاجات الأساسية حتى بمنظورنا المعاصر جداً والمتقدم جداً، حتى بمفهوم الأمم المتحدة والمؤسسات الإنسانية التابعة لها. لا تزال هذه الحاجات الأربع هي مقياس الحاجة الإنسانية المعتَمَدة عند قياس الفقر، في هذا العالم الذي ازداد تقدماً وثراء وفحشاً وظلماً وفقراً، هذا العالم الذي ازداد فيه الثراء الفاحش، ولكن ازداد فيه الفقر المدقع.. الفقر الموجع..

هذا هو العالم الذي خرج من جنة آدم.. جنة الحاجات الأساسية..

يالخيبة الأمل.. سيقولون!.

إذن جنة آدم لم تكن جنة المزيد والمزيد، ومنها العسل واللبن و(البيبسي كولا) والخمرة وحوريات (هوليوود) الحسان..

بل كانت جنة ملبس ومأكل فحسب..

يا لخيبة الأمل!

للأسف هذا كل ما لدينا.. حسب الرؤية القرآنية للجنة..

وقبل أن تقود خيبة الأمل إلى أي إحباط ليس هناك أي أحد بحاجة له.. أحب أن أذكر أنه ليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد أن جنة آدم هي ذاتها جنة الثواب التي وعد بها المؤمنون؛ إنها جنة أخرى تماماً، مختلفة الطبيعة والنسيج.. وقوامها الأساسي إشباع الحاجات الأساسية..

(أما جنة المزيد والمزيد. جنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. فهي جنة مختلفة - وتقع في بعد آخر.. وضمن مفهوم آخر تماماً).

إنها جنة مجتمع متوازن أولاً، ويتمتع بالحاجات الأساسية ثانياً. إن هاتين الصفتين مرتبطتان أكثر من مجرد الترتيب.. لعل هذا التوازن والسكينة، والصلح مع النفس ومع الآخرين، كان ناتجاً أساسياً عن اقتصار المجتمع على تلك الحاجات الأساسية، وعدم الركض خلف رغبات استهلاكية مفتعلة وتحويلها إلى حاجات مقدسة..

إنه مجتمع يهدف أولاً إلى سد الحاجات الأساسية للجميع، وكل ما خلف ذلك يأتي فيما بعد على سلم الأولويات، وهذا هو سبب توازنه.. واستقراره..

سيقطبون جبينهم: يا للبؤس؛ أولويات المجتمع هي سد الحاجات الأساسية للجميع، وكل ما عدا ذلك يكون لاحقاً؟ أين دور الطبقة

النخبة؟ أين الترف وملابس الحرير، والعيشة الرغدة الهنية التي لا يعكر صفوها غير طلب المزيد من الترف..؟ لا شيء من هذا كله.

الحاجات الأساسية أساساً، وكل ما عدا ذلك غير مهم، بل غير موجود على سلم الأولويات..

«هل أنت شيوعي؟» سيلمحون.. دون أن ينتبهوا أنهم يلصقون أفضل ما في ديننا بتلك العقيدة الملحدة التي لم تستطع أن تضع لها جذوراً عميقة في أرض الواقع.

لا، ليست الشيوعية، ولا أتحدث عن (كومونة) باريس، ولا عن كفاح البروليتاريا ولا عن النمط الآسيوي للإنتاج.

إنما أتحدث عن جنة آدم. وسورة طه.

وذلك المجتمع.. الجنة.. الذي كان.

يلفت النظر أيضاً - النظر في تلك النصوص - إلى أن تلك الجنة لم تكن جنة خالية من المحرمات التي ستكون حلالاً في الجنة، وأننا سنضع حزام العفة جانباً والأوامر والنواهي على الجانب الآخر، وننطلق لنغوص في بحار كل ما اشتهيناه سابقاً وامتنعنا عنه (لسبب أو آخر)..

ربما في الجنة الأخرى..

لكن ليس في جنة آدم..

ارتبطت في أذهاننا الشجرة المحرمة بكل ما لا علاقة له بها في الواقع.. فقد عملت الرؤية (الهوليوودية) للقصة على طمس القضية برمتها؛ فصارت الشجرة المحرمة، رمزاً للجنس، وصارت الشجرة شجرة التفاح، وصارت تفاحة آدم رمزاً لأساليب الغواية والمكر التي تتبعها النساء من أجل جر الرجال إلى ذلك الشيء. وهكذا طمست القضية برمتها. علماً أن

الرواية التوراتية في العهد القديم بريئة تماماً من هذا الطرح، وأن الرؤية القرآنية ما كانت لتتجاوز هذا الطرح - لو أنه كان حقيقياً - تحت أي ذريعة.. فقد تعمق النص القرآني في كل ما يستوجب التعمق، مهما كان الموضوع من الخارج محرماً وباعثاً على الحياء والإعراض..

إذن لم تكن الشجرة المحرمة رمزاً للجنس أو للغواية.. كانت مجرد حدٍّ محرم في جنة تصورناها بلا محرمات.

لكن لماذا يكون هناك شيء محرم في الجنة؟

لماذا كان يجب أن تكون هناك شجرة محرمةٌ في جنةٍ كل أشجارها الأخرى حلالٌ طيبٌ؟

لماذا هناك (لا تقربا هذه الشجرة) مقابل (كلا من حيث شئتما)؟

لماذا وضعت هذه الشجرة أصلاً؟ وما السبب في وجودها؟

سيكون هناك جواب تقليدي - ربما يكون صواباً - عن كون الشجرة المحرمة اختبار - ابتلاء - أعده سبحانه وتعالى لآدم.. من أجل الرهان الذي حدث مع إبليس، يوم أقسم الأخير (فبعزتك لأغوينهم أجمعين)..

وسيكون هناك شيء عن القدر، والعلم المسبق بنتائج الأمور، وعن الشجرة التي يجب أن تكون ذريعة من أجل خروج آدم من الجنة.. وهي أجوبة تدور كلها على محور واحد؛ أراه بعيداً تماماً عن المسألة عندما توضع في (بانوراما) الرؤية من أربع جهات..

ربما لم تكن الشجرة محرمة ذاتها، ربما لم تكن سوى شجرة أخرى بين آلاف الأشجار في الجنة الغنّاء، ربما لم تكن تفرق عن أي شجرة أخرى من أي ناحية على الإطلاق..

ربما لم تكن المسألة في (ذات) الشجرة المحرمة، بل في فكرة (الحرام) نفسها..

ربما لم يكن هناك شيء محرم في الشجرة أو ثمرتها، وربما لم يكن ليفرق كثيراً لو أن الشجرة حرمت، أو العشب بجانبها أو الزهرة خلفها..

لكن فكرة (الحرام) نفسها كانت هي المقصودة. وجود (تابو) معين، حد (محرم)، هو المقصود في حد ذاته..

نعم.. ليست الشجرة، بل الحرام بحد ذاته.. فكرة وجود شيء محرم، حدٌّ لا يجوز انتهاكه..، هو الضروري لاستقرار أي تجمع مدني وتوازنه، حتى لو كان مكوناً من آدم وزوجته لا أكثر.. نعم.. إنه الحد الفاصل الذي يتأسس عليه استقرار المجتمع وتوازنه..

يشكل (الحرام) - الممثل هنا في الشجرة - كابحاً لا غنى عنه في استقرار أي مجتمع، والحفاظ عليه من السرعة الفائقة التي قد تلحق به الضرر، وقد تؤدي به إلى الاصطدام بما لن تحمد عقباه.. السيارة - أي سيارة - مهما كانت فخمة وحديثة وفارهة، وتسر الناظرين إليها، ستحتاج الكوابح بقدر ما تحتاج مبدل السرعة ومدوسة البنزين.. الكوابح ستوفر الأمان، وستوازن تلك السرعة الفائقة التي لن تكون ميزة - كما يراد لها أن تكون - فيما لو كانت الكوابح سيئة..

نعم، إن كل مميزات مركبة سريعة وحديثة، من تلك التي تطرز الإعلانات، وتلك التي يبحث عنها الهواة، لن تكون مهمة، بل قد تكون قاتلة فيما لو قدر للكابح أن يعطل..

فكيف لو كان مفقوداً أساساً؟..

من هنا تأتي أهمية مفهوم الحرام.. بغض النظر عن ماهية الشيء المحرم ذاته، ومدى إضراره أو عدم إضراره بالمجتمع..

مفهوم (الحرام) بحد ذاته مفيد للمجتمع؛ إنه يشعره دوماً بأن هناك حدوداً ينبغي مراعاتها، إنه يفهمه دوماً أن يخفف السرعة ليراجع حساباته، ليراجع أهدافه، يراجع ما تقدم وما تأخر من أعماله.. (الحرام) يوازن السرعة ويوضح مفهوم (الحلال) نفسه؛ يجعله أكثر بروزاً وأكثر شفافية.. يضع تحته خطوطاً ملونة بارزة، ويجعله مميزاً. ودون الحرام لن يكون للحلال وضوح ولا أهمية..

ومفهوم (الحلال) يعلم الانضباط ويجذره داخل دهاليز النفس، وليس صحيحاً أن كل ممنوع مرغوب بالمطلق؛ فالممنوع أيضاً يربي في النفس الطاقة على التحمل، إنه ينظم السير في تقاطعات الطرق المزدحمة.. قف هنا.. سر هناك.. خفف السرعة.. دون ذلك ستزدحم الطرق إلى درجة الاختناق.. ولن يكون ممكناً السير أصلاً..

كذلك يعمل مفهوم المنع - أو الحرام - أنه ينظم سير طاقات النفس، ويحولها من مجرى إلى آخر دون أن تصطدم ببعضها بعضاً، ودون أن تخنق صاحبها، ودون أن تتوقف نهائياً عن العمل..

مفهوم المنع يشبه السد على النهر. من دونه سيأتي الفيضان في موسمه ليأكل الأخضر واليابس، ثم يأتي الجفاف فلا يجد مخزوناً يقتات عليه الناس والزرع..

مفهوم المنع يعمل على تحويل الطاقة، كما يعمل محول الطاقة الكهربائية بالضبط؛ من دونه ستكون الطاقة الكهربائية غير مفيدة.. إن لم تكن جالبة للهلاك..

بين كل هذه الأوصاف، ومنها جميعاً، يأتي مفهوم (الحرام)، إنه يقنن الطاقات، يضعها في علب ويوفرها لوقت الحاجة..

إنه يدرب النفس الإنسانية على ذلك.

وهذا بالنسبة لمفهوم (الحرام) بحد ذاته، بغض النظر عن الشيء المحرم ومدى إضراره اجتماعياً..

تقف تلك الشجرة المحرمة هنا رمزاً لمفهوم (الحرام) - الذي عرفنا أهميته (بالمطلق) - ولا نجد أثراً لسرير الخطيئة وتفاحة آدم ورائحة الغواية التي ارتبطت بالمشهد..

بل تقف الشجرة - بصلابة وشموخ - رمزاً لأهمية مفهوم (الحد) الواجب احترامه.. ويدخل جذعها الصامد في عمق نسيج المجتمع.. لا أثر للعقد الجنسية في الشجرة، ولا أثر للكبت الموروث للعقد.. ولا (طوطم) هناك، على ما يبدو، إلا في ذاكرة قبيلة بدائية لم تمر في تاريخها بذلك الفردوس المفقود..

فإذا كان كذلك، فلماذا أتشبث (بالطوطم) الذي لا أعرفه، ولا يشكل جزءاً من موروثي، وأترك شجرةً أكاد أجد ملمسها في ذاكرتي؟

❁ ❁ ❁

ثم حدث الانتهاك لهذا الحد المحرم...

.. وأكل آدم وزوجته من تلك الشجرة المحرمة.

وكان هذا الانتهاك هو النقطة التي تداعت فيها أركان الفردوس.. فكان الطرد..

.. وكان الفقدان..

أود أن أقف هنا عند تفاصيل ذلك الانتهاك الذي أخرجنا من الجنة، والأسلوب الإبليسي الذي اتبعه إبليس في تنفيذ قسمه.. وهو أسلوب جدير به أن يتبعه.. أو أن أقف عند الطريقة، والأسلوب، والشعارات التي اتبعها إبليس في خديعة آدم وزوجته..

فهي على ما يبدو لا تزال مستعملة مع أولاد آدم وبناته.. في كل مرة يسقطون فيها.

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠-٢١].

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٠].

فلنلاحظ الشعارات التي رفعها إبليس في خطته؛ لم يقل: إن الممنوع مرغوب. لم يقل شيئاً مباشراً قط، لكنه رفع شعارات في غاية الجاذبية والبراءة، بل إنه أقسم لهما أنه لهما ناصح، وأنه يبذل جهده من أجلهما...

فلنلاحظ شعاراته (أن تكونا ملكين) (أن تكونا من الخالدين) (ملك لا يبلى..).

كلها براقة وجذابة، لكن كلها مزيفة وخداعة.

وكلها بعيدة - شديدة البعد - عن العالم الواقعي، عالم الحاجات الأساسية الذي كانت جنة آدم قد برعت في سده في نفس آدم وزوجته، لكن إبليس تسلل إليهما من **نزعة الخلود**، فأوهمهما أن تلك الشجرة ستمنحهما الخلود، وتسلل إليهما من **نزعة التملك**، بل إنه أغراهما بنزعة استهلاكية شديدة الوضوح: **ملك لا يبلى..**

هل هي حاجات غير أساسية؟ هل هي نزعات دفينة في عمق النفس البشرية؟.. لست متأكداً، لكنه تسلل - **كالوسواس** - من هناك، ودار في رأس آدم أنه سيحوز الخلود.. وسيصير ملكاً لا يطرأ عليه تغيير، وسيمتلك ملكاً يفيض عن حاجته الأساسية لدرجة أنه (لا يبلى) ..**وسقط الكابح..**

∴ وكان السقوط..



أريد أن أركز أيضاً على تعبير قرآني آخر، يصف ما حصل، وما ظل يحصل.. وما سوف يحصل.. إلى أن يشاء الله أمراً كان مقضياً، هذا التعبير هو ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٢].

لقد جعل إبليس يدل آدم - بالخديعة - بطريقة توهم آدم، أنه هو نفسه من يبحث ويطلب معرفة الطريق إلى تلك الشجرة.. (فدلاهما بغرور)

لقد دخل إلى دواخله، وسوس له، جعله ينزع نحو الخلود، وحرك فيه نوازعَ ما كانت تخطر على باله، جعله يحلم بملك لا يبلى.. وهو الذي كان مكتفياً بالحاجات الأساسية.. وتصور آدم - بعد كل ذلك - أن تلك الوساوس هواجسه الشخصية، وأن دواخله الحقيقية تبحث عن مخرج لها..

لقد دلاهما بغرور.. **جعلهما يتدليان نحو القاع**، نحو القعر، نحو أسفل سافلين، بينما هما يتصوران أنهما يركبان سلم الرقي والتطور...

وقادهما إلى تلك الشجرة المحرمة، خطوة خطوة.

.. وخطوة إثر خطوة من خطوات الشيطان في دواخلهم، في نوازعهم، فيما بدا لهم أنه أصيل في أعماقهم، دلاهما بغرور.. بخديعة..

ووصلا إلى تلك الشجرة، عبر خطوات الشيطان.

.. يذكرنا ذلك، لو أردنا التذكر، بكل سقوط حدث في هذا العالم الذي استغرق سقوطه تاريخاً إثر تاريخ. حتى على الصعيد الشخصي، سنجد بصمات هذه الخطوات واضحة.. وجلية..

سنجد هذا الهمس: أنت حر!، خلقك الله بهذه النوازع، الزمن تغير، وكانوا يتزوجون وقتها مبكراً!، لقد خلقنا الله لنستمتع بهذه الدنيا، أنت أهم شخص في حياتك، فلا تهتم بما يقول الآخرون، ليس هناك من ضرر في هذا.. لن يضر هذا أحداً، والله لن يحاسبنا إلا على ما يضر الناس.. الناس تطوروا الآن والقيم تغيرت، هل ستظل بهذه العقلية؟

خطوة، خطوة، من خطوات الشيطان في داخلنا.. إلى أن نصل إلى تلك الشجرة المحرمة.. التي نسقط بعدها.

(فدلاهما بغرور؟).

لا ، ليس هما فقط، ليس آدم وزوجته.. بل كل أولادهما.. من بعدهما..

لقد كان دليلاً لنا جميعاً في رحلة التدلي نحو القاع، تحت شعار الصعود إلى القمة.

وتذكرني خطوات الشيطان في دواخل آدم، ووعوده وادعاءاته بملك لا يبلى، وبخلود مستحيل، بكل الشعارات التي ترفع في عصرنا هذا - وربما في أي عصر آخر - من أجل الترويج لفردوس مستعار لا شيء محرم فيه.. يذكرني الملك الذي لا يبلى، بتلك الجنة التي يروجون لها ولنعيمها الذي لا ينتهي ولا يبلى.. بل يظل يجدد نفسه حتى قبل أن يبلى.. يذكرني الملك الذي لا يبلى، بجشع لا حدود له، وبشهوة للتملك لا أفق لها، وبهوس في الاقتناء يكاد يصل حد المرض العصبي..

تذكرني وعود إبليس لآدم وزوجته بـ (أن يكونا ملكين) - بشكل غامض وخفي - بكل وعود الرقي والتقدم التي تلقى على مسامعنا ليل نهار.. فلا ريب أن الوعد بالتحول إلى ملائكة كان يعني - في نفس آدم وزوجته - الترقي في سلم المخلوقات.. والانتقال من جنس البشر - المخلوق من طين - إلى جنس الملائكة المخلوق من نور..

نعم، لقد وقع القول في نفسيهما موقعاً حسناً.. ولعلهما فكرا قليلاً.. (إن الأمر يستحق بعض التضحية.. بعض الانتهاك.. حتى لو كان الأمر يستوجب الاقتراب من تلك الشجرة المحرمة..).

إنها تلك الشعارات ذات الظاهر البريء البراق، والباطن المليء بالزيف والخديعة.. وتلك الخطوات، نستدل بها بغرور..

لم يتغير الأمر كثيراً؛ إننا نخدع بالترقي والصعود من مرتبة الإنسان الأسمر المتخلف الجاهل البدائي.. إلى المرتبة الأعلى للإنسان الأبيض المتحضر.. صاحب المدنية والرقي والتقدم..

إنها الخطوات نفسها تخدعنا، الشعارات نفسها؛ البسوا مثله، وليكن أنموذجاً لكم في كل شيء. قصوا شعوركم كما يفعل، وزينوا رؤوسكم الفارغة بتسريحاته، واعوجوا الطاقية فوقها كما يفعل هو.. وليعوج لسانكم قبلها بلغته ومصطلحاته وألفاظه..

.. وإذا نظرتم إلى المرآة بعد كل هذا، وأزعجكم أن لون بشرتكم ظل أسمرَ داكناً فلا بأس بذلك فالرجل الأبيض - دام ظلّه وظلُّ حضارته - قد وجد لكم الحل جاهزاً معلباً: معاجين خاصة لتفتيح البشرة، صنعت خصيصاً لكم ولعقدكم. ولتضحك بعدها منكم الطواويس والغربان يا أمة ضحكت منها الأمم. والمهم هو التقدم. المهم هو الترقي. المهم هو أن (تكونا ملكين).. درجة أخرى على سلم التطور البشري الذي نعتقد أننا في قاعه..

شعارات براقة مثل التحول إلى ملائكة، والخلود، والملك الذي لا يبلى؛ فعلت فعلها آنذاك ولعبت بالرؤوس، كما تفعل الآن شعارات الرفاهية والرخاء والعولمة والشرق أوسطية والشرق الأوسط الكبير.. وجنة الاستهلاك الموعودة..

نعم.. خطوة.. خطوة.. (دلاهما بغرور)..

لا لوم على الشيطان؛ إنه يقوم بعمله.. إنما المشكلة فينا، نحن الذين نتبع خطواته: خطوة خطوة.. بغرور..

شيء آخر يلفت النظر في سياق السرد القرآني المفعم بالرموز والدلالات.. إنه تلك الإشارة إلى أن **سوءاتهما بدتِ لهما** بعدما أكلا من الشجرة..

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠-٢٢].

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه: ٢٠/ ١٢١].

النظرة الأولى للآيات ستعيدنا إلى مشهد العورات الجسدية التي بدت فجأة بعد الأكل من تلك الشجرة.. آدم وزوجته وهما يبحثان عما يسترهما..

دعونا نتجاوز النظرة الأولى، ونرفع التفاصيل التي تراكمت عليها.. لنعود بالمشهد إلى جذوره ورموزه الأصلية..

هذه (السوءات) - التعبير القرآني لم يذكر لفظ العورات قط في هذه القصة - بدت بعد الأكل من الشجرة المحرمة، قبلها كانت قد ووريت عنهما.. وبعد اقتراف المحرم.. بدت لهما..

إذن هذه السوءات لم تنم أو تنبت أو تخلق عقب الأكل من الشجرة.. لقد كانت موجودة.. إنما كانت متوارية، مواربة، كانت قد أسدل عليها الستار..

ثم سقط الكابح..

وهتك الستر.. وبدت لهما..

تذكرني هذه الخطوط العامة بكل ما يدور لنا وبنا عبر العصور المتعاقبة..

فالسوءات الموجودة في داخل الإنسان ليست مقتصرة على جسده عبر أعضائه التناسلية فحسب، كما يحلو لبعضنا أن يتصور.. لكن في داخل

الإنسان سوءات نفسية وعورات داخلية شديدة الوعورة.. شديدة الحساسية.. وممكن أن تكون شديدة الإيذاء..

الإنسان هذا المزيج الفعال من قبضة الطين ونفخة الروح مليء بكل التناقضات، بالخير كما الشر، بالسوء كما الصلاح، **بالعورات المتوارية وبالأطراف التي تبني وتشيد الإنسان، .. هذا المزيج من الأضداد والتنوعات، هذا البحر من الأسرار المتوارية والأفعال المعلنة..**

هذا الإنسان، هل يحتاج حقاً أن يكون كتاباً معلناً في كل ما فيه من خير وشر.... هل يحتاج أن يكشف عوراته النفسية و الداخلية كلها، حتى تبدو للعيان، حتى تبدو لنا جهاراً نهاراً، ونقنع أنفسنا بعدها أنها ليست عورات؛ حتى يمكننا التعايش مع ظهورها..

لقد كان هذا ما حدث..!

❀ ❀ ❀

منذ أن فقدنا الفردوس، ودخلنا في التيهِ الطويل البعيد عن أنفسنا، وأوراقُ التوتِ تسقط تباعاً عن عوراتنا، فنلتفت ونجزع، ونبحث - عبثاً - عما يسترنا من أوراق الجنة، ويأتي من ينظِّر ويفسر ويتفلسف، ويقنعنا بالكفِّ عن هذا: إنها ليست عورة؛ إنها جزء طبيعي من أجسادكم ومن نفسياتكم، فلماذا تغطونه؟ المهم هو أن تتعلموا استعماله. إنها ليست سيئة، إنها نزعات طبيعية داخلكم، ولا شي هناك شاذ حقاً. المهم هو ألا تؤذي أحداً..

وورقة توت تلو الأخرى، عورة تلو الأخرى، وسيئة تلو الأخرى، وكل شي بدأ يبدو بالتدريج أنه طبيعي وعادي وخيّر، ولا شيء سيئ أو يستحق أن يُوارى..

«لقد خَلَقَنا الله هكذا! فلماذا نخفيه»؟ إخفاؤه سيؤدي إلى الكبت!. ويا للهول؛ الكبت سيؤدي إلى كوارث وعقد.. كل شيء إلا الكبت. كل شيء إلا الكبت..

وكل شيء إلا الكبت..

وانظروا أين وصل العالم اليوم: بلا كبت..!

في عالم الفردوس المستعار قليلة جداً هي الأشياء التي تستحق أنِ تغطى وتخفى (باستثناء الوجه الحقيقي لتلك الحضارة الذي سيختفي خلف قناع الفردوس المستعار..)

(لا شيء سيئ في الإنسان. لا شيء فيه شر، أو حتى خير.

لا شيء يستحق أن يوارى أو يخفى..

كل شيء ظاهر للعيان. كل عورة فيه فخورة أنها ظاهرة للعيان.. لا شيء من أعضائه، أو من نزعاته وميوله تستحق أن تخفى..) ولا يختص ذلك فقط بأمور الجنس كما تعودنا أن نتصور، فهناك نزعات أخرى تمت تعريتها وكشفها بعدما كانت مواراة، هناك نزعات التملك والأنانية والفردية وحب المال، بالإضافة إلى الشهوات الجنسية، وكلها كانت مخفية خلف هذا الغطاء أو تلك الغلالة وتم نزعها بشدة واعتبارها أموراً طبيعية؛ مِنَ الخطأ كبتها أو محاربتها أو حتى محاولة السيطرة عليها وتقنينها..).

الأمر هو أن بعض السوءات خلقت أصلاً لتكون متوارية.. ولتظل متوارية.. لا أريد أن أناقش بأن العورات أصيلة في داخل النفس الإنسانية أو مكتسبة.. بل أقر أن بعض جوانب الشر قد تكون موجودة في الإنسان بشكل أصيل.. مثل العنف وحب الدم، والقسوة والعزلة، وحتى بعض أنواع الشذوذ.. لكن الأمر هو أن جوانب الشر هذه؛ السوءات،

العورات، ستعمل على استفزاز جوانب الخير والتكامل معها.. عندما تكون متوارية، عندما تكون غير ظاهرة..

عندما تكون العورة عورة حقاً، بمعنى أنها تستوجب الستر، بمعنى أنها مغلقة خلف غلالات الأعراف والقوانين العامة.. فإن الصراع الناتج سيجعل أعضاء الجسم الأخرى تكون أكثر نشاطاً وبروزاً.. والتوازن الحاصل بين المكشوف والمستور سيكون مثمراً اجتماعياً أكثر بكثير من كشف المستور وترك الأمور على عواهنها..

نعم، بعض الأمور، فيما يبدو، لا تنجح إلا إذا كانت مغطاة..

فإذا بدت فستكون سيئة حقاً.

سيتوج ذلك البؤس كله، خطوة أخرى سيناريو الفقدان الذي مررنا به..

فبعد أن ذقنا من الشجرة المحرمة، وانتهكنا العهد الذي كان، وبدت لنا سوءاتنا كأسوأ ما يمكن، وطفقنا نخصف عليهما بالنظريات والفلسفات.. بعد كل ذلك، ونتيجة لكل ذلك وجدنا أنفسنا أعداء لبعضنا البعض..

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٤].

.. وهبطنا.. بل سقطنا.. واستمر هبوطنا دهوراً، ووجدنا أنفسنا أعداء لأنفسنا (بالتأكيد كنا أعداء لأنفسنا؛ فلا يفعل ما فعلناه إلا عدو)! بل لقد وجدنا أنفسنا ونحن نكره أنفسنا، مقتنا لأنفسنا أكثر من مقتنا لأي شيء آخر ..هل هي لعنة تلك الشجرة؟ أم هو الندم يكبلنا على ما اقترفناه؟ أم لعله إبليس لا يزال يمارس قسمه العتيق؟

شيء من هذا حدث..

ثم توج البؤس كله بمشهد قابيل وهو يقتل أخاه هابيل..

.. ونستطيع اليوم أن نتابع أي نشرة أخبار، لنتأكد أن المشهد الأخير لا يزال مستمراً..

❀ ❀ ❀

كانت تلك هي قصة آدم وخروجه من الجنة. كانت تلك هي الخطوط العامة لـ(سيناريو) فقدان الفردوس الذي كان منزلاً لنا..

وكانت خطوط (السيناريو) العامة، الصالحة (لسيناريو) فقدان أي فردوس أرضي آخر تشتمل على ما يأتي..

أولاً - إن الفردوس - أساساً - **هو مجتمع متوازن**، أو متصالح مع نفسه بادئ ذي بدء.

ثانياً - أساس هذا التوازن أنه مجتمع يولي اهتمامه الأول لسد **الحاجات الأساسية** لأفراده..

ثالثاً - وتوازنه قائم أيضاً على **احترام المحرمات** وعدم التجاوز فيها، بغض النظر عن ماهية الشيء المحرم، لكن الشجرة المحرمة تبقى رمزاً للانضباط والتوازن، تظل رمزاً للسد على النهر، الذي لولاه لجاء الطوفان حيناً والجفاف حيناً آخر.

رابعاً - وغالباً ما يبدأ الانتهاكُ والدعوة إليه شعاراتٍ جذابةً وبراقة، وربما ذات ظاهر بريء، الترقي والتقدم في مقدمتها؛ سواء كان الترقي إلى جنس الملائكة، أو إلى مصاف الرجل الأبيض، وكذلك الدعوة إلى تجاوز الحاجات الأساسية إلى المزيد من الحاجات الكمالية، سواء بملك لا يبلى أو بالمكيف (الديجيتال) الثلاثي الدفع..

خامساً - وسيكشف الانتهاك ستر سيئات وعيوب كانت دفينة في عمق النفس الإنسانية، ولن يؤدي كشفها إلا إلى استفحالها وزيادة انتشارها..

وسيؤدي ذلك إلى مسخ شكل المجتمع وتهجينه بأشكال وطرز غريبة ستؤدي إلى تآكله من الداخل وانقراضه بالتدريج.

سادساً - وسيتوج ذلك البؤس بالمقت الداخلي العجيب للنفس وللآخر على حد سواء، وسيترجم ذلك عملياً بالإدمان والعنف وازدهار مختلف أشكال السادية والمازوشية المتبادلة.. وسيتوج ذلك كله بمشهد قابيل وهابيل وهو المشهد الذي يتكرر مع كل نشرة أخبار.

هل هذه قصة آدم وخروجه من الفردوس؟ أم إنها قصة الحضارة؟ هل هي السنن الإلهية في صعود الحضارات وسقوطها؟ أم إنها فقط قصة آدم وزوجته، وذلك الإغواء اللعين والثمرة المحرمة الذي يذكرنا عادة بأي شيء باستثناء الحضارة..

فلا يقولن أحد إنها أساطير الأولين!!

وأين شبنغلر، وأين دوركايم وأين بول كنيدي وبقية المنظرين والمفسرين لصعود الحضارات وسقوطها؟..

وأين نحن؟ وأين مفكرونا ومفسرونا ودعاتنا، الذين وضعوا ظهورهم على حائط التفسيرات التوراتية الجاهزة.. واسترخوا متصورين أنهم قد أدوا إقساطهم للعلى؟.

لم تكن هذه قصة آدم وخروجه فحسب..

ولا حتى قصة الحضارة.

ولكنها بطريقةٍ ما قصتك الشخصية أنت أيضاً..

قصةُ كلٍّ منا بطريقةٍ ما منفردين أو مجتمعين..

لو قلبت ذكرياتك، و(ألبومات) صورك التي تكدس عليها الغبار،

ونبشت في أدراجك، وتصفحت دفاترك المنسية، وأبحرت في مغاورك المجهولة .. **لوجدت شيئاً من كل هذا قد حدث لك..**

ربما في صور طفولتك ستجد ذكرى غائمة لتلك الجنة، العالم كله يومها كان يبدو كما لو كان تلك الجنة، أكثر دفئاً وأكثر أماناً.. وبالتأكيد أكثر حناناً..

هل كانت الجنة هي بيت جدك الذي قضيت فيه أجمل أيامك؟ وهل بدا الأمر كله عندما انتهكت تلك السدرة المهيبة في حديقته الخلفية؟

أم عندما بيع البيت وتقاطع الورثة فيما بينهم خلافاً على السعر والحصص؟..

هل طردت من ذلك الفردوس عندما تركت الصلاة؟ أم عندما ارتكبت الخطيئة الأخرى؟ **أم عندما جلست وأضعت كل شيء دون أن تفعل شيئاً؟..**

في أعماقك تلك القصة كما في عمق قصص الحضارة. لقد كانت واحدة من تلك القواسم القليلة بين كل الحضارات والأديان.. وهي أيضاً من القواسم المشتركة القليلة بين البشر كلهم..

البشر كلهم - الذين دون أن يَعُوا - فقدوا الفردوس..

وكان هذا هو (سيناريو) الفقدان الذين مروا به.. وقاموا ببطولته.. دون أن يعرفوا تماماً أي شيء يفقدون..

إبراهيم

منذ أن فقدنا ذلك الفردوس، حدثت عدة محاولات لاستعادة ذلك الفردوس السماوي وبنائه.. ربما حاول كل الأنبياء والرسل استعادة ذلك الفردوس على أرض الواقع، من أجل الفوز فيما بعد بالفردوس السماوي..

ربما حاول كل الأنبياء والرسل استعادة ذلك الفردوس المفقود، وربما كان كل جهدهم ومشاقهم والمصاعب التي واجهوها في دعوتهم هي من أجل العودة..

كلهم حاولوا، وبعضهم لم يتمكن ويكفيه شرف المحاولة.. وبعضهم الآخر حقق نتائج أفضل.. حتى لو كانت بعض الخطوات على درب العودة..

من بين كل أولئك الأنبياء والرسل.. كان هناك دور مميز وريادي لنبي معين كان بحق إماماً لرحلة العودة..

إنه إبراهيم.

❁ ❁ ❁

لماذا إبراهيم؟

لنترك الأجوبة التقليدية، رغم إقراري أنها صحيحة هنا على الأخص.. فإبراهيم يحتل مكانة مميزة ورئيسية في كل الأديان السماوية.. ومكانته في الإسلام خصوصاً خارج أي نقاش.. إنه أول المسلمين.. والإسلام عموماً بوصفه ديناً هو دين إبراهيم..

لكن لنترك هذا جانباً، ونلاحظ صلة معينة ميزت العلاقة بين آدم الذي قاد رحلة الفقدان.. وإبراهيم الذي صار إمام رحلة العودة..

.. بين الرجلين والنبيين أكثر من مجرد صلة نسب، وأكثر من مجرد صلة نبوة، بينهما تلك الرحلة وذلك الترحال وذلك التوازي بين خطا الذهاب والإياب..

بينهما ذلك العهد الذي أوكله ربهما إليهما ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ٢٠/١١٥]. ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ٢/١٢٥].

بينهما ذلك الفردوس الذي خرج منه الأول.. وخطط للعودة إليه الآخر..

عرفنا قصة آدم وجغرافية حكايته التي تتلخص بالهبوط من ذلك الفردوس.. إلى الأرض؛ المستقر والمتاع..

لكن جغرافية قصة إبراهيم أكثر تعقيداً؛ لقد انطلق في مكان ما في أرض الرافدين - أور حسب رواية العهد القديم - وطفق يجول في البلاد.. وصل إلى مصر؛ وكان له مع مليكها قصة، ثم مر ببلاد الشام، وكان له في قراها ومدنها - أي حضارتها - مواقف وحكايات سجلها النص القرآني..

لننظر إليه وإلى خط سيره، لقد تنقل بين أخصب المناطق في عصره وزمانه، أكثرها رفاهاً ورخاء وترفاً، كانت الحضارات وقتها لا تزال تعتمد على أحواض الأنهار مصدراً أساسياً للاستقرار، ومن أجل نشوء المجتمع الزراعي، وكان خط سير إبراهيم يمر بأعرق وأعظم حوضين نهريين في العالم القديم؛ الدلتا الخصيبة في حوض نهر النيل العظيم والتي نشأت عليها حضارة مصر الفرعونية والتي هي واحدة من أهم - إن لم تكن أهم فعلاً - حضارات العالم القديم، وحوض الرافدين اللذ ين تشكلت بينهما مجموعة حضارات وتعاقبت فيما بينها، وتداولت فيما بينها، وكانت منافساً حضارياً مهماً لحضارة مصر ومنجزاتها، إن لم تبزُّها في أحيان كثيرة. وبين هذا وذاك، على مفترق الطرق بين قارتين، وبين حضارتين وبين حوضين لنهرين عظيمين.. كانت بلاد الشام وشبكة الأنهار الصغيرة داخلها التي أنشأت ممالك ومراكز حضارية مهمة أيضاً.. بين كل تلك النقاط الخصبة تنقل إبراهيم..

هل كان يبحث عن فردوس تشكلت ملامحه داخل وعيه بكونه جنة غنية بالثمرات يأتيها رزقها في كل حين؟.. هل كان يبحث عن صورة

الفردوس المنطبعة داخل ذكرياته بكونه جنة غناء مليئة بمختلف أنواع الأشجار وثمراتها..؟

نعم.. ربما.. لكن شيئاً ما في أثناء رحلة بحثه عن هذا الفردوس حدث له وغيَّر من رأيه ونظرته.. من وجهة بحثه..

تجاربه المريرة مع المراكز الحضارية التي مر فيها، خصوصاً مع الإنسان في تلك المراكز الحضارية، جعلته يغير خطته وفكرته..

لقد وجد المدنية في أبهى صورها وأرقى أشكالها قياساً إلى عصره وزمانه.. ووجد الخيرات والثمرات.. والمباني المترفة والقصور المشيدة والمعابد الفخمة.. كل ذلك كان في أعلى صوره وأرقاها..

لكن الإنسان، **الإنسان كان في الحضيض..**

في وادي الرافدين كان هناك العامة يهللون لإحراقه، وفي مصر كان هناك ذلك الملك الشهواني الجشع الذي يخطط لاغتصاب زوجة ضيفه، وفي أطراف بلاد الشام كان هناك قوم يمارسون فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين (لكن **لا تقولوا: إنهم يمارسون الشذوذ؛ حتى لا نجرح أمثالهم المعاصرين..**).

كانت المباني فخمة.. والأطعمة فاخرة، والحدائق حول المباني تشبه الجنة المفقودة **..لكن الإنسان كان في الحضيض..**

غيَّر ذلك فكرة إبراهيم عن الجنة، عن ذلك الفردوس المفقود الذي كان يخطط لاستعادته.. جعله يكتشف أن **وجود الأشجار والثمار لا يعني بالضرورة وجود الفردوس..** جعله ذلك يحذف التفاصيل غير الضرورية من فكرته عن الفردوس الأرضي.. وبعد أن تنقل بين أغنى مراكز الحضارة الخصيبة وأهمها.. تجده يغير خط سيره جنوباً إلى قلب الصحراء.. بعد كل تلك الأرض الغنية، نجده يذهب إلى ذلك الوادي الأجرد غير ذي الزرع..

المشهد مألوف ويبدو أنه مزروع في ذاكرتنا كما لو أننا كنا هناك، كما لو أننا كنا طرفاً فيه..

رجل وزوجته ومعهما ابن لهما.. يسيران في الصحراء قاصدين شيئاً عليهم أن يبنوه.. لا أن يجدوه فحسب..

وكان المشهد السابق مشابهاً جداً من حيث العناصر الأولى الخارجية، وإن اختلف في المعاني.. آدم وزوجته يسيران في الصحراء القاحلة.. بعد أن طردا من الجنة..

كانت خطوات الشيطان هي التي أودت بهما إلى هناك، لكن هذه المرة لم يكن الشيطان دليلهما.. بل على العكس بينما كان جذلاً يقهقه في المشهد الأول.. ها هو ذا يرتجف غيظاً في هذا المشهد الآخر..

كان المشهد الأول يقول ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٥]. وكان المشهد الثاني يقول ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٤].

كان المشهد الأول يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ [النور: ٢٤/ ٢١].

وكان المشهد الثاني يقول: إن خطوتك ستكون الأولى ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٤].

نعم، إماماً لرحلة العودة.. العودة إلى ذلك الفردوس الذي ستبذر بذرته في رحم الصحراء.

في المشهد الأول، كان الشيطان قد (دلاهما بغرور..)..

أما في المشهد الثاني، فالإيمان، والتجربة، والتجوال، دلتهما نحو ذلك المكان الذي يتجهان إليه، في ذلك الوادي الأجرد.. في قلب الصحراء..

وفي المشهد أيضاً تفاصيل أخرى، تغني الموضوع وتزيده خصوبة..

فالزوجة التي كانت معه لم تكن سارة بنت الحسب والنسب الراقي.. بل كانت هاجر المصرية، مجرد جارية أخرى ما كان التاريخ ليذكرها ويقيم لها وزناً لولا أنها شاركت في تلك الرحلة إلى قلب الصحراء..

لكن ذلك المجتمع الآخر، الذي بذرت بذرته في تلك الرحلة.. ما كان ليقيم وزناً لمفاهيم الحسب والنسب الزائفة، وما كان سيترفع عن الجارية لأنها جارية، أو يجامل بنت الحسب والنسب لأنها كذلك، لقد كانت تلك الرحلةُ الجذورَ للأصول.. ومادامت الجذور كلها متساوية، والأصول متطابقة.. فلا فرق حقاً بين جارية وسيدة، وسيد وعبد.. ولون وآخر..

أكثر من ذلك، إن إبراهيم في تلك الرحلة المصيرية، لم يصحب معه ابنه من سارة: إسحاق، بل أخذ معه ابنه من الجارية: إسماعيل.. ربما ليس تقليلاً من مكانة إسحاق، ولكن تكريساً لذلك المفهوم الجديد.. الذي آن أن يتأصل ويجد له جذوراً، ولو في تلك الصحراء القاحلة.. ومفهوم أن لا فرق حقاً بين أبناء آدم.. مهما اختلفت ألوانهم ومكاناتهم المفترضة.

❀ ❀ ❀

ويستمر التقابل والتوازي والتكامل بين المشهدين.

فبينما لآدم ولدان هما قابيل وهابيل - قتل واحد منهما الآخر.. فإن لإبراهيم ولدين هما إسماعيل وإسحاق، وهبهما الله له على (كِبَر)..

وتكاملا معاً في النبوة والدعوة وحمل أمانة الرسالة..

وبينما يذكر مشهد قابيل وهابيل بمشهد آخر يتلفت فيه قابيل وهو لا يعرف بالضبط ماذا يفعل وماذا يريد، إلى أن يأتي الغراب ليعلمه كيف

يحفر في الأرض ليواري سوءة أخيه، فإن المشهد الآخر يذكر بإسماعيل وهو يشمر عن ساعديه، ويحفر في الأرض ليرفع القواعد من البيت.. ليواري سوءة البشرية جمعاء..

إنها تكاملات المشهد الإبراهيمي مع مشهد أبيه آدم. صحيح أن بينهما أكثر من مجرد صلة نسب، أكثر من مجرد صلة نبوة..

.. بينهما ذلك الطريق.. واحد منهما قطعه ذهاباً.. والآخر قطعه إياباً..

ومقابل اهبطوا بعضكم لبعض عدو.. في رحلة آدم.. هناك ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٧]. في رحلة إبراهيم.. مقابل تلك العداوة والبغضاء التي نتجت عن ذلك المجتمع الذي خرج من فردوسه، هناك المحبة والتعاون والتوازن التي نتجت عن عودة المجتمع إلى قيم الفردوس في داخله..

كل تكامل وكل تضاد، كل تنوع وكل تقابل، وكل توازٍ بين المشهدين الإبراهيمي والآدمي يحتوي على إشارة إلى ذلك الدرب بين الخروج والرجوع.. يحتوي على علامة على الطريق الذي لا مفر من الزحف عليه للخروج من تلك الهاوية التي سقطنا فيها وذلك القعر الذي وجدنا أنفسنا فيه..

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ٢/١٢٥].

تعودنا أن نقرأ الآية كما لو كانت مقدمة لآيات الحج دون تفكر وتمعن..

.. لكن الآن، وهذا المشهد الذي فيه إبراهيم وزوجته وابنهما يسيران في قلب الصحراء، بحثاً عن طريق لم تحفظ دلالته الرمال، وحر الصحراء اللاهب يكاد يحرق وجوهنا، وعواصف الرمل الحارق تكاد تهب علينا من ثنايا المشهد تشوش علينا الرؤية، نكاد نضيع معهم بلا دليل في عمق الصحراء..

ثم تأتي تلك الآية ..﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٥] نُقِرُّ أننا نحتاج إلى أن نفهم المعنى أكثر.. ونلجأ إلى القاموس والمعاجم..

لم يكن مفاجئاً أن تكون كلمة (مثابة) الواردة في النص القرآني لها معنى واحد، أو بالأحرى معان متعددة تدور حول معنى واحد فقط هو (الرجع) أو الرجوع.. ثاب أي عاد أو رجع، مثلاً ثاب إلى رشده أي عاد إلى رشده..

والمثابة إذن هي ببساطة، المرجع، المكان الذي يرجع إليه..

ألم نقل من البداية، أن رحلة إبراهيم كانت رحلة (رجوع)؟..

إذن كانت رحلة رجوع.!!

وكان البيت هو المقصد - الهدف.. البيت هو المرجع الذي عاد إليه إبراهيم بعد طول الترحال والتجوال..

لكن ما معنى أن يكون إبراهيم قد (رجع) إلى البيت؟.. هل كان إبراهيم أصلاً هناك، ورحل عنه ثم رجع، وهل كان هناك أصلاً (بيتاً) بالمعنى الحرفي المادي للكلمة حتى يكون إبراهيم قد رحل عنه ثم رجع إليه؟

تسكت الرؤية القرآنية عن ذلك كما لو أنها تستفز أسئلتك.. تحرض خيالك..

البيت مرجع إذن؟.. المكان الذي (رجع) إليه إبراهيم على الرغم من أنه لم يكن هناك قط.. وهناك أكثر من ذلك كله ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٥] ..**إنه المكان الذي يرجع إليه كل الناس - على الرغم من أنهم، بالتأكيد، لم يكونوا هناك من قبل..**

إنها رحلة رجوع بالتأكيد، لكنه رجوع من نوع مختلف.. إنه رجوع إلى مكان قد نكون لم نكن فيه من قبل..

ولم نطأه بأقدامنا..

لكننا نرجع إليه..

وأحياناً يمضي الإنسان بعيداً.. بعيداً في تجواله وترحاله.. يشرّق ويغرّب بين القارات، يعبر البحار والمحيطات، يكتشف مجاهل الغابات، ويصل حدود الصحارى والقفار، يغوص في أعماق البحار.. ويستكشف الفضاء..

قد يطأ الإنسان بقدمه أرض القمر.. وغداً قد يطأ بقدميه أرض أي كوكب آخر في هذا الكون..

قد يصل الإنسان لأبعد نقطة في هذا الكون، في حله وترحاله.. لكنه، ربما لم يذهب إلى نفسه ولا حتى مرة واحدة. نعم، الكون كله ربما..

لكن لم يزر نفسه قط. لم يذهب إلى هناك مرة واحدة.

وأحياناً تزور مكاناً ما وأنت واثق تمام الثقة أنك لم تذهب إليه من قبل.. لكن عندما تدخله يشهق قلبك بالشوق الملتاع، وتتوهج روحك بالذكرى المنسية، وتقرع على أبواب رأسك أيدٍ خفية، ويخامرك شعور أكيد، يقترب من اليقين: **لقد مررت من هنا قبل. لقد كنت هنا قبلُ. لا يهمك ما تقوله الوقائع الرسمية لذاكرتك؛ إنك تعرف أنك كنت هنا من قبل..**

وتتجول في المكان بينما روحك تهيم في الزوايا والأركان.. تصافح كل شيء وكل حيز من الهواء. ولا يبدو أبداً أنها المرة الأولى، بل تبدو أنها تستعيد ذكرى لقاء بعيد، وها أنت ذا تحزر ماذا يوجد بعد هذا المنحنى.. وهو جديد عليك تماماً.

تتأمل في التفسيرات العلمية بحياد بارد. إنهم يقولون أشياء عن ذكريات الطفولة وتأثيراتها على العقل الباطن عندما يصطدم بتجارب مماثلة. تقر أن ذلك ممكن دون أن تقتنع؛ أنت تشعر أنك كنت هنا من قبل. ثم يقولون لك شيئاً عن الأحلام وتأثيرها في السلوك الواعي وغير الواعي، وتشعر أن الأمر أكبر من أن يكون حلم الليلة الماضية وقد تحقق، ربما يكون له علاقة بحلم الليالي كلها.. بحلم العمر كله وقد تحقق فجأة بعد بضعة عقود من تكرار غير مستجاب..

وتوبخ نفسك لأنك فكرت بذلك الاقتراح السخيف؛ بأنك قد مررت بذلك في حياة أخرى.. لا. إنها حياتك هذه، وقد مررت بهذا من قبل..

لقد رجعت أخيراً إلى مكان لم تكن فيه قط من قبل.

وعندما تكون قد قضيت حياتك تتجول، أو تحلم بالسفر إلى كل الأماكن التي تسمع عنها ولم تتح لك الفرصة أو القدرة على الذهاب إليها، وإذا كنت قد قضيت زهرة شبابك وجل حياتك وأنت تخطط للذهاب إلى أرضِ أحلامٍ ما على الشاطئ الآخر من كل ما يتعلق بوطنك.. وإذا كنت - في خضم ذلك - لم تتح لك فرصة الذهاب إلى نفسك ولا حتى مرة واحدة، فإنك يوم تتعرف عليها، بطريقة ما، سيخامرك ذلك الشعور الغامض - لكن الأكيد - بأنك كنت هنا من قبل..

سيخامرك ذلك الشعور بأنك رجعت إلى مكان لم تكن فيه من قبل.

وعندما يكون المكان جزءاً من نفسك التي لم تزرها من قبل، من ذاتك التي لم تسنح لك الفرصة بالذهاب إليها، أو التعرف عليها، فضلاً عن الغوص في مغاورها أو أعماقها، فإن هذا المكان، مع أنه سيكون غريباً عليك، إلا أنك يوم تدخله للمرة الأولى ستمتلئ روحك بذلك

الشوق الملتاع.. وسيدق قلبك كما لو أن أمك المتوفاة منذ سنين تقرع على أبوابك..

لقد كنت هنا من قبل - مع أنك لم تزر هذا المكان..

لقد رجعت إلى هذا المكان الذي لم تكن فيه من قبل.

و(**كذلك الرجوع**)!!.

البيت هنا هو المرجع.. إنه المرجعية التي يجب أن نلجأ إلى ثوابتها وأركانها كلما ألمت بنا مسألة..

ذلك البيت - الذي رفع إبراهيم قواعده بكل ما يمثل ذلك من قيم - هو المرجع الحقيقي لنا..

كذلك كان رجوع إبراهيم إلى ذلك البيت الذي لم يزره قط..

كذلك البيت مثابة - مرجعٌ - للناس.. حتى لو لم يكن أحد قد زاره من قبل.

هذا البيت موجود فينا، كأنه مغروس في فطرتنا، وأساساته مزروعة داخل نخاعنا، أعمدته متضمنة في عمودنا الفقري، وسقوفه تغطي آفاقنا..

هذا البيت جزء منا - من ذواتنا - سواء كنا ندري أو لا ندري.. سواء كنا قد زرناه أو لم نفعل..

إنه يشكل جزءاً من ذاكرتنا اللاواعية. جزءاً من ذلك الفقدان الذي كان، ومحاولات الاستعادة المستمرة.. جزءاً من رحلة الذهاب، وطريق الإياب..

وسواء كنا قد زرناه أم لم نفعل، فإن هناك ذكرى له غائبة ومشوشة في أعماقنا.. كما لو كان البيت القديم الذي شهد أولى صرخات طفولتنا،

كما لو كان ذلك البيت العتيق الذي شهد دفء ذلك الزمان الغابر وحنانه وأمانه، قبل أن تطردك أمك من جنةِ صدرِها الوثير بالفطام المقيت..

نعم هناك ذكرى غائمة وعميقة، ومليئة برائحة مألوفة وحميمة، وأصوات ربما تكون سمعتها وأنت لا تزال في رحم أمك..

كل ذلك سيطوف في بالك، بينما روحك تطوف (راجعةً) إلى البيت الذي لم تكن فيه من قبل..

ما أحلى (الرجوع) إليه..

ما أحلى (الرجوع) إلى الأماكن التي لم تكن فيها من قبل، لكنها كانت فينا قبل أن نكون..

الآن، والآن فقط، أفهم معنى كلمة (البيت العتيق..).

لماذا لم يخبرنا أحد بذلك؟

أريد أن أقف أيضاً، بينما روحي ترجع إلى البيت العتيق الذي لم أذهب إليه من قبل، أن أقف عند (مقام إبراهيم)..

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٥].

لن أناقش الشَّعيرَة الآن، أو موقع المقام داخل الحرم المكي المتوسع باستمرار..

بل أريد أن أغوص في السبب الذي من أجله أسست الشعيرة أصلاً..

مقام إبراهيم؟.. هل مقام إبراهيم هو المكان الذي (قام) فيه إبراهيم.. في نهاية رحلة الرجوع التي قام بها؟..

هل مقام إبراهيم هو المكان الذي أطلّ منه إبراهيم، لينظر خلفه ووراءه على ذلك الطريق الطويل الذي قاده كإمام لرحلة العودة؟؟ أم هل

مقام إبراهيم هو مكانته المهمة والمميزة بين الأنبياء والرسل، سواء باعتباره أباً للأنبياء أو بسبب كونه إماماً لرحلة العودة تلك؟

ربما كان (مقام إبراهيم) هو المزيج من كل ذلك.

.. ربما كان أكثر.

لماذا لا يكون (مقام) إبراهيم.. هو (ما قام به) إبراهيم..

لماذا لا يكون المقام هو تلك الرحلة الطويلة التي (قام) بها إبراهيم وتنقل خلالها من مكان إلى آخر.. إلى أن وصل إلى ذلك المكان، حيث بنى البيت الذي صار مرجعاً للناس، يرجعون إليه مع أنهم لم يكونوا فيه قط؟.

لماذا لا يكون (مقام) إبراهيم ..هو (ما قام به) في تلك الليلة الشهيرة، يوم تقلب بين القمر والنجوم والشمس بحثاً عن إله لا يأفل؛ فهو لا يحب الآفلين.. وأفلت كلها الواحدُ تلو الآخر.. ووجد يومها - بعقله - ذلك الإله الذي لا يأفل.. ولا يتقلب.. ولا تدور عليه الدوائر - لماذا لا يكون مقام إبراهيم هو ما قام به يوم حطم الأوثان كلها - ومعها مكرساتها الاجتماعية - وترك قومه وجهاً لوجه أمام كبير الأوثان.. وهو يستفزهم أن يسألوه عمّا دار في حضوره وأمامه.. لبقية الأوثان؟.

لماذا لا يكون مقام إبراهيم هو ما قام به يوم صرّح - **دون مواربة - أنه يحتاج إلى أن يطمئن قلبه، فترك لنا ذلك الدرس وتلك العبرة ألا نخفي أفكارنا وهواجسنا، ونقول ونسأل ونبحث إلى أن تطمئن قلوبنا؟.**

ولماذا لا يكون مقام إبراهيم هو ما قام به، يوم أراه الله ملكوت السماوات والأرض.. فكان ذلك تعزيزاً للإيمان والدعوة في داخله؟.

لماذا يكون المقام هو تلك المساحة التي لا تتجاوز بضعة أمتار مربعة وقف عليها إبراهيم.. عندما ارتفع البنيان في الكعبة؟ .بل لماذا لا يكون

المقام - الذي يأمرنا الله أن نتخذه مصلى - هو ذلك المحور الطويل الذي تجول عليه إبراهيم إلى أن وصل إلى البيت العتيق؟.

وتخبرنا قصة نزول الآية عن شيء من هذا؛ قال الرسول عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى المقام: هذا مقام إبراهيم. فأجاب عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ وبعدها نزلت الآية.

لا عجب أن يكون عمر قد قالها. فقد جعل من (ما قام به) إبراهيم مصلى..

ولا عجب أن يكون خط سير إبراهيم الجغرافي قد فتح في عهد عمر.. تحديداً..

في تلك الرحلة التي علينا أن نخوضها؛ بينما نحن نفر من قدر إلى قدر، في تلك الصحراء التي لا تقل دليلاً ولا تبقي أثراً.. من بعيد نلمح سراباً ونعثر عليه.. نركض إليه.. ونظل نركض.. ونتعثر ونسقط.. ونقوم مجدداً.. ولا نصل إليه..

في هذه الرحلة، باتجاه ذلك المكان الذي سنرجع إليه، بثوابته وبقواعده، وببدائله عن كل ما نمر به، سنحتاج إلى أن نتوقف قليلاً، لنصلي ركعتين.. عند (ما قام) به إبراهيم..

سنتوقف - بعد أن نكمل الركعتين - عند ما قاله إبراهيم، في حوار حميم له مع الله سبحانه وتعالى ..﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٧].

ها هو ذا إبراهيم في حواره الحميم مع الله، هل كان يشتكي، هل كان يبث مخاوفه إلى الله عز وجل.. هل كان خائفاً عليهم - على ذريته - لأنه أسكنهم في أرض جرداء لا ماء فيها ولا زرع..؟.

ولماذا يا إبراهيم، وأنت ذو العقل الرشيد، تترك أهلك وذريتك هناك - في ذلك الوادي المقفر - ثم تشتكي إلى الله خوفك عليهم..؟

لا! لا أظنه كان يشتكي، إنما كان يتحاور، ويقرر ما كان قد حدث فعلاً.. وسجل لنا النص القرآني ذلك التحاور ليدلنا على علامة ذلك الطريق..

أقف عند (**أسكنتهم**) طويلاً، وتذكرني بـ(**اسكن أنت وزوجك الجنة**).. ولا يهم إذا كان السكن هنا في واد أجرد غير ذي زرع.. بينما كان السكن الأول في جنة (**كلا حيث شئتما..**)، المهم هو المعنى الأصلي للكلمة لا تفاصيل العنوان والأثاث وشكل البناء. المهم هو السكينة.. والهدوء.. والطمأنينة.. المهم هو أن يكون المسكن سكناً حقاً.. **الباقي مجرد تفاصيل..**

إذن الأمر مقصود.. اختيار إبراهيم لذلك الوادي الأجرد المقفر ليكون سكناً لذريته هو اختيار واع وعقلاني ومبني على أسس منطقية..

ما المنطق في ذلك؟

إنه منطق اختيار الفردوس البديل، أو المجتمع البديل إن شئتم ..إنه **منطق حذف الأشياء غير الضرورية، والتركيز على ما هو ثابت وأساسي ولا غنى عنه..**

كل المجتمعات الإنسانية - إلى حين تلك اللحظة، وربما إلى حين هذه اللحظة - كانت تقوم وتنشأ على أساس مادي، كانت تتجمع وتتكون عند أحواض الأنهار، أو في الأراضي الخصبة حيث يمكن للمحاصيل أن تتنوع، وللثروات بعدها أن تتراكم..

ومع تطور البشرية ومعارفها، طرأت على الفكرة الأساسية بعض تغييرات، لكن لُبّها ظل ثابتاً لا يتغير؛ قد تنتقل مواطن الحضارة من مكان إلى آخر - من أحواض الأنهار إلى الهضاب المطرية مثلاً - لكن انتقالها

ذاك سيكون من أجل السبب نفسه الذي نشأت عليه في المكان الأول: **الاقتصاد ولا شيء سواه..**

بل إن أكبر الهجرات عبر التاريخ حدثت من أجل موجة برد ضربت محصول البطاطا في الجزر البريطانية، فهاجر مئات السكان باتجاه الأراضي البكر ومناجم الذهب والفحم في القارة المكتشفة حديثاً آنذاك.. أمريكا..

نعم، كان الاقتصاد دوماً هو المحور الأساسي الذي يجتمع عليه الناس، وتتكون عليه المجتمعات.. وتنشأ بعدها الحضارات وقيمها ومبادؤها.. لكن هذه المرة، عندما (أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع..) الأمر مختلف.

بعد طول تجوال، ومُرِّ تَرْحَال.. يبذر إبراهيم تلك البذرة المختلفة، لذلك المجتمع البديل.. لقيم تلك الحضارة..

لن يوضع الحجر الأساس في مكان حيث يمكن لشيء آخر غيره أن يشارك في التأسيس. هذه المرة، لا مكان للزراعة.. أو لأي مورد اقتصادي في تشكيل هذا المجتمع..

هذه المرة، الأمر مختلف..

بدلاً من الأراضي الخصبة، سيكون هناك **البحث عن الخصب في الداخل، والثمار في الداخل..**

وبدلاً من أحواض الأنهار، سيكون هناك **نهر الحياة الحقيقي الذي ينبع من شرايين الداخل..**

وبدلاً من الأراضي البكر، ومناجم المعادن في القارات المكتشفة حديثاً كانت هناك قارة بكر، قارة من المناجم، قارة لم نطأها بأقدامنا من قبل ولكننا نرجع إليها..

هذه القارة لا علاقة لها بخطوط الطول أو العرض. ويمكن أن يكون عنوانها في وادٍ غير ذي زرع..

لكن مكانها الأصلي الذي لم نكتشفه من قبل.. موجود فينا..

إنها النفس البشرية.

في الصحراء، في وادٍ غير ذي زرع خصوصاً، وضع إبراهيم تلك البذرة، ووضع **الحجر الأساس.**

إنه التحدي، إنه الخيار المختلف.

هذه المرة لن يكون هناك شيء مشترك مع التجارب الاجتماعية والحضارية الأخرى.. هذه المرة؛ في قلب الصحراء نبدأ من جديد.. نحذف كل التفاصيل.

ويكون الأساس فكرة.

ويكون الأساس عقيدة..

وعليها فليجتمع الناس.. وعليها فليتكون المجتمع، ولتنشأ الحضارة..

من بين كل تلك التفاصيل الصغيرة، هناك تفصيل لا يمكن أن يصغر.. **إنه ذلك الحجر الأساس الذي وضعه إبراهيم.**

عن حجر حقيقي أتحدث.. لا عن رمز.. عن حجر كان لبنة للبناء الذي لن ينتهي بمجرد انتهاء بناء الكعبة، بل سيظل البناء مستمراً استمرارية الحياة نفسها، نعم قد يتوقف لفترة - ربما لقرون طويلة - لكن ما القرون بالنسبة إلى الدهر الذي استغرقه بناء الحضارة الإنسانية؟..

يتوقف، يستمر، يتعثر، يزدهر، يغير نمطه..

لكن البناء يظل موجوداً..

وفي عمقه، في صلبه، يوجد ذلك الحجر الأساسي الذي دخل في صلب الشعائر..

وصار الملايين يمرون عليه كل سنة..

تلك الشفاه التي تقبل، تلك الدموع التي تهطل، تلك الأيدي التي تحاول أن تصل.. لذلك الحجر.. هل تعرف حقاً لماذا تفعل ذلك؟. هل تعرف أنه كان حجراً أساساً لتلك الحضارة البديلة، لذلك الفردوس الذي استعاده إبراهيم، وأعدنا فقدانه من جديد؟؟!

ذلك الحجر الذي دخل في صلب الشعائر.. ولكن فقدنا معنى دخوله كما فقدنا معنى كل شيء تقريباً ...**إنه الحجر الأسود..**

لا يضر ولا ينفع، بالتأكيد..

لكنه يذكر بالمجتمع البديل الذي وضع حجره الأساس هناك..

ويذكر بأن الحجر الأساس لا يزال باقياً.. وأن البناء في حاجة - دوماً - إلى مواصلة بناء.

۞ ۞ ۞

يستوقفني أيضاً في الحوار الحميم لإبراهيم مع الله عز وجل، أنه يعلل إسكانهم في ذلك الوادي الأجرد ..**(ليقيموا الصلاة).**

لماذا عليه أن يسكنهم بعيداً هكذا - في واد أجرد كهذا - فقط ليقيموا الصلاة؟

أما كان من الممكن أن يصلوا في مكان أقرب؟ في ضواحي المدن مثلاً أو في مناطق ريفية زراعية حيث تتوافر الثمرات دون أن يربك ضجيج المدينة وصخبها شعائر الصلاة..؟

إذا كان الأمر - في النهاية - هو من أجل الصلاة.. فلماذا قلب

الصحراء؟ أما كان من الممكن أن تؤدي قمةُ جبل معزولةٌ الدورَ كما أدتها مع الرهبان في الصوامع والأديرة..؟

هل الأمر هنا كما هو هناك مع هؤلاء الرهبان في انعزالهم عن الناس وتفرغهم للعبادة وأداء الطقوس؟..

هل (ليقيموا الصلاة) هنا هي مثل صلاة الرهبان والعباد الزهاد في صوامعهم وبِيَعهم وأديرتهم؟؟

هل سيكون الأمر رهبانية من جديد؟ انعزالاً عن المجتمع وفواحشه ورذائله - ولو بعيداً جداً في قلب الصحراء - والانقطاع للتعبد والصلاة؟؟

لا! لا تشابه.. لن يكون الأمر كذلك، حتى لو كان الأمر كله معللاً بـ (ليقيموا الصلاة) أولئك الرهبان الذين تجمعوا على قمم الجبال كانوا (يصلون)، بينما التجمع هنا، الذي وضع حجره الأساس في قلب الصحراء، كان من أجل (إقامة الصلاة)..

والفرق كبير..

صلاة العباد والزهاد والرهبان المنعزلين تصعد إلى السماء، وينتهي الأمر المتعلق بالأرض لحظة صعود الصلاة.. لكنه لم يقل أنهم جاؤوا إلى هنا من أجل الصلاة؛ لقد جاؤوا من أجل أن يقيموا الصلاة..

والفرق بين المعنيين كبير، مع أن حواسنا تبلدت وأفكارنا تعطلت ولم يعد يهمنا الفرق ولا حتى يهمنا أن لفظة الصلاة منفردةً عن إقامتها لم تأت قط في النص القرآني.

الصلاة، تنتهي عند صعودها، وقبولها بعد ذلك أو عدم قبولها أمر لا يمكن معرفته.. لكن إقامة الصلاة أمر يتعلق بالأرض بقدر تعلقه بالسماء..

الصلاة التي تقام على الأرض، تبنى عليها، وتَدُها يضرب في عمق الأرض، صخرية صلبة كانت، أو رملية هشة..، كلما كان الوتد أعمق، ارتفع البناء أكثر، حجراً تلو حجر ترتفع.. تأخذ من الصخر صلابته، ومن الرمل انفتاحه، ومن الطمي خصبه ونماءه ..**الصلاة القائمة لا تصعد إلى السماء لينتهي أمرها، بل ترتفع عن الأرض قليلاً قليلاً، تكون بناءً شاخصاً واضحاً للعيان..**

ماذا تكون بعد أن تقوم؟.. ماذا يصير هذا البناء؟.. لن تكون الصلاة قائمة، سوى ركن من أركانه..، وعمود من أعمدته.. تتكامل مع باقي الأركان والأعمدة.. ومع السقوف والتصاميم والتفاصيل، لتصير ذلك البناء المتكامل، **للفردوس المستعاد، للمجتمع البديل، الذي وضع حجره الأساس هناك في قلب الصحراء..**

هل هذا هو المقصود بكون الصلاة هي أحد أركان الإسلام الخمسة، وكونها عماد الدين؟..

نعم، إن ذلك المجتمع يبنى على كونها قائمة، على كون قيمها شاخصة ومرتفعة، أما لو أديت دون أن تقوم على الأرض - دون أن تشخص قيم الصلاة - ودون أن تكون هناك صلة بالله سبحانه وتعالى، فإن أمرها على الأغلب سيكون مثل صلاة أولئك العباد المنقطعين عن المجتمع، والتي تنقطع (صلة) الصلاة فيها عن الأرض لحظة أدائها وصعودها إلى السماء..

حتى لو أديت جماعة!.

❁ ❁ ❁

ويستوقفني كثيراً، منظر سرب الفراشات، وهي تحلق في الصحراء، متجهة نحو ذلك البيت العتيق، ناثرة معها ألوان القوس المطري، مستفزة

سرابات الصحراء وحقائقها وغزلانها وضواريها على اللحاق بها.. ناشرة معها روائح المطر النازل تواً من السماء، والغيوم المتكونة للتو.. (تبدو الرائحة العطرة قوية ونفاذة لدرجة أني أكاد أجدها الآن بين أوراقي..).

عن أي فراشات أتحدث؟..

عن تلك الأفئدة التي دعا إبراهيم أن يجعلها تهوي إليهم ..﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٧].. لا أستطيع أن أتخيل الأفئدة هنا إلا كسرب فراشات يحلق خارج قوانين التحليق والطيران، ويهوي فيحط على ذلك الوادي الأجرد.. حيث وضع الحجر الأساس.. لن يجذب تلك الأفئدة زرع أو مال أو تجارة أو أرض أحلام بسلع استهلاكية، لا شيء هناك مما هو ظاهر من تلك المغريات التي تجذب - غير الأفئدة - إلى تجمعات أخرى.. لكن الأفئدة لن تجتمع على ذلك.. لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم.. لكن الله ألّف بين تلك الأفئدة..

أقارن بين **(اهبطوا منها بعضكم لبعض عدو)**.. وبين **(فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم)**.. فأرى الفارق جلياً بين مجتمعين، الأول: الأخ يقتل فيه أخاه بدم بارد، والثاني: تجتمع فيه الأفئدة كسرب فراشات تحلق على رغم الصحراء القاحلة..

وأرى في المجتمع الأول مجتمع عداوة وبغضاء وتناقضات تؤدي به إلى الهاوية، وفي الثاني مجتمع محبة وترفع عن المصالح، وتصالح مع النفس والذات ومع الآخر.. بل إني أرى أكثر من ذلك؛ ها هو ذا إبراهيم يدعو إلى أن تجتمع الأفئدة من كل مكان في هذا المكان، لا نسب عشيرة أو قرابة أو مصاهرة أو حتى مجاورة.. هو الذي جاء من آخر الدنيا، ومعه زوجته التي من آخر دنيا أخرى.. وابن لهما فقط، لا يريد لعشيرته أن تسنده، أو لعشيرة زوجته أن تحميه..

لا دم هنا يهم في هذا المجتمع، بل أفئدة لا يوحدها لون ولا جنس ولا عرق.. بل توحدها حاجتها إلى أن تعود لذلك الفردوس المفقود، توحدها رغبتها في الرجوع إلى ذلك المكان الذي لم تكن فيه من قبل..

ليس الدم، بل الفكرة.

الفكرة!

وأقارن بين (اهبطوا) و(**تهوي إليهم**).. فأرى - للمرة الأولى - بأن الهاوية قد تكون أكثر أماناً من هبوط قد يبدو للوهلة الأولى مريحاً.. بل أفكر أن القمة المرتفعة تكون خطرة أكثر كلما علت، إذا كانت أسسها ركيكة وباطلة..

وأتذكر بنياناً متطاولاً، مهيباً مزخرفاً، لكن أعمدته ركيكة وأساساته خاوية.. وأعلم أن الهاوية تكون أفضل من تلك القمة.. بل أفكر في أولئك الذين على القمة، ستقول لهم أفئدتهم التي قد تكون لا تزال حية: **إن الاستمرار في ذلك الفردوس المستعار مستحيل، وإن الفرار - ولو عبر الهاوية - هو الحل..**

أفكر في تلك القلوب، وهي تفر من قمتها المتهاوية، بالقفز عبر الهاوية..

لا أراها تنتحر، بل أراها تتهاوى كسرب فراشات.. بينما هي تهوي.. وتهوي.. وتهوي..

وأكاد ألمح بين الآيات فراشة - على شكل فؤاد - وهي لا تزال تهوي..

وأقر: بعض الهاويات تكون أكثر أماناً من كل القمم المتهاوية..

وتختتم المشاهد المتتابعة بذلك المشهد الذي يتعاون فيه إبراهيم وابنه على (رفع القواعد)..

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٧].. تكاد تراهما بأم عينك. شمرا عن سواعدهما ليرفعا القواعد، عرقهما يتصبب على وجوههما، يكاد يقطر على الأرض ومواد البناء..

ستشعر قليلاً بالخجل وأنت ترى الشيخ الجليل وابنه الصغير يفعلان ذلك من أجلك، وستقرر متأففاً أن عليك أن تعرض المساعدة، ثم تعرض عن ذلك، لأنك مثقف ونخبوي، وعمل البناء ليس من اختصاصك، لكنك ستمد يدك في جيبك وتتبرع بمبلغ نقدي يساوي أجر عامل بناء هو بديلك الخبير..

لكن إذا أردت أن تعتقد أن هذا كل شيء فأنت مخطئ؛ **فرفع القواعد لم يكن عملية بناء بالحجر و(الطابوق) - فحسب - كما يحلو لنا أن نتصور.. المشهد لا يقول ذلك قط، خيالنا هو الذي أعد (الديكور) ورتب الأدوات وجعل المشهد مقتصراً على العمل اليدوي.. لكن لا ضير في ذلك؛ فالرمز في ذلك سيبقى مؤثراً وقادراً على الإيحاء.. لكن المهم ألا** نتصور أن رفع القواعد كان في حاجة إلى عضلات وسواعد فحسب..

لقد بدأت الرحلة يوم بدأت، **بعقل راجح، وفكر متوهج ورأس عنيد رفض أن يرضخ لأوثان المكرسات وأصناف الخرافة.. الساعد الذي رفع القواعد هو نفسه الذي حطم الأوثان.. وكان وراءه عقل تجول في الملكوت، وقلب لم يطمئن إلا بعد أن استدل.. رفع القواعد لم يكن بالسواعد فقط**.. كانت هناك قبل الساعد رحلة طويلة قطعها العقل البشري أولاً.. العقل الذي شك ورفض المسلمات وبحث واستدل..

ووجد..!

فلا تتصور أبداً، أن الأمر بالسواعد فحسب..، وتقول: إن الأمر ليس من اختصاصك.. لأنك مثقف ونخبوي ولم تتعود الأعمال الشاقة.

إنما يبدأ الأمر من اختصاصك!

❀ ❀ ❀

أتأمل في لفظ القواعد، أمسكه في يدي وأمسح عنه الغبار، وأفاجأ بالمارد خارجاً من المصباح..

لفظ القواعد تعودنا عليه لدرجة البلادة، لم نعد نستطيع تصور معانيه، أعمدته بكل الاتجاهات لو حاولنا فقط أن نبحث عن جذر الكلمة وأصلها اللغوي..

قاعدة: من (قعد). هذا واضح، لكن هل يعني هذا شيئاً محدداً؟ هل يعني أن لفظة (قاعدة) تجيء من شيء (قاعد) دوماً، من شيء متأسس على القعود.. من شيء ثابت وأصيل وأساسي.. ومتجذر..

(قاعد) دوماً؟. هذا أكيد.. لكن السؤال هو أين؟.. أين هو القعود؟..

من المؤكد أنه قاعد بشكل منخفض، ويحتاج إلى الرفع، إلى التوضيح..

هل يعني هذا أنه عميق - في الأرض مثلاً - ويحتاج إلى أن يرفع.. حتى يكون شاخصاً؟؟

هل (القواعد) التي رفعها إبراهيم كانت موجودة أصلاً لكنها كانت (قاعدة) - في العمق - ثم رفعها إبراهيم وإسماعيل..؟

وإذا كانت موجودة أصلاً قبل أن يرفعها فمن وضعها هناك؟؟. ومنذ متى كانت موجودة؟.. وأين هي موجودة؟ في الأرض؟ في أعماق الأرض؟ أم لعلها موجودة فينا، في أعماقنا..؟

هل هي شيء أصيل فينا... في تلك الفطرة الإنسانية التي ربما لو مسحنا عنها الغبار لخرج المارد من أعماقنا؟..

هل هي شيء عميق فينا لدرجة أننا نجهله، ونتعذب كثيراً لأننا نجهله. فنتيه بعيداً بينما نحن نبحث عنه؟

تلك القواعد، هل هي قاعدة فينا.. في عمق سحيق لدرجة أننا لم ننتبه له وهي كل ما نحتاجه.. كل ما نتوق إليه؟؟

إبراهيم وإسماعيل لم يضعا تلك القواعد. ليْسَا هما من (قعّدها)، إنما عملا فقط على رفعها..

من وضعها إذن، في العمق هناك؟.

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٢٦].

أيكون هو إذن؟.. الله الذي خلق الخلق، يسر في دواخلهم قواعد، يمكن لهم إذا شاؤوا، إذا فقهوا، أن يتمكنوا من فك مفاتيحها، ورفعها للارتفاع بها؟..

أتكون هي الفطرة ذاتها - بسننها وقوانينها - تصلح لأن تكون - بخطوطها العامة - أساساً مشتركاً بين كل البشر؟..

أتكون هي الفطرة، التي ولدنا عليها، والتي يولد عليها كل البشر منذ آدم إلى أن تقوم القيامة، وتلك الحاجات الأساسية الحقيقية - الأصيلة - لا الحاجات التي تقنعنا أجهزة الإعلام بأنها جد ضرورية؟.

تلك هي القواعد، (قاعدة) في العمق منا.. ربما تراكم عليها الغبار، تراكمت عليها حاجات مكتسبة نتوهمها أصيلة، تراكمت عليها شهوات

وغرائز تستفزها جيوش الإعلام وأجهزته.. نعم، **لكنها قاعدة.. تحتاج فقط إلى من يرفعها..**

البيت العتيق، في قلب الصحراء، هو بيتنا نحن، إننا نرجع إليه حتى لو كنا لم نزره قط.. بعبارة أخرى، إنه مرجعنا..

وذلك الحجر الأسود، هو الحجر الأساس في تلك الحضارة والمجتمع البديلين في ذلك الفردوس الذي يجب أن يستعاد..

وتلك القواعد، موجودة بعمق فينا، مرتبطة بالبيت العتيق، وبالحجر الأساس.. لكنها تحتاج إلى من يرفعها..

المشهد الأخير: الشيخ الجليل وابنه الصبي يتصببان عرقاً بينما يرفعان القواعد..

بعد كل ذلك التعب، كل تلك الرحلة الطويلة إلى قلب الصحراء، يوقعان المشهد بهمس حميم، بدعاء بسيط يبدو أنه هدفهما الوحيد من كل ذلك..

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٧].

يقف المشهد هنا، لا نرى البناء وقد اكتمل.. فقط إبراهيم وابنه وهما يرفعان القواعد، يترك النص القرآني النهاية مفتوحة، كما لو كان يستفزنا على المشاركة في البناء.. كما لو كان يحرضنا على الدخول في المشهد..

نستفز، نحرض، ننظر إلى السقف المنهار على رؤوسنا.. ونقر أن الأمر بدأ من القواعد.. نقرر أن علينا المشاركة، قبل أن نشمر عن سواعدنا.. علينا أن نتذكر أن الأمر لم يبدأ بالسواعد.. **إنما بعقل متفتح.. بفكرة متوهجة.. بفكر شامل متكامل..**

بعد كل هذا جاء دور السواعد..!

محمد ﷺ:

وفي النهاية جداً، تتشابك الخيوط وتتلاقى، تتعقد ثم تنتهي في نقطة واحدة..

وفي النهاية جداً، تصل كل الطرق إلى نهاية واحدة، إلى نقطة واحدة هي الهدف النهائي من كل تلك الطرق..

وفي نهاية السلالات، يكون هناك شخص واحد، يرثها كلها، يحصل أفضل صفاتها، ويحفظ كل عناصرها..

شخص واحد، يرثها كلها، يحفظها كلها.. وتكون قصتها كلها موجودة فيه..

ولأنه كان آخرهم، ولم يأت بعده أحد، ولأنه كان خاتمهم، فقد كان - بطريقة ما - وارثاً لسلالة الأنبياء والرسل الطويلة منذ أن فقدنا ذلك الفردوس في رحلة التيه التي دخلناها منذ هبطنا وبعضنا لبعض عدو..

.. ولأنه ورثهم، وحمل أفضل صفاتهم، وانتهت إليه تلك الشعلة التي توارثوها وتتابعوا على حملها في رحلة دعوتهم الوعرة..

ولأنه كذلك، فقد كان فيه منهم أكثر مما كان فيهم منه.. تلك الشعلة حملت بصماتهم، وفي تلك الرحلة احتفظ بخطواتهم.. في كل خطوة خطاها، كل تجربة مرَّ بها.. كان هناك شيء منهم فيه..

لقد اختزنهم في وعيه، كما تمتص الرمال مياه الأمطار وتختزنها في جوفها.. دخلوا في داخله وصاروا جزءاً منه..

كان هناك شيء من يوسف فيه عندما خذله الجميع، وشيء من نوح عندما بنى السفينة، وشيء من يونس عندما ابتلعه الحوت.. وشيء من موسى عندما خرج وعندما عاد.. وكان هناك شيء من كل واحد منهم فيه.

لكن مع إبراهيم، كانت هناك أشياء وأشياء..

سأقف عند مشهد واحد، ربما ليس فيه الكثير من الحركة، ربما ليس فيه الكثير من الأحداث.. لكن فيه الكثير من العمق وحافل بالإيحاءات والدلالات..

مشهد واحد، يتكرر مرتين، مرّة مع إبراهيم، ومرة مع محمد صلى الله عليهما وسلم...

تتغير أدوات المشهد، تتغير عناصره، لكن شيئاً أساسياً في قلب المشهد ينبض النبض نفسه...

يدق الدقة نفسها.. ويجعل المشهدين يتكاملان مع بعضهما البعض..

المشهد الأول، إبراهيم وتلك الليلة التي خرج منها **باتجاه الفجر** التي أشرق فيها العقل في داخله..

تلك الليلة.. التي أفلت فيها كل المعبودات، ولم يبق سوى الذي أوجدها، خارجاً عن كل تجسيم، مجرداً عن كل تشكيل، منزهاً عن أي إطار يحدده في زمان أو مكان..

تلك الليلة، تقلَّب فيها وجه إبراهيم، **تقلَّب فيها عقله**، يبحث عن ذلك الشيء الذي لا مفر من البحث عنه.. وعندما بزغ العقل في داخله عَبَر، ومعه الإنسانية كلها، نحو الوجه الآخر من القمر، ذلك الوجه الذي لا يمكن لحوت الخرافة والجهل أن يبتلعه.. تلك الليلة، وذلك المشهد، ووجه إبراهيم يتقلب بين الآفلين، إلى أن يصل إلى الضفة حيث لا مكان للآفلين. تلك الضفة التي وجّه إليها - أخيراً - وجهته..

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٩].

المشهد الأول، لكنه يعاد مرة أخرى.. في عصر آخر..

هذه المرة معه، محمد، عليه أفضل صلاة..

ليس المهم أن تكون ليلة تقلب فيها وجهه.. ولا نهاراً احتار فيه فكره.. لكن المهم أن وجهه تقلب..

نبض قلبه بحثاً عن جهة يتوجه إليها..، تحرك عقله من أجل مكان يحتوي أفكاره..

هل كانت المسألة مسألة جهة فحسب؟ ..أم كانت الجهة رمزاً لما هو أكثر من ذلك؟..

لا ندري، إلا إنه كان يبحث. لا ندري، إلا أنه كان يدور بوجهه، بحثاً عن جهة يتوجه إليها.. وإن كان ذلك يؤرقه..

ولعلها كانت ليلة تركت بصمتها أيضاً على مجرى التاريخ..

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٤].

بين الليلتين، بين التقلبين، بين الوجهين الباحثين، أكثر من ربط، أكثر من مجرد خيط، بينهما تكامل، وتواؤم.

الليلة الأولى، تقلب فيها إبراهيم من أجل أن يجد - بنفسه - ذلك الذي فطرَ والذي خلق.. والذي ترك الأدلة على وجوده في كل مكان..

تلك الليلة تقلب فيها إبراهيم من أجل أن يجد من هو أهل لأن يُعبد.. من أجل أن يجد من يستحق أن تتوجه له الوجوه والأنظار.. والأيدي.. والعقول..

كانت الحاجة للعبادة واضحة عند كل الناس وكل المجتمعات، المشكلة كانت في أنها تتوجه إلى المكان الخطأ..

تلك الليلة قرر العقل الإنساني أن يحسم الأمر.. ويبحث عمّن خلقه.. لا يتوجه إلا له..

وفي الليلة الأخرى، تقلب وجهه عليه الصلاة والسلام بين الجهات، لم يكن يبحث عمن خلقه؛ فالأمر حسم منذ فترة طويلة، لكنه كان يبحث، بين الجهات، بين الخيارات، في مفترق الطرق ذاك الذي كان فيه، عن جهة تحقق له القرار الذي تحقق بعد الليلة الأولى.. الجهة التي كان يبحث عنها محمد، ويقلب وجهه بحثاً عنها، كانت الجهة التي ستحقق ما وجده إبراهيم، **ستنزلها على أرض الواقع، تحولها من فكرة هائمة في خيال العباد والزهاد، إلى مجتمع حقيقي، يحتويها وتحتويه، يسندها وتسنده..**

في مفترق الطرق ذاك، وقف محمد يقلب وجهه بين الجهات، كل جهة تمثل تجربة حضارية مختلفة ومتميزة، كل جهة تمثل فشلاً ما، أو نجاحاً ما، إخفاقاً ما، أو انتصاراً ما..

كل جهة من كل تلك الجهات التي تقلب فيها وجه محمد، كانت **تلك خصائصها الحضارية الثابتة، المميزة لها، الناتجة عنها، سلباً أو إيجاباً..**

كانت تلك الجهات، تملك تجربتها التي اختلط فيها الصواب والخطأ، التوحيد بالوثنية، والمبادئ بالمصلحة..

كل تلك التجارب كانت تمثل تجارب حضارية راسخة، قد تكون تحمل معها بذرة انهيارها وسقوطها، لكنها كانت موجودة على أرض الواقع.. نموذجاً جاهزاً للتطبيق والاستعادة..

وفي تلك المرحلة الحاسمة، في مفترق الطرق ذاك، كان يمكن لتلك النماذج أن تكون جهة تأثير في التجربة الوليدة، خاصة وأن بعضها

امتلكت - في موروثها - تجربة دينية سماوية يمكن أن تقارن بالدين الإسلامي..

وهناك، كانت الحيرة، وهناك كان مفترق الطرق.. وهناك تقلب وجهه، بحثاً عن جهة..

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٤].

لكن السؤال، ما القبلة؟

لقد تعودنا على الأمر إلى درجة البلادة، وإلى درجة استنكار أي سؤال يحاول أن يعيد تعريف الأمر ويعيد استكشافه.

لكن السؤال، ما القبلة؟

على المعنى تراكمت خيوط العنكبوت، وعلى رؤوسنا تراكمت خيوط التقليد، لو أننا حككنا رؤوسنا قليلاً، لربما خرج مارد آخر من قمقم المعاني الكامنة.. ولربما صار للقبلة معنى آخر يجدد معنى اتجاهنا إليها.

علمونا أن نضبط اتجاهنا منذ زمن بعيد، منذ تعلمنا الصلاة..

ربما قالوا لنا: إن الصلاة لا تصح بلا ضبط الاتجاه، وقالوا شيئاً آخر عن التوحيد بين المسلمين واتجاههم جميعاً نحو الجهة نفسها كلما توجهوا للصلاة..

.. مع الوقت، تعودنا الأمر، وتعودنا الاتجاه، وإذا حدث وصلينا في مكان مختلف - كأن نكون ضيوفاً عند أقارب أو أصدقاء - فإننا سرعان ما نسألهم، بينما نحن نفرش السجادة على الأرض، أين اتجاه القبلة؟.. ولعل الأمر يزيد صعوبة إذا نزلنا مسافرين غرباء في فندق ليس فيه مصلٍّ واحد في مدينة أجنبية، وقتها سيصير علينا الاستعانة بالجهات الأربع،

وربما بالبوصلة؛ التي انتبه مصنعو السجاد في تايوان إلى أهميتها التسويقية في هذا المجال فوضعوها ملحقةً ببعض أنواع السجاد..

ولأن الأمر بهذه الحساسية والأهمية، فقد قاس علماؤنا وفقهاؤنا من المعاصرين، على جواز الاتجاه لأي جهة في أثناء الصلاة على الدابة، فخرجوا فتوى تجيز الصلاة لأي جهة في أثناء الصلاة في الطائرة..

وأظن أني قرأت فتوى (افتراضية) تقول بجواز الاتجاه إلى الكرة الأرضية بمجملها، إذا أديت الصلاة على ظهر القمر.. وهو أمر منطقي كما هو واضح، لكنه غير واقعي مطلقاً، فالذين وطئوا القمر بأقدامهم لم يكونوا من المسلمين.. وليس من الوارد قريباً حدوث شيء كهذا، إلا إذا أراد غزاتنا الأكارم التخلص منا بنفينا إلى القمر في مجاهله وصحاريه.. وهو أمر غير وارد أيضاً، لأن التخلص منّا - بالطريقة التي يحرصون عليها حالياً - أكثر جدوى اقتصادياً من أعباء نفينا إلى القمر.

ولا أظن مصلياً من رواد المساجد لا يحتفظ في ذاكرته بسجل من المناقشات والجدل بخصوص القبلة كلما زاد عدد المصلين، وتجاوز الباحة الرئيسية إلى ممرات المسجد والحديقة الخارجية..

ولا أظن مصلياً من رواد المساجد ينسى أن الأمر يتراوح بين (تعديل) وضعية المصلي في أثناء صلاته.. إلى مطالبته بإعادتها - وفق الاتجاه الصحيح للقبلة - فور انتهائه من الصلاة ..القبلة أمر مهم إذن، والحياد عنها قد يستوجب إعادة الصلاة.. وهو أمر خطير..

لكن لماذا؟

صحيح، «القبلة» مهمة جداً، وخطيرة جداً. لكن لماذا؟

ما الأمر فيها بالضبط؟..

لا أقول ذلك كله من أجل التشكيك بركن من أركان الصلاة والعياذ بالله.. لكنني أشير إلى أن التأكيد على أهمية القبلة قد لا ينسجم - للوهلة الأولى - مع كل ما يؤكده الإسلام من نبذ الشكليات والمظاهر في كل أنواع العبادات..

نعم، يحدث ذلك للوهلة الأولى.. فالإسلام قام، ومنذ البداية، بتفجير وإلغاء كل **أنواع الوساطة بين الله والبشر**، بل إنه ذاته تفرد في ذلك من بين كل الأديان السماوية، فألغى دور الكهانة التقليدية[1] التي احتكرت طويلاً العلاقة بين الخالق والمخلوق، والتي شكلت في بعض المجتمعات - إن لم يكن أكثرها - طبقة متنفذة تملك ما تملك من المال والسلطة.. وتتحكم - نتيجة لذلك - بأمور الناس ومقدراتهم..

بل إنه - نتيجة لإلغاء دور الكهانة - قام بإلغاء الدور التقليدي لدُوْر العبادة، وتحويلها من مكان منعزل على نفسه وعلى رواده، إلى مكان منفتح على السماء وعلى العلاقة بها، وعلى الآخرين وعلى بعضهم بعضاً..

بل إنه ألغى كل المظاهر الوثنية التي أثقلت فكرة (الله) في أذهان المؤمنين به، حتى في الأديان السماوية، ألغى التجسيم الذي حول الله إلى مجرد مارد عملاق له بعض القوى الخارقة. ألغى التشبيه الذي جعل من صفات الله حبيسة داخل تصورات مادية ضيقة محصورة داخل الصفة الإنسانية المقابلة لصفاته عز وجل..

.. وألغى الإسلام كل تلك القوالب والأطر والأقانيم التي قولبت فكرته - تعالى وسما - وأطلقها - بدلاً عن ذلك - داخل لا حدود

(١) لا أستطيع هنا إلا أن أعلق أن المؤسسة الدينية التقليدية استطاعت، وعبر تداخلات الفكر والسلطة والاستبداد، أن تقوم بما قامت به مؤسسات الكهانة من احتكار.

المطلق، داخل اللامتناهي الذي شكلته الأسماء الحسنى والصفات العلى.

.. وألغى أيضاً فكرة الأولياء والقديسين وأشباههم وأنصافهم الذين كانوا يحتكرون جزءاً من المساحة الخاصة بين الإنسان والله..

لقد ألغى الإسلام كافة الشكليات والمظاهر التي كانت تثقل العلاقة بين الفرد وربه.. الأرض كلها جعلت له مسجداً وطهوراً، يستطيع أن يصلي في أي وقت، وأي مكان.. لا يحتاج إلى أن يكون في دار عبادة، تحت إمرة كاهن أو رجل دين.. **فقط أن يفترش الأرض ويتطهر ويفتح قلبه وعقله لذاك الذي يعلم ما في القلوب والعقول..**

شيء واحد فقط، حرص الإسلام على شكليته - أو على الأقل هذا ما يبدو - هو القبلة.. **الحرص على شكل الاتجاه إليها..**

أم إن الأمر ليس كذلك؟.. و(القبلة) ليست مظهراً شكلياً في العلاقة بين الإنسان والله؟..

القبلة لغة هي (الجهة). هذا ما تقوله المعاجم..

لكننا لو تأملنا في اللفظ، لوجدنا أنها ليست أي جهة؛ إنها جهة (يُقبِلُ) عليها الناس، (جهة) يَقْبَل بها الناس.. بين القبول والإقبال ستكون (القبلة) مكاناً ينجذب الناس إليه، يذهبون إليه، يرجعون إليه..

(يرجعون إليه؟. حتى لو لم يكونوا فيه قط).

يتخذونه مرجعاً؟.

بعض جوانب من الصورة - من الشكل الذي لا يمكن أن يكون شكلاً فحسب - بدأت بالتوضح.

بعد القبول، هناك ما هو أكثر..

هنالك الرضا ..﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ٢/١٤٤].

وبين القبول والرضا.. هناك مسافة علينا أن نقطعها – نجتازها.. بين الفهم التقليدي.. والفهم المبدع..، بعدها ستوهج (القبلة) وسنجد أنفسنا منجذبين إليها كما تنجذب الطائرات والأجسام المعدنية نحو مثلث (برمودا). كما ينجذب الفراش نحو النار المتوهجة، لكن مع فارق أن ذلك الانجذاب لن يميتنا.. لن يحرقنا، بل سيدخلنا في خضم تجربة حياتية مختلفة.. سيحيينا من جديد.. وقد كنا نجهل قبلها كم كنا أمواتاً..

نعم، بعد القبول.. هنالك الرضا..

بالمناسبة: عندما تخطئ القبلة في الصلاة.. فإن لديك الفرصة لتصحيح الأمر.. وإعادة الصلاة.. لكن عندما تخطئ القبلة في الحياة.. فإن الأمر يكون أكثر تعقيداً..

أن تتجه دوماً إلى مكان واحد، أينما كنت، سواء كان اتجاهك ٧ غرباً أو ٢٩ شرقاً، فإنه يعني، أن عليك، بالضرورة، أن تحدد موقعك الذي أنت فيه الآن..

أن تتجه دوماً إلى مكان واحد، يعني أنك يجب أن تحدد مكانك الذي أنت فيه. وفي عالم شديد التغير، سريع التحول، فإن تحديد مكانك يعني تحديد مكانتك.. يعني أنك ستكون دوماً شديد الوعي بمكانك.. هل هو على السفح المعرض للانهيار.. أم هل هو على تلك القمة التي تأتي الهاوية بعدها بخطوة واحدة..

.. هل أنت في القعر السحيق؟.. أم في بطن الحوت؟.. أم إنك في لامكان؛ لأنك أقل أهمية من أن تأخذ حيزاً في هذا العالم؟..

أن تتجه دوماً إلى مكان واحد، يعني أن تكون على وعي بمكانك أنت..

بمكانتك..

.. وأن تعرف (أين) تريد، يعني أيضاً أنك يجب أن تعرف (ماذا) تريد..

أن تعرف أنك تريد هذه الجهة ذاتها، هذه القبلة ذاتها لتتوجه إليها في حياتك، يعني أنك يجب أن تعرف بالضبط ماذا تريد من حياتك..

هذا التشديد على (الجهة)، ليس من أجل خطوط الطول والعرض، ليس من أجل الاتجاه الجغرافي.. ولكن من أجل أن نشدد على أن يكون لدينا هدف، لدينا مقصد، لدينا جهة نعرف أننا نريد أن نذهب إليها..

.. الأمر عميق فينا، وكلما ازداد عمق جذور (القبلة) فينا زاد هذا الإحساس وتجذر.. وصار أصيلاً فينا..

إن لدينا هدفاً، لدينا مكاناً نعرف أننا نقصده..

وعندما تعرف أين أنت، وتعرف أين تريد.. فالأمر دوماً يصير أسهل، ودوماً يصير الطريق أقصر.. وأقل وعورة..

.. وعندما يرتبط المكان الذي تريد؛ الجهة التي تتجه إليها، ذلك المكان الذي تقبل عليه وتنجذب إليه، وقد يُبْطِلُ صلاتك - أو حياتك؟ - أن تحيد عنه.. عندما يرتبط هذا المكان بموقع جغرافي محدد.. فأنت تعلم أنه يخزن في أعماقه الكثير من المعاني والإيحاءات التي ستغني حياتك وتزيدها ثراءً وخصوبةً وإثماراً..

.. نعم، هذا الموقع المحدد، قد يملك لك الكثير من الأسرار.. الكثير من المفاجئات.. قد يبدو ذلك منبسطاً للوهلة الأولى، لكنه سيمنحك قمماً لم تتخيل قط أنك ستبلغها..

.. وقد يبدو لك حاراً جافاً عندما تزوره للمرة الأولى، لكنه سيغمرك بنسيم ينعشك ويكاد يعيدك إلى الحياة، وسيزهر الربيع في قلبك كمفاجأة

غير متوقعة، وقد كنت تتخيل دوماً أنه قد دخل صقيعه الدهري وموسم جفافه اللانهائي..

لكن ها هو ذا يتبرعم، وها هو ذا يزهر. وها هو ذا يثمر وقد كنت تتخيله عقيماً منذ قرون..

.. قد يبدو لك أجرد - في وادٍ غير زرع! - ولن تصدق كيف سينشر البساتين والجنان في أعماقك وسهولك ووديانك.. لن تصدق كم سيكون خصباً.. هذا الوادي الذي بلا زرع.

ربما ستمسك بحفنة من الرماد في قبضة يدك وتتأملها ثم تقول: إنها لن تصلح لشيء. ربما سيقول خبير التربة ذلك أيضاً..

لكنك لن تدري أنها يمكن أن تكون سماداً لكل حياتك..



لماذا مكة؟.

لماذا مكة بالتحديد؟.. لماذا ذلك البيت العتيق تحديداً؟.. ما الذي فيه بالضبط.. يجعلنا (نرجع) إليه.. حتى لو لم نكن قد ذهبنا إليه أصلاً؟.. وما الذي فيه يجعل قلوبنا تهوي إليه.. وتهوي.. وتهوي.. ما الذي فيه يجعل صلاتنا معرضة للبطلان، إن لم نتوجه فيها إليه..

لماذا مكة؟.

ندور دورة واسعة، ثم نعود دوماً إلى النقطة نفسها حيث تتلاقى البدايات والنهايات.. وتختلط علامة البدء بإشارة نهاية السباق..

مكة تذكرنا ببداية السباق، ببداية تلك الحكاية كلها، عندما طردنا من الجنة وهبطنا الأرض بعضنا لبعض عدو..

مكة تذكرنا برحلة التيه الطويلة التي تخبطنا فيها، وبذلك التجوال المر والترحال الذليل بحثاً في المكان الخطأ عن فردوس مفقود.. وتذكرنا مكة، برحلة أخرى، قام بها إبراهيم، وبدت كما لو أنها تتجه الاتجاه الخطأ بعيداً عن مراكز الحضارة التقليدية، نحو عمق الصحراء الجرداء.. حيث لا زرع.. ولا ضرع..

تذكرنا مكة ببيت عتيق يشبه بيت طفولتنا الأول، ذكراه مشوشة وغائمة في خيالنا، لكنه كان رحباً جداً إذ اتسع لأحلامنا ورؤانا وضحكاتنا وصخبنا..

تذكرنا مكة، بحجر أساس، وضع في عمق أحشائنا، لا يزال الماء رطباً حوله.. ولا نزال نستطيع أن نتحسسه هناك بأيدينا.. لا يزال صامداً هناك، في كل فرد فينا.. ننتظر أن نشمر سواعدنا، ونستكمل البناء المنتظر..

تذكرنا مكة، **بحجر أسود هو الحجر الأساس**، ويذكرنا الاتجاه إليها، أن بناءنا يكون أقوى وأمتن لو استند على هذا الحجر..

تذكرنا مكة بقواعد راسخة وعميقة، رفعها إبراهيم ومعه إسماعيل.. ويذكرنا الاتجاه إليها أن القواعد تحتاج إلى المزيد من الرفع.. وأن عملية البناء يجب أن تتواصل باستمرار..

ندور دورة واسعة ونعود إلى نقطة البداية، نستمد منها الأبجديات الأولى بعدما ضعنا طويلاً في الألفاظ والمصطلحات.. وبعدما تهنا طويلاً، وتخبطنا على غير هدى، ولم نعد نعرف أين أصبحنا بالضبط، نعود إلى نقطة البداية، منها ننطلق من جديد، نستعيد هويتنا التي ضيعناها وحصلنا على عشر هويات مزورة بدلاً عنها. نستعيد ثوابتنا التي ميعناها وصهرناها، وذوبناها وخلطناها مع ثوابت الآخرين وقيمهم وأسباب

سقوطهم.. ويكون الناتجُ هذا الهجينَ غير المتجانس الذي يشدنا إلى الوراء..

مكّة، هي الرجوع إلى ما لا مفر من الرجوع إليه.. والاتجاه إليه هو الاتجاه نحو كل تلك المعاني وكل تلك الدلالات..

لا مكة في مكة، أعني أن خطوط الطول والعرض وخرائط الجغرافية ليست مهمة هنا. المهم هو ذلك الإرث الإنساني الذي اختزنته مكة، والمهم هو تلك التجربة العميقةُ الجذورِ التي بذرت أول بذورها فيها..

ليس المهم في الأمر هو الاتجاه الجسدي فحسب، لكن المهم أن يصاحب ذلك الاتجاه الجسدي، توجه عقلي نحو ذلك الإرث ونحو تلك التجربة.. المهم هو الوعي بمعنى (**القبلة**).. بل بكل المعاني الخصبة المختزنة في داخلها..

المهم هو أن يكون **ولاؤنا** - حقاً - لتلك القبلة..

ربما يكون ذلك معنى ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٤].

التقلب بحثاً عن حقيقة ليس أمراً نادراً في حياة البشر.. وتقلب إبراهيم بين (الآفلين) يشبه قصة تنقل الكثير من المفكرين والفلاسفة والدعاة بين مختلف الأيديولوجيات، بل وأضدادها، إلى حين الوصول إلى قناعة أو يقين نهائيين..

ولا يحدث ذلك لكبار المفكرين فحسب، لكنه يحدث أيضاً للبشر العاديين، أولئك الذين يتأرجحون تأرجحاً مراهقاً بين شك وإيمان.. وقد يثمر تأرجحهم هذا يقيناً يملأ عليهم حياتهم كلها فيما بعد..

المهم أن تقلب إبراهيم في تلك الليلة، له ما يماثله في حياة البشر العاديين..، ومن ثم فإن تقلبه يمس وتراً ما في أعماقهم. هل يعتقد أحد

أن ذلك حكرٌ على تقلب إبراهيم؟.. وأن (تقلب وجهه) عليه الصلاة والسلام لا يتكرر كل يوم.. بل كل لحظة في حياتنا المعاصرة؟

أبداً، تقلب وجهه عليه أفضل الصلاة والسلام، ليس مسألة حسمت وانتهى أمرها، على الأقل بالنسبة إلينا.. الأمر لم ينته؛ لقد حسمت مرحلة منه فحسب، حسمها الجيل الأول مرحلياً، لكن التقلب لا يزال مستمراً.. وجوهنا لا تزال تتقلب قِبَل المشرق، وقِبَل المغرب..

حتى لا أقول: قِبَل المشارق وقِبل المغارب..

.. وإمكانية الحسم لا تزال قائمة..

في مفترق الطرق الذي نعيشه، في خضم العاصفة التي تعصف بنا.. بخياراتنا، وقبل ذلك بعقولنا، يبدو (تقلب الوجوه) رد فعلٍ طبيعياً جداً وملائماً لكل ما كان وما هو كائن..

نعم، كيف يمكن ألا تتقلب وجوهنا، بحثاً عن مأوى، بحثاً عن منجى، بحثاً عن قارب إنقاذ.. نحن الذين نبدي استعدادنا للتعلق ولو بقشة..

نعم، كيف يمكن لوجوهنا أن تظل ثابتة، نحن الذين عاصرنا النكبات تلو النكبات، وعشنا أعماراً من الهزائم والانكسارات، ونكاد نعجز عن تذكر فرحة - ولو واحدة - في سجل أفراحنا الخالي؟؟

.. لا تقل إن وجهك لم يتقلب.. وأنت ترى بغداد قد سقطت، أو قبلها بيروت قد حوصرت.

لا تقل إن وجهك لم يتقلب وأنت ترى ذلك العَلَم يرفرف على بناء عالٍ في تلك الدولة، أو أنت تصطدم ببضاعة كتب عليها (صنع في إسرائيل) وقد وضعت على الرف في متجر جارك..

لا تقل إن وجهك لم يتقلب وأنت ترى دمك مسفوحاً برخص لا يحاسب أحد عليه بينما دماء ـ من جنسيات أخرى ـ تحسب بالملايين من الدولارات.. لا تقل إن قلبك لم يزغ وأنت ترى كل تخلفنا مقابل كل تقدمهم..

لا تقل إن وجهك ظل ثابتاً، وإن بصرك لم يزغ، وقلبك لم يزلزل في خضم ذلك..

.. إلا إذا كان قالباً من الثلج..

إياك أن تنكر! إياك!!

.. ولعل لفظة (تقلب) هنا مخففة جداً لما يدور حقاً؛ فالجهات هنا لا تجذب وجوهنا المتقلبة بقدر ما تتقاذفها.. الأمر يشبه دوامة تكاد تلتهمنا، يشبه حوتاً كبيراً وقد ابتلعنا..

الأمر ليس (تقلباً) بالمعنى الاختياري للتقلب.. ولكنه أقرب إلى الرياح التي تتلاعب بريشة.. أينما اتجهت نتجه معها..

القبلة الأولى التي ترى أن العالم كله يجب أن يتجه لها تحديداً وحصرياً هي قبلة الحضارة الغربية؛ حضارة الرجل الأبيض - بنسختها الأمريكية - إنها حضارة الإقصاء والتمييز و**(كل من ليس معنا فهو ضدنا)**..

إنها مانهاتن وقوتها ليست قوة البطش العسكري فحسب، ولكنها مستمدة من قوة الثراء والترف والسلع الاستهلاكية، مستمدة من الحلم الأمريكي الذي نشب أظافره في عنق العالم بأسره.

والقبلة الثانية، لا تملك حقاً من رصيد غير العداء للقبلة الأولى. إنها لا تملك مشروعاً بديلاً، وفي الوقت نفسه فهي تستخدم العنف الأهوج

بشكل يزخرف القبلة الأولى ويزيدها بريقاً وبهرجاً، بل ويعطيها المصداقية.. (ونشوء القبلة الثانية مرتبط بشكل أساسي بتحالف المؤسسة الدينية التقليدية - أو فرع من فروعها - مع السلطة الاستبدادية أولاً ومع القبلة الأولى ومخابراتها المركزية ثانياً..)..

إنها أفغانستان[١] وتلك الكهوف التي غادرها النور.. وسكنتها الظلمة في العقول والإدراك ..(**وبين القبلتين قبلة ثالثة - ليست منتشرة جداً لكنها موجودة، ووجودها يتعاظم - تدعي الوسطية والاعتدال، وكل ما تقوم به هو وضع شعارات إسلامية على محتويات غربية، تابعة للقبلة الأولى، هدفها الترويج لنموذج القبلة الأولى بمسميات أخرى**)..[٢]

فأين تذهب بوجهك إذن؟.. وحياتك تتقاذفها تلك الجهات.. وأنت لا تنتمي لأي منها.. وأنت لا تجد نفسك في أي منها..؟

أين تذهب بوجهك، في مفترق الطرق ذاك، وهم يريدون لوجهك أن يتشكل كما يريدون، يريدون لملامحك أن تنصهر وتتكون من جديد.. يريدون لوجهك تارة أن يكون حليقاً أمرد يذكر بقوم لوط.. أو يريدون لوجهك أن يكون بسحنة غاضبة، ولحية لم تمسها يد التشذيب.. يذكّر بعصر الكهوف والهراوة..

.. ووجهك لا يريد الوجهين، كما لا يريد وجهاً يتوسط الوجهين.. وجهك يريد ملامحه الحقيقية، يريد بصمته المميزة التي لا تشبه أحداً..

(١) لا أقصد هنا بأفغانستان (أو حتى بمانهاتن) أي شيء يتعلق بالشعب الأفغاني أو الأمريكي؛ إنما الاستخدام هنا رمز لمؤسسات ومفاهيم حضارية وغير حضارية استوطنت المكان. ومن النافل القول إن التجربة الأفغانية فيها من العرب ومن مؤسسات الاستبداد العربية ومن عملاء المخابرات الغربية أكثر مما فيها من أفغان.

(٢) لا ينفي هذا وجود مفكرين مجددين وفكر تجديدي، لكنه لم يتحول إلى تيار رئيسي، ولم ينزل بعد إلى الشارع.

وجهك لن يتقبل تلك الملامح المنزوعة من مكان آخر، المزروعة في داخله.. ببساطة، سيرفضها.

الجسم قد يقبل الكُلْية أو النخاع أو القرنية، لكن.. سيرفض أن تزرع البصمة، أن تزرع الروح. الجسم سيرفض ملامحَ ليست له تزرع في وجهه..ربما في البدء لن يكون الرفض واضحاً، بل ربما سيكون هناك بعض الفرح بملامح جديدة ولو على سبيل التغيير، لكن، مع الوقت، ستظهر أعراض الممانعة. مناعة الجسم قد ترضى بالكلية الأجنبية الدخيلة.. لكن مناعة الروح ستتصرف بغموض.. ستتململ.. ستتحرك.. ستتمرد.. ثم ستنفجر كبركان..

.. وتقلب بوجهك بين خيارات موقوتة الانفجارات..

وأين تذهب؟.

لست من مانهاتن. ولكنك أيضاً لا تريد أن تذهب إلى كهوف أفغانستان.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٤].ليس الترف المزيف لتلك العمارات الفخمة المشيدة على (لاأساس) في الشارع الخامس في مانهاتن..

ولا تلك الكهوف الوعرة..

ولا تلك العمارة المشرفة على الانهيار، وذلك الكهف الذي لا يدخله نور ..هنالك طريق آخر.. هنالك خيار آخر، حتى لو حاولوا تغييبه.. وحجبه.. بالخيارين الآخرين المصرين على تقاذفك.. خيار آخر، مختلف تماماً، واختلافه ليس اختلاف مظهر أو هدف فحسب، إنه مختلف من الجذر.. من نقطة الانطلاق.

❁ ❁ ❁

.. أرض منبسطة، شديدة الانبساط.. رملية وساخنة..

صحراء واسعة أمامك، وصحراء واسعة خلفك. وعند الأفق، تمتزج الحقيقة بالسراب في تلاحم غير نهائي..

تتلفت بوجل. الأرض خالية، والرمال لا تبقي على أثر، ولست متأكداً إن كان هناك من مرَّ أصلاً من هنا وترك أي أثر..

الحر لافح، والشمس حارقة دون مبالاة. لا عجب ألا يكون هناك حياة في هذه الأرض. أي حياة يمكن أن تنشأ مع هذه الظروف؟..

ظمؤك يذكرك عند حافة روحك بالموت عطشاً.. تتساءل إذا كان سيكون قبرك في بطون الطيور من كواسر الصحراء.. أم أنه سيكون في بطون الضواري والسباع.. تتلفت بخوف، ثم يصدمك سؤالك لنفسك عمَّا إذا كان هناك ضوارٍ ووحوش حية في هذا المكان المقفر..

من بعيد، عند ذاك الأفق الذي تلتحم فيه الحقيقة بالسراب، تلمح خيالاً قصياً لأشخاص..

لست متأكداً إن كنت قد دخلت مرحلة الهلوسة والاحتضار، لكنك ترى بعين اليقين أشخاصاً من بعيد.. لست متأكداً من هم، ولا عددهم... لكنك تراهم... ليسوا سراباً.. وكلما اقتربوا أكثر، صرت تستطيع رؤيتهم بشكل أوضح، صرت تستطيع تشخيص أجسامهم من بعيد. إنهم اثنان، رجل وامرأة على الأكثر، ولست متأكداً إن كانت المرأة تحمل طفلاً صغيراً بين يديها أو لا..

فجأة سيبدو لك المشهد مألوفاً بشكل غريب، بشكل مزعج، ستجد شيئاً يحك تلافيف مخك وينبش فيها... ويذكرك أنك لم تشاهد المشهد فحسب، بل أنك كنت جزءاً منه، ولو بشكل غير واعٍ وغامض..

لقد كنت هنا من قبل، لست متأكداً كيف جئت هذه المرة ولا في المرة السابقة... لكن ها أنت ذا هنا بين الحقيقة والسراب وفي أفق ذاكرتك يحلق طائر أليف مألوف..

لقد كنت هنا من قبل.

في ذاكرتك تفتح نافذة متألقة تفسر لك ما التبس عليك من مشاعرك... تقول لك: إنها تلك الرحلة العميقة العريقة العتيقة، التي خاضتها البشرية يوم كان أول ما كان.. عندما خرجت من الفردوس طريدة نحو الأرض.. المستقر والمتاع..

.. مثقلاً ستكون بالذكرى والذاكرة؛ ذكرى الخديعة والغرور التي قادتك إلى الشجرة المحرمة، وتلك الثمرة التي أورثتك الهبوط من الجنة.. ستتردد في أصداء أذنيك ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٦]. وستبدو تلك الجنة أمراً بعيداً قصياً كأنه لم يكن..

ستتأمل في المشهد الذي وجدت نفسك فيه، وفي الأفق الصحراوي الذي يتقدم رحلة حياتك... وستعلم أن رحلة العودة لن تكون هينة..

ستفتح نافذة أخرى، فجأة..

المشهد نفسه، الصحراء الجرداء نفسها، الأفق نفسه؛ حيث يلتحم السراب بالحقيقة، وأيضاً شخصان، قادمان من عمق الأفق... رجل وامرأة أيضاً، لكن هذه المرة معهما طفل. سيساورك شعور شبه أكيد أنك مررت بهذا المشهد من قبل.. وأنك تعرف هذا الرجل وهذه المرأة.. وهذا الطفل..

بل ستتذكر بقية التفاصيل في المشهد. نافذة تلو أخرى، ينفتح ذهنك مع ذاكرتك في مشاهد متتالية.. وتلهث كانك لا تصدق، أن كل ذلك محفور في أعماقك، وأنت لا تكاد تعرفه..

.. ها هي ذي المرأة - وحيدة إلا من الله، ومعها طفلها - تركض بين الجبلين.. ها هي ذي تقف على المرتفع هنا، تقلب بوجهها نحو تلك الجهة، تبحث عن قافلة، عن أحد، عن ملجأ.. ها هي ذي تهبط وقد أيست من تلك الجهة، وتركض نحو الجهة الأخرى.. تصعد المرتفع الآخر، تقلب بوجهها نحو تلك الجهة.. وتبحث مرة أخرى عمّن ينقذها مما هي فيه.

سبع مرات ركضت معها. سبع مرات تنقلت بين الجبلين وقلبت بوجهك نحو الجهات الأربع، وسبع مرات لم تجد أحداً. سبع مرات خذلتك كل الجهات: الأربع وغير الأربع.. سبع مرات أفل الجميع، واكتشفت أنك لا تحب الآفلين.

هذا المشهد تكرر دائماً، ربما هذا هو ما يسمونه الماضي المستمر، لقد كنت دوماً تقلب بوجهك وتتراكض بين الآفلين، بين ما يبدو أنه مرتفعات ثم ما تلبث أن تكتشف أنها هاويات.. إنها ليست قصة هاجر في قلب الصحراء، إنها قصة حياتك، وقصة حياتي... وقصة حياة البشرية جمعاء..

أنت لا تتخيل شيئاً، لقد كنت هناك.

نعم، لقد كنت بطريقة ما، هناك.



.. وصراخ الطفل يكاد يصم أذنيك، تفضل أن تقتلع أذنيك لتتخلص منه. إنه يحاصرك ويكاد يفجر رأسك وعينيك...

لست متأكداً إن كان إسماعيل هو الذي يصرخ، أو ابنك، أو ابن الجيران، لست متأكداً إن كان يصرخ جوعاً أو عطشاً أو ألماً أو مرضاً،

لكنه يصرخ بحرقة، بلوعة، يصرخ بطريقة توقظ كل مواجعك وآلامك ووساوسك.

لست متأكداً من هويته، لكنه فجأة يستحيل إلى كل طفل بكى عبر التاريخ، إنه مرة طفل تآمرت كل حكومات العالم على سلبه حليبه ودواءه، ومرة طفل تآمر عليه والداه وتركته أمه سراً على باب مسجد أو ملجأ، ومرة طفل حرموه من والده عندما أخذوه عند الفجر ولم يرجعوه أبداً، ومرة طفل أخذوه من حضن والدته سلخوه أمامها وقطعوه ثم شووه وأمروها أن تضمغ لحمه. ومرة طفل قتلوه وإخوته في حروب إبادة، تبادل فيها القاتل والمقتول دوري الجلاد والضحية..

... ومرة طفل تآمر عليه المحتكرون والسماسرة وحيتان الاستثمار، وتركوه جائعاً، وأمه تغلي الحَجر على القدر لعله ينَام.. وهو مرة طفل يحكمون عليه بأن يوءَدَ منذ ولادته؛ مرة بأنه من عرق معين، ومرة بأنه من جنس معين، ومرة بأنه من شعب معين، ومرة بأنه من طبقة معينة..

أنت لا تعرف هوية الطفل، لكنك تعرف أنه يكاد يبكي بالنيابة عن كل الأطفال الذين ظلموا والذين بكوا في هذا العالم...

وبكاؤه يكاد يصم أذنيك، يكاد يصم أذنيك، يكاد يصم أذنيك... وأنت تتلفت وتقلب بوجهك - كما أمه - بحثاً عن شيء يخلص هذا الطفل من بكائه الذي يكاد يصم أذنيك..

.. وتسأل نفسك، وأنت تركض وتلهث: ما الذي أتى به - هذا الطفل - إلى هنا... وما الذي ترجوه، أنت وأمه، من الركض في القفار، ما الذي تتوقعانه أنتما الاثنان. ماذا ستجدان في هذه الأرض اليابسة؟.

❀ ❀ ❀

وتنفتح نافذة أخرى..

هذه المرة الأفق كله ينفتح عليك. لا سراب هناك، ولكن حضور كريم، لا تراه، ولكن تستشعره يفيض عليك من كل مكان..

.. لن تراه، لكن ستحس بوجوده، ستحس بعطر خاص يملأ عليك أنفك، بل سيملأ عليك أنفاسك، ليس عطراً مستورداً برائحة نفاذة مثيرة، بل شيء يشبه رائحة الأطفال، شيء من حضن الأم يشبه رائحة الجنة.. ستعلم أن وجهه تقلب طويلاً، وأنه تعرق طويلاً، وأن رحلته كانت شاقة..

لكن الآن، لا تحس بشيء مثل هذا، لا تحس إلا أنه وصل للمرفأ الذي يريد، بعد طول تقلب، بعد طول إبحار..

.. لن تراه، ولكن ها هي ذي أنظاره تستوعب المكان، تحتوي المشهد.. ها ذا هو يتوجه إلى هنا..، ها هو ذا المكان يتوهج عندما يلتحم بنظراته.

أنظاره التي جالت طويلاً، جاءت أخيراً إلى هنا...، إلى هذا الوادي الذي ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ و﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

.. تلاحظ القبول في المشهد، هدوء وسكينة يعمان كل شيء، نعم، إنه القبول.. تلاحظ أيضاً أن لوناً جيداً - لم تره من قبل - يلون بعض الزوايا.. والظلال.. تلاحظ أن السراب البعيد قد صار حقيقة في متناول اليد، وأن الحقيقة قد صارت لها أعمدة وأركان..

تتلفت فلا تجد الوحوش والضواري التي كنت تخاف أن تكون بطونها قبرك..، بل تجد سرباً من الفراشات تطرز حاشية الصحراء، يحلق وينثر ألوان قوس المطر في أثناء تحليقه، إنها الأفئدة التي تهوي إلى هذا المكان.. وتهوي.. وتهوي..

(... وستلاحظ بين الفراشات، فراشة مميزة، ومألوفة بشكل استثنائي.. وتتأملها فتجد فيها ربما ملامح وجهك... أو ملامح قلبك المشدود إلى هذا المكان بخيوط وحبال وثيقة ولامرئية في آن واحد..) وستفهم لماذا (يهوي) الناس إلى هذا المكان، تاركين ربما قمماً مشيدة على أسس ركيكة.. ويأتون إلى هذا المكان، الذي قد يبدو أجرد وغير ذي زرع، للوهلة الأولى..

... ثم يتفتق لاحقاً عن قارة غير مكتشفة من الخصب والثراء الاستثنائيين.. ستلاحظ أن جواً آخر - غير الجو الحار الجاف الذي يغلف الظاهر من المكان - قد بدأ نفسه في العمق من المشهد..

ستلاحظ أن جواً داخلياً، نابعاً من العمق، بدأ يطفو على السطح.. وأن أول مؤشراته.. هو ذلك الشيء الذي هو في مرحلة أعلى من القبول.. لعل من بعض أسمائه (الرضى).

.. ستشعر بشيء من ذلك. سيتوهج في ذهنك معنى جديد لتلك الآية.. وسيذهلك أن الأمر يخصك أيضاً ولا يخص المخاطب عليه الصلاة والسلام وحده.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

❁ ❁ ❁

ها هو ذا ولاؤك يتجه نحو مكان، تَقْبَله ويَقْبَلك، ثم، بعد أن تقبله، ويقبلك.. تطمئن إليه.. تسكن إليه.. ثم ترضى به..

... بعد القبول.. يأتي الرضى.

تتفتح النوافذ كلها، واحدة على أخرى، في شاشة واحدة تجمعها كما تتجمع الأنهار، لتصب كلها في مجرى واحد - في بحر واحد...

المشاهد السابقة بينها أكثر من مجرد تشابه، والذي يربط بينها ليس الموقع الذي هو في وادٍ غير ذي زرع.. الأمر الأكبر والمشاهد متصلة بعضها ببعض كما لو كانت مشهداً واحداً مستمراً، تتخلله بعض التقطعات القصيرة لبضعة آلاف من السنين بين كل مشهد وآخر.

كان مشهداً واحداً، تغيرت فيه بعض الأدوات، تغيرت الإضاءة قليلاً، وتغير الأبطال، تغير المناخ النفسي.. لكن المشهد ظل واحداً.. لا يمكن أن نفهم المشهد الأخير، دون أن نفهم المشهدين السابقين.. ومن دون المشهد الأخير لن يكون لانفراد الأول أو الثاني أي معنى.. تتكامل المشاهد فيما بينها، تجسم الهوة الزمنية التي تفصل فيما بينها.. ما معنى بضعة آلاف السنين بالنسبة إلى الرحلة الإنسانية؟ ما معنى بضعة قرون بالنسبة إلى الدهر كله..؟

❀ ❀ ❀

تلك المشاهد هي قصتنا جميعاً... حياتنا في محطات مختزلة وموجزة.

المشهد الأول كان فيه خروج آدم وامرأته من الفردوس؛ قصة هبوطهما من الجنة إلى الأرض، وبعضهم لبعض عدو، ألم تبدأ مشاكلنا من تلك اللقطة؟ ألم يتكرر سيناريو السقوط - في كل خطوة من خطواته - معنا جميعاً، خطوة خطوة في درب سقوطنا الفردي، خطوة خطوة في درب التيه الذي دلانا فيه بغرور كما (دلاهما بغرور).. خطوة خطوة نحو تلك الشجرة التي أسقطت الكابح الموازن، وأسقطتنا في تلك الهوة التي لا قرار لها؟..

المشهد الثاني، كان فيه خروج إبراهيم وامرأته وابنه - اختياراً هذه المرة - من أجل استعادة الفردوس، من أجل زرع شجرة أخرى، وإعمار بناء آخر، من أجل رفع قواعد مدفونة في الأعماق، لكن أيضاً مدفونة

تحت الركام، ذلك الخروج كان من أجل وضع حجر أساس لبناء سيستمر لقرون.. وممكن أن يتواصل مرة أخرى.. ويستمر لقرون أخرى..

لكنه بطريقة أخرى قصتنا أيضاً؛ ألا نجده في أنفسنا بقية باقية من رصيد الفطرة قد يتمرد فجأة على كل ما تلقناه عبر حياتنا، فإذا به يملي علينا سلوكنا، ويحدد سيرنا واتجاهاتنا؟ ألا ينفجر البركان فجأة - في أعماقنا - بعد طول سبات، وتهطل دموعنا فجأة - ومن دون سابق إنذار - عندما نحتك بآية قرآنية بصوت حنون يحرك محور الزلزال ويصدمه بالبركان المنفجر من الأعماق؟..

ألا نتوق، خلافاً لكل التوقعات، للعودة إلى ذلك الحجر الأسود، الملقاة أوتاده في أعماقنا؟ ألا ننفق (تحويشة) العمر وكل ما ادخرناه بالعرق والجهد، في رحلة مرهقة، ليست إلى منتجع سياحي، بل إلى واد غير ذي زرع، وليس في رحلة إلى جبال (الألب)، ولكن إلى حيث جبل أجرد، ولكن (القلب) فيه يخفق؟؟.

... وذلك المشهد الأخير، الذي يتقلب فيه وجهه الكريم، ويتحرق بحثاً عن قبلة يتوجه إليها.. ألا يشبه - بالمختصر المفيد - **قصة تاريخنا المعاصر الذي تقلبنا فيه بين مختلف الجهات والتوجهات والأيديولوجيات والعقائد، وشرق وغرب وشمال وجنوب، وأقصى يمين وأقصى يسار؟..**

ألا يشبه ذلك المشهد كل ذلك التخبط، وكل تلك التجارب، وكل تلك الأخطاء؟

وألا يشبه المشهد في نهايته، تلك الصحوة التي شكلت العلامة الأهم في تاريخنا المعاصر، بعد كل تلك الإحباطات، التي عقبت مختلف التوجهات؟ ألا يشبه المشهد - في نهايته - ذلك المشهد الذي بات مألوفاً في أغلب مدننا العربية والإسلامية؛ مشهد الفتاة المرتدية

للحجاب الشرعي، المصاحبة لأمها السافرة تماماً، وربما المرتدية ثوباً قصيراً يكشف أكثر مما يحجب؟!

...نعم، بعد طول تيه وترحال، وصلنا إلى هنا.

تلك المشاهد لم تقع في فترة زمنية انقطع اتصالنا بها؛ إنها لا تزال مستمرة، لا تزال تحدث حرفياً، في أفق ما، بعد ما، لا تزال ديناميكية، تتكامل فيما بينها.. تتحاور فيما بينها.. بأكثر من لغة... بأكثر من مستوى.. تتكامل وتتنوع.. لكنها تستمر.. لن تنقطع أبداً عن الوجود، ما دام هناك بشر يخرجون كل يوم من الفردوس، وبشر يحاولون العودة إليه، وبشر يقلبون وجوههم بحثاً عن جهة تقبلهم ويقبلونها، وتحتويهم ويحتوونها.. يبحثون عن جهة يمكنهم أن يبنوا فيها لهم فردوسهم المنشود الذي فيه يستعيدون الفردوس الذي فقدوه.. يوم كان أول ما كان.. من المشهد الأول.

لا تنقطع أبداً تلك المشاهد، إننا نمر دوماً بالمشهد الأول منها، إن منا إلا وارده، أما المشهدان التاليان، فهما خيارنا؛ نحن نقرر إن كنا سنلجه ونعبره ونعبر عنه، أم أننا سنظل حبيسي ذلك المشهد الأول، مشهد الفقدان... مشهد الطرد.. مشهد الهبوط.. والهبوط.. ثم المزيد من الهبوط.

هل سنستمر في ذلك، بعضنا عدو لبعض، وقابيل يقتل هابيل، ومقتنا لأنفسنا أكثر من مقتنا لأي شيء آخر؟.. أم أننا سنتجاوز ذلك، نحو مشهد نتقلب فيه بحثاً، ونحو مشهد نرجع فيه لذلك الوادي، حيث ذلك الحجر، وتلك القواعد؛ حيث نشمر عن سواعدنا، وحيث نرتفع... ونرتفع.. ونرتفع.. معها.. ضد ذلك الهبوط المستمر؟..

الأمر لا يزال مطروحاً، ولا يزال قائماً..

وفي مفترق الطرق الذي نحن فيه، لن يكون خيار الاختيار مجرد وجهة نظر، كما أنه لن يكون مسألة (فيها نظر)، سيكون هذا الاختيار عبئاً، ومسؤولية وإرادة.

لن يكون ترفاً، وعبثاً، وتقلباً كسولاً بين مختلف الأيديولوجيات..

لن يكون مجرد خيار آخر في سلسلة (التجربة والخطأ) التي دخلنا في دواليبها وعثراتها...

لم يعد ثمة وقت لذلك.

لم يعد ثمة وقت.

لم يعد ثمة وقت.

في مفترق الطرق هذا، الذي نحن فيه، وبينما الحوت يوشك أن يبتلع القمر، والعالم يوشك أن يغرق في ظلام دامس، وتطفأ آخر شمعة ويحترق آخر عود ثقاب..

في مفترق الطرق هذا، وبينما الفك المفترس يوشك أن يطبق علينا ويبتلعنا، وبعضنا يصفق لذلك بحماسة منقطعة النظير، (وقد [دلاهما بغرور] إلى الشجرة، فلماذا لا يفعل إلى بطن الحوت؟..) ويتصورون أنهم سيجدون في بطن الحوت شجرة الخلد وملك لا يبلى... بالضبط كما تصوروا يوم ولجوا تلك الهاوية وسقطوا فيها..

... في مفترق الطرق هذا، وإضاءة الوعي شاحبة، بسبب الركام والخراب والتغرير.. والقناع المستعار الذي يغطي وجه الوحش متقن التزوير حاذق الصنع وجذاب الألوان..

...نعم، لن يتمكن الكثيرون - في مفترق الطرق هذا - من التمييز بين القناع والوجه، بين الحقيقة والأكذوبة.. ليس لأن القناع متقن التزوير

فحسب، ولا لأن إضاءة الوعي شاحبة فحسب... ولكن أيضاً - وربما أكثر أهمية من كل ذلك -.. لأنه لا يوجد بديل.

لا يوجد بديل!.

... ربما لن ينفع كثيراً أن نعري القناع.. أن ننزعه عن الوجه القبيح.. إذا لم يكن هناك وجه آخر، وجه حقيقي، لا وجه خيال هائم.. بل وجه قائم... وجه بديل نشير إليه..

ربما لن ينفع كثيراً، أن نرمي الوحش بالحجر والطوب - أو حتى بقذائف (الآر بي جي) - إذا لم يكن هناك حجر آخر، يبنى فوق حجر، ليشيد بناء مرتفعاً، نستطيع أن نشير صوبه..

نعم، لم يعد يجدي التهويش.. والتشويش... والتهديد والعنتريات التي لم تؤد إلا إلى المزيد من ضراوة الوحش واستعدائه علينا...

... في مفترق الطرق هذا، لم يعد الأمر يتحمل المزيد مما لا نجيد سواه، ولا نجيده أيضاً بالمرة..

... نعم لم يعد الأمر ممكناً..

ولا بد من بديل.



نعم، ليس مانهاتن..

ولكن بالتأكيد ليس أفغانستان.

.. ولا أيضاً حلاً (وسطاً) بينهما..

الأمر مختلف، والتوسط بين الجحيمين لن يكون الحل، هذا إذا كان هناك حقاً حل وسط يتوسط بين جحيمين..

ليست قيم مانهاتن هي ما تريده، وليست قيم مانهاتن هي الحل لمشاكلك... ولن يمكن لها - حقاً - إلا أن تزيد الأمور عندك فوضى وتعقيداً فيما لو أقسروك على أخذها كحقنة في الوريد، كما لو كانت مجموعة من الفيتامينات.

... نعم. قيم مانهاتن لن تحمل الحل، بل إنها لن تعمل إلا على جلب مشاكل إضافية، خصوصاً عندما تصطدم بمشاكلنا الأصيلة..

والطريق إلى الفردوس المفقود... إلى استعادته، لن يمر بمانهاتن مهما كانت علامات الطريق السريع وخرائطه تشير إلى ذلك... ليس لأن قيم مانهاتن دخيلة ومستوردة فحسب، ولكن لأنها عاجزة عن استعادة الفردوس حتى ضمن محيطها الاجتماعي.

قيم مانهاتن لا تمنح إلا ذلك القناع المستعار، تلبسه لذلك الجحيم الذي تروج له، ومن بعيد سيبدو القناع جذاباً ولماعاً ويسيل لعاب الآخرين.. ومن الداخل باطنه العذاب..

❀ ❀ ❀

.. ولكن بالمقابل، لن تكون قيم كهوف أفغانستان خطة لاستعادة الفردوس، بل إنها لن تستطيع أن تمنحنا خطة لأي شيء، لأنك لن تتفاجأ كثيراً إذا ما أفتوا بتحريم التخطيط، أو شيء كهذا.

هل سيقول أحد: إن الأعمال بالنيات؟ هي بالتأكيد كذلك، لكن **خراباً كهذا لا يمكن أن ينتج عن نية طيبة.. فالأعمال بخواتيمها أيضاً.. بنتائجها، بما آلت إليه.. وفرضية النية الطيبة مشوبة بالكثير من الشك والشوائب..**

.. لن توصلنا قيم التجربة الأفغانية إلا إلى ذلك الجحر الضيق، الذي تبدو مانهاتن معه كما لو كانت جنة الخلد..

لن توصلنا أفغانستان، إلا إلى الانقياد إلى مانهاتن، وزيادة تألقها وجاذبيتها.. بطريقة أو بأخرى...

لا فردوس هناك، ليس في أفغانستان فقط، ولكن في أي مكان يحجم نفسه داخل رؤية واحدة، منغلقة أساساً، ومعتمدة على فهم رجال ماتوا لقرآن لا يموت...

نعم.. لا فردوس هناك، مع تلك السحنات الغضوب، وصيحات الويل والثبور.. بينما أنت تريد استعادة الفردوس..

❁ ❁ ❁

لا مانهاتن... ولا أفغانستان...

ولا حل وسط بينهما..

❁ ❁ ❁

إنه ذلك الوادي الخالي حتى من الزرع..

نحتاج إليه نحن. وتحتاج إليه مانهاتن... وتحتاج إليه أيضاً أفغانستان.

... ذلك الوادي الأجرد كان غنياً بالقيم، وإليها كان الرجوع. لا يهم الحجر الأسود ما لم يكن حجراً اساساً لتلك القيم... لا يهم البناء الذي رفعه إبراهيم وإسماعيل، والذي يطوف حوله الملايين من عشرات القرون، ما لم تكن قواعد القيم فيه واضحة ومرتفعة...

لن يهم ذلك السعي بين الجبلين إن لم يصحبه سعي حقاً، من أجل استعادة تلك القيم... وإعادة استكشافها، بين مختلف الجبال الآفلة، وأنت الذي لا تحب الآفلين...

أفهم الآن، أكثر من أي وقت مضى، لماذا كان ذلك كله في واد أجرد بلا تفاصيل... إنه من أجل أن يكون الأمر بلا تفاصيل، إنه من أجل أن يكون الأمر مطلقاً، مجرداً، واضحاً كوضوح الشمس في صحراء بلا زرع... نعم.. لقد كان الأمر بلا تفاصيل، حتى لا تلهينا تلك التفاصيل عن النظر إلى جوهره...

كان الأمر في الصحراء حتى ننتبه إلى ذلك الخصب الكامن في الأعماق، كان الأمر بلا زرع، من أجل أن ننتبه إلى إمكانية أن نزرع شيئاً مختلفاً، شيئاً جديداً... عن كل ذلك الزرع الذي أدى إلى البوار...

الآن والآن فقط أفهم... لم كان الأمر في الصحراء....

❀ ❀ ❀

... وفي تلك الصحراء، في ذلك الوادي الذي بلا زرع.. كانت هناك قيم؛ قيم مطلقة، قيم منزوعة التفاصيل، قيم ثابتة ومجردة، شكلت ذلك الحجر الأساس الذي أقيم عليه ذلك البناء..

تلك القيم الثابتة، المنزوعة التفاصيل، النازعة نحو المطلق، كانت هي أساس ذلك الفردوس المفقود.. وكان الافتراق عنها، بشكل أو بآخر هو الذي أدى إلى الفقدان والطرد، والترحال في تيه الأرض والجحيم الذي تنكر خلف مختلف الأقنعة..

... وكانت تلك القيم الثابتة، هي ذاتها التي قصدها إبراهيم في رحلة الرجوع تلك، وهي التي من أجلها رفع القواعد - الموجودة أصلاً - في مكان ما لم نعد نعرفه بالضبط، بل ربما كانت هي القواعد ذاتها، أو هي الحجر الذي دخل في صميم الشعائر دون أن يدخل في دماغنا للأسف.

... وتلك أيضاً، هي القيم، التي تقلب بحثاً عنها وجه الكريم.. والتي بحث عنها شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً... ثم عاد، ووجدها في الوادي ذاته... الذي بلا زرع...

قيم ثابتة، تتحدى عوامل الزمن والتعرية والزوال...

قيم ثابتة، أصلها ثابت، وعميق، وجذورها في رصيد الفطرة... وفرعها في السماء... عندما يتطاول البنيان...

نعم.. إنها قيم ثابتة وأساسية. إنها ثوابت لا يطرأ عليها تغيير، ولا يحول عليها الحول.. ليس لها مدة صلاحية معينة، وتاريخ انتهائها يقترب من... الأزل..

... وبينما ذلك الفردوس المستعار يتربص بنا في أفكارنا وخططنا وأحلامنا وحتى في سريرنا... وبينما يبدو أنه لا مفر من الاستسلام، ولا مفر من أن نذعن لابتلاع الحوت لنا ولأطفالنا وللقمر أيضاً... وبينما نحن نتلفت يميناً ويساراً، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً... والوحش يكاد يطبق بأنيابه علينا..

... وبما أننا عرفنا أن (الآربي جي) لن ينفع، وأن الصواريخ (الكاتيوشا) لن تنفع، وأن السلاح النووي لن ينفع أيضاً... مادام الوحش قد استطاع أن يتجمل ويدخل فينا... لذلك كله، وفي اللحظة الأخيرة، بالضبط قبل أن يغلق الوحش فمه علينا، وقبل أن يسدل الستار علينا وعلى الحكاية بكاملها... نلتفت لنجد طوق النجاة... ونتلقفه بأيدينا... نستمسك به، ونتمسك به... كما يجب أن يفعل غريق بخشبة...

نعم... طوق النجاة...




... ليس سوى تلك القيم الثابتة، يمكن أن تكون طوقاً للنجاة في خضم ذلك الإعصار الذي ضربنا في عرض البحر...

ليس سوى تلك القيم.. المطلقة المجردة - منزوعة التفاصيل - يمكن لها أن تقدم ذلك اللقاح الذي يمكن له أن يحارب الوحش الذي تنكر وارتدى قناعاً جميلاً يخفي بشاعته...

وحدها تلك القيم، المطلقة الثابتة، تستطيع أن تنتج بديلاً ينافس ذلك الفردوس المستعار... تستطيع أن تستعيد ذلك الفردوس المفقود...

... وحدها تستطيع أن تبني الفردوس البديل، الفردوس المنشود.. الفردوس المستعاد...

.... نعم، تلك القيم... وحدها ستقدم الترياق.

❀ ❀ ❀

المشكلة أن تلك القيم، التي أشدد على كونها مطلقة ومجردة ومنزوعة التفاصيل، تتراكم عليها - كما ارتفعت وشيدت - تفاصيل ثانوية تتعلق بها ولكن ترتبط بالظروف النسبية المتغيرة للزمان والمكان..

وهي تفاصيل مهمة جداً ضمن إطارها الزماني والمكاني... لكن مشكلتها أنها تستمر بالتراكم والتكلس والتقادم... وتضيع القيم الأصلية المطلقة تحت ركامها... ولا يعود بالإمكان التمييز... كما لا تعود القيم مطلقة... بل يغلب عليها الطابع النسبي والعابر بسبب غلبة التفاصيل على ذلك الجوهر الثابت.

نعم... في مكان ما، خلف ركام تفاصيل - قد تكون في النهاية محض عادات وتقاليد - توجد قيم ما، يمكنها أن تكون سفينة نوح؛ تنقذنا من الطوفان، ويمكنها أن تخرجنا من بطن الحوت.. ويمكنها أن تكون حجراً أساساً، وقواعد تنتظر سواعد...

... وفردوساً منشوداً، بديلاً عن ذلك الفردوس المفقود...

...نعم... في مكان ما، خلف أكداس الغبار المتكلسة وأعشاب العناكب... خلف الأفهام التقليدية التي لن تسمن ولن تغني من جوع... يوجد حل لكل ذلك...

لن أقول: إنه حل سحري. لن أقول: إن الأمر سيكون سهلاً. بل على العكس، الأمر سيكون أشد صعوبة عما قد يتخيل أي أحد. حل كهذا سيفتح أبواب النار من الجميع، مانهاتن ستفتح النار، والكهوف المظلمة ستفتح النار أيضاً... حتى جبهة (لا تفكر، لها مدبر) ستفتح النار...

...نعم، الأمر صعب... صعب جداً، لكنه ليس مستحيلاً..

... وعندما تكون غريقاً، أو على وشك الغرق، في عرض البحر، في خضم الإعصار... ويلقى إليك بطوق نجاة... فلا خيار إلا أن تمسك ...لا خيار إلا أن تستمسك..

... تلك القيم المطلقة - الثوابت - عندما نزيح عنها تفاصيلها، قد تكون مختلفة عن كل ما تعودنا معرفته عن ديننا...

أعني أن التفاصيل التي تراكمت وتكلست، قد تغير من ظاهر القيم، أو من شكلها الخارجي، فإذا ما أزيح الغبار، وأزيحت التفاصيل، ظهرت تلك القيم الأصلية مختلفة عن شكلها الخارجي الذي اعتدنا عليه... مختلفة عن فهمنا التقليدي ونظرتنا المتوازنة...

بعبارة أخرى، أوضح، لسنا بحاجة، مع تلك القيم تحت الركام، أن نلوي عنق عبارة هنا أو معنى هناك، من أجل أن يكون الناتج النهائي للقيم التي نروج لها متوافقاً مع قيم الحضارة الغربية أو متطابقاً معها...

نعم... لسنا في حاجة لذلك.. نريد ثوابتنا الحقيقية دون رتوش، دون تجميل، دون عمليات إصلاح وتحوير وتعديل...

نريد أن نقبلها كما هي، المهم أن تكون هي هي.. المهم أن تكون موجودة حقاً..

.. وإذا ما تصادف ووجدنا توافقاً بين بعض معطيات الحضارة الغربية، وتلك القيم الأصلية المطلقة تحت الركام، فيجب التركيز والتشديد على جوانب الاختلاف والتمايز حتى في هذا التوافق، ليس من أجل العداء والاستعداء والاستعلاء وكل تلك الترهات التي نفخنا فيها ضمائرنا - بما لا قيمة له ولا وزن - ولكن من أجل التمايز.. ببساطة من أجل (بالضد تتمايز الأشياء)، من أجل أنَّ تركَ الأمور كلها متشابهة بدعاوى التحضر والتقدم والمدنية... سيميع كل شيء وسيزيد الأمور تعقيداً لأنه سيتركها عرضة للانفجار لذلك، إذا ما وجدنا أن القيم الأصيلة منحازة مثلاً إلى وضع أفضل للمرأة، فذلك سيكون لأنها كذلك فعلاً، وليس لأن قيم الرجل الأبيض المعاصرة تدعونا إلى ذلك..

... وبالطريقة نفسها، علينا أن نكف عن النهل من مقومات الحضارة الغربية، والبحث عن موروثاتنا من نصوص أو أقوال مأثورة، وليها وطيها وشدها يميناً ويساراً.. ثم الادعاء بأنها متوافقة مع قيم الحضارة المعاصرة.. ويا سبحان الله ويا ما شاء الله.

ديننا صالح لكل زمان ومكان... نعم.. تلك القيم الأصيلة (الثوابت) صالحة دوماً دون الخوض في تفاصيل... لكن الحاصل - للأسف - هو التعامل بمنطق العبد المهزوم سلفاً الذي يحاول أن يجد في قيمه ما يتوافق مع قيم سيده المنتصر، من أجل ألا يعذبه ضميره، لأنه تشبع بها وهو يعلم أنها لم تعدَّ وتصمم من أجله أو له.

... نعم.. ما يحصل هو مزج وتوليف؛ خلط وتزييف... ولا يمكن من الحصيل المهجن إلا أن يكون معرضاً للانفجار أو الانتحار، مثل تلك الدعاية التجارية السخيفة التي تروج لبيرة إسلامية.

❁ ❁ ❁

... ربما يكون مارد القمقم خرافة كبيرة...

وربما يكون الحوت الذي يوشك على ابتلاع القمر خرافة أكبر...

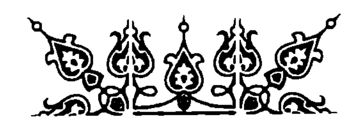
لكن الحقيقة التي لا مفر من تقبلها... أن في أعماقنا يوجد مارد حقيقي، بإمكانه أن يخرج من ذلك القمقم الذي احتجز فيه..

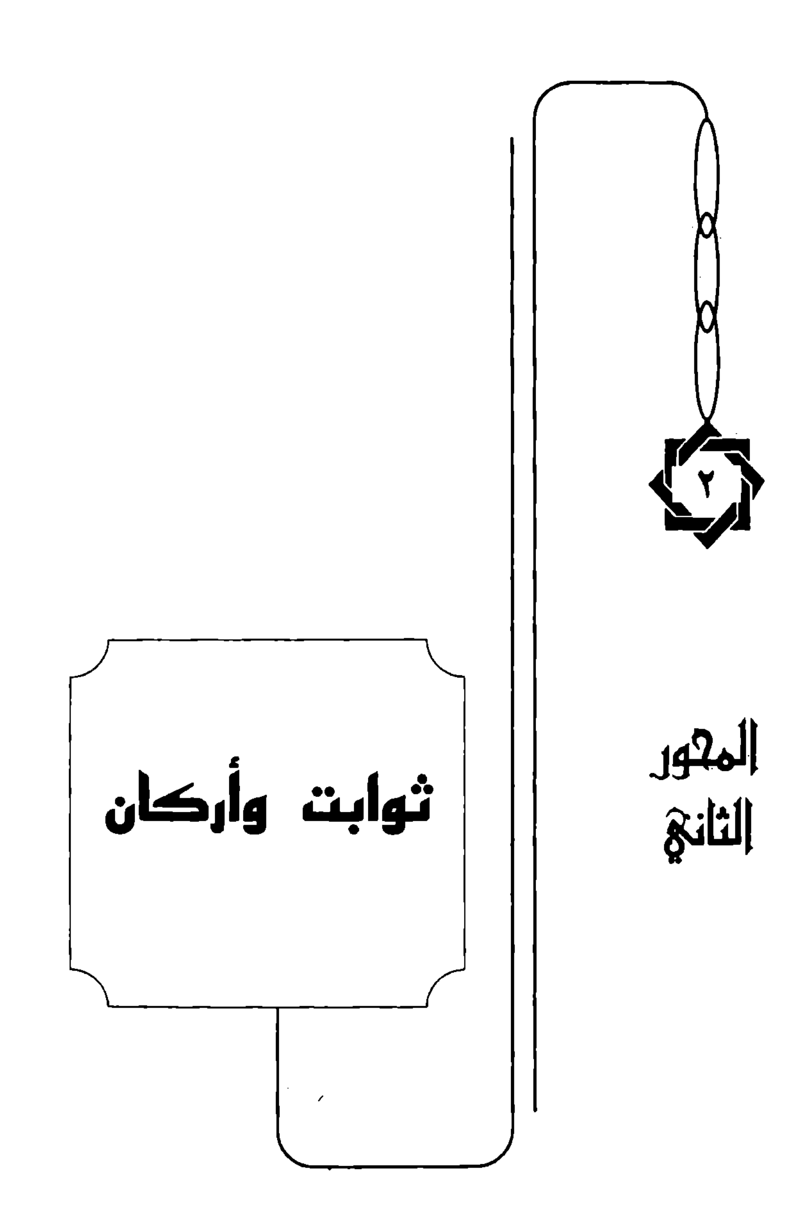
... وهو مارد بإمكانه حقاً أن يبني، كما أن يهدم.. بإمكانه أن ينطلق... أن يحلق.. وبإمكانه - الأهم من ذلك - أن يفكر...

وبذلك يمكن له أن يستعيد ذلك الفردوس المفقود..

❁ ❁ ❁

وبإمكانه أيضاً، ذلك المارد الحبيس في الداخل، أن يمنع تلك الخرافة الأخرى.. التي تكاد تصير واقعاً لا مفر منه.. خرافة الحوت الذي يوشك على ابتلاع القمر...




٢
المحور
الثاني
ثوابت وأركان

مقدمة

الثوابت إذن..

منطقي جداً، وربما لن نجد جدلاً كثيراً في هذا.

لكن أي ثوابت؟

عن أي ثوابت أتحدث، وإلى أي منها أشير؟

لا أقصد هنا وجود (ثوابت متعددة)، بل أقصد أن مصطلح الثوابت؛ بما أنه غير محدد في النصوص الدينية بوضوح، فإنه سيحدث تجاذباً نحو هذه الجهة أو تلك، حسب نية (الشخص) الذي يستخرج هذه الثوابت أو قصده...

أو حسب عوامل أخرى متعددة تؤثر في عملية الاستخراج هذه...

وهذا كله طبيعي ومتوقع.. إذ لا يمكن أن نتوقع اتفاقاً على شيء كهذا، نحن الذين تعودنا عدم الاتفاق واحترفنا الاختلاف منذ بضعة عشر قرناً..

من هذا المنطلق، أطرح فكرة الثوابت الأصيلة التي تتغير أولوياتها وترتيبها بحسب الظرف المحيط بعمليتَي الاستخراج والتنقيب، والدوافع التي أدت إليهما...

ومن هذا المنطلق، والعاصفة تكاد تطيح بكل شيء، أحاول أن أبحث عن الثوابت.. عن الأوتاد، عن تلك الأساسيات التي يمكن لها

الصمود بوجه ذلك الوحش خرافي القوة، متعدد الوجوه، ومتغير الملامح.

لو أننا سألنا شيخاً من شيوخ المؤسسة الدينية التقليدية عن الثوابت التي نحتاج، لاستنكر السؤال أولاً (لا تنسوا أنه يعد التساؤل في هذه الأمور تجديفاً، فكل ما في الشريعة - من وجهة نظره المصابة بتصلب حاد في شرايين المخ والأعصاب - ثابت لا يطرأ عليه تجديد ولا يحتاج إلى تحديث).

ولو ناورنا معه، ولففنا ودرنا - كما عودنا هو أن يفعل معنا - لحصلنا منه على جواب أفضل لسؤالنا؛ وإن كان لن يخرج عن منظومة الفكر التقليدي المتصلب الشرايين.

سيقول لنا شيئاً، عن **أركان الإسلام الخمسة، الشهادة، وإقامة الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.**

وبعدها سيقول لنا شيئاً عن أركان الإيمان الستة: **الإيمان بالله والملائكة والأنبياء والكتب واليوم الآخر والقدر خيره وشره...**

هذه هي ثوابت المؤسسة الأساسية التي ظلت تتداولها منذ قرون، تطرأ عليها أحياناً - وحسب الظروف - زيادات تمد وتجزر، وتصل لحد جعل (المسح على الخفين في السفر والحضر) ثابتاً من الثوابت لمجرد النكاية بفرقة أخرى كانت ترى غير ذلك... ورغم المد والجزر، عبر العصور المتعاقبة، ظلت هناك حدود ثابتة وواضحة لا يطرأ عليها تغير.. وكانت هذه الحدود تحيط بما قاله الشيخ من أركان الإسلام الخمسة وأركان الإيمان الستة.

لن تصل مشاكستي للمؤسسة إلى حد التشويش على هذا، إني أقر، وأنا أنقب عن الأساسات فيما أعتقد أنه حطام الأنقاض التي وصلت

إلينا، أو التي وصلنا إليها، أن تلك الأركان ستظل موجودة، وأنها يجب أن تظل موجودة، وأن المساس بها.. لغرض إلغائها أو تهميشها أو التعمية عليها سيكون مساساً بالإسلام نفسه..

لكن عدم المساس شيء، وعدم (الاستكشاف) أو (التنقيب) شيء آخر..

لقد تعاملنا مع الأمر دوماً بطريقة من اثنتين؛ إما عدم المساس: هذه هي الأركان التي بني عليها الإسلام، وانتهى الأمر عند هذا...

أو، بطريقة ثانية، أن بعضنا على الأقل اعتمد المساس، الذي كان بمثابة إلغاء وتهميش لتلك الأركان، بجعلها مجرد شعائر، مجرد مظاهر.. والمهم ما في القلب.

بين عدم المساس، والمساس، هناك شيء آخر، قليلون من جربوا خوضه ..لكن **الآن ونحن في عمق العاصفة، في مركز الزلزال، لابد لنا أن نخوضه..**

لم يعد هناك مفر - في هذا الركام - إلا أن نبحث عن الأساسات، عميقاً.

نعم، إنها أركان..!

لكن حتى الأركان، أركان البناء، لا تكون مجرد (أركان).. بل تحتوي في داخلها، في مكوناتها، على ما يجعلها أركاناً..

حتى خرسانة البناء التي تدخل في أساس البناء، لها مكونات، ونسب.. وتختلف قوة هذا الأساس، وصلابته، باختلاف هذه المكونات، واختلاف نسبتها..

الشيء نفسه يتعلق بأركان الإسلام الخمسة؛ هناك مكونات، ونسب، ومحتويات لهذه الأركان... واكتشاف - بل استكشاف - هذه الأركان،

بقيمها الداخلية، ومعانيها، ونسب مكوناتها، هو الذي سيعيد للثوابت أهميتها، بل هو الذي سيعيد تنصيب الأركان حقاً، ويجعلها أركاناً حقاً، بمعنى أن البناء لا يستند إلا عليها... ولا يقوم إلا بها..

الأركان الخمسة إذن، هي الإطار الظاهر، الذي لا غنى عنه، لمجموعة من القيم الداخلية والمكونات السائدة، التي تمنح هذا الإطار فاعليته الحقيقية والواقعية.

بلا هذا الإطار الظاهري تظل تلك القيم بلا (قوام) يمثلها، أو ينظمها، أو يحتويها... فتضيع تلك القيم، وتندثر، تحت أكوام الأنقاض والخرائب.

وبلا هذه القيم - التي تكون (المونة الخرسانية للأركان) - تكون الأركان هشة، ومجوفة من الداخل... وعرضة للانهيار.

عندما ننظر إلى الخراب الذي وصلنا إليه، نعرف أن هذا هو الذي حصل معنا، في قصة الانهيار الحزين.. تمسك بعضنا بالأركان، ونسي مونتها، نسي خرسانتها الداعمة، وكان أن انتهى الأمر بالأركان كجذوع نخل فارغة، لا تقوى على حمل طولها.. فضلاً عن حمل بناء ضخم.

تصور البعض الآخر أن بإمكانهم الإمساك بالقيم، دونما وضعها ضمن الأركان، وتركوا الأركان نهائياً، لكن تلك القيم - دون قوام يحتويها -- كانت مثل العناصر الحرة في الطبيعة، زئبقية ومتفلتة، وتجذب التفاعل نحوها، بدلاً من أن تنجذب نحوه، وتستقطب هنا، وتستقطب هناك، وتدخل في تفاعلات جانبية... كل ذلك كان لأن (القوام) لم يكن موجوداً، القوام الذي يكون وسطاً لتفاعل تلك العناصر، القوام الذي ينظم ذلك التفاعل، ويوجهه، ويشذب نتائجه الثانوية..

ذلك القوام هو تلك الأركان الخمسة التي تركها هؤلاء... وكانت النتيجة هي ذاتها مع الآخرين الذين تمسكوا بالأركان ونبذوا مونتها

الخرسانية.. إنه الخراب الذي وصلنا إليه، من طريقين قد يبدوان مختلفين للوهلة الأولى... لكنهما انتهيا إلى نتيجة واحدة.

علينا أن نعترف بأزمتنا أولاً.

إن مجرد طرح سؤال الثوابت يعني أننا في أزمة، بل أننا في أزمة عميقة، وأن الأمر جد خطير لدرجة أننا لم نعد نعرف ثوابتنا التي نتمسك بها...

وأنا أرى الأمر واضحاً لدرجة لا تحتاج إلى إثبات.

نعم إننا في أزمة.. نعم إن الأمر خطير... وأي شخص يشكك في هذا، هو في أزمة أعظم وأعمق من الذي أقوله، وأمره بالتأكيد أخطر..

عندما يطيح الإعصار بجدران بيتك، وعندما يضرب الزلزال أركانه، وعندما تجد نفسك مضطراً لترك الدار، من أجل إنذار بإخلائه أو نسفه، أو بغارة ستمحيك وأهلك من الوجود.. عندما تترك البيت، فإنك ستجد وقتاً قليلاً جداً لجمع بعض حاجياتك..

بعضهم سيهب ليجمع ما خف حمله وغلا ثمنه، نقود وذهب، بعضه سيكون من رائحة الغالين. بكل ما يعني ذلك من قيم.. بعضهم الآخر سيهب ليأخذ التذكارات، صوراً للحظات لن تعود... وبعضهم سيأخذ مفاتيح لأبواب لن تكون موجودة. وآخرون سيأخذون سند الملكية. ورقة يحاججون ويثبتون عن طريقها حقاً قد لا يمتلكون وسائل تحقيقه..

وآخرون، قد لا يأخذون أي شيء، قد لا يتمكنون من ذلك... لأنهم سيتصورون أن الأمر لن يدوم أكثر من ساعات، أو أيام على أبعد تقدير.

... لحظتنا التاريخية الراهنة، هي تلك اللحظة ذاتها، إنها لحظة الزلزال الذي يجبرنا على (الخروج).

ماذا سنأخذ يا ترى... هل سنهب لنأخذ صندوق المال والذهب؟ هل سنهب لنأخذ بعض التذكارات السطحية؟..

هل سنصر على أن لا شيء من هذا كله، وأن الأمر لن يدوم أكثر من ساعات، أو أيام على أبعد تقدير، نعود بعدها دون أن نفقد شيئاً؟؟

... في لحظتنا التاريخية، أقول: إن كل هذه الاحتمالات قائمة، وإن هناك من يمارسها على نطاق واسع.

هناك من لا يهتم إلا بأمواله، وإذا كان أمر الخروج والنسف سيؤدي إلى مضاعفتها ومكاثرتها في بورصة أخرى، أو سوق أخرى، فَبِها ونِعْمَتْ...

والبعض سيبحث عن ديكورات يأخذها معه، تذكره بالذي مضى، يكون فيها الإسلام والقيم الإسلامية مظاهر تزين غرفة الضيوف في البناء الجديد، البديل عن ذاك الذي يتعرض للنسف.

... والبعض سيصر على أخذ كل شيء، وسيمضي الوقت في رزم الحقائب والصناديق، إلى أن ينتهي كل شيء، وينهار البناء على رأسه...

... والبعض سيقول: إن هناك من يضخم الأمر، وإن أصحاب نظرية المؤامرة يوهموننا بأشياء لا وجود لها، وإن الأمر محض صراع بين قوى دولية عظمى، وبعض الفئات المتطرفة، لعله لن يدوم سوى ساعات، أو أيام... وبعدها يتصورون أنهم سيعودون كما لو أن شيئاً لم يكن ...ولن يأخذوا معهم شيأً، على الإطلاق... وسيجدون أنفسهم لاحقاً في بناء جديد على طراز غريب... كل هذا يدور، وكل هذا يجري، وكل هذه الاحتمالات قائمة...

السؤال هو: ماذا سنأخذ حقاً، بينما نحن نوشك على مغادرة البناء الموشك على الانهيار، لحظة الإعصار، أو عندما يضرب الزلزال، أو عند القصف؟

(عليّ أن أعترف هنا، أن هذا الانهيار لا يتم بسبب عوامل خارجية فقط، بل إنه يحدث بسبب التداخل بين العوامل الداخلية والخارجية في آن واحد...

بمعنى آخر، إن الأركان لو لم تكن مجوفة وهشة مثل جذوع نخل منقعر، لما تمكنت العاصفة من الإطاحة بالبناء المتداعي أصلاً... وبعبارة أخرى، لو أن خرسانة القيم الداخلية، متينة ومتوازنة وبنسب صحيحة، لما كانت الأركان معرضة للانهيار... كما يحدث الآن...).

أسأل إذن مرة أخرى... والبناء موشك على الانهيار، ونحن نوشك على المغادرة (**لأننا لا ننوي أن ندفن تحت الأنقاض..**): ماذا سنأخذ معنا؟

عندما نحاول أن نجيب عن هذا السؤال، ضمن الأجواء التي طرحتها، فإن الجواب الوحيد المنطقي، أو الذي يمتلك أدنى علاقة بالمنطق، هو أننا سنأخذ معنا ما نتمكن من إعادة البناء من خلاله لاحقاً.

إنها الأركان...

لكنها ليست الأركان المجوفة من الداخل، التي أودت بنا إلى ما نحن فيه..

بل الأركان ذات الخرسانة المتينة... الساندة للبناء...

سنأخذ تلك القيم الساندة، اللب الأساس وراء الأركان، قيم البناء القويّ الذي لا يهزه الإعصار، العميقِ الذي لا يزحزحه زلزال...

نعم...خرسانة الأركان، قيم البناء، هي ما سنأخذها لحظة الزلزال؛ لحظة المغادرة..

لا جدال في ذلك.

إنما السؤال: هل نعرفها؟

وهذا السؤال يطرح مرة أخرى عمق الأزمة التي نحن فيها.

وهذا طبيعي جداً؛ فلو أننا لم نكن في أزمة لدرجة أننا لا نعرف ما يجب أن نأخذ، لما كنا وصلنا إلى هذه المرحلة التي نضطر فيها للمغادرة أصلاً.

فلنرجع الآن لجواب المؤسسة الدينية التقليدية ممثلاً في جواب الشيخ عن سؤالنا، مع تحفظاته على السؤال ومع كل ملاحظاتنا على تحفظاته.

لنرجع إلى جواب الأركان الخمسة للإسلام، والأركان الستة للإيمان الذي يقدَّم - بشكل مجرد وحاسم - على أنه الثوابت التي نريد...

فلنتساءل عنها إذن...

هل هي الثوابت التي نقصد أننا نحتاجها، لحظة الزلزال عند المغادرة؟

هل هذه الأركان الخمسة هي كل ما نحتاجه للوقوف بوجه الإعصار؟؟

قد يبدو ذلك من جواب المؤسسة الحاسم والنهائي، ولكننا نعلم، والمؤسسة بمختلف طواقمها وأعضائها تعلم، أن الأمر ليس كذلك..

فتلك الأركان، ظلت موجودة عبر القرون والعقود المتعاقبة، ونحن نعلم، والمؤسسة تعلم، أن وجود هذه الأركان - المجردة - لم يمنع الانهيارات المتعاقبة التي أصابت المجتمع الإسلامي منذ نشوئه حتى الآن.

لقد كان المسلمون، يؤدون الشهادة، ويصلون، ويصومون رمضان، ويؤدون الزكاة، ويحجون (من استطاع إليه سبيلاً منهم) عبر كل ما مروا به، ومرت به أُمتهم، منذ أن غربت شمس حضارتهم.. إلى اليوم..

ولكن هذه الأركان الخمسة، رغم استمرار وجودها، لم تقم أود البناء المنهار، بوجه الإعصار..

ستقول لنا المؤسسة هنا: إن ذلك كان، لأن الناس لم يؤدوا تلك الأركان حقها، أو أنهم لم يؤدوها (حقاً)، أو أنهم لم يؤدوها بالشكل المطلوب.

ها هنا نجد ما نتفق عليه.

نحن أيضاً نقول ذلك؛ نقول: إنهم لم يؤدوها حقها، ولم يؤدوها حقاً، ولم يؤدوها بالشكل المطلوب.

ها هي ذي نقطة اتفاق.

لكني هذه المرة، لا أقصد أنهم كانوا يشردون في أثناء الصلاة، أو يصلون بلا خشوع أو تركيز، كما أني لا أقصد أنهم خلطوا عبادتهم بالبدع، أو بالتقصير، كما قد تفسر المؤسسة..

إنما أقصد، أن المونة الخرسانية وراء هذه الأركان، كانت إما فاسدة، أو مغشوشة.. أو غير موجودة.

إنما أقصد أن تلك الأركان، **كانت منزوعة القيم**، وأن ذلك بالأخص جعلها منخورة، ومجوفة، ومعرضة للانهيار عند أول إعصار... حتى لو كان مجرد ريح ربيعية..

...نعم، إنها المونة الخرسانية، وراء تلك الأركان... لم يكن نجاح مؤامرات الأعداء سوى التحصيل الحاصل لضعف الأركان، وهشاشتها.

وهذه المونة الخرسانية، قيم البناء والصلابة، هي ما يجب أن نأخذه معنا، ونحن نهم بالفرار من ذلك البناء الموشك على الانهيار.

ومرة أخرى يتكرر السؤال: ما تلك القيم؟

لو أننا تأملنا خارطة النشوء الأولى للمجتمع الإسلامي، منعكسة على الخطاب القرآني أولاً، وعلى السنة النبوية ثانياً، لوجدنا مجموعة كبيرة من القيم، كونت البنية التحتية، ليست بطويلة جداً، مجتمع العدالة الاجتماعية..، وحقق - لفترة أطول - مجتمع الإنجازات العلمية..

نعم، هناك مجموعة كبيرة جداً من القيم شكلت تلك البنية التحتية لتلك الانطلاقة لذلك المجتمع الذي ولد عملاقاً على رغم جدب الصحراء المحيطة به.

... سنقف ونحن نتأمل تلك القيم.. أياً منها سنأخذ الآن؟

أياً منها يا ترى سيكون تلك المونة الخرسانية التي تصنع أركاناً حقيقية وصامدة، لبناء شامخ ومتماسك، أكثر صلابة، وعلى أسس أكثر صلابة؟

أما تلك القيم، نقف، ونتساءل...

دعونا نؤكد أن لا شيء يجب أن يترك تحت الأنقاض، دعونا نؤكد أن لا شيء يجب أن (يترك) بالمعنى النهائي للكلمة.

لكن في النسب المكونة لخرسانة الأركان، هناك اختلاف بين مادة وأخرى... وهناك مادة أو اثنتان تهيمنان على (الخلطة)... وهناك مجموعة مواد أخرى، تكون بنسب أقل، تحسن أداء الخلطة، وتزيد من فاعليتها... وقد تمنحها خصائص أخرى، لم تمنحها إياها المواد الأساسية فيها..

فما هي، إذن، تلك المكونات الأساسية التي نحتاجها بنسب أعلى وأكثر تركيزاً لتلك الخلطة الساندة للأركان التي نريد أن نؤسس عليها من جديد؟..

ما المواد التي تشكل بنسبها وتركيزها، النسب الأهم في خرسانة الأركان..؟

وبعبارة أشد وضوحاً، **ما القيم التي لها الأولوية والهيمنة في منظومة القيم التي تشكل اللب القوي، بالنسبة إلى الأركان الخمسة؟..**

ما أولويات القيم، بين تلك المجموعة الغنية المتنوعة من القيم التي نراها منعكسة على الخطاب القرآني والسنة النبوية..؟

ما القيم التي تكون نسبتها أعلى وأكثر تركيزاً، دون أن يلغي ذلك بقية القيم التي ستكون نسبتها أقل، ولكن وجودها ضروري لتحسين الأداء وللمزيد من الفعالية.

.. ما تلك القيم، وما الطريقة التي يمكن من خلالها استخراج تلك القيم؟ أو معرفتها، أو لا؟..

... لو أن بيتك ضربه إعصار ممطر، لاختلفت (أولوياتك) عنها مما لو أن الذي ضربه زلزال مثلاً..

كنت ستأخذ عند الإعصار الممطر مظلة وثياباً تقيك وأولادك البرد والمطر، بينما لن يكون لذلك أي أهيمة عند الزلزال... وقد تتقدم عندها أولويات أخرى، مثل الغذاء أو الدواء، أو علبة الإسعاف والضمادات..

...وعندما يشيد بيت ما، في منطقة زلازل، فإن طبيعة البناء، وخواص المواد المستخدمة تكون مختلفة، عما لو كان البيت شيد في منطقة صواعق.. وسيكون مختلفاً، لو أنه شيد في منطقة أعاصير..

عند الزلزال، ستحتاج إلى (المرونة)، التي يمكن للبيت معها أن يهتز ويروح ويجيء دون أن يصيبه ضرر، بينما ستكون الصلابة عند الزلزال مجلبة للمزيد من الأضرار.

... وعند الصواعق، ستحتاج إلى تفريغ الشحنات الكهربائية، وتبطين البناء بمواد عازلة، وربما وضع طبقات من المواد غير القابلة

للاشتعال... ولن يكون (للمرونة) أي أهمية هنا... وعند الأعاصير، ستحتاج إلى بناء صلب صلد يقوى على الصُّمود أمام قوة الأعاصير، ولن يكون لتفريغ الشحنات الكهربائية أي أهمية على الإطلاق، كما كان عند الصواعق.

الأولويات إذن، تتعلق بطبيعة العوامل الخارجية، المحيطة، أو المتوقعة، والتي يمكن لها أن تلحق الدمار بالبناء الذي نريد حمايته... أو إعادة تشييده على أسس أقوى...

... وليس ذلك في (الهندسة المدنية) فقط، إنه في الهندسة الاجتماعية أيضاً، بل إنه ربما الأساس الأهم، في الهندسة الحضارية..

ولو أن الدمار الذي نتعرض له، كان نتيجة لغزو صريح الإلحاد، صريح الإنكار لوجود الله تعالى، ولقدرته وهيمنته، لكانت النسبة الخرسانية للأركان متجهة، بغالبيتها، للاستناد على **الإيمان بالله تعالى، والمراهنة على ملاءمة هذا الإيمان للفطرة الإنسانية**، دون أن تلغي هذه النسبة، عوامل أخرى متممة ومتكاملة مع الإيمان بالله وقدرته وهيمنته وعدالته..

... ولو أن الغزو كان من جهة حضارة غارقة في خرافيتها وجهلها، لكانت نسبة القيم الخرسانية متجهة نحو التركيز على العقل ونبذ الخرافة، دون أن يؤدي ذلك إلى التطرف في نفي الغيب.

... ولو أن الغزو كان من جهة حضارة إباحية، انتشر فيها مشاع الرجال والنساء، وانتهكت فيها قيمة الجسد ليصير رمزاً لتلك الحضارة ولقيمها، لو أن ذلك حدث، لكانت قيم الخرسانة اتجهت نحو العفة، باعتبارها القيمة الأهم اجتماعياً، والتي يجب أن يرتكز عليها ذلك البناء البديل، البناء الآخر..

وفي كل تلك الأحوال، سيظل إطار الأركان الخمسة قائماً، لكن خرسانة تلك الأركان تتغير حسب العوامل الخارجية المضادة.. يحدث ذلك في الهندسة المدنية، الزلزالُ غيرُ الصاعقة غيرُ الإعصار، وكل ذلك غير البناء المتداعي المنخور من الداخل...

وكذلك الأمر في هندسة الحضارات، بل إنه كذلك من باب أولى، لا يوجد انهيار يشبه آخر، ولا سقوط يشبه آخر.. بغداد التي سقطت على يد التتار ليست مثل الأندلس، والاثنتان ليستا مثل القدس أو مسلسل السقوط الذي نعيشه إلى اليوم (حتى لم يعد هناك قاع أدنى لنسقط فيه).

لا سقوط يشبه آخر..

ولكل انهيار أسبابه الخاصة... (الداخلية والخارجية).. ومن ثم، مقابل كل انهيار، مونة خرسانية مختلفة تقيم أول الأركان وتكون القوام - اللب داخلها، في إعادة بناء مفترضة...

لو كان هناك، من يفكر بإعادة البناء!

... قديماً، كان يقال لنا في الاختبارات الدراسية، أننا نستطيع أن نجد الجواب من السؤال.

نصف الجواب من السؤال، كان يقال لنا.

بالمنطق نفسه أقول الآن: إن نصف - إن لم يكن أكثر - التركيبة الخرسانية الداخلية لأركان البناء المراد إعادة تشييده، يمكن معرفته من الإعصار الذي أطاح ببنائنا المنهار..

إن معرفة خصائص الإعصار، أو الزلزال، أو أي عامل خارجي محدد، هو الذي يقودنا للتعرف على خصائص الخلطة الإسمنتية التي ستكون الجوهر في تلك الأركان الخمسة... ومن دون معرفة لتلك

الخصائص التي حركت الإعصار أو أعطت القوة للزلزال، لن نتمكن من معرفة كيف تقوم الأركان من جديد..

ناهيك عن إقامتها فعلاً..

فما هو هذا الإعصار الذي جاءنا، وأطاح ببنائنا؟

ما خصائصه، ما سر قوته، وما قصة نجاحه، وعوامل صعوده؟

... وما هي أيضاً نقاط ضعفه، واحتمالات انهياره؟

ما الذي يميزه عن غيره؟ ما الذي ينفرد به عن بقية القوى، ويجعله متميزاً عنها، مختصاً بها؟..

في التعرف على سر قوة الإعصار تكمن (الشيفرة) التي نحتاجها لحل تركيبة خرسانة الأركان.. لكن ليس بالتطابق معها على الأكثر.

بل بالتضاد!

فبالضد تتميز الأشياء..!

...عندما أقول: ما (يميز) الإعصار، فإني أستثني كل ما تشترك به أي قوة عظمى أخرى.. أستثني ما هو ضروري وأساسي ولا يمكن أن تخلو منه أي قوة عظمى إمبراطورية، مثل القوة العسكرية الهائلة العدد والعدة، والتنظيم الدقيق، والدوافع من أجل الغزو والاستعمار (أو سموه ما شئتم: حتى لو قلتم: «إنه تحرير!».. هذا كله غير مهم هنا...

فالمهم هو ما يميز تلك القوة عن غيرها.

المهم هو لبها المحرك، وقيمها الداخلية.

المهم هو ثوابتها.

خرسانة أركانها، والنسبة المكونة لها.

سيقولون لنا، بسرعة وربما بفخر: إن ما يميز هذا الإعصار.. هذه الحضارة الغازية هو تلك القيم التي صارت بمثابة هوية تعريفية لها..

سيقولون: إنها الحرية الشخصية، واحترام العمل، الرفاهية، والديمقراطية، واحترام الوقت، وتقدير النجاح والإنجاز.... (وقد يكون لك بعض الملاحظات والمشاكسات على بعض هذه القيم وحقيقتها عندهم، لكن هذا موضوع آخر).

ستتأمل تلك القيم، لا يمكن لك أن تكون ضدها بأي شكل من الأشكال، بل إنك قد تكون تعودت على إكبار هذه القيم واحترامها، وتذكير نفسك بأن هذه القيم هي (قيمنا)، قبل أن تكون قيمهم!

بل إنك قد تتذكر قول واحد من أولئك المفكرين الذي قال: «في الغرب يوجد مسلمون ولا يوجد إسلام...».

كل ذلك خارج النقاش الآن، ما هو خارج المناقشة أيضاً وجود تلك القيم سلوكاً شخصياً حقيقياً وواقعياً عندهم هناك.

ومسألة أن تكون تلك القيم تواجه انحداراً أو انحساراً أو تحديات تمسها، هي مسألة خارج الصدد أيضاً.

هذه القيم حقيقة سلوكية (عندهم) - على غالبيتهم على الأقل - ولا داعي للمخادعة بالادعاء أن كل ذلك الكلام هو محض خرافة إعلامية وشعارات براقة (مع أن هناك حتماً بعض التحفظات على حقيقة بعض الممارسات).

لكن هذه القيم، عموماً، هي قيم سلوكية لها وجود حقيقي، ولن أدفن رأسي في الرمال بالادعاء بغير ذلك.

لكن وجودها بوصفها قيماً سلوكية حقيقية شيء...

وكل ما أتحدث عنه شيء آخر.

إنني مع عدم إنكاري لكل هذه القيم السلوكية، وحقيقة فاعليتها ووجودها في الحياة اليومية، إلا أني أشير هنا إلى أنها (قيم سلوكية)، وليست (قيماً محركة).

والفرق الذي أقصده بين القيم السلوكية والقيم المحركة، هو كالفرق بين السلوك - على أنه مظاهر جلية واضحة - وبين الدوافع، التي تسيطر على السلوك وهي مختبئة في الداخل.. تمارس دورها في التحكم من الأعماق..

الفرق بين القيم السلوكية، والقيم المحركة، أن القيم السلوكية تصير مع الوقت جزءاً من الشخصية، جزءاً ظاهراً من سطح الشخصية بالضبط، أما القيم المحركة، فهي تسكن الأعماق، الحوافز والدوافع، وتسيطر على السطح دون أن تضطر للوثوب بشكل واضح عليه.. ودون أن تفصح عن نفسها بشكل واضح...

كل القيم السلوكية، مثل احترام الوقت والعمل والإنجاز، تمارس اليوم هناك، في الفردوس المستعار - بمعزل عن دوافعها وحوافزها الأصلية - التي أنشأها أصلاً.

إنها موجودة الآن في الشخصية هناك - جزءاً لا ينفصل عن كل تراثهم الحضاري - جزءاً أصيلاً من شخصيتهم ومميزاتهم الحضارية.. دون أن تظهر على الإطلاق الخيوط التي حركت هذه القيم..

وأنا هنا لا أحاول التشكيك بأصالة هذه القيم، أو بإيجابياتها، وإنما أحاول أن أنبه وأشير إلى أن هذه القيم ليست منفصلة ولا مجردة عن قيم أخرى، تختفي تحت السطح، وتكون هي الأساس فيما نراه على السطح من إيجابيات... (أو من سلبيات)..

القيم لا تباع بعبوة منفصلة، إنما تؤخذ جملة..

...بعبارة أخرى، لم يَضْحَ الغربيون ذات يوم في القرون الوسطى، ليقرروا أن عليهم احترام الوقت وتقدير العمل والحرية الشخصية؛ الأمر أعقد وأطول وأصعب من ذلك كله. لقد مروا بمخاض طويل، وبدرب طويل، وبتجارب معقدة، وتفاعلات متسلسلة وأساسية وثانوية.. نتج عن هذا كله، في النهاية، ما نرى من إيجابيات،.. ومن سلبيات.

... من ضمن النتائج، كانت تلك القيم السلوكية، التي تروج على أنها هي لب الحضارة المنتصرة..

لكنها في الواقع، كانت ناتجاً من نتائج التفاعل.. لا التفاعل نفسه.. لم تكن هي التي حركت التفاعل، ولم تكن أصلاً عنصراً أساسياً من عناصره... لكنها نتجت عنه بوصفها ناتجاً ثانوياً أو أساسياً (ليس هذا هو الموضوع).

وحري بنا، ونحن نواجه هذا الإعصار، ونحن نسمع هذا التسبيح والتهليل والتمجيد لقيم تلك الحضارة (أكرر: قيمها السلوكية فحسب) حري بنا.. أن نعرف حقاً جذور الأمر، وحقيقة نشأته، وتفاصيل ولادته..

نحن لن نجد بداً من احترام تلك القيم السلوكية التي يروجون لها على أنها ثوابت الفردوس المستعار.. لكن علينا أن نعرف نشأتها لأنها لم تنشأ من فراغ مطلق، ولو قيل لنا أن علينا أن (نتبناها) من أجل أن (نتطور).. فإن علينا، على الأقل، أن نتفحصها، أن نسأل عن سلالتها، عن صحتها وعن صحة أسلافها، قبل أن نوقع إجراءات التبني (وقبل أن نقرر أن نوقع أو لا).

وربما لو عرفنا حقيقة ولادة تلك القيم، وقصة نسبها، لأحجمنا عن عملية التبني هذه، وقررنا أن (نلد) نحن قيمنا، ننشئها بطريقة أخرى، وقصة أخرى نخوضها بأنفسنا..

نعم، إن الأمر ليس بالبساطة التي يروجون لها..

والقيم السلوكية هي محض جزء ظاهر من جبل جليد هائل الحجم... قد يصدم مركب قيمنا ويحيله إلى ركام غاطس في أسفل سافلين... فلا نتصور أن الأمر بهذا اليسر... وأننا يمكن لنا أن نرسو - بأمان - على ذلك الجزء الظاهر، دون أن نصطدم بالجزء غير الظاهر الذي تأسس عليه الجزء الظاهر...

نعم، لا يمكن لنا أن نتصور أن نفوز بتلك (القيم السلوكية) دون أن نهضم ما وراءها من (قيم محركة)، بينما تكون مخفية ومغلقة غير ظاهرة للعيان..

بعبارة أكثر وضوحاً ومباشرة: الترويج والتسويق لتلك القيم (السلوكية) على أنها هي لب الحضارة الغربية والمدنية الأمريكية، محاولةٌ فيها من الخداع والمكر بقدرٍ يوحي أن هناك شيئاً من الخبث في المحاولة.

والترويج والتسويق لتلك القيم، على أنها قيم منفصلة يمكن ابتلاعها مجتزأة عن جذورها ودوافعها وقيمها المحركة الأصلية، هو إما ضرب من الجهل، أو من الغباء، أو من الاثنين معاً.

وبعبارة أكثر تركيزاً: لا يمكن أن نأخذ تلك القيم في (عبوة منفصلة)؛ إنما يؤخذ الأمر (بالجملة).

لنر ماذا عندنا إذن... ماذا لدينا في هذا الإعصار الذي اقتحم فراغنا.. ولنتفق أن نترك الشعارات الكبيرة والمصطلحات الضخمة التي يمضغها المثقفون وأشباههم (ولو مؤقتاً).. فالأمر في النهاية، هو مسألة (قيم) كما قلنا، والقيم لا تسكن في المجلدات على الرف، بل تعيش مع الناس الحقيقيين؛ الناس في الشوارع، الناس الذين يعملون ويعرقون ويجدون

ويصيبون أو يخطئون... إنما القيم تكون مهمة عندما تتجسد في سلوك هؤلاء... وليس عندما تكون في الكتب أو في قاعات المحاضرات.

إذن لننزل إلى الشارع هناك، إلى الحياة اليومية للفرد العادي هناك، إنما القيم تكون مهمة عندما ترتبط به، وتتجسد في ممارساته وأفكاره وسلوكياته.

لا تنسوا أن (القيم السلوكية) هي ذلك الجزء البارز الصغير - والذي يبدو مناسباً ليكون مرسى للسفينة - من ذلك الجبل الغاطس هائل الحجم.

فلنتأمل في هذه القيم السلوكية مجردة من الشعارات والتنظير، في ميدان الفصل والواقع.

الوصايا العشر بنسختها الأمريكية

تعرفون الوصايا العشر؟

بالتأكيد.. إنها أول ما نزل من التوراة، على تلك الألواح الحجرية، وهي الوصايا التي شكلت اللب الأساسي للشريعة الموسوية.. وامتدت تأثيراتها، بشكل أو بآخر، للديانة المسيحية...

هذه الوصايا العشر، المؤكدة على عدم عبادة الأوثان، وترك السرقة، والقتل، والزنا، والكذب.. إلخ، تصير، بالتدريج، بالنسبة إلى معتنقيها، أعرافاً لا تناقش، تصير بدهيات لا جدال فيها، حتى بالنسبة إلى أولئك الذين ينتهكونها بين الحين والآخر، إنهم يفعلون ذلك وهم يعلمون أن ما يفعلون هو خطأ وخارج عن حدود تلك الوصايا العشر.

حسناً.. مفهوم واضح وهو لا يخص الوصايا العشر التوراتية فحسب، بل يشمل أي تعليمات وأوامر دينية في أي ديانة يمكن تخيلها على الإطلاق..

لكن ما دخل الوصايا العشر فيما كنا نقوله؟

الوصايا العشر، لا تخص التجارب الدينية والشرائع السماوية فحسب، بل هي تخص التجارب الحضارية أيضاً، تخص المجتمعات وأعرافها وتقاليدها، أوامرها ونواهيها، حتى لو كانت منفصلة عن الأديان السماوية، لكل حضارة وصاياها العشر الخاصة بها، تتمثل في الأعراف السائدة.. تتمثل في مفهومها لما هو خطأ وما هو صواب، وتشكل إطاراً عاماً للقيم الأخلاقية لما يجب فعله وما لا يجب فعله، الناس ضمن هذه الحضارة، ترضع هذه القيم دون أن تشعر غالباً، وينشؤون عليها، يكبرون عليها وقد سارت في الحليب الذي يجري في دمائهم.

ولكل حضارة (وصاياها العشر) الخاصة بها.

غني عن القول أن العدد لا يفترض أن يكون (عشراً)، لكنها وسيلة للتعبير عن قدسية هذه الوصايا وأهميتها بالنسبة إلى الحضارة المعنية.

ما رأيكم إذن، ما دام الإعصار قد وصلنا، أن نتفحص (الوصايا العشر) للحضارة صاحبة الإعصار، حضارة الفردوس المستعار.. الحضارة الأمريكية؟؟

❀ ❀ ❀

لن أفتري شيئاً، لن أذهب إلى إحصاءات الاغتصاب والجريمة والولادات غير الشرعية ونسب الشذوذ الجنسي، التي تعودنا أن نذهب إليها كلما شعرنا بالضيق ورغبنا أن (نعير) الغرب.

كل ذلك ما أزال أراه خارج الموضوع، ما أزال أراه مجرد تفاعلات ثانوية ونتائج نهائية لتفاعل أكبر..

لن أجلب شيئاً مني، ولا حتى من أشخاص ناقمين وناقدين لمنظومة الحياة هناك من داخلها..

لن أذهب لليسار الأمريكي وأجلب شهادته (المطعون بها من جهة اليمين)، وأقول متباهياً متفاخراً: «شهد شاهد من أهلها» كما يفعل بعضنا.

لا، بل (الوصايا العشر) التي هي الأمثال والحكم التي تشكل أفقهم الأخلاقي، وفضاءهم المعرفي.

دعونا نر (الوصايا العشر للحضارة الأمريكية)..

أولاً: لا تستطيع أن تجادل النجاح — 1- You can not argue with success.

ثانياً: عش ودع غيرك يعيش — 2- Live and let live

ثالثاً: الوقت يطير عندما تمرح — 3- Time flies when you are having fun

رابعاً: تسوّق حتى الموت! — 4- Shop till you drop

خامساً: فقط إعملها! — 5- Just do it

سادساً: لا ربح بلا عناء — 6- No pain, no gain

سابعاً: ما يكفي يكفي (لا تطِل الصبر على حقوقك) — 7- Enough is enough

ثامناً: الوقت مال — 8- Time is money

تاسعاً: وجدت القواعد لتخرق — 9- Rules are made to be broken

عاشراً: الله يساعد من يساعدون أنفسهم — 10- God helps those who help themselves

إنها أمثال سائدة كما تلاحظون، ولا مجال للافتراء أو التزييف. وهي تسير على ألسنة الأفراد العاديين هناك، كما تشكل الإطار العام لأفكارهم

وأخلاقهم وأهدافهم، إنها المظهر (العامي) للقيم السلوكية التي تحدثت عنها...

هذه الأمثال، هي ذلك الجزء البارز على السطح من القيم المحركة، والأمريكيون من حقهم أن يفخروا بها، فهي موروثهم الحضاري الحقيقي، ولو تتبعنا المقال - والكتاب - الذي يتحدث عن هذه الوصايا العشر، لرأينا أن كل (وصية) من هذه الوصايا، تشكل قيمة يفخر بها الأمريكيون ويعدونها عرفاً لا جدال في قدسيته وهيبته، ولاجدال كذلك في كونه شكل جوانب أساسية من جوانب (الشخصية الأمريكية)(١).

فالوصية الأولى، مثلاً، تشير إلى أهمية النجاح في الثقافة الأمريكية وكونها القيمة التي تهيمن على كل القيم الأخرى، فالنجاح هو لب الحلم الأمريكي، والفشل، بهذا المفهوم، هو الخطيئة الأكبر، والانتهاك المعيب لعرف الحضارة الأمريكية وتعليماتها.

والوصية الثانية تمثل رغبة الأمريكيين في التمتع بخصوصية حياتهم دون أن يتدخل أحد فيها بالنصح أو الإرشاد أو التوجيه، وبالمقابل تشدد الوصية على حق الآخرين في ذلك أيضاً، بالتمتع بخصوصياتهم دون أن يتدخل أحد فيها.

وبينما تشدد الوصية الثالثة على أهمية استمتاع الأمريكيين بأوقاتهم، فإن الوصية الرابعة تشير إلى واحدة من أهم هذه المتع: التسوق، والتي يؤكد كاتب المقال أنها واحدة من أهم مواضيع الحوار عندهم، وينصح بأنك لو أردت أن تكسب إعجاب شخص (أمريكي) فأقنعه بأنك متسوق ذكي (Smart shopper)!

---

(١) Abcs of American Culture
Author: Nussbaum, Stan Publisher: Global Mapping, 1999.

تشير الوصية الخامسة إلى كون الحضارة الأمركية هي حضارة (فعل) لا حضارة تأمل وطول تفكير. إنها حضارة تؤمن بالعمل لا بالتنظير أو وضع أطر فلسفية وفكرية له...

وتؤكد الوصية السادسة على أهمية بذل الجهد من أجل الحصول على الربح.

وتقول الوصية السابعة: إن (ما يكفي يكفي) ما دام الأمر يتعلق بحقوقك وكرامتك الشخصية... وتجمع الوصية الثامنة بين الوقت والمال للاستدلال على أهميتهما معاً، وتصرخ الوصية التاسعة في وجهك بأن القوانين لا أهمية لها، والأجدر بك أن تفكر في تحطيمها وابتكار قوانين أخرى سيحطمها لاحقاً شخص آخر..

وأخيراً، تقول لك الوصية العاشرة، بأن تساعد نفسك أولاً - بالنجاح - فالله لا يساعد إلا أولئك الذين يساعدون أنفسهم...

انتهى!

هل سننبهر بذلك كله؟ هل ستسقط أفواهنا من الدهشة وقد عثرنا على وصفة النجاح الأمريكية؟

هل سنحفظ هذه الوصايا؟ نقولها مراراً وتكراراً مع أنفسنا حتى تصير جزءاً من دواخلنا لعلنا نحقق الحلم الأمريكي الدفين، سواء أنكرنا أو لا؟..

هل ستمس هذه الوصايا أوتاراً عميقة فينا؟.. هل سنلاحظ أنها تنادينا أيضاً؟ أو تنادي على الأقل جزءاً فينا؟.. وتمثل فعلاً بعض القيم التي نؤمن بها (عملياً) حتى لو لم نصرح بامتلاكها نظرياً؟..

إن بعض هذه الوصايا هي، من الآن، أمثلة سائرة على ألسنتنا، وقيم تحتل أجزاء من عقولنا..

وقبل أن يسرع أحد ليقول: إنها قيم إنسانية عامة لا تخص حضارة بعينها، وقبل أن تأخذ (الجلالة) آخر ليقول: إنها موجودة في الفطرة، أذكر أن وجود هذه الوصايا على أنها أمثال وقيم عندنا، لم يأت إلا عبر الإعلام الأخطبوطي الذي أعاد تشكيل مفاهيمنا وقيمنا (شاء من شاء وأبى من أبى..).

نعم، إنه الإعلام والتنويم المغناطيسي الذي يمارسه علينا، هو الذي يجعلنا نقول بين الحين والآخر (Time is money) أو (Just do it)..

لا فطرة... ولا إنسانية.

لعل أحداً آخر سيلاحظ أن هذه الوصايا العشر للحضارة الغازية لا تناقض أياً من مفاهيمنا ومبادئنا... حتى لو كانت لا تحتوي عليها بشكل مباشر.

ولعل أحداً سيجد الحل النهائي (لنا ولهم)، بجمع وصاياهم (كونها تمثل قيم النجاح والمعاصرة) مع وصايانا (كونها تمثل قيم الروح والآخرة والأشياء المماثلة)..

وكفى الله المؤمنين التفكير..

ولعل واحداً آخر من عباقرة الشيوخ والدعاة، سيمضي أكثر من هذا كله، ليلاحظ أن قائمة الوصايا العشر هي **إسلامية جداً**، على الرغم من أن أصحابها لا يعرفون ذلك! ولا أحد يعرف ذلك طبعاً سواه هو، وكيف أنها تمثل قيم الإسلام الحقيقي التي أضعناها نحن، ووجدوها هم، وبنوا عليها حضارتهم التي انتصرت علينا..

سيتباكى بعدها قليلاً على حالنا، وسيأمل أن تدعونا دموعه الغالية إلى أن نهب للأخذ بأسباب القوة الممثلة في قيمنا التي (لطشوها) ووضعوها في وصاياهم العشر.

بل إني أراهم، شيوخاً ودعاة، مفكرين ووعاظ منابر، وقد وحدهم الحلم الأمريكي على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، مختلفي الأشكال، بلحى متنوعة الأطوال، أو بلا لحى على الإطلاق، بوجوه لامعة صقيلة، مبتسمة أو مكفهرة، أراهم وهم يتسابقون، ويجهدون عقولهم في إيجاد روابط بين تلك الوصايا، وبين موروثاتنا من النصوص الدينية المقدسة..

سيقولون، تعليقاً على الوصية الأولى المرتبطة بالنجاح، كيف أن المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وكيف أن اليد العليا خير من اليد السفلى، سيقولون أيضاً، عن الوصية الثانية: إن المؤمن ليّن هيّن، كيِّس فطن سهل التعامل مع الآخرين، يتبسم في وجوه الناس لأنها صدقة. وسيقولون حتماً، عن الوصية الثالثة، المتعلقة بالمرح: «إن لبدنك عليك حقاً»، وإن الرسول ﷺ قد سابق زوجته عائشة مرتين، مرة سبقته ومرة سبقها، وهذه بتلك، وإنه كان يداعب أطفال الصحابة وعجائز النساء، وربما سيأتي في بالهم فيما يتعلق بالوصية الرابعة عن (التسوق حتى الموت).. أن يؤكدوا أن الإسلام ليس ضد الرفاهية، وأن الرسول ﷺ كان يمتلك بردة جميلة خضراء زاهية اللون، وأن فلاناً أو سواه من الصحابة كان قد ترك كيت وكيت من الأموال إرثاً لأولاده.. ولعل أذهانهم ستذهب إلى الربط بين (فقط اعملها) كمثل سائر يستخدم في إعلانات Nike التجارية، وبين (إذا عزمت فتوكل على الله)، أو (اعقلها وتوكل)... أراهم كذلك سيربطون بين تقديس الوقت عندنا وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد أقسم به، وبين Time is money في الوصايا العشر.

ولعلهم سيفرحون بالصلة - التي يعدونها واضحة - بين تلك الوصية العاشرة التي تؤكد أن الله يساعد من يساعد نفسه، مع الآية القرآنية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

نعم.. سيقولون ذلك وأكثر. وستتهدج أصواتهم من التأثر بالخطب العظيم، وكيف أن خارطة الكنز قد كانت عندنا ولم ننتبه لها وأخذها هؤلاء، وبنوا عليها بنيان حضارتهم، و(لذلك) و(كذلك) و(رغماً عن) و(بما أن) و(بسبب من كل ذلك) علينا أن نستعيد تلك (الوصايا) - بما أنها بالأصل وصايانا - من أجل أن نبني نهضتنا الجديدة...

حسناً... كل ذلك سيحدث، وفي الحقيقة إنه يحدث الآن فعلاً بطريقة أو بأخرى..

وبينما أشد بيدي على أيديهم مهنئاً على براعتهم في التوفيق التلفيقي، فإني أؤكد مرة أخرى أن ذلك الهذر كله خارج الموضوع.

(وأتساءل هنا، إن كان الأمر يحدث بنية التلفيق المسبقة أم أنه أكبر وأعمق من هذا كله، وأنهم حقاً منهزمون لهذه الدرجة؟)..

۞ ۞ ۞

أتأمل في تلك الوصايا العشر، لحضارة الفردوس المستعار، من زاوية أخرى غير زاوية الهزيمة، غير زاوية الانكسار عند الإعصار، بل من زاوية التفحص بنية إعادة البناء... وتبدو لي هذه الوصايا العشر، بعيدة جداً، عما حاول دعاتنا وشيوخنا الإيحاء به.

أتأمل في الوصية الأولى، في كل كلمة منها، فلا أرى ذلك المؤمن القوي الذي هو أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، بل أرى رؤية أخرى للنجاح، رؤية مناقضة ومضادة لكل ما جاء به الإسلام من مفاهيم، النجاح في هذه الوصايا هو بمقاييس خاصة، تتلاءم وتنسجم مع نفسها، ومع بقية الوصايا بالتأكيد، ومع طريقة الحياة هناك، ومع لب حضارة الفردوس المستعار وفحواها.

إنه النجاح المادي طبعاً، النجاح الذي يجلب المزيد من المادة، التي تجلب المزيد من السلع، والأشياء التي يكبر حجمها بالتدريج، ويدل ذلك على المزيد من النجاح: كلما كبر البيت، وكبر مرآب السيارات الملحق، وكبرت السيارة، وكبرت صالة الضيوف، وكبر جهاز التلفاز حتى يكاد يملؤها، فإن ذلك يدل على ذلك النوع من النجاح الذي تقول الوصية الأولى: «إنه لا يناقش».

إنه النجاح المادي وحسب.. وهذه الوصية تعبر عن ذلك بأقصى ما تستطيعه الكلمات.

النجاح المادي ولا شيء بعده، ماذا لدينا سواه حقاً، لقد دخل الأمر في أدمغتنا نحن أيضاً، وأنا إذ أذكر الآن بالأمر، فإنكم قد تذكرتم وستقولون: نعم (النجاح في الآخرة) مهم أيضاً... ويمكن لنا أن ندعي، لو شئنا، أن الوصية الأولى قد تعني ذلك أيضاً..

ويكمن لنا أن نطفئ النور بينما نحن نقضم التفاحة... لكن ذلك لن يغير حقيقة كونها منخورة بالدود...

ولن يغير أيضاً أن كل تلك الوصايا، مصممة حسب مقاييس ومواصفات الوصية الأولى: النجاح مادة.

...أتأمل أيضاً في عدم إمكانية الجدل مع النجاح، إن ذلك يعني أنك عندما تحققه، فإنك ستحوز احترام الجميع مهما كانت الوسيلة التي حققته بها...

(إن ذلك لا يجادل)..

وأتأمل أيضاً، دون أن أقف عند كل وصية تحديداً، فألاحظ أن قائمة الوصايا العشر تخلو تماماً من كل ذكر للعدالة الاجتماعية أو التكافل

الاجتماعي.. أو حتى قيم العائلة.. هناك ذكر للتسوق، ولكن ليس هناك ذكر للعائلة!

ناهيك عن قيم العفة طبعاً.. (عمَّ أتحدث؟).

وسألاحظ أن الله موجود في الوصية الأخيرة تحديداً، سيقول واضع الوصايا ومصممها: إن ذلك مقصود. سيقول لنا بصراحة: إن الله موجود فعلاً في سلم أولويات الحضارة الأمريكية، لكنه موجود في نهايتها، إنه بعد قيم النجاح والمال والتفاصيل الأخرى المتعلقة بهما، وسيقول لنا: إن هناك - فعلاً - من الأمريكيين من يقدم (الله) أكثر في سلم الأولويات. ولكنه سيطمئننا إلى أن هؤلاء أقلية.. ومن ثم لن يؤثروا كثيراً في النتيجة النهائية.

أحب أن أشير هنا، إلى أن كل ذلك شأن الأمريكيين وحدهم. من حقهم أن يضعوا أولوياتهم بالشكل الذي يرونه مناسباً لهم، ومن شأنهم وحدهم أن يكون الله في المرتبة الأولى من سلم قيمهم أو الأخيرة، أو ألا يكون أساساً في أي مرتبة على الإطلاق (فهو - عز وجل - الغني عن العالمين)..

الأمر هو أن من حقنا نحن أن نعترض على (قيمهم) عندما تعرض علينا بالقوة، أو بغير القوة، أي عندما تسوق على أنها وحدها القيم، وسواها الهباء...

وأشير أيضاً، إلى أن الأمر أعمق من مجرد (تغيير في ترتيب الأولويات)، أو توفيق تلفيقي نمارسه من أجل إرضاء ضمائرنا المنهكة، إنهما منظومتا قيم مختلفتان من الجذر، من الأساس، وتشابه بعض التفاصيل الثانوية هنا أو هناك لن يغير من هذه الحقيقة قط.. (حتى لو أوهمنا أنفسنا بغير ذلك..)..

... وكما هو واضح، بل وبدهي فإن هذه الوصايا العشر، لم تنشأ من فراغ، بل إنها ولدت في ظروف وملابسات ومصادفات جعلتها بهذه الصيغة وبهذا الشكل وهذا الترتيب المحدد للأولويات... وفي الحقيقة، لا يمكن لأي حضارة - عبر التاريخ - أن تكون قصة نشوئها واضحة، وتكون قصة النشوء هذه (محددة) لقيم هذه الحضارة وأولوياتها، كما حدث مع حضارة الفردوس المستعار.

... لقد كانت قصة اكتشاف أمريكا، ومن ثم الهجرة الكبيرة إليها، وحرب الإبادة التي تعرض لها السكان الأصليون، وطريقة التعامل مع الأرض والثروات هناك، كل هذا، كان محدداً لقيم الحضارة التي ستنشأ هناك... وظلت حكاية الاكتشاف والهجرة والإبادة ساكنة عميقاً في ضمير تلك الحضارة.. (أو فلنقل في وجدانها!)... وساكنة في طريقة تفكير كل (فرد) انتمى إلى هذه الحضارة، ولو فكرياً ..ولو دون أن يدري.

تمثل حركة الهجرة الكبيرة، إلى القارة المكتشفة حديثاً - بالخطأ! - على يد كولمبوس مفصلاً مهماً من مفاصل فهم حقيقة هذا الإعصار الذي اكتسحنا واكتسح العالم كله... ولا تبخل علينا قريحة الأدب الأمريكي في التعبير عن ذلك؛ فأمريكا لم تكن مجرد أرض اكتشفها الأوربيون بينما كانوا يحاولون الوصول إلى الهند، بل كانت حلماً طالما سكن مخيلة الإنسانية (على حد تعبير إيمرسون)[١]، بل إنها كانت (قصيدة) - كما يؤكد فيلسوف الحضارة الأمريكية نفسه - طالما تغنى بها الشعراء قبل اكتشافها، وأيضاً (لم يسبق للسماء والأرض أن اتفقتا بشكل مماثل على مكان يصلح للإنسان في أمريكا كما فعلت - جون سميث)... لقد كانت أمريكا بمثابة الأرض العذراء (مع أنها لم تكن كذلك، لكن ناسها الأصليين لم يكونوا يستهلكون كالأمريكيين الجدد..)، وكانت ثرواتها

(١) God Rides a Harley in the land of the free, by ian johnston.

الوفيرة تصور للمهاجرين الأوائل أنهم قد عثروا على (جنة عدن) فعلاً.. على الفردوس المفقود الذي سيحولونه لاحقاً ليكون فردوساً مستعاراً يفرض أفكاره وقيمه ومعتقداته على العالم أجمع[١]..

ليس في ذلك أدنى مبالغة. لقد تصوروا - في تلك الفترة المتأخرة التي اختلطت فيها خرافات العصور الوسطى بأولى تباشير العلم الحديث - تصوروا أنهم عثروا على جنة عدن.. لقد كان كولمبوس يعتقد أنه وصل للهند، عندما حط رحاله في أمريكا، وظل يؤمن بذلك ويصر عليه، بل إنه سمى السكان الأصليين بالهنود (الحمر) فقط من أجل إيمانه بذلك. (ولا يزال العالم كله يسميهم كذلك مع أنه لا صلة تجمعهم بالهنود من قريب أو بعيد)..

... وعندما اقتنع لاحقاً، بأن تلك الأرض لم تكن الهند، كتب في مذكراته يقول جازماً: إن تلك الأرض البكر، العذراء، الوفيرة الخيرات، الموجودة في فجوة من الزمن والمكان، بلا تاريخ، هي الجنة المفقودة بعينها، هي جنة عدن بالتحديد[٢].

وكان تصور كولمبوس هذا، يشكل إطاراً عاماً، ولو بالرمز، لرؤية أولئك الذين سيهاجرون إلى أمريكا، أولئك الذين سيشكلون أمريكا... ومن ثم سيكون تصوره هذا رمزاً صغيراً لرؤية أمريكا لنفسها... ورؤيتها للعالم.. ورؤية العالم لها.

ويمتلئ الأدب الأمريكي، بشخصية تظهر أحياناً بالاسم، وأحياناً بالتلميح، اسمها هو (آدم الأمريكي) The American Adam تمثل نموذجاً للشخصية الأمريكية، التي كونت حضارة الفردوس المستعار.

(١) http://zslt.klucznet.pl/mh/usa historia.html
an outline of American history: early americans

(٢) Christopher columbus msn encarta

أدبياً وفلسفياً، عبَّر كل من وايتمان، إيمرسون، ثورو، وتوكوفيل عن آدم الأمريكي هذا، وهو موجود داخل كل فرد أمريكي، حتى هؤلاء الذين لم يسمعوا بالمصطلح أو لم يسمعوا بهؤلاء المفكرين والفلاسفة(١).

لكن هذا الآدم الجديد يغرس منذ الولادة داخل كل فرد عبر الآباء والأمهات، عبر نُظُم التعليم، عبر الإعلام ووسائله التي لا تتركك لحظة واحدة في سبيلك.

إنه آدم الأمريكي، أعيد تشكيله وتكوينه وإنتاجه ليصير حوالي ٢٦٠ مليون نسخة من أول آدم وطئ أرض أمريكا.

شخصية هذا الآدم الجديد، على الأخص انفصالها عن آدم القديم بنسخته الأوربية (الخارجة للتو من عصر النهضة)، شخصية الآدم الأمريكي، والفردوس الذي كونه بديلاً، ليس عن الفردوس المفقود فحسب، بل عن العالم بأسره..

هذا الآدم الجديد والفردوس الذي كونه يمثلان حضارة كاملة، ويمثلان منذ أول نشوئهما، قيماً وثوابت لتلك الحضارة، والتي تشكل الوصايا العشر، وقيمها السلوكية، مجرد جزء صغير بارز على السطح، من جبل هائل قد لا يرى بالعين المجردة...

في هذا الآدم، وفي دوافع ولادته، وظروف نشأته، في حوافزه، وسلوكه، سنركز، ونتفحص.

هناك، في ذلك الآدم الأمريكي، وفي قصته، سنفهم لماذا تمكن من اكتساحنا، ولماذا استطاع إعصاره أن يجتاحنا؟

---

(١) The New, Improved American Adam
Or, The Mass - Production of Adamism Based on The American Adam: Innocence, Tragedy and Tradition in the Nineteenth Century By R. W. B. Lewis By Kevin Walker, Chaabot College 1990..

... وعندما نعرف ذلك، ربما سنعرف كيف يمكن لنا أن نتمخض عن شخص جديد، لن أسميه آدم المسلم، ولكني سأسميه باسمه فقط، بلا ألقاب، إنه مرة آدم الذي تاب، وإبراهيم الذي رفع القواعد، ومحمد الذي حدد القبلة..

على أن أركز في هذا الآدم الجديد من أجل أن أعرف من يجب أن أكون.




الثابت الأول
المادية

لماذا ذهبوا إلى هناك؟

... في الإجابة عن هذا السؤال، تتركز القيمة الأولى التي حددت، وتحدد، وحركت، وتحرك كل مفاهيم وقيم وسلوكيات حضارة الفردوس المستعار والمنتمين إليها.

نعم... لماذا ذهبوا إلى تلك القارة؟ لماذا هاجروا إليها في دفعات متتالية شكلت واحدة من أهم الهجرات وأكبرها حجماً عبر التاريخ كله؟ ما الذي كان في بال المهاجرين الأوائل، يوم ركبوا المحيط الأطلسي، في تلك القوارب غير الآمنة، في رحلة طويلة كانت تستغرق أشهراً أو يزيد، وفي ظروف جوية تكون بالغة الرداءة والخطورة، وكان الكثيرون منهم يموتون قبل أن يصلوا إلى القارة الجديدة؟

ماذا كانت دوافعهم التي جعلتهم يرضون بالمخاطرة في سبيلها؟ ماذا كان في بالهم، في رؤوسهم، عندما أبحروا وخاضوا عباب الخطر من أجل الوصول إلى أرض الأحلام؟

الشيء الذي كان في رؤوسهم، هو ذاته الذي في رؤوس كل مواطني الفردوس المستعار لا يزال، وهو ذاته الذي يدفع مئات الألوف من غير

مواطني ذلك الفردوس، يحاولون كل سنة، ركوب البحر ذاته، أو الأجواء التي فوقه، من أجل تحقيق ذاك الحلم المغروس منذ الولادة..

نعم.. الشيء الذي كان في رؤوس هؤلاء، وأولئك، قد يكون موجوداً في رؤوسنا نحن أيضاً، حتى لو تظاهرنا بغير ذلك، حتى لو ادعينا غير ذلك صباح مساء... لكن الأمر صار أخفى من النملة السوداء على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء... دعونا لا ننكر، على الأقل، أن ذلك الذي كان في رؤوسهم، هو موجود أيضاً في رؤوسنا.

أحب هنا وأنا أتحدث عن (الهجرة إلى العالم الجديد) إلى أرض الأحلام، أن أذكر بهجرة أخرى.. يفترض أن تكون محدداتها ودوافعها، حوافزها وقيمها، هي التي في رؤوسنا، وليس تلك الهجرة الأخرى التي اكتسحت قيمُها بناءنا المنهار (لأنه أفرغ محتواه من القيم).

أنظر إلى مصطلح الهجرة ذاته، إنه نفسه في الحالتين، ولكن أحذر دعاتنا ووعاظنا من استخدام التشبيه، فلا شيء في الهجرتين متشابه بعد الاسم؛ المحتوى مختلف، والقيم مختلفة، والأساس مختلف تماماً.

في تلك الهجرة، التي بدأ بها تقويمنا، كانت الهجرة إلى الفكرة، إلى العقيدة، كان الأمر من أجل تحقيق هذه الفكرة، وتحويلها إلى واقع حي..

كانت (الهجرة إلى المدينة) من أجل بناء مجتمع آخر، مبني على أسس جديدة، وعلى قواعد جديدة، حجرها الأساس الأولي الانقياد والخضوع والعبودية لإله واحد مطلق ومنزه عن الزمان والمكان والمادة.. وكانت هذه العبودية تجعل كل الناس متساوين بصورة آلية، متساوين كأسنان المشط..

... في مكة كانت تلك مجرد أفكار، لم يكن الملأ المكي ليتساهل في محاولة تطبيق هذه الأفكار... لكن الناس الذين آمنوا بهذا، وحّدَهم إيمانهم، جمع بينهم، وقد كانت انتماءاتهم السابقة، العشائرية والطبقية، تمنعهم من هذا التوحيد، لكن الفكرة وحدتهم.. وجمعتهم بأناس آخرين في تجمعات سكانية أخرى..

وعندما هاجروا، كانت (الفكرة) هي التي في رؤوسهم. فكرة امتلكت عليهم عقولهم ورؤوسهم وأذهانهم وخيالهم وضمائرهم ووجدانهم، وصارت بذلك عقيدة راسخة، عقيدة عميقة تسكن كل كيانهم، بل تشكل كل كيانهم...

عندما ركبوا تلك الصحراء، كانت العقيدة هي التي تحركهم، عقيدة الإيمان بذلك الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الأول الآخر الظاهر الباطن..

هل كانوا قد رأوه؟

لا.. أنا وأنتم نعرف أن ذلك الأمر خارج النقاش، لكنهم مع ذلك خاطروا بكل شيء من أجل شيء لم يروه.

لقد كانت العقيدة التي تسكنهم، عقيدة لا يمكن التعبير عنها بالحس، بالأشياء المادية، بالأشياء التي يمكن اختبارها بالحواس الخمس.

ولم يكونوا يتوقعون بالمقابل،دنيوياً، أن يتحقق ذلك الشيء ولو قليلاً منه.

كان أمر عقيدتهم (غيباً) آمنوا به، ولم يقلل من إيمانهم به كونه جزءاً من هذا الغيب، الذي غاب عن حواسهم ولم يغب عن عقولهم.

أقف هنا، وأضع ألف خطٍّ، وألف نقطة، وألف إشارة، أقول وأصرخ: «الغيب». وأتذكر أن سورة البقرة - أول ما أنزل في المدينة -

تحديداً قالت شيئاً عن هذا، في آيتها الثالثة لا أكثر ..﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٢/ ٣].

تلك الهجرة التي يبدأ بها تاريخ لم نعد نستحقه، تحركت بالغيب على أنه قيمة أولى، قيمة مهيمنة، قيمة سيطرت على مجتمع كان قيد الإنشاء.

أقول ذلك وأنا أعلم أن الهجرة الأخرى، كانت تتحرك بذلك الشيء الذي هو على العكس من الغيب، على التضاد منه في الجهة الأخرى حيث لا يمكن لهما أن يلتقيا..

تلك البواخر والسفن التي خرقت عباب المحيط، كانت مليئة أيضاً بأناس من مختلف الأعراف والألوان والطبقات، هم أيضاً وحَّدهم شيء ما، جعل لهم انتماءً بديلاً عن كل ما خلفوه وراءهم.. لكن هذه المرة، كان الشيء الذي ينتظرونه، لا يخرج عن نطاق الحواس الخمس.. أضع خطاً فاصلاً، وأقول: إنها المادة.

إنها المادة، هي التي حركت تلك الدوافع، ذلك الآدم الأمريكي كما يسمونه، إنها المادة، هي التي سكنت رأسه ورؤوس مئات الملايين من مواطنيه اللاحقين، والمتشبهين به.. عبر القرون اللاحقة.

المادة أولاً.. لن أقول: أولاً وأخيراً، ولن أقول: المادة وحدها. لكني سأؤكد أنها الحجر الأساسي الذي بنيت عليه القيم والدوافع الأخرى..

إنها حجرهم (الأسود) الذي ارتكز عليه بنيان قيمهم الذي يطوفون حوله ليل نهار..

المادة أولاً.. ثم كل شيء يأتي لاحقاً، يكون مرتبطاً بها..

لعلي لا أذيع سراً لو كنت أقول: إن الحضارة الأمريكية هي حضارة ارتكزت أساساً على المادة[١].

ولعل الأمر لا يحتاج إلى كثير جدال ونقاش، بل لعله صار بدهية من بدهيات حياتنا المعاصرة التي تلعب فيها الحضارة الأمريكية دور البطولة[٢]...

بل لعل هذا الأمر صار مبعثاً على الشعور بالفخر والقوة.

فالمادة، في النهاية، هي ما يهم! .It's the matter that maters!

نعم، وليس سراً، أن حضارة الفردوس المستعار هي حضارة (مادية) بشكل أساسي، ولن يغير من تلك الحقيقة تلك العبارة المكتوبة على ورق الدولار: بالله نؤمن .In God We Trust

فحتى كلمة (الله) هنا - وهي مطبوعة على الورق الأخضر - لا تعني بالضرورة ما نعنيه نحن من مفاهيم وقيم متعلقة بالله عز وجل.

المادية لم تولد بالأمس... لكن امريكا تبنتها

ولدت المادية بوصفها فلسفة، قبل اكتشاف أمريكا بفترة طويلة جداً. وأستطيع أن أزعم، بضمير مرتاح، أنها كانت موجودة، فكراً وسلوكاً قبل

---

(١) The American Dream:
Materialism- Religion - Values,
What has happened to the Spirit of America?
Is America Losing Its Religion?
Copyright © 2004 Geela
Author of the book "The American Dream"
http://www.geela.com

(٢) Materialism Is as American as Apple Pie! by Tom Sine BARCLAY PRESS 1984.

أن تكون في تنظيرات الفلاسفة ومجلداتهم ومناظراتهم، في فترة ما بالقرب من القرن السادس قبل الميلاد، في كل من اليونان والهند والصين، في الفترة نفسها تقريباً.

في القرن الخامس قبل الميلاد، جادل Democritus, Leucippus أن كل ما هو موجود مادة. لكن حججهما كانت قد أبطلت من قبل فلاسفة أكثر انتشاراً، مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو، مع أنهما وجدا دعماً من أبقراط، الذي قال: إن الحقيقة المطلقة تكمن في ذرات غير مرئية وغير قابلة للانقسام[١].

بعد انتشار المسيحية، عانت الفلسفة المادية من جزر وضمور استمر لقرون طويلة...

وعندما أقول: إن المادية (فلسفةً) هي التي عانت، فإني أعني بما أقول، أن التنظيرات الفكرية والجدل هو الذي مات.. لكن المادية نفسها، تطبيقاً وسلوكاً، كانت حتماً موجودة مغلفة تحت هذا الشعار أو ذاك.

أكثر من هذا؛ ليست الحضارة الأمريكية هي وحدها المادية من بين حضارات العالم المتعاقبة، كانت هناك حضارات أخرى اختلفت ماديتها، بدرجة أو بأخرى، عبر التاريخ...

لكني أعود فأقول: إنه يندر جداً أن نرى حضارة ارتكزت على حجر أساس واحد، هو المادة فحسب، وجعلت كل الأركان الأخرى مستندة على هذا الحجر، كما فعلت الحضارة الأمريكية.

---

(١) MATERIALISM GEORGE J. STACK
[From: Routledg Encyclopedia of Philosophy, ed Edward Craig. 1998 Routledge, New York]

المادية - الرؤية الأكثر تبسيطاً لأكثر الأمور تعقيداً

بعبارة ملخصة، المادة هي التفسير الأكثر بساطة، (وأيضاً الأكثر سطحية) لكل ما هو حولك من ظواهر وأحداث. إنه التفسير الذي يعد كل شيء، أولاً وأخيراً، (مادة) وأن كل التفسيرات، لكل ما يحدث في العالم، وفي الكون، وفي النفس، وفي الإنسان، هو تفسير مرتبط بالمادة.

وفيما يخص (الأسئلة الكبرى)، فإن المادة ترى أن لا جواب لها غير المادة والطاقة، وكل حديث عن حقيقة أعلى من هاتين الحقيقتين هو محض خرافة وأوهام لا تستحق النظر من وجهة النظر المادية.

كل شيء هو بثلاثة أبعاد عند الماديين، وأحياناً ببعدين فقط. وعند فلسفتهم لا بُعد آخر يمكن للحقيقة أن تكون فيه، لا بعد آخر فيه جواب على أي شيء. كل شيء يمكن فهمه بالحواس الخمس. كل شيء يمكن اختصاره بها، وتفسيره بها. كل ما يحدث في العالم من حولك هو مادة، رعد أو برق، مطر أو صحو، ليل أو نهار، زلزال أو إعصار، كله محض ظواهر مادية، تنتج عن ظواهر مادية أخرى، تتداخل وتتفاعل تفاعلات مادية. لا أسباب هناك. لا أسباب فوق المادة، ولا غايات هناك فوق المادة. المطر لا ينزل من أجل عمارة الأرض، بل هو ينزل كظاهرة مادية مجرداً عن الغاية التي نتوهمها. كل شيء في النهاية هو إما إلكترونات أو ذبذبات.. كل شيء في النهاية هو محض مادة. وأنت أيضاً، لست أكثر من مادة. كل شيء عن الروح هو محض خرافة، هل رأى أحدهم الروح؟ هل رصدتها أشعة (إكس)؟ هل هناك جهاز استطاع أن يقيس ذبذباتها؟ أبداً.. إذن لا روح. لا شيء سوى المادة. وأنت في النهاية لست سوى مادة.. وشعورك بالفرح أو بالخيبة أو بالانتشاء أو بالسعادة أو بالتعاسة أو بالحب ليس سوى مادة أيضاً؛ إنه محض شعور ناتج عن تفاعلات كيميائية مادية، هورمونات وأنزيمات وغدد تفرز هذا، وغدد تفرز ذاك.

كل احتياجاتك هي حاجات مادية في الحقيقة؛ أنت تحتاج للأكل والشرب والتنفس والجنس، ولا شيء غير ذلك[١].

أنت لست سوى مادة. وأمك وأبوك وأجدادهم وأجداد أجدادهم لم يكونوا سوى ذلك، وفي النهاية، ستلحق بهم، عندما تتحلل إلى عناصرك الأولية، وهي مادة أيضاً.

إنها، كما ترون، الرؤية الأكثر تبسيطاً لأمور شديدة التعقيد.

ليس هناك إلا السطح!

.. ولعلي أقول أيضاً: إنها الأكثر سطحية، إذ إنها لا تلامس من كل الأمور إلا سطحها الظاهر، ولا تمضي إلى ما هو أعمق، لأنها لا تعترف بشيء موجود خلف السطح؛ فَتَحْتَ السطح لا شيء .السطحُ هو نهاية الأمر، هو أوله وهو آخره، بل هو الأول بلا آخر؛ لأنه لا آخر هناك.. لا (آخرة) هناك...

إنهم لا يعلمون إلا السطح (الظاهر)، من (الظواهر الدنيوية).. كل ما عدا ذلك مما لا يرونه بحواسهم لا يعنيهم... ولا يهمهم.. ولا يفهمونه..

إنهم بالضبط ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٧].

وليس مصادفة أن تكون هذه الآية في سورة الروم؛ فقد كانت حضارة الروم، حضارة (مادية) أيضاً، كانت أكثر حضارات عصرها إيماناً بالمادة.

(١) Cultural Meteriallism: A Sociological Revision by Frank Elwell
Rogers State University
Adapted from Industrualizing America: Understanding Contemporary Society through Classical Sociological Analysis 1999, Westport Connecticut: Praeger Press.

وقد أخذت الحضارة الأمريكية الحديثة إرثها الروماني، وأبحرت به عبر بحر الظلمات، إلى حيث الأرض التي ازدهر فيها هذا الإرث، وصار هناك هذا الإرث هو الأرض وسمادها، والأفق وأطيافه..

❊ ❊ ❊

لن أدعي هنا أن المهاجرين في تلك السفن التي أبحرت، كانوا يتناظرون حول الفلسفة المادية ويتناقشون فيها طيلة تلك الرحلة. لعلهم لم يسمعوا بهيغل أو أبقراط أو بأيٍّ من فلاسفة المادية القديمة أو المعاصرة لهم.. لكنهم كانوا، دونما وعي، يعبرون عن هذه الفلسفة بشكل اجتماعي، بشكل عفوي، أو أن هذه الفلسفة كانت تعبر بشكل علمي، عن هؤلاء، وعن أفكارهم وعن تصوراتهم.

.. نعم.. ولن تكون مصادفةً، بعد هذا كله، أن تتزامن أكبر موجات الهجرة إلى أمريكا، مع بزوغ نجم هذه الفلسفة وانتشارها بين القرنين السابع عشر والثامن عشر في أوربة.

لقد كانت تلك حقيقة من شطرين، شطر المجلدات والكتب وقاعات المحاضرات، شطر التنظير، وشطر الناس؛ أحلامهم وسلوكهم وأفكارهم..

.. وكان العالم كله قد تقلص ليصير مجرد حواسٍ خمس، وكانت كل مشاكل الناس وهمومهم تجد الحل في الحواس الخمس، ووجدت هذه الحواس الخمس مكانها الأثير في تلك الأرض هناك: مناجم الذهب، والحقول الخصبة غير المستغلة.. وكلها تنتج (حلاً) يفهم ويعبر عنها بالحواس الخمس ولا حاجة لأبعد من ذلك.

كل ما تحتاجه لتكون سعيداً صار يمكن أن تجده هناك، شريطة أن يكون تفكيرك لا يخرج عن السطح: بُعدان فقط، وخمس حواس!

❊ ❊ ❊

سيقولون - متأففين، متقززين، أو مستنكرين غاضبين-: ماذا تريد الآن؟ تلغي المادة؟ نقر بأن الحضارة الحديثة همشت الروح، فهل تنتقم الآن منها ومنا بتهميش المادة؟ هل هذا هو رد فعلك؟ ألا ترى أنه مبالغ فيه؟ ألا ترى أنه مخالف للإسلام الذي وازن بين المادة والروح؟ ألا ترى أن الإسلام كان هو الدين الوسط بين الإفراط والتفريط؛ الإفراط في المادة والتفريط في الروح، مقابل الإفراط في الروحانية والتفريط في المادية؟ ألا ترى أن الإسلام هو الدين السماوي الوحيد الذي تعامل بواقعية مع الأمر (وأعطى لكل ذي حقٍّ حقه)؟.

ألا ترى أنك تبالغ؟

ليست الروح بمواجهة المادية

أتحفظ على هذا الطرح، وأرفض بعض فقراته تماماً. أرفض هذا الطرح الذي يضع المادة بمواجهة الروح، ثم يقول: إن الإسلام يوازن بينهما، والله يحب المحسنين.

الأمر أعمق من هذا بكثير؛ أعمق من مجرد شيئين متواجهين كما لو كانا ندين..

وأعمق أيضاً من تلخيصه (بالروح). الأمر يسطح عندما يطرح أنه المادة بمواجهة الروح، يتبادر إلى الذهن على الفور أجواء الروحانية وطقوسها وبخورها وأضواؤها الخافتة، ونحن نعرف أن المادة، بهذا الطرح، ستغلب وستنتصر - ولو بعد حين - على تلك الأجواء الروحانية وطقوسها الشاحبة.

بل إن هذا الطرح (المادة بمواجهة الروح) والتوازن بينهما، جعل كلاً منهما في كفة، كما لو أنهما كانا طوال الوقت غير متوازيين إلى أن جاء الإسلام وأحدث التوازن بينهما... بمعنى أنه ساوى بينهما.

لكن أليست ﴿ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥] ألا يخصم هذا الطرح، من نسبة الروح، ويمنحها على الفور إلى المادة، مادام أمر الروح ليس من أمرنا.. إنه ليس توازناً إذن، حسب هذا الطرح.

بل هو قسمة ضيزى.

❀ ❀ ❀

الأمر - كما أراه - ليس مواجهة بين شيئين. ومجرد طرح الأمر أنه مواجهة، وتوازن، وكفتان، سيغير مسار الأمر عن حقيقته، هذا أولاً.

وثانياً: إن استخدام لفظ (الروح) هنا، يقزم الأمر ويضعه داخل إطار ضيق محصور بالإنسان، وممكن طبعاً تقديم بعض التنازلات (المادية)!! له، من أجل إرضاء نزعته الروحية..

لكن الأمر لا يتعلق بالروح فقط. أقر أن الروح جزء منه. لكن تقزيم الأمر واختصاره بهذا الشكل يسلبه لبه الأصيل.

الأمر، في الإسلام، ليس إيمانك بالروح، متوازياً مع إيمانك بالمادة أو متوازناً معها أو متخفياً خلفها.

ماذا إذن؟

الغيب!

الأمر في الإسلام هو إيمانك بالغيب، الذي يضم، ضمن ما يضمه، إيمانك بالمادة، على أنها جزء مرئي من حقيقة أكبر غير مرئية، لكنك تؤمن بها..

نعم، ليس الأمر (مادةً توازن الروح) أو (تنتصر عليها) أو (تتناقض معها).. أو (تصطدم بها).

هذا الطرح كله - وهو طرح سائد للأسف - غير موجود على الإطلاق في الخطاب القرآني..

لا تناقض ولا تصادم ولا توازن ولا تعادل ولا تساوٍ، ولا أي شيء من هذا على الإطلاق.

إنما هو الجزء البارز الصغير من جبل الجليد، نرى الأول ولا نرى الثاني، فهل يمكن ألا نؤمن بالثاني لأننا لا نراه، مع أنه الأساس الذي ارتكز عليه الجزء البارز المرئي؟.

وبالمقابل، هل يمكن لنا أن نوازن بين الاثنين؛ أن نضعهما في كفتين متقابلتين على ميزان واحد؟..

الأمر ببساطة لا يستقيم، لأنه غير ممكن.

إنهما مرتبطان بعضهما ببعض، والمادة جزء من هذا الشيء كله؛ جزء مرئي من حقيقة أكبر، غير مرئية، جزء ظاهر من حقيقة شاملة تضم هذا الشيء الظاهر، وتضم أيضاً باطناً أكبر من هذا الظاهر، يلتصق به، ويفسره، ويعطيه عمقاً يحتاجه..

نعم. ليس من تصادم، إلا إذا حاولنا الفصل القسري بين الجزء البارز المرئي، والجزء الغاطس غير المرئي ..**وهو فصل لم يكن موجوداً أو متخيلاً داخل الخطاب القرآني**.. فلا تناقض بين المادة والغيب، أو بين الظاهر والباطن؛ إنما تكامل، إنما شمول، إنما تناسق.

الإيمان بالغيب في الإسلام، ليس (إكسسواراً)، ليس شيئاً زائداً، ليس شيئاً (نضيفه) على مادية الغرب لنريح ضمائرنا ونعود بعدها إلى الحياة المادية بأبعادها المسطحة وحواسنا الخمس.

الإيمان بالغيب ركن أساسي عندنا، بينما (المادية)، هي ركنهم الأساسي..

ولعل هذا أول تضاد وأوضحه؟؟..

۞ ۞ ۞

الغيب والعقل: لا تناقض!

.. هذا الإيمان بالغيب لا يتناقض أبداً مع عقلانية الإسلام، أقصد مع عقلانية الخطاب القرآني التي لم تلوثها ولم تداخلها الخرافات التي دخلت على المؤسسة الدينية التقليدية.

بل على العكس، يتكامل الإيمان بالغيب مع عقلانية الخطاب القرآني..

وأنا هنا، إذ أشدد على الإيمان بالغيب، أشدد معه على العقل[1]، وأشدد على مكانته المركزية والأساسية في الإيمان الإسلامي المختلف عن كل أنو اع الإيمان التقليدية السابقة له.. إني أشدد على أن الوصول للإيمان الإسلامي الأول، إيمان إبراهيم - أبي الأنبياء - كان عن طريق العقل، العقل الذي رفض الأجوبة التقليدية، وشك بالمسلمات الاجتماعية، وبحث عن الجواب بنفسه، ممهداً الطريق أمام الوحي لينزل على تربة خصبة لاستقباله..

نعم. إني أشدد على هذا العقل الإبراهيمي، العقل القرآني الذي لا قرابة تربطه بالعقل الفلسفي الوضعي، (بل هو مجرد تشابه بالأسماء).. وإنما هو (عقلٌ)، يربط بين الأسباب والمسببات، يسبر غور الظواهر

(١) للمزيد عن عقلانية الخطاب القرآني يراجع كتابنا (البوصلة القرآنية) الصادر عن دار الفكر، دمشق ٢٠٠٣.

ويغوص فيها، و(يعقل) بين الأسباب والمسببات والنتائج والتفاصيل، ليصل إلى نتيجة يؤمن بها، دون أن يراها..

العقل القرآني، يسبر غور الحواس الخمس، ويستخدمها، ويستخدم ما تأتي به من ملاحظات، يربط بينها، ويحلل نتائجها، لكنه لا يقف عند حدودها، ولا يعاملها بشكل منفرد عن الظروف المحيطة بها، بل بشمول وتكامل يخرج الرؤية النهائية عن الحواس الخمس المحدودة، إلى ما وراءها..، في آفاق غير محدودة..

.. العقل القرآني لا ينظر إلى الجزء الصغير البارز من فوق السطح، فيرى أن هذه هي حدود العالم، وأن هذا الجزء هو الحقيقة كلها.. بل هو يعلم بيقين أن هذا الجزء البارز يستند على حقيقة أكبر، غاطسة، وغير مرئية، لكنها موجودة..

العقل القرآني لا ينظر إلى قوانين الطبيعة باعتبارها منفصلة عن بعضها البعض، وعما وراءها. إنها محض جزء بارز ومرئي، من السنن الكونية غير المرئية التي تضم هذه القوانين وتنظمها..

.. والعقل القرآني لا يعد نفسه إلهاً ولا يعد نفسه حَكماً؛ إنه محض آلة لسبر أغوار الحقائق، والوصول إلى حقيقة أكبر من التفاصيل..

والعقل القرآني، يقر بقصوره، ويعترف بحدوده، لكنه لا يعدها حدوداً نهائية للعالم من حوله.. بل يعدها حدوده هو فقط، في الوقت نفسه، هو لا يكف عن المحاولة بدفع هذه الحدود، وتوسيعها، واستكشاف العلم والكون خارج هذه الحدود..

بهذا المفهوم، يكون الغيب هو ما غاب عن بصرك.. ولكن لم يغب عن عقلك.. عن بصيرتك.

أشدد على الغيب، وعلى عقلانية الخطاب القرآني.. وعلى التناسق التام بينهما.

❁ ❁ ❁

الغيب هو العمق!

ولن أقف لأدافع بانكسار عن إيماني بالغيب، وأتحجج وأبحث عن مؤشرات غربية تعترف بالغيب، ممهورةٍ بتوقيع أساتذة جامعيين غربيين - كما جرت العادة عندنا - بل أنتقل من الدفاع إلى الهجوم وأقول: إن تلك النظرة التي لا تَرى أكثر من السطح هي رؤية سطحية بالتعريف، وإنها عاجزة عن الغوص في العمق الذي يلي السطح.

الإيمان بالغيب هو إيمان بالعمق، وهو عمق بحد ذاته. إنه يمنح هذا العمق لكل رؤية تتصل به. الرؤية التي تنتج عن هذا الإيمان، هي رؤية عميقة، تتجاوز السطح والظاهر إلى الأسباب والخلفيات التي تقع خلف السطح.

إن الإيمان بالغيب هو - بعبارة أخرى - موازٍ للإيمان بالعمق، بل إن كلمتَي الغيب والعمق هما مترادفتان بهذا المعنى، إنهما وجهان لعملة واحدة.

أقول هذا وأقرُّ أن المؤسسة الدينية التقليدية قد سطحت الإيمان بالغيب كما فعلت مع كل شيء تقريباً، لقد رسخت وكرست الخرافة والجهل بحجة الإيمان بالغيب، وهذا الغيب والعمق بريء تماماً مما تدعيه المؤسسة التي قدمت تفسيرات أكثر سطحية حتى من الرؤية المادية التي قلنا إنها تقدم التفسير الأكثر سطحية لأكثر الأمور تعقيداً.

آدم الأمريكي لم يخترع المادية..

نعود إلى الحضارة الأمريكية، وإلى حجرها الأساسي: المادة.

حسناً. لقد قررنا أن الفلسفة المادية أقدم وأكثر عراقة من الحضارة

الأمريكية، إلا أن هذه الحضارة، احتضنت هذه الفلسفة النظرية، وجعلتها الأفق الفكري، والإطار النظري، الذي تتحرك فيه وتتولد ضمنه قيم هذه الحضارة.

وأقر كذلك، أن النزعة المادية عند البشر أقدم من أمريكا بكثير، ولعلها مغروسة بعمق في الفطرة الإنسانية.

الأمر هو أن هذه النزعة الفطرية كانت عبر التاريخ تصطف مع بقية النزعات الموجودة في الفطرة الإنسانية، تتقدم أحياناً وتتأخر أحياناً أخرى.. تكون مرّة على قمة سلّم الأولويات وتتأخر مرات إلى أسفل القائمة..

لكن مع ذلك، الإنسانُ الجديد، مع آدم الأمريكي، اختلف الأمر؛ لم تصبح هذه النزعة، مجرد نزعة أخرى تتسابق مع النزعات الأخرى، بل صارت هي النزعة الوحيدة، صارت هي الأولى، والأخيرة.. وتمّ إما إلغاء النزعات الأخرى، أو إعادة تكوينها وتصميمها بحيث أنها تخضع للنزعة المادية هي الأخرى..

هذا هو آدم الأمريكي، بنزعة واحدة، وكل البقية الباقية من نظرته أخضعت لعملية تأقلم من خلالها للحقيقة المادية المسطحة.

ومع أن آدم الأمريكي - الذي لم يخترع الفلسفة المادية بل عاشها واعتنقها كطريقة حياة - لم يكن مولعاً بالنظريات والفلسفات، إلا أنه أنتج، مع ذلك، فلسفة خاصة به، أمريكية مئة بالمئة، صنعها في ذلك الفردوس المستعار، بأيدٍ أمريكية وعقول أمريكية، والأهم من ذلك كله: بنية أمريكية؛ إنها Made in USA، رغم صلتها الواضحة بالحجر الأساس الذي تطوف حوله حضارتها.

عليَّ أن أشدد هنا أن من حق الأمريكيين أن يؤمنوا بما يشاؤون، وأن يخترعوا ما يشاؤون من نظريات، ولا أرى أن من حق أحد أن يتدخل في ذلك ما دام محصوراً بها، ولا يقسرون أحداً على الإيمان به..

لكن الآن، وهذا الإعصار يكاد يكون الأوكسجين الوحيد الذي يسمحون لنا باستنشاقه، فإني لا أجد بداً من الإشارة إلى أن البشرية، على تاريخها الطويل من الوقاحة والصلف، لم يسبق لها أن أنتجت فكراً وفلسفةً بهذا القدر من الوقاحة والصلف..

نعم. لقد ارتكبت البشرية فظائع كثيرة، تحت شعارات متعددة، وبلا أي شعارات في بعض الأحيان.. لكن الفكر والفلسفة بقيا بعيدين عن ساحة الجريمة.

لكن آدم الأمريكي، الذي نادراً ما يفكر، قد فكر هذه المرّة، وقدر.. ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ٧٤/١٩-٢٠].

فلنر هذا الفكر الذي هو (صنع في أمريكا).

البرغماتية[١] امريكية ١٠٠٪:

تشكل الفلسفة البرغماتية (.. والتي شاعت ترجمتها بالنفعية، وأفضل هنا استخدامها كما هي دونما ترجمة) أهم الإضافات الفكرية التي قدمتها أمريكا إلى الفكر الإنساني[٢].. إنها أمريكية ١٠٠٪، ليس من ناحية جهة المنشأ فحسب، ولكن من ناحية أنها استطاعت فعلاً أن تنظر وتؤدلج طريقة التفكير الأمريكية.. لقد عبّرت هذه الفلسفة فعلاً عن (أمريكا)..

(١) pragmatism From Wikipedia, the free enceclopedia

(٢) Adventures in Philosophy AMERICAN PHILOSOPHY AMERICAN PRAGMATISM -
1http: // radicalacademy. com/ amphilosophy 7. htm

وعكست نبضها العام، وفلسفت روحها العميقة[١]، واستطاعت بالفعل أن تمثل (أمريكا)؛ لا بما تعودناه من العلامات التجارية المميزة ومظاهر الرفاهية، بل بالفكرة[٢].

.. ولن تكون مصادفة، أن تكون أهم (إضافة) فلسفية أمريكية إلى الفكر الإنساني، هي إضافة تنسخ ما سبقها من منجزات فلسفية وفكرية، وتلغي فائدتها وترميها إلى سلة النفايات.. إنها فلسفة إنكار لكل ما سبق وإلغائه كما لو أنه لم يكن .(هل هناك أي استغراب أن يصدر ذلك عن أمريكا؟).

بجرة قلم، قام مؤسسو هذه الفلسفة الأوائل، جارلس ساندرز بيرس Charles sanders pierce 1839- 1914 ووليم جيمس William james 1842 - 1910 بشطب كل أهمية لإرث الإنسانية العريق الممتد عبر القرون من أديان وفلسفات ومذاهب أخلاقية وإنسانية.. وضعا بدلاً عن هذا الإرث مقياساً جديداً، يعيد تقويم كل شيء بدءاً من معيار جديد، يرتبط بما قلنا إنه الحجر الأساس الذي بنيت عليه تلك الحضارة[٣][٤].

---

(١) Pragmatism and Its Critics
Christopher Phelps
From Mary Kupiec Cayton and Peter W. Williams (eds). The Encycolopedia of American cultural and Intellectual History (Charles Scribner's and Sons, 2001).

(٢) Pragmatism Character
Amanda Anderson

(٣) What is Pragmatism (1904), from series of eight lectures dedicated to the memory of John Stuat Mill. A New Name for Some Old Ways of Thinking, in December 1904. from William James, Writings 12902-1920, The Library of America; Lecture II.

(٤) William James. Pragmatism: A new name for some old ways of thinking. New York: Longman Green and Co (1907).

تؤكد البرغماتية، أن كل فكرة وكل نظرية، وكل فلسفة، وكل مبدأ، وكل معتقد ديني أو وضعي، لن يكون ذا أهمية ما لم يكن ذا نتيجة عملية على أرض الواقع المكون من بعدين وخمس حواس.

(هل ستحك رأسك متفكراً.. لم تكن تعرف هذا المصطلح (البرغماتية)، لكنك آمنت به وطبقته طيلة عمرك دون أن تدري؟ نعم، أنت على حق؛ لقد تمكنوا منا، وسارت أفكارهم فينا دون أن نستطيع تمييز الأسماء والمسميات).

إنها البرغماتية إذن، وتأملات الفلاسفة وجدالهم ونقاشاتهم غير مهمة لا لأنها خطأ أو صواب، فالخطأ أو الصواب لا أهمية لهما من وجهة نظر البرغماتية، لكن المهم، في جدل الفلاسفة، هو الناتج النهائي العملي منه، فإن كان هناك (منفعة آنية) من ذلك فالبرغماتية توافق عليه، وأما إن كان بلا منفعة فالبرغماتية تدمغه بالرفض.

السؤال عن الحقيقة أمر ترفضه البرغماتية من جذره وأساسه. السؤال غير مقبول من وجهة النظر البرغماتية، بل هي تعيد صياغته وطرحه بشكل جديد (هل تفيد هذه الحقيقة؟).. (هل تنفع بشكل مباشر وآني؟)، والجواب بالسلب أو الإيجاب هو الذي يحدد موقف البرغماتية من هذا.

مسألتا الإلحاد والإيمان غير واردتين هنا أيضاً، ليس الأمر هو وجود (الله) عز وجل أو عدم وجوده. هذا السؤال سفسطة من وجهة نظر البرغماتية، هذا كلام زائد لا داعي له، الأمر هو، هل يفيدك إيمانك أكثر، أم أن إلحادك سيكون ذا نفع أكثر؟ هكذا الأمر هو، دونما أدنى مبالغة. لا توجد حقيقة مطلقة بل توجد حقيقة نسبية، مرة تكون نافعة، ومرة تكون غير ذلك. ولا توجد حقيقة أكبر من هذا، لا يوجد خطأ أو صواب مطلقان، لا يوجد شيء مطلق على الإطلاق.

وما دامت لا توجد فائدة عملية من البحث عن أدلة تثبت وجود الله أو تنكره فالأمر غير مطروح، إذا كنت ستؤمن بالله وسيجعلك ذلك تشعر بالطمأنينة والتناغم مع نفسك ومع محيطك، فالبرغماتية تعد ذلك مفيداً لك، وسيكون الله هنا - بالنسبة إليها - بديلاً مجزياً عن العقاقير المهدئة وجلسات العلاج النفسي..

وإذا كان إلحادك يجعلك أكثر عمليةً وأقل تأزماً وأكثر انطلاقاً في حياتك وعلاقاتك وإنتاجك، فبها ونعمت. البرغماتية تؤيد ذلك ما دام هو أنفع لك[١].

لا توجد حقيقة تخص الإيمان والإلحاد بشكل عام وشامل، إنما توجد منافع ومضار، ونتائج عملية (مختلفة) تتعلق بالإيمان والإلحاد، وهذا هو الأمر المهم الذي أدلجته البرغماتية وقدمته بإطار فكري فلسفي على أنه أهم الإضافات الأمريكية إلى الفكر الإنساني..

الأمور بنتائجها، الآنية فقط، والفردية فقط. بغض النظر عن أي مبدأ أخلاقي أو إنساني مسبق.

أحب أن أذكّر أن (النفع) الذي تقصده البرغماتية الأمريكية هو (نفع آني) مرتبط بثابتها الأول وركنها الركين وحجرها الأساس: المادة.

إنه نفع مادي، ليس بالضرورة أن أقصد أنه يرتبط بفئة نقدية معينة، بل أقصد أنه يرتبط بنفع محسوس (ببعدين وخمس حواس) عدا ذلك، ووراء ذلك، لا يوجد نفع تقترن به البرغماتية، الأمريكية ١٠٠٪.

النفع الذي تؤمن به البرغماتية الأمريكية، والذي سار ضمن العالم كله مع سريان حضارتها ومنتجاتها، هو النفع المرتبط بسؤال (هل ينفع؟

(١) Why is the philosophy of pragmatism important? pragmatism right for post-modern america.

(Does it work) بديلاً عن: (هل هو صواب؟ is it right) وهكذا لم يعد سؤال الإجهاض هنا مرتبطاً بصواب الأمر أو خطئه، بل بمحض كون الأمر ينفع Work للشخص المعني بالأمر. كذلك أمر الزواج، لم يعد السؤال هو هل مؤسسة الزواج على خطأ أو على صواب، بل صار الأمر يخص المتزوجين: هل الأمر Works عندكم؟.. إن كان (نعم) فاستمرًا في المؤسسة، وإن كان (لا) فارميا بها خلف ظهريكما.. الشيء نفسه بالضبط في كل مسألة، اللواط والجنس المثلي، هل الأمر Works لشخصين من الجنس نفسه أن يرتبطا بعلاقة مثلية؟ إذن هذا هو الصواب لهما. وقد لا يكون لشخصين آخرين.. إنه (Does it work?) مقابل (is it right?).

كل القيم الأخلاقية (تبرغمت) حسب هذا المفهوم، وأعيد إنتاجها وصياغتها وطرحها، فألغيت قيم أخلاقية من أساسها، مثل العفة والإخلاص الزوجي وحقوق الوالدين والعائلة، ونبتت قيم أخرى مثل احترام الوقت، واحترام العمل، والتي لا شك - لحظةً واحدة - في أهميتها، بل وقدسيتها، لكن من طريق آخر غير البرغماتية.

وهكذا أعيد رسم كل الأخلاق والمبادئ من هذا المنظار المصنوع في أمريكا.

(الإسلام برغماتي جداً)؟

سيطلع علينا عباقرة التوليف والتقريب بعبارةٍ من نوع أن الإسلام برغماتي جداً، وأن تعاليمه قريبة جداً من هذا الطرح، وإن كان برؤية أبعد وأكثر شمولية.. وإلخ.

قبل أن يكملوا، سأقول: يشير الخطاب القرآني إلى أن (ما ينفع الناس يمكث في الأرض).

ويقول الموروث الإسلامي إن (الأمور بخواتيمها).

سيطربون لهذه الأمثلة، ألا ترون كم هو قريب الإسلام من هذا المبدأ إذن؟. ألا ترون كم نظلم الحضارة الأمريكية عندما نرفضها بكل ما فيها؟ ها هي ذي النصوص الدينية تدعم هذا المبدأ وتدعو له. كل ما في الأمر أننا يجب أن ندخل بعض التحفظات والتشنجات عندما يتعلق الأمر بالعفة والأخلاق.

نعم. لقد صار هذا المبدأ سارياً فينا، حتى دون أن نعرف العلة ومنشأه، وبالتأكيد دون أن نعرف اسمه الاصطلاحي، والآن وقد عرفنا، فإننا على أتم استعداد لاستخدام النصوص الدينية من أجل أن يشهر هذا المبدأ إسلامه ولو بنطق الشهادة فقط كيفما اتفق، من أجل أن نحاجج به وله..

على العكس من ذلك، أرى أن هذين النصين خصوصاً، يقفان بالتضاد من مبدأ البرغماتية الأمريكي المنشأ والأمريكي الهوية والأمريكي الهوى..

بين رؤيتين مختلفتين للنفع..

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٧].

نعم. إنه نفع أيضاً، ولكنه نفع مختلف، لا قرابة تربطه بالنفع الأمريكي، مجرد تشابه في الأسماء..

إنه نفع أيضاً، ولكنه نفع (للناس)، وأشدد هنا على (الناس)، البرغماتية الأمريكية لا تقول ذلك قط، لكن الآية القرآنية تشدد على أن النفع الذي يمكث هو (نفع الناس)، أما النظرية الأمريكية فتتعلق بنفع (فردي) مرتبط بالفرد وحده من دون سائر الناس. (ويرتبط ذلك أيضاً بثابت آخر من ثوابت الفردوس المستعار سنعرض له لاحقاً).

البرغماتية الأمريكية تنظر للأمر من زاوية الفرد ومنفعته.. وتعامل المجتمع على أنه مجموعة من الأفراد تربطهم علاقات المنفعة ذات الحواس الخمس، وما ينفع هذا الفرد قد لا ينفع غيره، لكن لا مشكلة في هذا فالأمر في النهاية نسبي ومتغير. وممكن أن تنهار مؤسسة الزواج في المجتمع لأن الأمر لم (يعمل) لنسبة معينة من الأفراد، لكن ما ينتج عن ذلك، من تفكك اجتماعي ومن ازديادٍ لنسب الأطفال غير الشرعيين، ومن ازدياد لظاهرة single parents أو (الأم التي تلعب كل الأدوار)، لا يهم هذا البرغماتية.. إنها مجرد ناتج نهائي لا تلتفت إليه كثيراً. على العكس من ذلك، ينظر الخطاب القرآني إلى ما ينفع الناس ككل، لا كأفراد، إنه ينظر في الأمر إلى الناتج النهائي اللاحق بالمجتمع، أمر قد لا تظهر نتيجته النهائية إلا بعد فترة طويلة، ربما بعد أن يكون (الأفراد) الذين من أجلهم بدأ الأمر أو أُنهي قد رحلوا...

من هنا أفهم (الأمور بخواتيمها)؛ الرؤية القرآنية التي أراها متضادة مع (الأمور بنتائجها)؛ الرؤية البرغماتية التي غزت العالم كما (الكوكا كولا) و(Nike) و(ماكدونالد)..

(فالأمور بنتائجها) تتعامل مع النتائج المباشرة، الآنية، ببعدين وخمس حواس..

و(الأمور بخواتيمها) تنظر إلى الأمر بزاوية أبعد، تضيف البعد الثالث الذي هو العمق، والبعد الرابع الذي هو الزمن، وتضيف ما هو أكثر من الحواس الخمس بالربط بينها، والخروج عن حدودها التقليدية..

النتائج المباشرة التي هي المحك عند البرغماتية، قد تكون نتائج ثانوية، يتأملها البرغماتيون وينشغلون بها، بينما يغفلون أن التفاعل نفسه مستمر.. وستكون له نتائج أخرى وأخرى تباعاً.. وسيكون للتفاعل نتيجة

نهائية قد تكون سيئة جداً، لكن هذا لا يهم البرغماتية لأنها تفكر بالنتيجة المباشرة الآنية..

أحتاج إلى أن أذكر أيضاً وأشدد في التذكير، أن الخواتيم قد لا تظهر في معدل عمر الإنسان الواحد.. وأننا قد نرى الأمر يبدو في حياتنا.. ولا نرى خاتمته.. قد يطول الأمر لعقود أو حتى أكثر، قد تكون الخاتمة هناك، في الآخرة.

أشدد على ذلك، على تلك الحقيقة الأساسية، بل والمطلقة، التي ننساها في غمرة هذا الإعصار الذي لا يعترف إلا بما يراه وما يشعر به آنياً..

الآخرة. نعم، لو كنتم تذكرون، قد تتأخر الخواتيم حتى الآخرة..

لكن مفهوم (الآخرة) لا معنى له عند البرغماتية، فهذه الأسئلة غير مطروحة، والأمر هو هل ينفعك إيمانك بها أو الذي أقيمت عليه حضارة الفردوس المستعار؛ المادة بأبعادها المجردة وحواسها المحدودة؟.

وهكذا دواليك..

من وجهة نظر البرغماتية، التي أكرر أنها دخلت أدمغتنا وعقولنا وطرقنا في التفكير، دون أن ننتبه للأمر، من وجهة النظر هذه، لا جدوى كثيراً في الوقوف أمام أمريكا، أمام الفردوس المستعار، فموازين القوة كلها،ليست في مصلحتنا، ومعارضة أمريكا، ولو بالكلمة والفكرة البديلة، ستستجلب (مضار كثيرة) نحن في غنى عنها الآن، والأفضل، أو الأنفع، هو أن نخضع ونلين، ولو مرحلياً، لعل ذلك سيستجلب منافع اقتصادية كثيرة، من أهمها زيادة معدل الدخل الفردي، وزيادة الرفاهية الاقتصادية، وزيادة عدد (المولات) والمجمعات التسويقية الضخمة، وعلى الأخص زيادة عدد زياراتنا لها.

الخضوع أمام الفردوس المستعار قد يجلب، في نظر هؤلاء، منافع مباشرة.. وأقصد بالمباشرة أنها قد تحدث خلال فترة زمنية يدركها هؤلاء.. وهذا قد يحدث فعلاً، وهذه المعدلات الإحصائية قد تزيد فعلاً (مع أن ذلك عادة يستجلب معه زيادة الفوارق بين الطبقات، وزيادة تهميش الطبقات الفقيرة، وزيادة احتكار الطبقات الغنية واستئثارها بوسائل الإنتاج، ولكن هذا لا يذكر طبعاً..).

.. الخضوع لذلك التنين المقنع قد يزيد معدل الدخل الفردي فعلاً، لكنه على المدى البعيد، سيزيد أيضاً من معدلات مسكوت عنها، سيزيد من نتائج قد نفضل ألا تجري إحصاءات عنها، سيزيد من معدلات الزنا، والجنس خارج الزواج، واختلاط الأنساب، وأطفال لقطاء، ولواط، وجريمة، واغتصاب..

نعم، سيحدث ذلك، ربما بأسرع مما يتوقعون، ربما ستسكت الإحصاءات عن ذلك، ربما لن يقرؤوها، وربما سيشيحون بوجوههم عنها، وربما سيحاولون التأقلم مع حقائقها وتلطيف معانيها، لكنها ستحدث، آجلاً أم عاجلاً.. في الخواتيم.

ولو طبقنا البرغماتية التي تحاول الخضوع للفردوس الأمريكي بغية (درء المفسدة وجلب المصلحة) على تاريخنا لوجدنا أن مواجهة الحسين رضي الله عنه للطغيان الأموي ما كان لها داع؛ لقد انتهى الأمر بمذبحة قتل فيها النسوة والأطفال، وكان (الأنفع) - حسب مقاييس النتيجة المباشرة العملية - لو أنه بقي في المدينة، مستلماً العطايا والهدايا من رموز الاستبداد وأعلامه، ومساهماً في تحسين الدخل الفردي عبر توزيعها على الفقراء والمعوزين، وناشراً علم القعود وفقه الحيض والنفاس، أما كان ذلك أنفع؟

نعم، عندما تكون (الأمور بنتائجها) حسب الرؤية التي تبرغم كل شيء. لكن عندما تتعلق الأمور بالخواتيم، فهو غير ذلك..

وبدلاً من ذلك الانتصار الآني المباشر، لذلك الطاغية وبطانته وسيوفه وحربته..، كانت هناك تلك الصرخة التي انتصرت فيما بعد، في الخاتمة، والتي سنرى انتصارها في كل خاتمة، حتى الخاتمة الأخروية الأخيرة..

بدلاً من انتصار السيف كنتيجة مباشرة، كان هناك انتصار كلمة الحق في وجه الظلم؛ كلمة: لا للاستبداد، لا للطغيان.. ربما كان صوت الجلاد أعلى في النتيجة المباشرة، لكن صدى الـ (لا) ظل يتردد عبر جنبات التاريخ،.. وظل يكبر مع كل من يتبناها، صارت شمعة ونبراساً ومنارةً بوجه كل استبداد وكل طغيان..

الأمور بخواتيمها، نعم، بخواتيمها..

والفرق بين (الخواتيم) و(النتائج) في الرؤيتين، ناتج عن الفرق الجوهري بين الحجرين الأساسيين الذي تستند إليه كل رؤية..

نتجت الرؤية البرغماتية عن فكر لا يعترف إلا بالمادة، فكان لا بد (للنتائج) حسب هذه الرؤية ألا ترتبط إلا بالمادة.. بينما نتجت الرؤية الأخرى، المستمدة من الخطاب القرآني من إيمان بالغيب، يتجاوز المادة ولا يلغيها.

.. وكان لا بد للخواتيم أن تكون جزءاً من هذا الإيمان بالغيب..

.. العقل الذي كونته الرؤية المادية لن يفهم إلا نتائج يتحسسها بالحواس الخمس..

أما العقل القرآني، الذي يربط بين الظواهر والأسباب والمسببات ليصل إلى نتائج لا يراها، ولكن يبصرها، هذا العقل، يؤمن بالخواتيم..

النتائج المادية هي محض الجزء البارز الصغير، **لكن الخواتيم هي ذلك الجبل الغاطس في الأسفل.**

(الداروينية الاجتماعية): داروين لا يحتاج حقاً إلى براهين..

لا ينافس وقاحة هذه الفلسفة، إلا فلسفة أخرى، لم تكن في حقيقة أصلها أمريكية المنشأ، فقد نشأت في بريطانية، لكنها لم تلقَ نجاحاً يذكر إلا عندما عبرت المحيط إلى حيث الفردوس المستعار[١].

وهناك، وجدت الأرض الخصبة لتنمو وتزدهر، لقد كانت تلك الحضارة التي ارتكزت على ذلك الحجر الأساس، هي الأكثر ملاءمة لاحتضان تلك الفلسفة.. وجعلها جزءاً من مقوماتها وثوابتها.. ونخاع عظمها..

تلك الفلسفة هي (الداروينية الاجتماعية)[٢] التي أسسها البريطاني هربرت سبنسر، والتي استخدمت نظرية التطور والارتقاء - المؤسسة أصلاً على نشوء الأنواع والكائنات الحية - لتجعل منها تفسيراً لتطور المجتمعات والطبقات وحتى الأفراد..

بدأ سبنسر بوضع نظريته قبل أن ينشر داروين كتابه (أصل الأنواع)، لكن نظرية داروين في علم الأحياء والاستدلالات العملية التي استخدمها ما لبثت أن منحت سبنسر إطاراً فكرياً قوياً لوضع فكرة داروين في علم البيولوجيا، محل التطبيق في علم الاجتماع والاقتصاد[٣]..

---

(١) The Reader's Companion to American History
SOCIAL DARWINISM Houghton Mifflin - college division.

(٢) Social Darwinism Wikipedia the free encyclopedia.

(٣) Darwin's Impact: Social Evolution in America, 1880 - 1920 THOEMMES CONTINUUM HISTORY OF IDEAS.

بينما رأى داروين أن الأنواع التي لا تتمكن من التأقلم مع التغيرات البيئية، وتعجز عن مقارعة أنواع أخرى تشكل تهديداً لها، تنتهي بالانطفاء التدريجي وصولاً إلى الانقراض الكلي، فإن سبنسر وجد في هذه النظرية البيولوجية ضالته التي يبحث عنها، ليفسر رؤيته في علم نشوء الدول والطبقات وحتى الأفراد..[١]

بالنسبة إلى سبنسر، المحور الأساسي الذي تقوم عليه الإنسانية[٢] هو التنافس؛ التنافس بين الأفراد، بين الطبقات، بين المؤسسات الاقتصادية، بين المجتمعات، وأيضاً بين الحضارات.

الضعيف لا مكان له في هذا السباق؛ إنه إما أن يتخلص من ضعفه، أو أن يتخلص السباق منه. وسواء كان ضعفه هذا فقراً، أو عوزاً، أو إعاقة، أو قلةً في التعليم، أو انعداماً في فرصته، أو انتكاساً صحياً موروثاً أو مكتسباً، فإن ذلك لن يغير من تلك الحقيقة (الضعيف لا مكان له في السباق).

أكثر من هذا، يرى سبنسر، أن الحيوانات الضارية المتوحشة، التي تلتهم صغار الحيوانات الضعيفة، إنما تساهم في تنظيف البيئة، وتنظيم هذا السباق الذي محوره التنافس.

بل إن عبارة «survival of the fittest» (المترجمة خطأً بالبقاء للأصلح) المنسوبة لداروين ذاته، لم ترد قط في أي من كتابات داروين أو أقواله؛ بل هي لسبنسر تحديداً.

---

(١) SOCIAL DARWINISM: SCIENCE AND MYTH IN ANGLO - AMERICAN SOCIAL THOUGHT:
BY Robert c. Bannister. Temple University Press, Philadelphia 1979.

(٢) In Search of Human Nature: The Decline and Revival of Darwinism in American Carl N. Degler Publisher: Oxford University Press.

واعتراضي على ترجمتها بهذا الشكل إنما هو للتذكير بأن (الأصلح) هنا، هو (صلاح) مرتبط بذاك الحجر الأساس، الصلاح المادي فحسب، والنفع المرتبط بكونه مباشراً ومحسوساً. أما (الصلاح) الآخر، المرتبط بالأخلاق، المرتبط بالمبادئ، المرتبط بالقيم الدينية والإنسانية، فهو لا قيمة له، ولا مكان له في السباق، ولا مكان له في عبارة (البقاء للأصلح). فالأصلح هنا هو الأكثر ملاءمة للسباق. والسباق لا يعترف بغير المادة معياراً في المنافسة.

ظهرت فلسفة سبنسر لأول مرة في منتصف القرن التاسع عشر، وفي الفترة بين (١٨٧٠ - ١٩٢٠) انتشرت وازدهرت مع ازدهار الرأسمالية الحديثة. كانت البشرية، تمارس طوال تاريخها، أشد أنواع الفظائع وأكثر صنوف القسوة، لكن الفكر والمبادئ الإنسانية ظلا يندادن بذلك ويرفضانه ويحرمانه (أو على الأقل، يسكتان عنه).

لقد ظلّ الفكر (سواء كان دينياً سماوياً أو وضعياً إنسانياً) يمثل ضمير البشرية الذي يؤنبها حيناً ويقرعها أحياناً أخرى، ويتمكن في بعض الأحيان من تغيير مسارها هنا أو هناك.

مع سبنسر، اختلف الأمر، لم يعد هناك داع لهذا الضمير (.. وبالتأكيد فما المعنى المادي لهذه الكلمة؟).. صار الآن يمكن للبشرية أن تمارس فظائعها التي مارستها طوال تاريخها، دون أن يثقلها هذا الضمير ويزعجها أولئك المفكرون بنصائحهم وإرشاداتهم..

الآن.. مع سبنسر، صار الأمر طبيعياً جداً، إن الطبيعة تفعله طوال الوقت؛ الحيوانات المفترسة القوية تأكل الحيوانات المستضعفة، وهذه بدورها تعتاش على حيوانات أكثر ضعفاً منها. هذه هي الطبيعة وقوانينها. هذا هو دينها، ودين الطبيعة هو الحقيقة الوحيدة في رأي سبنسر والماديين

أمثاله[١]، ونحن جزء من هذه الطبيعة، ودين الطبيعة هو ديننا الحقيقي، وكنا نمارس ذلك الدين وشعائره طول الوقت، لكننا لم نكن نعرف ذلك، وكنا نشوش تلك الحقيقة بترهات المبادئ والضمير والأشياء الأخرى، لكن الآن لم يعد هناك داع لهذا الإزعاج. قدم سبنسر الإطار الفلسفي لإعدام الضمير، الانتقاء الطبيعي ليس حقيقة بايولوجية، بل اجتماعية أيضاً[٢].

القوي يأكل الضعيف في البيولوجيا. والغني يأكل الفقير في عالم الأفراد[٣].. وتغيير ذلك بالقانون أو المبادئ أو بأي شيء آخر، سيؤخر عملية التطور التي تسير فيها البشرية. لذا كان يرى أن تترك الأمور كما هي، دونما تدخل «laissez - fair»..[٤] لا داعي لمساعدة الفقير على ترك فقره، قد يستطيع هو ذلك، وهذا يعني أن له قدرة معينة ستمكنه من المضي في (المنافسة) لكن مساعدة الفقراء بإعطائهم مجانية التعليم مثلاً ومن ثم فرصة العمل ستنتج أنواعاً هجينة وأنماطاً أقل قوة، ستضعف عملية التطور النهائية..

كان يرى أيضاً، أن المضي في عملية الانتقاء الاجتماعي و(البقاء للأصلح) على طبيعتها دون تدخل، ستنتج في نهاية السباق مجتمعاً إنسانياً صالحاً يسوده السلام والوئام.

---

(١) Social Darwinism in European and American Thought, 1860 - 1945: Nature as Model and Nature as Threat Mike Hawkinsby

(٢) Herbert Spencer. Devlopment of Sociological Theory (university of Minnesota Duluth(
Darwin's INFluence ON RUTHLESS LAISSEZ FAIRE CAPITALISM - IMPACT NO. 333 MARCH 2001

(٣) Ph.D. * Jerry Bergman by

(٤) Religious Capitalism's Embrace of Social Darwinism By Dr. Gerry Lower Apr 19, 2005 From Axisoflogic. com

فهذا السباق، بالطريقة التي نظَّر لها سبنسر، سيقضي على كل من لا يستحق البقاء «the unfit» - الفقير، أو الضعيف - ستحدث عملية انتقاء اجتماعية تبقي على الصالح وتنقيه من شوائب الضعف والفقر..

كان سبنسر يؤمن بذلك، وكان يرى كذلك - كما أخبر صديقه الثري الرأسمالي المعروف جداً آنذاك (إدوارد كارينجي) - أن وصول شخص مثله للمكانة التي وصل إليها، لم يكن أمراً طبيعياً فحسب، بل كان (حقيقة علمية)[١].

تلقف الرأسماليون نظرية سبنسر بحفاوة كبيرة؛ لقد أزاحت عن صدورهم هماً ثقيلاً (وكان ذلك ما قاله كارينجي تحديداً عن كلمات سبنسر)..

تركت هذه الفلسفة أثراً كبيراً في طريقة التفكير الأمريكية وعلى القيم والثوابت الأمريكية. لقد صارت جزءاً من شخصية هذا الآدم الأمريكي الذي يدين بالانتقاء الاجتماعي حتى لو لم يسمع بسبنسر، ولم يطرق سمعه مصطلح (الداروينية الاجتماعية).. بل حتى لو لم يؤمن بالانتقاء حقيقةً بيولوجية، لكن الانتقاء الاجتماعي (البقاء للأصلح) صار بدهية من بدهيات حياته.. ترى أثرها في الوصايا العشر، ابتداء بالوصية الأولى (لا تستطيع أن تجادل النجاح) (yon can not argue with success) إلى الوصية العاشرة (الله يساعد من يساعدون أنفسهم) (God helps those who help themselves). فالمعنى في الأولى صار أن لا مبادئ يجب أن تقوم النجاح، ما دام دين الطبيعة الأول هو النجاح في التهام الضعيف، والمعنى في الوصية العاشرة صار أن (لا تساعد أحداً ولا تمد يدك للمساعدة، لأن ذلك لن يكون في مصلحة المجتمع، والله يساعد فقط من يساعدون أنفسهم)..

---

(١) The American Experience Andrew Carnegie People & Events Herbert Spencer. htm

كل شيء، في نمط الحياة الأمريكية، أعد لينسجم مع تلك النظرة الداروينية، وهي تعمد الحياة اليومية وإيقاعها.. كل شيء أعد ليتنافس الأفراد في حلبة سباق ماراثون لا يتوقف ولو للحظة واحدة.. وإذا سقط أحدهم، لسبب أو لآخر، فإنه سيتعرض للتهميش والخروج من السباق، ولن يمد أحد يديه ليساعده لأنه قد يتعرض للتأخر والتهميش هو الآخر..

هذه هي الغابة المعاصرة، وهذا هو نمط الحياة التي لا يتوقف اللهاث فيها لحظة واحدة.. سنرفع شعارات عن عصر السرعة، والإيقاع السريع، للحياة المعاصرة، شعارات لامعة وبراقة وترضينا.. لكن الحقيقة خلف الشعارات قد تكون أقل جاذبية.. الحقيقة هي النسخة الاجتماعية - والأكثر خطورة - من نظرية داروين.. وقد تحولت لتصير بدهية لا تناقش من بدهيات القيم الصادرة عن حضارة الفردوس المستعار..

وأخشى أن أقول: إن الأمر صار بدهية عندنا أيضاً..



دعاتنا سبُّوا داروين وتركوا سبنسر يفلت..

لا أظن مسلماً معاصراً لم يسمع في حياته، ولو مرة واحدة على الأقل، جانباً من هجوم الدعاة والوعاظ على داروين ونظريته، لكونها كانت سبباً لنشر الإلحاد وإنكار الخلق (مع أن هذا ليس دقيقاً من الناحية العلمية، لكن متى كانت الدقة العلمية مهمة عند هؤلاء؟)..

ظل دعاتنا لعقود يصبون جام غضبهم على داروين، ويتوعدونه جهنم وبئس المصير، ويجمعون يميناً وشمالاً أقوال علماء بيولوجيين لم يتفقوا مع داروين في كل ما قاله، ووجدوا ثغرة هنا وخللاً هناك في نسيج فرضيته، بل إنهم طالما هللوا وصفقوا لأي نظرية مضادة لداروين حتى لو

لم تكن تتفق مع رؤيتهم لقصة الخلق، نكاية بداروين فقط، لقد انشغلوا فعلاً بداروين ونسخته من حكاية النوع الإنساني، مع أننا موجودون كحقيقة لا سبيل لتغييرها، وأهملوا ما هو أخطر بكثير من حشرات داروين وفرضياته، أهملوا تطبيقاتها الاجتماعية التي تسربت بالتدريج لتضمر الفكر والقيم السلوكية..

لقد ركزوا على غابة داروين وأحراشه وسلالاته، وتناسوا أن الأمر أخطر من ذلك؛ إنه تحويل المجتمع الإنساني إلى غابة يفترس فيها الغني الفقير والقوي الضعيف بحجة البقاء للأصلح..

والأخطر من ذلك، أنهم في غمرة صراخهم هذا، ساهموا أيضاً في الأمر دونما وعي.. لقد قدموا كل ما تحتاجه (الداروينية الاجتماعية) من تسهيلات شرعية، عبر نصوص تجتَزَأ من سياقها الأصلي لتوضع في سباق الماراثون ذلك، مثل تكريس غنى الأغنياء وفقر الفقراء ضمن ثنائية (القضاء والقدر)، و(فضَّل بعضكم على بعض) في تشجيع الأغنياء على تكديس المزيد من الأموال..

نعم، لقد أمسكوا بداروين، وأوسعوه ضرباً، وتركوا سبنسر يدخل في تفاصيل حياتنا حتى لو كنا لا نعرف اسمه..

(بقاء للأصلح) أم (مكوث للأنفع)؟

أتحفظ مرة أخرى على ترجمة (survival of the fittest) إلى (البقاء للأصلح). فكلمة Suvival في حقيقتها تعطي معنى النجاة من معركة ضارية - وليس معنى البقاء فقط - وهذا يعطي الشعور الفوري بأن تلك الحياة هي معركة بين وحوش مفترسة، وأن كل ما عليك فعله للنجاة هو التمسك بقانون الغابة.. وهذا هو (الأصلح) حسب دين الطبيعة الذي يدعونه..

نعم، البقاء للأصلح، أؤيد ذلك، وأؤكد - بل وأدعي - أنه موافق تماماً لثوابت الخطاب القرآني.. لكن هذا بالاسم فقط، التشابه بالاسم، دونما علاقة قرابة بين الرؤيتين من أي نوع..

البقاء للأصلح، نعم. لكن لا البقاء هو البقاء، ولا معنى الصلاح هو الصلاح، البقاء بالمعنى القرآني لا علاقة له بالنجاة من معركة الضواري وسباق الافتراس و(كن ذئباً وإلا أكلتك الذئاب)..

ولكن البقاء بمعنى النفع - ليس البرغماتي ولكن القرآني - البقاء بمعنى أن ما ينفع (الناس) سيتمكن من المكوث، الناس ككل، الناس بالمجموع، لا بالمعنى الفردي الضيق..

و(الأصلح) في هذه الرؤية.. هو القادر على إنتاج هذا الأنفع.. حتى لو بفكرة.. حتى لو بجملة.. حتى لو بفسيلة ستستغرق عقوداً قبل أن تثمر..

إنه المكوث للأنفع؛ الرؤية القرآنية المضادة لذلك الافتراس الذي تشرعنه حضارة الفردوس المستعار، تحت شعار (البقاء للأصلح).

المكوث للأنفع إذن. وقد يكون المكوث كامناً، ساكناً مختبئاً أو على الأقل يبدو أنه كذلك..

وقد يبدو أنه قد افترس، أو انقرض، أو التهمه الأقوى منه في صراع البقاء المزعوم كخيار وحيد..

ثم، فجأة، يظهر على السطح، لم يكن قد افترس، ولم يكن قد التهم، لكن كان ساكناً في الأعماق، كامناً متحيناً الفرصة ليمنح النفع والصلاح الذي في داخله..

نعم، إنه المكوث للأنفع.

فتية الكهف...

من مفهوم الغابة، والقوي الذي يلتهم الضعيف، نستطيع أن نرى كيف أن فتية صغاراً، آمنوا بفكرة مضادة لكل ما هو سائد حولهم، تحدوا المؤسسات الاجتماعية، والسلطات الحاكمة، وانتهى أمرهم بأنِ طاردتهم تلك المؤسسات وحاربتهم بلا هوادة، لأنها رأت أن الفكرة التي حملوها في رؤوسهم مضادة لأسس تلك المؤسسات..

وكانت موازين القوة في غير مصلحة هؤلاء الفتية..

ولم تكن هناك فائدة من الوقوف بوجه تلك المؤسسات، ليس من جدوى في الوقوف أمام روما أو أمريكا أو نينوى أو ملأ مكة المستكبرين..

وعندما فر هؤلاء الفتية إلى الكهوف، اعتقد الكثيرون أن الفكرة قد هزمت، وعندما مرت العقود دون أن يظهر لهم أثر، زاد الاعتقاد أن شأفتهم قد آستؤصلت، وأن روما ومخابراتها المركزية وأعلامها وقوتها المهيمنة قد تمكنت من قلع الفكرة من الجذور..

إنها الغابة أيها السادة، والقوي فيها يلتهم الضعيف.. ومن الأفضل للضعيف أن يلتزم جانب الحائط لا يعارض - ولو بفكرة - ما يقوله القوي، لأن هذا يحفز الأخير على افتراسه.

نعم، لا جدوى، لقد ضيع هؤلاء الفتية أنفسهم، خسارة.

إنه عالم قاسٍ والبقاء فيه للأصلح..

أو هكذا يبدو الأمر.

لكنه المكوث للأنفع..

ومن كهوف الكمون، سيظهر هؤلاء الفتية مجدداً، شباناً إلى الأبد، كما لو أن القرون لم تمر عليهم..

بلى، لقد مرت القرون، ولكنها زادتهم شباباً ونضارةً.

.. زادت التوهج لفكرتهم، ومنحتها البريق واللمعان اللذين يجذبان عموم الناس..

ثلاث مئة سنة؟. بل ثلاث مئة وتسع، من كان يصدِّق؟ حسب مقاييس القوة المادية، التي لا شيء غيرها في حسابات الفردوس المستعار، كان الأمر محسوماً..

لكن هذه المقاييس تثبت دوماً أنها غير دقيقة عندما يتعلق الأمر بفترة زمنية تتعدى معدل عمر الإنسان..

.. كان أن ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.. رمزاً للمكوث للأنفع؛ تلك الرؤية المضادة لما يسمونه البقاء للأصلح..

(فقط للتذكير، ليس كل من اختبأ في الكهف كان يمثل المكوث للأنفع. على العكس قد يكون، رغم شعاراته، رغم مظاهره، يمثل أيضاً نسخة طبق الأصل من فكرة الفردوس المستعار من **(البقاء للأصلح)**.. كل ما في الأمر أنه يريد أن يتبادل الأدوار.. فبدلاً من دور الضعيف المزمن الذي يلتهمه القوي، يريد هو أن ينتقم بقلب الطاولة.

إنها الرؤية ذاتها، وإن كانت بالمقلوب، وإن كانت لحى الذين يعتنقونها طويلة..

كهف الكمون شيء آخر.

والمكوث للأنفع رؤية مختلفة ومضادة من الجذر، من الأساس).

البراغماتية + الداروينية الاجتماعية: قانون الغابة دستوراً للحياة.

إذن كانت البرغماتية، والداروينية الاجتماعية، هما أهم فلسفتين صبغتا الفكر الأمريكي والثقافة الأمريكية.. أقول هذا وأذكر، أن البرغماتية كانت موجودة بوصفها سلوكاً نفعياً مصلحياً عند البشر قبل نشوء أمريكا بفترة طويلة.. وأن القوي ظل يلتهم الضعيف عبر تاريخ البشرية وقبل أن يطأها كولومبوس بقدميه بعشرات القرون.

لكن أمريكا (أدلجت) الأمر، أعطت له إطاراً فكرياً ونظرياً، وشرعياً، وجعلته الحقيقة الوحيدة التي يدين بها هذا العالم..

أمريكا جعلت من شريعة الغاب دستوراً للحياة، منهجاً للتفكير..، نمقت ذلك وغلفته ببعض الشعارات والأمثال والنظريات العلمية والفرضيات غير العلمية.. وروجت له بماكنة دعايتها الضخمة، فصار يبدو كما لو كان بدهية وضرورة كضرورة التنفس وشرب الماء وتناول الطعام..

لكن هل نستغرب ذلك من أمريكا؟ أن تؤدلج مصلحتها بمعزل عن أي مبدأ أخلاقي؟. أن تحول شريعة الغابة إلى دين لا تدين بغيره؟.. وأن تمارس التهام القوي للضعيف بوصفه أهم شعائر هذا الدين؟.

.. لا غرابة في ذلك، فتاريخ نشوئها ارتبط بهذا، بالتهام القوي للضعيف، بل وبإبادة السكان الأصليين، وإلغائهم تماماً، لمجرد أنهم كانوا الأضعف في غابة داروين الحضارية..

نعم، كان لا بد لأمريكا أن تؤدلج الأمر، وتجعله دينها.. ففي تلك الأيديولوجية كانت ستستمر في فعل ذلك بطريقة أو بأخرى، أو على الأقل بدعم من يفعلون ذلك.

نستطيع أن نقلّب الجرائد ومحطات الإذاعة والقنوات، لنرى أن الأمر مستمر.

.. ودعونا لا ننس أن تلك الفلسفتين ارتبطتا محورياً بذلك الحجر الأساس الذي قامت عليه تلك الحضارة، ذلك الحجر الذي كان هو الدافع الأساسي لأولئك الذين خاضوا المحطات من أجل أرض الأحلام.

إنها المادة، والإيمان بها عقيدةً، انتماءً، التزاماً، وحدوداً لهذا العالم المحيط بك.

إنها المادة، كل مشكلة تصادفك ستكون ضمن حدود المادة.

وكل حلّ ستجده سيكون ضمن هذه الحدود أيضاً.

نعم، المادة، المشكلةُ والحل، سيكونان هناك.

.. المادة هي كل ما تراه هذه الحضارة... كل ما تشاهده.. ومن ثم كل ما تؤمن به.. لا إيمان خارج حدود هذه الرؤية (سواء كان بالعين المجردة، أو بأشعة (إكس) أو بجهاز قياس الذبذبات، أو بحسابات الرصيد البنكي..).

لا شيء خارج حدود هذه الرؤية.

.. وأمريكا، لا تشاهد ولا تبصر إلا ما ترى.. ولا يمكن لها أن تبني شهادتها، إلا على ما تراه..

«What yon see is what yon get» (ما تراه هو ما تحصل عليه).. لا شيء هناك خارج حدود هذه النظرة.. ولو قيض لأحد ما أن يستجوب (آدم الأمريكي)، أن يقول له: بمَ تشهد؟ لكان جوابه بالتأكيد هو: أشهد بالمادة، ولا شيء سواها. أشهد بالحواس الخمس، ولا شيء خارجها. أشهد بالبضائع المكدسة.. ولا شيء غيرها يجلب السعادة.

نعم، هذه هي الشهادة الأمريكية. ولا شيء سواها.

ثابتنا الأول: حجر أساس مضاد.. الشهادة!

.. لكن شهادتك أنت مختلفة، ودينك كله يعتمد على شهادة من نوع مختلف.

الشهادة التي تدخلك هذا الدين، والتي تعلَّمْنا جميعاً أن ننطقها ونلفظها دون التأمل في معانيها، هي شهادة بالضد من تلك الرؤية المجردة التي تقصر العالم كله على المادة فحسب..

تلك الشهادة ستكون من نوع مختلف، إنك تقف (لتشهد) على شيء لم تره، ولن تراه.. لكن هذا (الغيب) الذي لم يدركه بصرك، ولم تدركه عيناك، لم يغب عن عقلك، وعن وعيك، وستكون شهادتك مبنية على ذلك، على شيء شاهدته ولم تره.

ستقف لتقول: «أشهد أن لا إله».. وسيكون ذلك نفياً للرؤية، لكنك ستكمل: «إلا الله».. وسيكون ذلك إثباتاً للمشاهدة. وبين الرؤية المجردة القاصرة، والمشاهدة الكلية الشاملة التي أثبتتها، يوجد جوهر الأمر وسنامه..

لا. وأنت تدلي بإفادتك لن تكون (شاهد عيان) صار جزءاً من المشهد فخانته بعض التفاصيل..

لكنك ستكون (شاهد عقل)، (شاهد بصيرة).. ارتفع عن التفاصيل العابرة، وشاهد - بعقله ومدركاته - المشهد بأكمله، بشموله.. وخلص إلى حقيقة مطلقة، (شاهدَها) دون أن يراها، وقف ليدلي بشهادته - الحد الفاصل الذي يجعله مسلماً - حقيقة أن «لا إله إلا الله..»

وأنه كان شاهداً على ذلك.

وعندما ستكمل إفادتك، بذلك الجزء الثاني من شهادتك، فإنك مرة أخرى لست (شاهد عيان)، بل (شاهد عقل)، (شاهد بصيرة)، (شاهد

إدراك) يتجاوز حدود الحواس الخمس إلى ما وراءها.. إنك لم تر الرسالة وهي تسلم له عليه الصلاة والسلام، بل إنك الآن لم تر الرجل نفسه، لكن شهادتك تتجاوز الحدود المادية للزمان والمكان..

وتتجاوز حدود الرؤية التقليدية، لتصل بك إلى ذلك الإدراك الكلي الشامل، الذي يجعلك تتمكن من الإدلاء بشهادتك.. بيقينٍ لن أشبهه هنا بيقين من رأى حقاً بحواسه الخمس.. فتلك الشهادة أكبر من كل تلك الحواس..

نعم، عندما تقول عن تلك الشهادة بيقين، فإنك أنت وحدك الشاهد على كل شيء.

الشاهد الذي أبصر كل شيء.

.. وشهادتك تلك، تستفز ثابتهم الأول (المادية)، بأكثر مما يستفزك أنت الثابت نفسه. شهادتك تقول: إنك تشاهد ما يعجزون عن رؤيته. شهادتك تقول: إن عالمك أوسع، وإن مدركاتك تنفذ لتصل حدوداً بعيدة غير مرئية لا يتمكنون هم من إدراكها بحواسهم المقيدةِ بالثابتِ الأول الأساسي عندهم؛ المادة.

ثابتهم يقول: إن حدود العالم تكمن في ذلك الجزء الصغير البارز على السطح. بينما ثابتك يقول: أنت ترى هذا الجزء، وتدرك أنه ليس كل شيء، وأن هناك جبلاً هائلاً غاطساً حتى القاع.

وشهادتك لا معنى لها حسب المعايير والمواصفات المتبعة هناك، في حضارة الفردوس المستعار التي بنيت على الحواس الخمس..

كل ما هو هناك يبنى على شيء مختلف، على حجر أساس مختلف.. والمسار كله سيكون مختلفاً ما دامت نقطة الانطلاق مختلفة..

ليس الخلاف هنا محض خلاف في وجهات النظر..

أنت تشهد أن «لا إله إلا الله».. ومعنى ذلك يتناقض ويتصادم فوراً مع شهادتهم هم، أن لا شيء هناك، سوى المادة.

- أؤكد أنَّ لهم الحق في الشهادة بما يشاؤون، ذلك أمرهم هم، لكني أؤكد أيضاً حقنا في الاختلاف.

.. وأؤكد أيضاً أنه (اختلاف جوهري).. ولا داعي للتلفيق والتوفيق والتزويق..

دعونا لا نهرب من مواجهة الأمر. الثابت الأول الذي كان بمنزلة الحجر الأساس الذي قامت عليه حضارتهم يتناقض مع الركن الأول من أركان الإسلام.. مع حجر أساسنا نحن، مع الشهادة التي من دونها لا دخول في الإسلام..

ألا يقولون لنا أن لا تعارض بين قيم تلك وبين ثوابتنا؟.

حسناً، ربما ذلك صحيح عندما تكون الشهادة مجرد قول باللسان نقوله ونحن لا نكاد نلتفت لما نقول، لكنها الشهادة!. ولو عاملناها على أنها إفادة أمام محكمة، وكنت أنت الشاهد (حقاً) أمام محكمة من نوع خاص.. لعرفنا أن الأمر يتجاوز اللسان ويتطلب قيماً ورؤية كاملة مختلفة تجعلك تدلي بهذه الشهادة، وإلا أصبحت شاهِدَ زُوْر..

نعم، إنها الشهادة، ركن الإسلام الأول، لكن فقط عندما يكون الثابت الأول عندنا مرتبطاً بالقيم وبالرؤية المختلفة التي تجعلك مؤهلاً للإدلاء بها..

إنه الإيمان بالغيب.. الغيب الذي غاب عن بصرك ولكن ليس عن عقلك ولا عن بصيرتك، الإيمان بالمادة بوصفها جزءاً صغيراً ومرئياً من جزء أكبر غير مرئي..

إيمانك لا ينكر المادة، بل هو يؤمن بها، لكنه ينفي أنها كل شيء هناك.. وأن حدود العالم تقع عند حدودها..

وهذا الإيمان، الذي هو (الوسط) بين من ينكر المادة ويتيه خارجها، وبين من لا يؤمن إلا بها ..**هذا الإيمان الوسط، هو تلك الشهادة.. وهذا الركن الأول..**

وهو ثابتك الأول الذي يجب أن تهرب به من البناء المنهار..

.. وعندما تضع أساساً للبناء الجديد.. سيكون هذا هو حجرك الأساس الذي تبني عليه..

تلك الشهادة، سيدعونك تمضي بها، وعندما تسافر بها، لن يصادروها عند التفتيش..

لن يأخذوا منك رسماً إضافياً على وزنها..، فميزان الأمور عندهم يرتبط بميزان المادة، ميزان الحواس الخمس..

وهذه الشهادة ستكون خفيفة الوزن بميزان الحوس، (ميزان اللسان مثلاً)..

لكن ميزاناً آخر، بقيم أخرى، وحدود أوسع.. سيكون له قراءة مختلفة..

إنها الشهادة، الركن الأول، أربع كلمات (خفيفة على اللسان) - (ثقيلة في الميزان)..

الآن أفهم.. الآن فقط أدرك ذلك...

.. وأعتقد أننا تعاملنا مع الكلمات بمنطق ميزان الحواس المادية.. لذلك انتهينا إلى ذلك البناء المتداعي..

والآن صار يجب أن يكون هناك ميزان آخر لثوابتنا.




الثابت الثاني
الفردية

لكن الفردوس المستعار، ليس مجرد ثابت واحد وحجر واحد، إنه مجموعة ثوابت، وبناء ضخم، أقر أن كل أحجار بنائه وأركانه مرتبطة بالثابت الأول، وبحجر (الأساس).

لكن الأمر أعقد من مجرد (إيمان بالمادة).

فلنرجع الآن إلى تلك السفينة التي عبرت المحيط باتجاه ذلك الفردوس الجديد، الذي تصورت أنه سيكون بديلاً عن (الفردوس القديم).

لنرجع إلى ذلك الآدم الجديد، الآدم الأمريكي، الذي خاض مغامرة عبور المحيط من أجل تشكيل العالم الجديد، لقد تشكل هذا العالم عبر هذا الآدم، وتشكل هذا الآدم عبر هذا العالم، كل منهما شكل الآخر، وكل منهما كان انعكاساً للآخر..

.. لقد عرفنا أن دوافع هذا الآدم كانت (مادية جداً)، وهو أمر مفهوم، ولا أتصور أن أحداً سيجادل فيه. إن موجة البرد التي ضربت محصول البطاطا في إيرلندا هي التي دفعت أكبر موجة للمهاجرين منها عبر المحيط، إنه الحلم بمناجم الذهب، وبالأرض الخصبة الخام.. وبذلك المناخ المعتدل الذي يساعد على الإنتاج الزراعي الوفير.

نعم، كانت تلك الدوافع الأولى مادية جداً، وقد انعكست هذه الدوافع، بشكل أو بآخر، فلسفياً وفكرياً، على الإيمان بالمادة بوصفها الثابت الأول أو باعتبارها (الرقم واحد) في سلم الأولويات..، واتضح ذلك أيضاً في (أدلجة) السلوك النفعي المرتبط بالمصلحة المادية المباشرة (كما حدث مع البرغماتية، الأمريكية ١٠٠٪)،.. واتضح أكثر في (أدلجة) مجتمع الغابة وإعطاء الشرعية لالتهام القوي للضعيف عبر مفهوم (البقاء للأصلح) (كما حدث مع الداروينية الاجتماعية).

نعم، النزعة المادية، ستظل في المرتبة الأولى..

لكن ليس هذا كل شيء.

فالآدم الأمريكي، الذي خاض المحيط من أجل الوصول إلى أرض أحلامه، كانت لديه أشياء أكثر من مجرد (النزعة المادية)..، وليس كل من ضربه البرد أو الجفاف ركب البحر وهاجر إلى أمريكا..

لكن هذا الآدم كانت لديه صفة أخرى.. أعمق، وأكثر تعقيداً، ربما لم تكن ظاهرة في البداية، لكنها بالتدريج صعدت إلى السطح، وأصبحت أكثر بروزاً وهيمنة.

كان لديه إحساس عميق بنفسه، إحساس عميق بتميزه.

روح المغامرة التي جعلته يعبر المحيط، هي في حقيقتها إحساس عميق بفرديته.. إحساس عميق بكونه (فرداً) مختلفاً ومتمايزاً ومنفصلاً عن المجتمع..

وهذا الشيء سهّل عليه أمر تلك المغامرة. إنه لم يشعر بأن جذوره عميقة في المجتمع وراءه، ولذلك فهو (فرد)، وهو لم يهاجر من أجل مجتمعه، أو من أجل تحسين ظروف مجتمعه الأصلي، إنه فرد، وهجرته كانت من أجل تحسين ظروف هذا الفرد حصراً، حتى لو اصطحب عائلته

معه، فالأمر هنا يتعلق بعائلة الفرد، اثنين أو ثلاثة أو عشرة (أفراد) ملتحقين.. لكن ليس المجتمع خلفه..

كان هذا الآدم الأمريكي ينظر إلى نفسه على أنه (فرد) لا أكثر، ولكن أيضاً لا أقول: يبدأ العالم عنده من حدود حاجاته، وينتهي أيضاً عند حدود إشباعها.. لكنه يظل (فرداً)؛ ليس جزءاً من مجتمع، ولم يهاجر ويَخُض المخاطر من أجل شعارات كبيرة وقيم من نوع (تغيير العالم)، أو إصلاحه، أو إعادة بنائه على أسس جديدة (مع أن شيئاً من هذا حصل لاحقاً).. لكن هذا لم يكن في باله..

إنه (الفرد)، ولا شيء بعد ذلك!.. لم ينظر هذا الآدم الأمريكي إلى نفسه إلا على أساس أنه فرد، فرد وحيد في مواجهة الطبيعة وتحدياتها، فرد وحيد في مواجهة الأعداء المتوحشين، إنه مرة يكون ذلك (الكاوبوي) الذي يجوب الصحراء وحيداً، ويخلص المدينة الصغيرة من عصابة الأوغاد ثم يعود أدراجه وحيداً من جديد..

ومرة يكون (السوبر مان)، وملابسه باللونين الأزرق والأحمر كرمز للعلم الأمريكي.. وقد ترك كوكب كريبتون واختار حضارة الفردوس المستعار ليستقر فيها فرداً..

ومرة يكون (رامبو) وحيداً ومنفرداً ومفتول العضلات ويقتل الأشرار كما لو كان يكش ذباباً..، وأخرى يكون (باتمان) المتخفي وحقيقته هي خفاش فرد بعيد عن الآخرين.

وهكذا دواليك في عشرات الرموز السينمائية التي تعبر عن أسطورة الفرد[1]، تمد وتجزر عبر تكرار الصور، وتتغير التفاصيل، لكن كل ذلك

(١) The Art of the American West and The Culture of the Cowboy. By Joanne M. Hattrup. Burgwin Elementary School.

لم يكن إلا رمزاً متكرراً لمعنى واحد ..لذلك الآدم الأمريكي الفرد الذي صار ركناً من أركان الفردوس المستعار..

إنها الفردية، ثانية ثوابت حضارة الفردوس المستعار..

الفردية في كل مكان..

عندما أبدأ في الدخول في هذا الموضوع، فإني مدرك تماماً أن فكرة الفردية دون اسمها وأيديولوجيتها وفلسفتها، منتشرة وسائدة عندنا كما في كل مكان آخر في العالم، مثلها مثل (البيبسي كولا) و(الهامبرغر) ومنتجات (الأديداس)، لكن بينما تلك السلع تكون واضحة وجلية للعيان المادي... فإن الفردية تسير بشكل خفي، تجري مجرى الدم، تصير بدهية، تصير أمراً واقعاً لم يشك فيه أحد.. إنها، مع التكريس والتقادم، يكاد يُنظر إليها على أنها جزء من الفطرة الإنسانية..

لكن سيؤسفني أن أخيب آمالكم وأقول شيئاً عكس التيار إلى حد بعيد..

لم تكن الفردية في يوم ما جزءاً من الفطرة الإنسانية، بل إنها لم تكن أصلاً جزءاً من تاريخ الإنسانية.. إلى أن حدث ذلك الخطأ الحسابي الذي قاد كولمبوس إلى اكتشاف قارة أمريكا..

لم تكن الفردية يوماً ما سوى شيء ذميم.. إلى أن جاءت حضارة الفردوس المستعار.

ولست أنا من يقول هذا!!

عالم جديد يولد، و(الفردية) مرت من هناك..

يحدد (ألكس دي توكفيل Alexis de Tocqueveille) مبدأ (الفردية)

بأنه: الحد الفاصل بين العالم القديم والعالم الجديد[١]..

ويندر جداً أن يتفق المفكرون والمنظرون - سواء كانوا مدافعين أو مهاجمين - كما اتفقوا على أن مبدأ (الفردية individulism) كان من أهم مميزات الحضارة الأمريكية، إن لم يكن أهمها على الإطلاق برأي بعضهم[٢].

لم يكن المبدأ مهماً فقط لنشوء الحضارة الأمريكية، بل كان مميزاً لها عن غيرها من الحضارات. لقد كان مذهب الفردية غريباً وهجيناً على كل النظم الحضارية السابقة لولادة الفردوس المستعار، وكان ينظر للفردية على أنها خطر كامن على المجتمع وقيمه ودوام استمراريته. وكثيراً ما كانت تقمع وبقوةٍ مبالغٍ بها من قبل بعض النظم الحضارية.. لكن هذا الأمر اختلف في أمريكا، فبدلاً من أن يصير (خطراً كامناً) على المجتمع، إذا به يصير (دعامة أساسية) من دعامات المجتمع، وبدلاً من أن يكون قيمة سالبة اجتماعية ومنبوذة، إذا به يصير من أهم القيم الإيجابية في المجتمع..

(ومن هناك، تم تسويق هذا المبدأ إلى العالم كله، بحيث صار يبدو كما لو أنه ملاصق للإنسانية جمعاء، وحقيقة أصله ومنشئه هي أمريكيةٌ ١٠٠٪).

ولنرَ ما هي هذه (الفردية)..

❀ ❀ ❀

(١) http://brotom.org/sjc/sjc4.html An Angel and A Brute: Self- Interest and Individualism in Tocqueville's America Tom Murphy, O. Carm

(٢) Individualism Wikipedia the free encyclopedia

ثلاثة في واحد

تشكَّل الإطار النظري والإيديولوجي لمذهب الفردية عبر ثلاثة مفكرين، تركوا أكثر من مجرد بصمة على الفكر الأمريكي وعلى الأفق المعرفي الذي ازدهرت من خلاله طريقة الحياة الأمريكية..

هؤلاء المفكرون هم رالف والدو إيمرسون (١٨٨٢ - ١٨٠٣) Ralph Waldo Emerson وهنري ديفيد ثورو ١٨٦٢ -١٨١٧ Henry David Thoreau، وألكس دي توكفل (١٨٥٩ - ١٨٠٥) .Alexis de Tocqueville

كان إيمرسون، وتلميذه ثورو، من أوائل المفكرين الذين روجوا للفردية، وهاجموا بشدة كل النظم الدينية الثقافية التي كرست مفاهيم غير الفردية، وكان هدف هذا الهجوم هو «جعل الناس يشعرون أنهم أهم من كل شيء».

عرّف إيمرسون المجتمع (غير الفردي) بأنه: الحاجز Barrier ضد فردية كل الأشخاص الذين فيه، وعرَّفه أيضاً بأنه: عبارة عن شركة احتكارية يتخلى فيه الأفراد عن حقوقهم الشخصية من أجل قوت يومهم هم لا أكثر.

الحل حسب المبدأ الفردي هو أن يعاد تأسيس المجتمع على أساس جديد؛ على أساس أن الفرد هو القيمة الأولى والأهم في المجتمع، **وهذا الفرد ينتمي لنفسه أولاً وأخيراً**، ليس من حق المجتمع أن يملي عليه أفكاره وتصرفاته، بل من واجب المجتمع أن يحمي حقه في تفرد آرائه وسلوكه؛ من حق هذا الفرد أن يسلك أي سلوك يجلب له السعادة، مهما كانت مخالفةً لتصور الأفراد الآخرين عن السعادة.

حسب إيمرسون، الناس يجب أن يكونوا (أفراداً أولاً، ومن ثم مواطنين).

والالتزام الوحيد المعترف حسب مذهب الفردية، هو التزام الفرد تجاه فرديته، تجاه نفسه، ومن ثم عائلته (الصغيرة على الأغلب)، وحلقة صغيرة أخرى من أصدقاء يختارهم بحيث أن فرديتهم تتوافق وفرديته..

هذا هو التزام هذا الفرد؛ لا شيء تجاه مجتمع أكبر، تجاه قيم تتجاوز حدود الفرد نحو جماعة أكبر منه. الفرد هو النهاية هنا، هو الهدف، إنه ليس (عبداً) لأهداف المجتمع، ولا وسيلة لها.

الفردية لا ترى معياراً للأخلاق أو المبادئ إلا من خلال الفرد. إنها تضعه على أنه معيار نهائي، ومقياس مطلق للصواب أو الخطأ. الفرد هو الحقيقة الوحيدة الواقعية. كل ما يخص الحقائق العليا أو المثل العليا تعدها الفردية حقائق غير واقعية، وتقع في أبعاد لا تؤمن بها الفردية.

وهي بهذا لا تلغي المجتمع، ولا تقصي الفرد عنه، لكنها لا تعد المجتمع (فوق) الفرد، إنما تعده الحاصل النهائي لمجموع أفراد يتكون منهم المجتمع. ليس من حكم مسبق يمارسه المجتمع على هؤلاء، وإنما الأفراد هم الذين يحددون قيم هذا المجتمع ونمط الحياة فيه.

بالنسبة إلى مذهب الفردية، الأفراد يخدمون أنفسهم فقط، وليس من واجبهم أن يضحوا من أجل غيرهم أو من أجل قيم عليا كالمجتمع أو الأخلاق، إنما المجتمع هو الذي صمم من أجل خدمتهم.

والفردية، لا تدعو للعزلة والإقصاء عن الآخرين، إنما هي نمط جديد من العلاقة بين الأفراد، إنما هي تنظيم جديد للعلاقة بين الناس؛ علاقة (فرد لفرد)، وليس علاقة فرد بمجتمع..

الفردية ترى الفرد وحدة بناء اجتماعي متكاملة بحد ذاتها[١].

---

(١) What is individualism by Raymie Stata (raymie @ larch.lcs.mit.edu) Copyright C 1992, Raymie Stata.

إنها تراه هدفاً نهائياً، ويتحقق هذا الهدف من خلال الإنجاز الفردي الذي يحقق الفرد. وبينما تقر هي أن هذا (الإنجاز) قد ينفع آخرين، إلا أنها تصر على الطابع الفردي للنجاح الشخصي المتحقق في هذا الإنجاز..

نعم، إنها الفردية، **تجعل من الفرد معياراً أعلى لكل شيء.**

حسناً، ماذا عن الآخرين؟.

ماذا عنهم؟ إنهم أفراد أيضاً، يعيشون فرديتهم كما يريدون من خلال مجتمع مصمم ليحمي هذه الفردية.

ماذا عن الفقراء؟ ماذا عن التكافل الاجتماعي؟ ماذا عن مساعدة الآخرين الذين يحتاجون إلى المساعدة؟

هنا لن نجد لفاً ولا دوراناً، ولا كذباً، ولا ادعاءً فارغاً بالمشاعر الرقيقة. لقد (تأدلج) الأمر ولا داعي الآن للكذب.. (.. وهذه نقطة إيجابية على الأقل).

يقول إيمرسون، مؤسس المذهب، في واحدة من أكثر مقولاته شهرةً وانتشاراً: فلا يقل أحد لي إن لدي التزاماً تجاه الفقراء، إنهم ليسوا (فقرائي) .For they are not my poor

هكذا إذن؟. نعم، بلا مواربة ولا ادعاء[1].

ذروها ذميمة..

هل هناك من يقول: إن الأمر ليس جديداً، وأن الإنسانية طالما فعلت ذلك بشكل أو بآخر؟..

---

(١) لا أحاول هنا الادعاء أن لا جمعيات خيرية في أمريكا أو في الغرب، ولا عمل طوعي خيري يساعد الفقراء والمحتاجين هناك، لكنني أنبه إلى أن العقد الاجتماعي هناك لم يحتو على هذا الأمر، وإنما كرس الفردية أساساً، وبنى الأمر عليها.

هذه حقيقة لا داعي لإنكارها. لقد حدث ذلك كنزعة سلوكية بشرية منذ أن عرف البشر السلوك. ولن أدعي هنا أن أمريكا اخترعت هذا..

لكنني أقر في الوقت نفسه، أن أمريكا (أدلجت) الأمر، مرة أخرى، وشرعنته..

لقد كان ذلك السلوك ذميماً عبر العصور التي تشكلت فيها الحضارة الإنسانية بمختلف أطيافها.. مع وجود اختلاف كبير في مقومات كل حضارة على حدة، إلا أن علاقة الفرد بالمجتمع كانت سمة مميزة مشتركة لمختلف الحضارات..، وكانت قيم الإيثار ونكران الذات ومساعدة الآخر تحتل مكانه القيم الاجتماعية العليا، والتي ينظر إليها على أنها القيم الأكثر كسباً للاحترام، التي يحوز الشخص الذي يحققها على مكانة أكبر اجتماعياً تتحقق فيها (ذاته) من خلال منحه للآخرين..

نعم، كانت علاقة الفرد بالمجتمع تتحدد من خلال خدمته هو لهذا المجتمع، ولن أدعي أن تلك القيمة كانت تتحقق سلوكياً عند المجتمع كله، لكن الضد من هذا دوماً كان يذم ويحقر ويلصق به أبشع الملصقات؛ مثل الأنانية والبخل والجشع والذاتية..

وظل الأمر كذلك، إلى أن جاءت أمريكا.. وصارت الصفة التي كانت مذمومة ومرفوضة، صارت قيمة إيجابية عليا.. يرتكز عليها مجتمع بأكمله[١]، وتتسرب إلى أعماق الشخصية الأمريكية[٢] وجزءاً من العادات

---

(١) What is the Basis of American Culture?
What is it that intercultural communication students cannot afford to miss about the
American Culture? By M. Gene Aldridge, Professor of Intercultural Communication, University College, Troy State University President/ CEO, New Mexico Independence, Research Institute, Inc.

(٢) Individualism, Community and the American Character

المتأصلة في عمق الشخصية الأمريكية[١] وترتكز عليها مفاهيم حضارة بأكملها[٢]..

وتغير اسمها من الأنانية إلى الفردية.

الفردية ودور (الداينمو) في مجتمع الغابة الداروينية

على أني هنا، عليّ أن أعترف مرة أخرى أن الفردية، بهذا المفهوم، لعبت دوراً (إيجابياً) ـ بمقاييس الفردوس المستعار ـ في البناء الحضاري الأمريكي..

لقد كانت الفردية، بمثابة (الداينمو) التي حركت الآدم الأمريكي، ملأته بالدوافع والحوافز، وصار الإنجاز وتحقيقه حلماً لكل فرد، لا يحقق ذاته إلا من خلال الإنجاز الفردي.. ولا يكون (أمريكياً) إلا من خلاله[٣]..

= By Erin Elizabeth Blankley http:// WWW.drake.edu/artsci/Polsci/ssjrnl/ ssjournal.html

(١) What is the Basis of American Culture?
What is it that intercultural communication students cannot afford to miss about the
American Culture? By M. Gene Aldridge, Professor of Intercultural Communication, University College, Troy State University President/ CEO, New Mexico Independence, Research Institute, Inc

(٢) Habits of the heart by Robert Bellah, Richard Madsen. William M.Sullivan, Ann Swidler, and Steven M. Tipton. 1986. Berkeley, California. University of California Press. Updated with a new introduction 1996.

(٣) The contents of our character - can anyone, anywhere learn how to be an American?
Reason. Des. 1995 by Brink: Lindsey, Andrew: ferguson, Gary Alan: Fine, Joseph Epstein, Charles Paul Freund, Steven Hayward, John Hood, Marcus Klein, chavez linda, william Barclay, Allen, Paul Rahe, virginia Postrel, Jonathan Rauch

لقد منحت (الفردية)، بهذا المفهوم للطموح، أرضاً خصباً، ومنحت النظرية الفكرية الصلبة لما كان مجرد سلوك بشري ذميم..

وفي الوقت نفسه، أنبه إلى أن الفردية ـ ثانية ثوابت الفردوس المستعار ـ نشأت في حضن الثابت الأول ـ حجر الأساس ـ المادة.

ولقد دمغ هذا الشيء كل ثوابت الفردوس المستعار المتتالية..

فالفرد، الذي تكون من خلال الفردية، هو فرد مادي، يؤمن بالمادة، حَلاً لمشاكله.. وهذا يطبع كل طموحاته وإنجازاته - التي سيحقق ذاته من خلال تحقيقها - بطابع مادي بحت.. لا شيء خلف المادة ذات الأبعاد المحددة والحواس الخمس..

وينسجم ذلك، مع فكرة (الإيمان بالمادة) نفسها، فالفرد نفسه هو (المادة) هنا، له أبعاد محددة، وله طابع حسي متوافق مع فكرة المادة..، وسيحقق له هذا إطاراً يمكن له من خلاله أن يحقق فيه ومن داخله إيمانه بالمادة..

.. وينسجم ذلك مع ما فهمناه عن الطابع البرغماتي للقيم الأمريكية؛ فالنفع الذي تقدسه البراغماتية هو ذلك النفع المادي المباشر المرتبط بمصلحة الأفراد؛ بوصفهم أفراداً وليس على أنهم فرد هو جزء من المجتمع..

ولقد رأينا كيف أن ما يراه الفرد هو الصواب، بغض النظر عن النتائج الاجتماعية اللاحقة، فالفرد هو الهدف، وما يراه نافعاً له، هو الصواب، بغض النظر عن النتائج النهائية للأمر، التي قد لا تُلحق الفردَ نفسه بضرر، بل قد تلحقه بأفراد آخرين ربما تشكلوا وخلقوا أصلاً نتيجة لما تصور أنه منفعته الخاصة.. (كما الأمر في الأطفال خارج نطاق الزواج)..

نعم، ارتبطت المادية بالفردية ارتباطاً كاثوليكياً لا انفصال فيه عبر مفهوم البرغماتية.. وصار الفرد، من خلال هذا المفهوم، رغم كونه عابراً ومحدود العمر، هو المعيار الأول للقيم الاجتماعية..

وينسجم هذا المفهوم أكثر، مع مفهوم (البقاء للأصلح) بالرؤية الداروينية. فالعلاقة الأساسية بين أفراد المجتمع حسب سبنسر هي (المنافسة) في الصراع من أجل البقاء؛ حيث القوي يأكل الضعيف والضعيف يأكل الأضعف منه..

نعم، إن الفردية تستخدم المنافسة، والمنافسة ستتحفز بالفردية، وكونك فرداً ولا تؤمن بشيء خارج حدود ذاتك سيجعلك تمضي في سباق (البقاء للأصلح) بشكل أيسر، وأكثر تخففاً من أعباء الضمير ومساعدة الآخرين.. وكل ما إلى ذلك من أثقال..

مع الإيمان بالفردية، المنافسة في السباق أوضح، و(البقاء للأصلح) يصير هدفاً شخصياً، يصير طموحاً تنجز من خلال تحقيقه كينونة الفرد نفسه..

تتطور الفردية دوماً بهذا الاتجاه، باتجاه عزل (الفرد) أكثر فأكثر عن الآخرين من حوله.. إلى أن يصير حبيساً تماماً داخل ذاته[١].

أنت حر!

وتنبثق من مفهوم الفردية، قيمة مهمة هي: **الحرية الشخصية**، بل لعلها نفسها، ولكنها غلفت وعلبت وأطلق عليها اسم الحرية الشخصية، تحولت لتصير قيمة سلوكية تشكل - ربما - السمة الأهم والأبرز للحياة الغربية..

---

(١) HOW AMERICAN INDIVIDUALISM IS EVOLVING, The Public Perspective February/March 1998, by Daniel Yankelovich.

بالتأكيد، الفردية هي مصدر هذه الحرية الشخصية. مبدأ أنك فرد - هذا هو الشيء الأهم - يستوجب أن تكون حراً في تصرفاتك، وأن يكون الآخرون أحراراً أيضاً. ذلك جزء من تفردهم عنك وتفردك عنهم، وتلك الحرية الشخصية ستجعل منافستك لهم ومنافستهم لك أكثر سخونة، وستجعل من صراع البقاء أكثر حيوية وتدافعاً، وهذا كله سيسرع من عملية الانتقاء الاجتماعي التي ستنتج مجتمعاً أفضل وأكثر كفاءة وأصلح (من الناحية البرغماتية..).

تشكل الحرية الشخصية بهذا المنظور ضمانة استمرار مذهب الفردية متكرساً ومتجذراً وعميقاً في نفسه، الفرد الذي تطبع بحضارة الفردوس المستعار..

(أذكر الآن كم كنا سذجاً ونحن نبتلع طُعم (الحرية الشخصية).. عبر وسائل الإعلام والأدب والأقلام. أنا حر، أنا حرة، أنا حر، أنا حرة. كررنا ذلك حتى صدقناه، ونظرنا إليهم بإعجاب خفي أو معلن وهم يمارسون حريتهم (الشخصية). ولم نعلم أنهم يمارسون (فرديتهم)! يمارسون مذهباً كان يعد بغيضاً وذميماً، وظل يعد وسيلة لهدم المجتمع لقرون طويلة.. إلى أن جاءت أمريكا..).

(ويرتبط مفهوم الفردية مباشرة بمفهوم الديمقراطية الذي ازدهر في عموم الغرب، والربط واضح؛ فأن يصبح الفرد مشرعاً لنفسه يعني أن أكبر عدد من الأفراد يتفقون على شيء واحد، سيملكون حق التشريع للمجتمع بغض النظر عن أي شيء آخر)[١].

(.. وأتأمل في الفرق الكبير بين مفهوم (الحرية الشخصية) النابع من

(١) Democratic Individualism, Delivered by Dr. Henry Levinson at RC's 2000 Commencement

مذهب الفردية، وبين مفهوم (الحرية الإنسانية) في الحضارة الإسلامية النابع من الجدل حول مسؤولية الإنسان عن أعماله..).

انت اهم شخص في حياتك[١]..!

تقول لك الفردية، دون أن تقول، تهمس في أذنيك، وأحياناً تصرخ فيهما، تقول لك: (ليس لك انتماء في هذا العالم، إلا لذاتك. ليس من انتماء لمجتمع، أو لأمة، أو لقيم، ليس لك إلا ذاتك، تنتمي إليها وتحقق ذاتك من خلال تحقيقها، تنغمس فيها، إنها عالمك الحقيقي ـ عالمك الواقعي ـ الذي ليس هناك حقيقة واقعة خارج حدوده.)

أنت أهم شخص في حياتك (You are the most importent person in your life) يقول لك علماء النفس وأطباؤها ومعالجوها، يقنعونك بذلك. فأنت أصلاً، بما أنك إنسان، لديك هذه النزعة، نزعة (الأنا)، وهم سيتكفلون بتنميتها وتأصيلها وتكريسها أكثر فأكثر: كن نفسك Be your self، حقق المزيد من احترام لِذَاتك Improve your self esteem، اقبل نفسك .Accept your self وسيكون كل ذلك معناه شيء واحد، سواء تحقق عبر وسائل الإعلام، أو عبر جلسات العلاج النفسي.. شيء واحد هو أن تقبل ذاتك دون أي تغيير. اقبل نفسك كما هي. لن يكون للعلاج هدف في التغيير أو التحوير؛ فأنت هو أنت. وكل ما يجب أن يحدثه العلاج هو أن يساعدك بقبول ذاتك كما هي. لا داعي للتغيير، لا داعي للعلاج، أن تكون شاذاً (مثلياً أو فيتشياً أو مازوشياً أو

(١) هذه العبارة، في جوهرها، يمكن أن تستخدم بوجهين. الوجه الأول إيجابي جداً ويهدف إلى إعلاء الذات من أجل تغييرها نحو الأفضل، ومن ثم تغيير المجتمع من حولها. والوجه الثاني، وهو السائد مع الأسف، خصوصاً مع طب النفس العلاجي، يهدف فقط إلى (تأقلم) و(تأهيل) الفرد مع انحرافاته دون أي محاولة لعلاجها: مثال: الشذوذ الجنسي.

سادياً)، شيء لا يستوجب التغيير.. إنه أنت!... وما عليك سوى أن تنظر إلى نفسك كما هي، وتقبل حقيقة أنك أهم شخص في حياتك[١]..

إنها مذهب الفردية، ذلك الثابت والركن الثاني في حضارة الفردوس المستعار، تلك النزعة الأساسية عند ذلك الآدم الأمريكي، الآدم الجديد،.. وتحولت مع الوقت لتصير جزءاً من نمط الحياة اليومية، ومن الوصايا العشر للحضارة الأمريكية!! Live and let live.

النرجسية المغلقة..

تكرس هذه الفردية أيضاً - سواء شعرنا بذلك أو لم نشعر - نوعاً من افتتان المرء بذاته، نوعاً من الهوس المرضي يمارسه كل فرد تجاه تفاصيل تتعلق بمظهره وكل ما يتعلق بشخصه وحياته الخاصة..

يتحول الأمر إلى نرجسية ينزلق إليها الفرد، نوعاً من الوله المبالغ به يوجهه الشخص إلى ذاته، ومن خلال هذا الوله والافتتان تنتظم كل علاقات هذا الفرد بالآخرين، العلاقة التي ستصب في ازدياد هذا الافتتان ذاته، سيتقبلها الفرد ويحتويها، بالعكس من أي علاقة تعكر صفو هذا الافتتان.

نعم، حضارة الفردية الأمريكية ستتحول بالتدريج إلى حضارة النرجسية وستروج لافتتان الفرد بذاته على أنه نوع وحيد من علاقة الفرد الصحية بذاته[٢].

(١) You Are The Importent Person, In Your Life by Russ Stiffler Copyright © 2003 Russ Stffler, All Rights Reserved

(٢) Culture of Narcissism: American life in an Age of diminshing Expectations, By: Christopher lasch Publisher: W.W.Norton & Company,1991

من الفردية إلى عبادة الذات..

.. وتتحول هذه الفردية و(طقوسها)، مع الوقت ومع الاهتمام الزائد بتنميتها، إلى عبادة يوجهها المرء نحو ذاته.

نعم، ليس فيما أقول أي تطرف أو مبالغة. عندما تكون ذاتك هي المقياس للصواب والخطأ، للأخلاق والقيم.. عندما تكون ذاتك هي المسبار الذي تحكم من خلاله على الأشياء من حولك، وعلى العالم كله، وعندما يكون الهدف الأول الذي تسعى إليه هو إرضاء ذاتك أولاً، وعندما يصمم المجتمع أساساً ليكون مجتمعاً يخدم ذات الفرد، وعندما يكون قضاء الوقت الممتع هو الهدف الأسمى، وأيضاً الأكثر براءةً، والمتعة هي أن ترضي نوازعك المختلفة المتركزة حول ذاتك..

نعم، عندما تصبح ذاتك هي (مركز الكون) بالنسبة إليك، فإن هذه الذات ستصير، كتحصيل حاصل، معبودتك.

وسيكون التعامل معها بهذا الشكل نوعاً من أنواع العبادة.. أو العبودية.

نعم، إنها عبادة المرء لذاته..

عبادة الذات[١].

أفرأيت..؟

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٣].

نعم، أفرأيت من نصب أهواءه الشخصية ونزعاته وميوله، وثناً يتعبد له، ومعبوداً يقدم من أجله وأجل إرضائه القرابين؟..

---

(١) Self - Worship: The God of Democracy, March 1 2001.
By Steven Farrell part 5 Missing the Mark with Religion, http:// www.geocities.com/Athens/Crete/4516/Farrell/mmwr/5.html

أفرأيت من جعل ذاته إلهاً؟..

ما الذات، بهذا المفهوم السائد، سوى مجموعة أهواء، ونزعات، وميول، مكومة فوق بعضها بعضاً، ولا داعي لتشذيبها لأنك أنت هو ما أنت عليه، واقبل بنفسك كما هي، وأنت أهم شخص في حياتك..

أفرأيت من جعل ذاته إلهاً؟.

نعم، لقد رأيت، لقد رأينا، إنها الصورة الأكثر انتشاراً. ربما كانت صورتنا أيضاً، دون أن ندري..

وربما كانت هذه الصورة واحدة من أقدم الصور التي التقطتها البشرية عبر التاريخ..

الفرق هو أن هذه الصورة، على انتشارها، كانت صورة ذميمة، ومنبوذة من قبل كل القيم الحضارية..

لكن أمريكا، شرعنت الأمر و(أدلجته)، وجعلت هذه الصورة، هي الصورة (الوحيدة)، وجعلتها الصورة الرسمية، الملصقة على هوية هذا الإنسان المعاصر؛ إنسان الفردوس المستعار.

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه؟.

نعم، رأيت، وإذا كان هناك من سينكر ذلك - سينكر هذه الحقيقة - فليتجه إلى المرآة.

وهناك سيرى من اتخذ إلهه هواه!

وأتأمل في ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٣]. فأجد الأمر موحياً جداً.. وأتساءل: هل هو علم الظاهر يا ترى، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٧].

هل هو علم المادة؟.. هل هو علم الكم الهائل من التفاصيل والمعلومات التي تزيد التشويش وتفتقد إلى البوصلة؟.

أفرأيت؟.

نعم، لقد رأيت! صورة طبق الأصل.

وثنية عبادة الذات..

وتحتاج عبادة الذات هذه، إلى (أيقونات)، إلى رموز وثنية، إلى أوثان تتجسد فيها هذه العبادة؛ عبادة الذات..

قد تخرج هذه الرموز الوثنية عن ذات الفرد نفسه، فتصبح رمزاً عاماً شعبياً يجسد حلم الفرد بذاته.. وبعبارة أكثر تركيزاً عبادة كل فرد لذاته..

نعم، تتجسد عبادة الذات في تلك الرموز الوثنية، التي تتجاوز حدود الشخص (في الظاهر على الأقل، لكنها تقع في مركز كل فرد، في حلمه، في طموحه، في عبادته لذاته..)

إنها أوثان حقيقية موجودة في حياتنا المعاصرة. بل هي شديدة الانتشار ونعرف كل التفاصيل عنها..

لكننا فقط لا نعرف أنها أوثان!

عمَّ أتحدث؟.

أتحدث عن (النجوم)؛ عن أولئك المشاهير الذين تضرب وجوههم عدسات الكاميرات، وتسلط عليهم أضواء أجهزة الإعلام ليل نهار، أولئك الذين تتصدر أخبارهم الصغيرة التافهة نشرات الأخبار في القنوات المحلية في الفردوس المستعار والعالمية في كل مكان، أولئك (النجوم) الذين يشكلون سمة مميزة؛ ظاهرة من ظواهر الثقافة والحضارة

الأمريكيتين.. سواء كانوا نجوم سينما أو غناء أو رياضة أو صحافة أو أي شخصية عامة دخلت لعبة النجومية..

إن ولع الناس بهؤلاء النجوم، والذي يصل في أحيان كثيرة إلى حدود الهوس المرضي، ينبع، في عمق من أعماقه، من كون هؤلاء النجوم يمثلون ذاتاً عليا استطاعت أن تحقق ما عجزوا عن تحقيقه هم ويتمنون تحقيقه..

يمثل أولئك النجوم ذلك المظهر الأنيق الذي تتمنى لو كان لك. إنهم دوماً جميلون، دوماً وسيمون، ودوماً في منتهى الفتنة والإغراء.. دوماً ابتسامتهم ناصعة، وجوههم لامعة..

(.. وبطريقة ما، في عمق من أعماقك، فإنك تود لو أنك كنت مثلهم في هذا الجانب..).

.. ويمثل أولئك النجوم - وهم تحت الأضواء الساطعة - **قصة النجاح الفردي**. لقد انتقلوا من مصاف الأفراد العاديين، إلى مرحلة أخرى، إلى سماء عالية.. وصاروا نجوماً لامعة.. إنها قصة الفردية والطموح الفردي والنجاح الفردي.. إنها حكاية النجاح العصامي، الذي هو في جوهره (الحلم الأمريكي)..

إنها قصة الفرد وقد وصل إلى قمة ذاته.. قمة ما يمكن أن تكون الذات..

هذا الولع بالنجوم، ليس ولعاً بهم بشكل شخصي، إنهم هنا مجرد رموز للنجاح الفردي، رموز لتحقيق الفرد لذاته.. رموز لأقصى نجاح يمكن لفرد أن يحققه. لا أن يكون نجماً فقط، بل أن يكون على القمة، أن يكون الرقم واحد، أن يسبق الآخرين. على الأخص أن يسبق الآخرين..

إنها عبادة الذات متجسدة في رمز ما استطاع أن يكون هو (الرقم واحد)، هو (الذي لا أحد سواه على القمة)[١].

لا أحد يحب النجوم حقاً، بل الجميع يحب ويتعبد صورة يتمناها لذاته، لنفسه. الولع بالنجوم هو الولع بالنفس في حقيقته. إنه تقرُّبٌ للذات (المتمنّاة) عبر رموز و(أيقونات) لا تعبد حقاً لذاتها بقدر ما تعبد لأنها تعبر عن ذات الفرد العليا، عن أقصى ما يمكن لفرد أن يحققه من نجاح..

هؤلاء النجوم لا يعبدون إلا كوسيلة لعبادة الذات..

إنهم محض أوثان.. يتعبد لهم الناس من أجل أن (تقربهم إلى الذّاتِ زُلْفَى..).

وعندما تخفت الأضواء، ويقل بريق النجومية، يرحل الجميع ويغادرون المعبد، بحثاً عن وثن آخر يقربهم زلفى إلى ذواتهم، التي هي القصد وراء كل شيء.. (ويبقى النجوم السابقون فريسة الانهيار والانتحار)..

.. ويفسر هذا التعبد ذلك الولع بتفاصيل الحياة الخاصة لأولئك المشاهير، مثل مشاكلهم العاطفية، وعلاقاتهم العابرة والمقيمة، وكيف يتعاملون مع الجيران والحراس، ومع البقال والفران وبائع المعجنات. المشاهير عادة يتذمرون أو يتظاهرون بالتذمر من هذا الولع، ويؤكدون مراراً وتكراراً أنهم يودون لو أن وسائل الإعلام تتركهم وشأنهم كأي فرد عادي.. لكن هذا هراء. إنهم لم يصبحوا نجوماً لكي يكونوا أفراداً عاديين، وإنما لكي يمثلوا أقصى نموذج يمكن لفرد عادي أن يحققه..

---

(١) Sociology Of Celebrity, September 1, 2004 version
/http://condor. depaul. edu/~ dweinste/celeb

ونوع الصابونة التي تستعملها النجمة الفلانية، أو نوع معجون الحلاقة الذي يفضله نجم معين مهمان هنا لأنهما وسيلتان للتقرب أيضاً إلى هذا النموذج الأعلى من الفرد. والفرد العادي، عندما ينغمس في التعرف على هذه التفاصيل، ويحاول مشاركة (النجم) في بعضها، عبر استعمال مايستعمله نفسَه، فإنه بطريقة ما، يتقرب للمعبود في هذا النجم، ومن ثم التقرب للمعبود في ذاته..

نعم، الأمر أعمق مما نتصوره. وهذه المظاهر التي نعدها تفاهات مراهقة وسطحية هي في جانب من جوانب حقيقتها الأعمق تعبير عن واحدة من المراحل المتقدمة لمذهب الفردية.

نعم، إنها مرحلة عبادة الذات، شديدة الانتشار في المجتمعات المعاصرة، خاصة تلك التي غزتها ثقافة الفردوس المستعار..

.. وتجد هذه العبادة تجسيداً وثنياً لها، عبر ذلك الولع والتوله بالنجوم والمشاهير، وما مصطلح (معبود الجماهير) عنا ببعيد..

(الوثن الأمريكي..)

الأقوى والأكثر إيحاءً من مصطلح (معبود الجماهير)، هو مصطلح آخر، أجده هنا شديد الارتباط بالموضوع كله.

إنه مصطلح (الوثن الأمريكي) - (The American Idol)، والوثن هنا هو الترجمة الحرفية المطابقة لكلمة (Idol) - وهي ذاتها الكلمة المستعملة في العهد القديم بخصوص عدم عبادة الأوثان في الوصايا العشر.

هذا (الوثن الأمريكي) (American Idol)[1] هو عنوان لبرنامج تلفازي شهير يستقطب عشرات الملايين من المشاهدين داخل الولايات

(١) Holy' American Idol'! Cbs news june 18 2004.

المتحدة، ومئات الملايين خارجها، ويحدث ذلك موسماً إثر موسم من مواسم عرض البرنامج.

ترتكز فكرة (الوثن الأمريكي) على الانتقاء التدريجي من بين مئات الآلاف من المتقدمين، بعضهم يتمتع بمواهب حقيقية، وبعضهم الآخر لا يتمتع إلا بعُدَّة الإثارة والوسامة التي يحتاجها النجوم أحياناً أكثر من الموهبة..

وحلقة تلو الأخرى، يتم تصفية هؤلاء المتقدمين، وتقليص عددهم، في أجواء احتفالية ومظاهر إثارة صاخبة، يشارك فيها الجمهور عبر التصويت لنجمه المفضل، ويتم خلالها تحويل أفراد عاديين، إلى نجوم، في كل تفصيل من تفاصيل شكلهم وأناقتهم وابتساماتهم(١)..

.. ويزداد حماس الجمهور، واستثارته، كلما قل عدد المتنافسين، وصولاً إلى الحلقة النهائية، حيث يتنافس المتسابقان اللذان تمكنا من الصمود، وعلى أحدهما الآن أن يسقط ليكون الآخر هو المنتصر..

في تلك الحلقة الأخيرة، يبلغ فيها حماس الجمهور حدوداً هستيرية، ويصير الاهتمام بالتصويت والتحمس لمرشح دون آخر بمثابة واجب ديني أو مهمة وطنية مقدسة. ناهيك عن أن يتجاوز عدد المصوتين في تلك الحلقة عدد المصوتين الاعتيادي في انتخابات الرئاسة الأمريكية كل أربع سنوات.

نعم، إنه (الوثن الأمريكي).. والأمر أكثر من مجرد برنامج تلفازي يحقق أرباحاً هائلة، ويحصل على أعلى نسب المشاهدة Ratings التي تجعله يحصل على أكبر عدد من المواد الإعلانية.

---

(١) Another American 'Idolized', LOS ANGELES, May 22,2003 cbs news.com

الأمر أعمق، إنه انعكاس عميق لحقيقة الحياة الأمريكية. على الأقل لواحدة من أخص الحقائق في شخصية الآدم الأمريكي وحياته..

(الوثن الأمريكي).

التسمية وحدها موحية جداً. نعم، إنه اسم صادق فعلاً.

ليس لأن هذا الفائز سيكون أمريكي الجنسية، بل لأن البرنامج يعبر عن حقيقة (الوثنية الأمريكية) بمعناها الأعمق.. حقيقة هذه الوثنية التي تعود إلى مذهب الفردية شديد الأصالة في التجربة الأمريكية، والتي تحولت، بالتدريج، وتقريباً دون أن يشعر أحد، إلى (عبادة للذات).. وتجسدت أكثر فأكثر في جعل هؤلاء النجوم معبودات تقربنا إلى (الذات) زلفى، نموذجاً لأقصى نجاح يمكن أن يحققه فرد..

.. كل ما في البرنامج.. - (الوثن الأمريكي) - يذكر بقصة ذلك الآدم وذلك الفردوس المستعار.. وليس التسمية فقط[(١)].

أولاً هناك مئات الآلاف من المتقدمين، وليس في رؤوسهم سوى حلم يطاردونه؛ إنه الحلم الأمريكي، حلم الثراء والشهرة والمال، والمزيد من المال. إنه الحلم ذاته الذي كان في رؤوس أولئك الذين خاضوا المحيط من أجل أرض الأحلام. والحلم ذاته الذي لا يزال يضخ الألوف إليها كل عام..

إنها المادة..

وسيكون هؤلاء مجرد أفراد عاديين، جمعهم حب المادة والمغامرة من أجل البدء في سباق سيتنافسون عليه..

---

(١) the american idols, dr. David Cameron http://www.uu.edu/centers/rglee/fellows.html

وستذكرك المنافسة بذلك المبدأ الداروني الذي صاغه سبنسر اجتماعياً بالبقاء للأصلح Survival of the fittest.. وحلقة إثر حلقة ستهيج الجماهير وهي ترى دموع الخارجين من حلبة السباق وقد داسهم من هو أصلح منهم للبقاء.. وكلما احتدَّ الصراع زادت حدة الهياج..

إنه الصراع من أجل البقاء أيها السادة، والناس تتحمس وهي تصفق للقوي وهو يدوس الضعيف (ما دام هذا الضعيف ليس هم)..

وفي النهاية، سيصل إلى سدة النهاية، ذلك الوثن، ذلك المعبود الذي ستتركز عليه أحلام الملايين ومشاعرهم وتعطشهم له (على الأقل لموسم قادم). سيقلده الملايين من الشبان عبر العالم، وستحلم به الملايين من المراهقات، وسيكون بمثابة الأيقونة المعلقة في أذهانهم، لأنه سيكون صنماً، وثناً، تتجسم فيه أحلامهم بما يريدون هم أن يكونوا عليه.. سيتجسم في قصة نجاحه حلم نجاحهم..

سيكون مادة يتعبدون لها وهم يقصدون عبادة ذواتهم..

لكن الطبيعة المادية لكل شيء في حياتهم تجعلهم يريدون (تجسيداً مادياً) لعبادة الذات..

وهذا يتطلب أصناماً، ورموزاً، وأوثاناً..

ويقدمها لهم هذا الوثن الأمريكي.. الذي لا يعبر عن كونه (نجم بوب) إلا عندما نقرؤه بشكل سطحي، **أما في العمق، فهو يعبر عن الوثنية الأمريكية.. في أوضح معانيها.**

.. وكان التمثال المصاحب لعناوين البرنامج، معبراً عن هذه الوثنية أصدق تعبير. إنه صنم حقيقي، تمثال فعلاً، لكن بلا ملامح في الوجه ولا تفاصيل، إنه مجرد تمثال منتصب بشموخ، لكن دون ملامح..

لماذا؟.

لأنه مصمم لأن يضم ملامح الجميع. سيفرغ كل فرد ملامحه فيه، كل فرد سيجعل هذا الوثن الذي بلا ملامح، وثنه هو، يحقق فيه عبادته لذاته، عبر التعبد للنجم، بلا وعي طبعاً. نعم، إنها الوثنية الأمريكية.. ولا شيء سواها.

❁ ❁ ❁

ولأننا استوردنا كل شيء، فإننا استوردنا أيضاً هذا البرنامج، الذي حرص منظموه العرب على عدم إحداث صدمة عبر تسميته بـ (الوثن العربي) أو (وثن العرب).. أو (صنم المسلمين)!!، وإنما اختاروا له تسمية مخففة، ومعبرة أيضاً، وأبقوا على كل التفاصيل الأخرى، وبضمنها التمثال الذي بلا ملامح..

والذي أعد ليكون الوثن في أعماقك دون أن تدري..

وعندما حقق هذا البرنامج نجاحاً كاسحاً، واستُقبل نجومه استقبال الأبطال - حتى لا أقول استقبال الأوثان! - في بلدانهم، بكى شيوخنا وتباكوا على الفضيلة الذبيحة، وعلى الوقت المهدر، وعلى الجيل المائع الذي لم يجد ما يشغله سوى التصويت لمغنٍّ أو لمغنية..

نعم، لقد بكوا الفضيلة والجدِّيَّة والوقت.. فقد كان هذا كل ما رأوه..

ولو علموا الحقيقة الأعمق وراء هذا البرنامج، لو علموا أن الأمر يتجاوز حرمة الغناء، والأذرع والصدور العارية.. ليكون في حدود أخرى لم يتوقعوها ولم يألفوها، لو علموا أن الأمر أخطر مما يعون ومما يعي منظمو البرنامج ونجومه ومموّلوه ومتابعوه.. لبكوا أكثر.. ولربما جلسوا يلطمون في الشوارع.. وسأكون هذه المرة موافقاً على أن الأمر يستحق ذلك، لكني سأتحفظ على الأسلوب!.

.. من حق الأمريكيين أن يعبدوا ما يشاؤون، أنفسهم، ذواتَهم، بشكل مباشر وصريح، أو عبر أوثان تقربهم زلفى إلى أنفسهم..

من حقهم أن يفعلوا ما يريدون، لكن بما أن الأمر قد وصل إلينا - حتى قبل القاذفات والبوارج - فعلينا أن نكون واعين، وواضحين.

أكرر: إن الفردية بوصفها سلوكاً، كانت قبل أمريكا، لكنها كانت سلوكاً ذميماً. مع أمريكا، تحول الأمر من مجرد سلوك بشري مختَلف عليه إلى أسلوب أمثل للحياة، ونمط أفضل للمعيشة، تحول إلى أيديولوجية، إلى مذهب فكري له منظروه ومروجوه..

ومن ثم تحول، في نهاية المطاف، إلى وثنية عبادة الذات.

وهذا كله ثابت وراسخ في قيم الفردوس المستعار..

❁ ❁ ❁

إضاءة.. لا تذرني فرداً..

مقابل تلك الفردية الراسخة عندهم، لا أزال أسمع نداءً خفياً، صوتاً حنوناً وقوياً، لا يزال يتردد، لم تجعله القرون التي تطاولت عليه يخفت.. لا يزال الصوت يقول: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٩].

ربي لا تذرني فرداً..

تلك الصرخة، ذلك النداء، أسمعه اليوم وأنا أواجه ذلك الإعصار القادم من هناك، فأرى فيه معاني مختلفة أكبر من مجرد العقم التقليدي والحاجة إلى الولد.

«لا تذرني فرداً» اليوم تبدو مختلفة..، تبدو الحاجة هنا أعمق من مجرد الحاجة إلى الذرية.

«رب لا تذرني فرداً» تبدو هنا حاجة عميقة إلى نبذ الفردية، والاندماج في رفقة إنسانية تحتوي هذا الفرد وتكسر حواجز ذاتيته من حوله، وتطلقه في مجتمع لا يلغي حدوده تماماً ولا يقسره أو يشطب تميزه..

«لا تذرني فرداً» أراها اليوم أعمق من حاجة زكريا إلى الولد، أم إنه كذلك، مجرد الحاجة إلى الولد؟

.. ولِمَ، يا زكريا، لا تبقى فرداً؟.. أليس ذلك أفضل؟.. أليس كونك فرداً يساعدك على تحقيق طموحاتك الشخصية بشكل أيسر؟.

أليس كونك فرداً يجعلك متحرراً من أعباءٍ وأثقال ستعرقل انطلاقك نحو ما تريد؟..

الأجدر بك أن تكون سعيداً بفرديتك. إنها حريتك الشخصية. إنها واحدة من أهم ممتلكات المرء. بل إنها جوهر وجودك.

وأنت - بهذا - أهم شخص في حياتك.. لم يريد أي شخص أن يطمح لذلك يا زكريا؟

آه، لعلك تحتاج إلى أطفال في شيخوختك يا زكريا، تسعد وتلهو بهم ويلمون شيبتك، ويرثون ما حققته من نجاحات خلال فرديتك يا زكريا..

بهذا، يكون معك حق، ولا يمكن لأحد الاعتراض على ما تريد.

لكن لا..

ليس هذا ما يريده زكريا. إنه لا يريد أن يتخلى عن فرديته من أجل أن يأتيه شخص ويرثه..

و(أنت خير الوارثين).

الأمر أكبر وأعمق من هذا، من مجرد أن يرزق بطفل..

في دعائه هنا لا تلاحظ أنه يريد أن يرزق بطفل؛ إنه يريد أن يخرج من سجن فرديته..

إنه لا يريد أن يبقى وحيداً هناك، فيما تراه حضارة الفردوس المستعار المكان الأمثل لتحقيق الذات..

لكن لا يبدو أن زكريا يريد أن يبقى فيه..

(رب لا تذرني فرداً..).

وعندما يتحقق له ما يريد، ولو عبر الولد، فإن الولد لم يكن مجرد وارثٍ بالمعنى المادي للكلمة.

لقد كان فرداً آخر كسر حواجز فرديته وحب ذاته نحو المشاركة مع فرد آخر يشترك معه في القيم والمفاهيم أولاً..

هذه الأسرة التي نشأت من ذلك تعبر عن هذا المفهوم، مفهوم نشوء جماعة جديدة تتكون من (أفراد) تركوا فرديتهم وراء ظهورهم، وكسروا أسوار ذاتيتهم، وسَّعوا حدودهم نحو الآفاق..

هذه الأسرة - الجماعة - هي المفهوم البديل، المفهوم الذي ينخرط فيه من ترك فرديته وراء ظهره.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٠].

أصلحنا له زوجه؟. لا أتأمل في تفصيل الإصلاح، وهل المعنى هنا مرتبط بالشفاء من كونها عاقراً أو أي شيء من هذا القبيل.

بل أتأمل في (الإصلاح) نفسه، في المصطلح المستخدم هنا، الذي هو الجوهر من هذه الجماعة المتكونة عبر نبذ الفردية.

إنه إصلاح مختلف، والصلاح هنا هو صلاح الجماعة بأسرها، يصلح الزوجة ومن ثم الأسرة، فالجماعة..

الإصلاح مختلف جداً عن ذلك المفهوم الآخر للإصلاح، الذي يكرس الفردية، مفهوم (البقاء للأصلح) الذي قدسته حضارة الفردوس المستعار..

وأتأمل أيضاً في (المسارعة في الخيرات)، فأتخيله إطاراً لنمط العلاقات بين البشر، التسارع في الخير..

ولا أملك إلا أن أتذكر، وأقارن بين مفهوم (المسارعة في الخير) هنا، والذي هو أساس لمجتمع (نبذ الفردية)، وبين مفهوم المنافسة الذي عده سبنسر أساساً لمجتمع يتنافس كل أفراده على البقاء والقوي فيه يلتهم الضعيف، والضعيف يلتهم الأكثر ضعفاً منه..

نعم، تبدو المقارنة موحية جداً ومثيرة للتأمل...

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ الصورة الأسرية المتوازية، مقابل صورة (البقاء للأصلح) الدموية.

و(المسارعة في الخيرات) تقابلها فكرة التنافس بين الأقوياء على التهام الضعفاء..

وكل ذلك بدأ من الفرق الجوهري بين ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ وبين أن فرديتك أهم ما لديك وأنت أهم شخص في حياتك.

أذكر هنا أن التأمل في الصورتين والفروق بينهما يوحي بأن الأمر كله معد مسبقاً. مع أن الذي جذبني نحو تلك الصورة في البداية، لم يكن سوى دعاء نبذ الفردية الذي دعا به زكريا..

فإذا بالصورة تتكامل ملامحها وتنشأ صورة بالضد من ذلك المفهوم الآخر الذي يفرض نفسه بسطوة الحلم الخداع حيناً، وسطوة القوة حيناً آخر.

معد مسبقاً؟ نعم، الأمر معد مسبقاً.. معد مسبقاً خارج نطاق الزمان والمكان، ليظل يبث الإعجاز عبر الزمان والمكان، من المعجزة الوحيدة التي سوف تظل معجزة حقاً..

.. وأساس تلك الصورة كلها، كان ذلك الإيمان بشيء آخر لن تعترف المادة به، المادة التي ارتكزت الصورة الأخرى على الإيمان بها ولا شيء سواها..

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٠].

نعم، أساس تلك الصورة كان أن القيمة العليا في هذا المجتمع، هي الإيمان بما فوق المادة. الإيمان بما تعجز الأبعاد التقليدية عن الإحاطة به، والحواس الخمس عن اقتناصه..

إنه إيمان يتحدى ذلك كله، نحو ذلك الذي ليس كمثله شيء مع أنه السميع البصير..

..وهذا الإيمان كان أساساً في مجتمع ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾.

ألاحظ هنا، أن الخطاب القرآني لم ينكر (الفرد)، لم يعدَّ وجوده خطأ. ولم يُلْغِ إمكانية وجوده.. كما في بعض الأنظمة الحضارية المرتكزة على مفهوم يلغي الفرد تماماً، مثل نظام القبيلة والعشيرة..

لا، لقد أثبت الفردية أولاً، لكنه اتخذها منصة للانطلاق. كان زكريا (فرداً)، لكنه لم يبق حبيساً داخل هذه الفردية، بل قرر أن يتركها.. نحو الأفق الأعلى، البديل عن السور الواطئ للذات.

ولقد بدأ الأمر من ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾.

.. وإثبات هذه الفردية مهم جداً بدايةً. أنت لن تستطيع أن تنصهر في الجماعة ما لم تكن فرداً أولاً. والنظم الحضارية التي (تهمش) فرديتك وتجعلك غير مهتم بذاتك لن تجعل المجتمع ينتفع بشيء من انضمامك إليه.. كما كان الحال في المجتمع الجاهلي حيث لم يكن هناك أي وجود لفرد أو لإرادة أو لمشيئة فردية خارج نطاق القبيلة التقليدية والقبيلة الأكبر..

لكن الإسلام، الذي منذ بدئه استقطب أفراداً، من عشائر وقبائل وطبقات مختلفة، ليكون مجتمعاً بديلاً، أثبت لهؤلاء، وهم في خضم عملية التحول والانتماء البديل، أنهم أفراد، أن لهم وجوداً خارج نطاق العشيرة والمجتمع التقليدي، الذي ما كان من المتصور وجود أفراد خارجه، وبعدما صاروا (أفراداً)، وأحسوا بكيانهم، وذواتهم، قرروا بمحض إرادتهم (الوليدة)، الانتماء إلى الجماعة الأخرى البديلة، التي لا تقوم أواصر الارتباط بين أفرادها على دم أو نسب أو مصاهرة؛ بل أواصر ارتباطها، تقوم على الفكرة، على العقيدة..

وهو أمر كان من المستحيل حدوثه هو نفسه، لولا أن الخطاب القرآني، جعل من الفرد فرداً.. وجعله بعدها، يكسر - طوعاً - ذلك الحاجز الذي يحيط بفرديته.

جعله يحطم تلك الأسوار التي تمنع (الأنا) من الذوبان في الـ (نحن).

جعله يقتحم تلك العقبات الداخلية، التي تحول بينه وبين الآخر.

جعله يقتحم (العقبة)!

الانطلاق من سجن الذات عبر اقتحام العقبة

تقدم لنا سورة البلد، على قصرها، صورة حركية لهذا كله وأكثر..

إنها تصور الإنسان، عندما يكون فرداً، عندما يتصور أنه وحده المهم، عندما يعتقد أنه هو مركز الكون من حوله، عندما تتملكه تلك

القناعة أنه أهم شخص في حياته ..﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٩٠/٥]، لقد تصور ذلك فعلاً، وتلك هي مأساته، أهم جانب من جوانب مأساته أنه لا يعرف أنها مأساة، بل يتصور أن ذاته (أعز ما يملك). إنه لا يرى أبعد من حدود ذاته. وهو يقيس كل الأمور بمنظاره. على الأخص بمنظار مادي يقو م كل شيء بحسابات الربح والخسارة البراغماتية المباشرة .﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد: ٩٠/٦]. وهذا كل ما يهمه، وكل ما يمكن أن يحركه: أنه خسر مالاً هنا، أو ربح مالاً هناك..

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٩٠/٨-٩]. نعم، كانت تلك الحواس دوماً موجودة، وهو يعرفها جيداً، ويستخدمها بأقصى حدود يتخيلها، بأقصى حدود حسيتها..

لكن هذه المرة، يأتي الخطاب القرآني ليذكر أن هذه الحواس عندما توظف بشكل كلي، ستؤدي إلى أن تكون إدراكاً يتجاوز حدود الحسيات التقليدية، إلى ما هو أعمق منها..

إلى (النجدين).. إلى الخيار بين مفترقي طريق لا يمكن لإنسان أن يدركه لو بقي حبيساً في داخل قفص حواسه وفرديته..

ما الذي يحول دون الإدراك، دون الانطلاق؟؟

إنها العقبة، وعليه اقتحامها.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ٩٠/١١]

كيف؟

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ٩٠/١٣-١٦].

هذا هو اقتحام العقبة، هذا هو فن اقتحام تلك العقبة التي تحول بين الإنسان وبين الخروج من فرديته..

إنه العطاء، إنه التواصل مع إنسانيتك عبر الخروج من الحيز الضيق الذي حبستك فيه فرديتك..

إنه أن يكون عطاؤك للآخرين، ونفعهم هو أهم ما عندك، وأغلى ما تعتز به في كيانك وشخصيتك..

ثم؟

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ٩٠/١٧].

لقد كف عن كونه فرداً.. كف عن كونه إنساناً حبيساً داخل عزلته..

وانتمى للجماعة.. بأن اقتحم العقبة.

ظلوم، جهول، كفور... إلى آخره...

الآن أفهم!..

طالما حيرني ذلك، حيرني أن الخطاب القرآني عندما يستخدم لفظة الإنسان، كان يقرنها، غالباً، بصفات سلبية.. ويركز على بعض السلبيات الموجودة في الشخصية الإنسانية..

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٤]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٧]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠٠]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٤]، ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٧]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٦]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ١٥]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ٧٠/ ١٩]، ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٧٥/ ٥]، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ٨٠/ ١٧]، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٩٦/ ٦]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ١٠٠/ ٦]، وحتى عندما

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٩٥/ ٤]، يكون ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٩٥/ ٥]،.. وعموماً ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١٠٣/ ٢]..

نعم، طالما حيرني ذلك، وتعاملت معه بحذر وحيطة .كنت أراقب الطبيعة البشرية فأرى فيها مصداقاً واقعياً لتلك الآيات. كان الأمر في أحيان كثيرة مثل وجه وانعكاسه في مرآة.

وكان ذلك، على واقعيته، محبطاً جداً.. فالأمر الذي يترسب هو أن الفطرة الإنسانية مجبولة على ذلك، مفطورة عليه.. وكان ذلك يعني أن لا أمل هناك، أو أن الأمل ضعيف..

أو، هكذا كنت أظن عندما أتأمل في تلك الآيات.

الآن أفهم!.

تلك الآيات تتحدث عن الإنسان، بصيغة المفرد.

إنها تتحدث عن الإنسان الفرد، الحبيس داخل فرديته..

.. إنها تتحدث عن إنسان آمن بنفسه على أنه أهم شخص في حياته..

وآمن أنه أولاً إنسان (نفسي نفسي).

الآن أفهم..

إنه (ظلوم)، بوصفه فرداً، لكن انفتاحه على الانتماء للآخر، سيكسر هذا الظلم فيه.. ويوازنه نحو العدل.

وهو (عجول)، بوصفه فرداً، لكن الجماعة تمنحه كوابح توقف استعجاله.

وهو (كفور)، بوصفه فرداً، لكنه عندما ينتمي إلى الآخرين قد يصير شكوراً.

إنه (قتور)، بوصفه فرداً، لكنه إذا اقتحم العقبة، سيصير العطاء هويته وحقيقته..

وهو (جهول) بوصفه فرداً، لأنه يرى الأمور من زاوية جزئية، ضيقة، من زاوية شخصية بحتة، لكنه إذا انتمى إلى الجماعة، صار إدراكه أوسع، ونظرته أشمل...

وهو (هلوع) بوصفه فرداً، ضعيف وركيك وخائف، لأنه وحيد، لكن الانتماء إلى الجماعة يقويه، ويزيد من صلابته..

وهو (يطغى) بوصفه إنساناً فرداً، لكن عندما يخرج من عزلته، يصير أكثر توازناً وعدالةً..

وهو (أسفل سافلين)، إذا أصر على أن يظل في قمة تفرده بنفسه، التي هي الهاوية نحو القعر، لكنه عندما يصير مع الذين آمنوا، يعود إلى أحسن تقويم..

.. وعموماً فهو بوصفه فرداً، يكون (في خسر)..

لكن اقتحامه العقبة، انتماءه لجماعة آصرة ارتباطها فكرة وعقيدة.. يعيده إلى الفَلاَح.. والفوز.

شيء واحد فقط في هذا الإنسان المفرد يمكن أن يكون وسيلة تدفعه - بوصفه فرداً - على الخروج من قمقمه..

إنها بصيرته.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٤].

وهي بصيرة لا تكون له إلا فرداً.. ولا يمكن أن تتأتى إذا لم يكن قد أدرك فرديته.. إنها لا تتأتى إذا كان المجتمع حولك يقهر إدراكك ويحجزه

في إطار ضيق.. إذا كان المجتمع يلغيك ويهمشك ويلقنك فحسب، ويمنع عنك أن تدرك بنفسك، فأنت لن تكون عندك تلك البصيرة.

البصيرة لا تأتي إلا من ذاتك. إنها تنبع من داخلك، ولن تنبع إلا من ذاتك. لا تكون بصيرة، ولا تمنحك الرؤية إذا كانت مستوردة قسراً، ملقنة من قبل مجتمع يهمش ذاتك وفرديتك..

إنها البصيرة التي تجعلك تبصر، وتقلع عن عينيك عدسات الآخرين ورؤاهم.. (مهما كانت تلك العدسات تبدو ملائمة لهم).

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٤].

إنها البصيرة التي تتجاوز حدود الحواس الخمس إلى الإدراك، إلى الرؤية الأوسع والأعمق.. إلى المشاهدة.. من دون بصيرة للإنسان لن يتمكن من التقدم إلى الإدلاء بالشهادة..

(الشهادة؟..)!

وتلك البصيرة، هي التي تجعله، يقتحم العقبة..

أتأمل في آصرة أخرى.. غير آصرة الفكرة والإيمان، تربط بين أفراد فلا تربطهم حقاً.. ولا تجعلهم يخرجون من فرديتهم، بل تجعل المجتمع كله ممثلاً في ذاك الفرد المنغلق على نفسه..

مجتمع الإنسان الذي (في خسر).. إنه مكون من عدد كبير من الأفراد، وملايين منهم، ربما عشرات الملايين، لكن كلاً من هؤلاء هو إنسان حبيس داخل فرديته، لذلك يظل المجتمع مجتمعاً مصمماً من أجل الإنسان - الفرد (مجتمع يقدم خدمات لهذا الفرد)..

إنه مجتمعٌ، نعم، لكن آصرة الارتباط بين الأفراد فيه تعتمد على تكريس تلك العقبة، على تقويمها.. على تحويلها إلى سد منيع ومقدس،

عبر تكريس الفردية وتقديسها والنظر إليها على أنها (أغلى ما عندك).. عبر مفهوم (إنك أنت أهم شخص في العالم..)

نعم إنه مجتمع تكوّن عبر أفراد ظلوا أفراداً ولم يقتحموا العقبة.. فظل هذا المجتمع يحمل ذلك (الإنسان) المحمل بكل السلبيات التي أشار إليها الخطاب القرآني..

فلنفكر نحن، في الأواصر التي تربطنا بمَن حولنا، (إذا كان هناك أصلاً من روابط).. هل كونتها الفكرة؟ هل هي أواصر تشكلت عبر اقتحام العقبة؟.. أم إنها مجرد روابط تكونت من أجل أن نحافظ على فرديتنا وذاتيتنا ونرجسيتنا؟..

ويأتينا فرداً..

مقابل صورة زكريا وهو ينادي ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾.

هناك صورة أخرى لفرد ينادي بأن يظل فرداً، مع أنه يريد الولد..

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ١٩/ ٧٧].

في ظاهر الأمر هو يريد الذرية.. مثله مِثل زكريا..

لكن هذا في الظاهر فقط.

زكريا يريد أن يترك فرديته.. عبر ولد يشاركه الفكرة والمبدأ..

وهذا الآخر، يريد أن يكرسها عبر (الولد)..، إنه يريد ولداً ليحمل اسمه.. ليرث أمواله، ليكون له (عزوة).. ليزيد من الأيدي العاملة التي تنتج المزيد من الأموال..

إنه يريد الاستمرار عبر ولده، حتى لو بعد موته، إنه يريد لفرديته أن تظل، أن تستمر، ولو إلى الأبد، ولو رمزاً.

حسناً إذن.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ١٩/ ٨٠].

لقد ظل مصراً على فرديته، مصراً على عدم اقتحام العقبة، حتى عبر أولاده، حتى بعد موته..

ظل مصراً على أن يكون فرداً.

له ما يريد إذن..

..﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ١٩/ ٩٥].

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ١٩/٩٤].

فرداً فرداً..

وسوف يأتونه فرادى ..﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾!!.

الأمر هو، أن هذه الفردية، التي يروج لها على أنها أساس النجاح، وسماد الطموح، وأفق الشخصية، وأهم ما عندك في حياتك.. إلخ، هذه الفردية، ستكون في النهاية، شيئاً مخيفاً جداً..

وستفقد هذا البريق..

﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾..

نعم، إنه مخيف، ومروع، وما يكون مروعاً هناك لا يمكن أن يكون جيداً هنا..

وهو أمر غريب، وملفت للنظر؛ أن يكون هذا الثابت المهم جداً أمريكياً - حسب حضارة الفردوس المستعار - أن يكون هذا الثابت مجلبة للرعب والقشعريرة في ذلك اليوم الحق.

إنها الأمور التي بالخواتيم..

لكن هذا لا معنى له، عند أولئك الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.. وهم عن الآخرة هم غافلون..

أفراد داخل شبكة (أوان مستطرقة)..

في رؤية الخطاب القرآني للعلاقة بين الفرد والجماعة فرق جوهري عنها في رؤية حضارة الفردوس المستعار..

ومن هذه الرؤية، الاختلاف الجوهري الذي فيها، تنبع اختلافات جوهرية أخرى، تشكل صورة للفرد، وصورة للمجتمع، صورة لما هو أهم: للعلاقة بينهما.

يرى الخطاب القرآني المجتمع **كشبكة من الأنابيب قد تكون متعرجة، ومتداخلة، وقد تكون معقدة**، لكن أهم ما في هذه الشبكة أنها متصلة، وأن السوائل التي تجري فيها، توزع نفسها حسب نظرية الأواني المستطرقة.

أي، بغض النظر عن وضع أي أنبوب، فإن مستوى السائل، في أنبوب محدد بشكل مباشر.. سيكون هو نفسه في أي أنبوب آخر من أنابيب الشبكة، وعندما تحدث زيادة، أو إضافة، على أنبوب معين، فإن هذه الزيادة تتوزع بشكل متساو على كل الأنابيب.

كذلك الأمر مع أي نقصان أو فقدان للسائل يحدث لأنبوب معين، فإنه في الحقيقة يحدث للشبكة كلها، وليس للأنبوب المعين..

على العكس من ذلك، تتخيل حضارة الفردوس المستعار أن بإمكانها أن توقف هذه النظرية.. (كما تتصور دوماً أن بإمكانها أن تقلب قوانين الطبيعة وسننها).

تفترض حضارة الفردوس، في رؤيتها للعلاقة بين الفرد والمجتمع، أن بالإمكان التعامل مع شبكة الأنابيب تلك بطريقة أخرى.

إنها تفترض أساساً أن بالإمكان فصل شبكة الأنابيب تلك بعضها عن بعض، فيكون كل أنبوب مستقلاً بذاته (ويحدث ذلك عن طريق سدادة

معينة، تفترض أنها ستتمكن من منع تسرب أي سوائل مع هذه السدادة، ومع كون كل أنبوب مستقلاً - شكلياً - عن الأنابيب الأخرى، فإن السائل الذي يصب فيه، سيزيد منسوب السائل في الأنبوب بعينه، ولن يتأثر منسوب السائل في الشبكة الكلي..)

ممكن أن يزيد السائل حتى يطفو من جوانب الأنبوب، لكن ذلك لن يؤثر في الأنابيب الأخرى، حسب ما يتصورون.

وممكن جداً أن ينخفض منسوب السائل في الأنبوب، لكن ذلك لن يعوض تلقائياً بسائل من الشبكة، كما يحدث في نظرية الأواني المستطرقة.

بعبارة أخرى، يرى الخطاب القرآني الفرد وحدةً اجتماعية صغيرة، متصلة ببقية قنوات المجتمع، بنظرية الأواني المستطرقة، والشيء الذي يحدث في هذه الوحدة، سيتسرب إلى بقية القنوات بشكل متساوٍ (آجلاً أو عاجلاً) (سيئاً أو جيداً).

بينما على الجانب الآخر، في حضارة الفردوس المستعار، ينظر إلى الفرد على أنه كائن مستقل وحده، وما يحدث له، يحدث له فقط؛ سلباً وإيجاباً، إنها حريته الشخصية، إنها حياته الخاصة. (أنا حر!) (أنا حرة!). وما يصلح له، يصلح له حتماً، وليس لأي أحد الحقُّ في التدخل، هذا هو جوهر الفردية التي لا تأبه للأواني المستطرقة.

.. وبعبارة أخرى أيضاً، يرى الخطاب القرآني الفرد (نموذجاً أدنى) لصورة مصغرة للمجتمع، ولكي نتخيل صورة المجتمع كاملة، علينا أن نضاعف هذه الصورة، بعدد أفراد المجتمع.. مليون مرة، عشرة ملايين مرة.

يضع الخطاب القرآني، نموذجاً للفرد، بحد معين أدنى من السلبيات، بخطوط حمراء عليه ألا يتجاوزها، وهذا الفرد - النموذج، هو الذي

يمكن له أن يجعل شبكة الأواني المستطرقة متوازنة.. بحيث أن الضرر لا يعم، ولا يستفحل، وإنما يحجم؛ بما أن الفرد الأكثر شيوعاً، هو فرد ملتزم (بالحد الأدنى المسموح به) وبعدم تجاوز الخطوط الحمراء..

وبعبارة أكثر وضوحاً، ترى حضارة الفردوس المستعار، أن السماء (وهذا هو التعبير المخفف الذي يعبرون فيه عنه عز وجل) لا تكترث كثيراً لما نسميه نحن كبائر وموبقات ونقيم الدنيا ولا نقعدها إذا اقترفت..

من وجهة نظر الفردوس المستعار، ما تسميه قيمنا (زنى)، هو ليس سوى شيء بسيط جداً، كتلة عضلية تدخل تجويفاً عضلياً آخر. هل من كبير مشكلة في ذلك؟ هل حقاً نعتقد أن السماء ستهتم وتغضب لأمر تافه كهذا؟. إنها مسألة تافهة ولا يجب لرجال الدين التدخل فيها. والشيء ذاته يتعلق بتكرار هذا الشيء مع عضلات أخرى وتجاويف أخرى. الأمر الوحيد المهم هنا هو الحفاظ على الصحة العامة، والتأكد من عدم انتقال العدوى.

الشيء نفسه يتعلق بما نستهوله نحن من مجرد التفكير بشرعنة الشذوذ الجنسي. ما ضر لو أن فردين متماثلين فعلا ذلك بعضهما مع بعض؟.

هذا هو ميلهما، وما دام أحدهما لم يقسر الآخر، فلا شيء في ذلك. إنهما لا يؤذيان أحداً بفعلهما هذا.. ولهذا لا مشكلة فيه.

الأمر نفسه يتعلق بالأطفال غير الشرعيين أو الأطفال خارج مؤسسة الزواج، كما يسمون الأمر، ما ضرورة أن يكون الأب البيولوجي موجوداً؟ قد يكون هناك بدلاً عنه صديق لـ (ماما).

وقد يتبدل هذا الصديق كل ستة أشهر، وقد تكون هناك صديقة بدل هذا الصديق وقد لا يكون هناك أي بديل، لا مشكلة في ذلك ما دام الأفراد الذين يتعلق بهم الأمر لا يشكون من ذلك.

لا مشكلة ما دام الصنبور الذي يفصل بين الأنابيب مغلقاً. لن يضير الآخرين ما يفعله فرد منهم.

على الجانب الآخر، نرى الخطاب القرآني وهو يضع نموذجاً للحد الأدنى ينبغي عدم تجاوزه.

والخطاب القرآني بواقعيته يعرف أن من المستحيل على أي مجتمع أن يكون (فاضلاً) مئة بالمئة، لكنه يعرف أيضاً أن الاستسلام لهذه الحقيقة سيفاقم من الأمر وسيزيد من نسبة الشوائب أكثر فأكثر، فالاستسلام المسبق لحقيقة الضعف البشري سيسهل المزيد من الضعف..

الحل حسب الخطاب القرآني هو أن يكون نموذج الحد الأدنى هذا هو صمام الأمان الذي يحمي شبكة الأنابيب المتصلة من أن يزيد المنسوب أكثر مما يجب في جميع مفاصل الأنابيب، أو أن يقل المنسوب لدرجة الجفاف..

نموذج الحد الأدنى هذا، هو النموذج الممتنع عن الكبائر..

الكبائر (المستطرقة)..

كل الكبائر (الذنوب الكبيرة إسلامياً) ضررها الكبير لا يفهم إلا عندما نفهم جانبها الاجتماعي هذا..

للوهلة الأولى قد تبدو مجرد زلات وخطايا بسيطة. هل يهم حقاً لو أن رجلاً ما قد (أخطأ) مع امرأة ما، أو أنه احتسى خمراً وسَكِر؟

ألا يزلُّ الإنسان؟ ألا يخطئ؟ ألا يمكن أن يتوب؟ ألا يمكن أن يندم.. ألا يكفي ذلك؟ لم هذه الحدود والعقوبات الجنائية إذن؟ لم هذا التشديد على الكبائر واقترافها؟.

نعم، لو كانوا أفراداً منفصلين عن الواقع أو المجتمع، يكون هذا الطرح منطقياً..

لكنها الأواني المستطرقة، والفرد هنا هو جزء من شبكة من الأنابيب.

وما يحدث في داخله يحدث تأثيراً - ولو على المدى الأبعد - على المجتمع كله..

الفرد هنا هو مرآة مصغرة للمجتمع. التساهل مع الفرد - لأنه فرد - يعني أن المجتمع كله سيعاني من الشيء ذاته، ولو بعد حين.

كل الكبائر لديها هذا البعد الاجتماعي، الذي يجعل من الفرد وحدة البناء الأساسية، مثل خلية DNA؛ صغيرةٌ ولكنها تضم قصة السلالة كلها..

لو تأملنا الآن في الكبائر، سنجد هذا فيها: **هنا لا يعود عقوق الوالدين مجرد زجر ونهر لهما، بل هجر وانفصال عاطفي ونفسي يؤدي إلى تفكك اجتماعي، ولو غلف ذلك ببطاقات التهنئة في الأعياد..**

.. ولا يعود الزنى مجرد شهوة عابرة، وشخصان تلاقيا وقضى الواحد وطره من الآخر، بل يصير انهياراً كاملاً للبناء الأسري، وطغيان طابع العلاقات العابرة الحسية بين البشر، وإنجاب (أطفال) نتيجة لحسابات وتوقعات خاطئة لتلك العلاقات العابرة..

.. ولا يعود شرب الخمر مجرد احتساء لسائل يفقد الوعي لفترة قليلة من الزمن، بل يصير رغبة لمجتمع في الهروب من واقع معين عبر الكحول والمخدرات..

حتى الفرار من الزحف، لا أراه هروباً من التجنيد الإجباري بقدر ما هو رفض للانتماء والاندماج في المجتمع..

والربا لا يعود مجرد شخصين اتفق أحدهما مع الآخر أن يسمح باستغلال ظرفه لقاء المزيد من الربح، بل يصير طبقة غنية تلتهم قوت طبقة فقيرة..

بعيداً عن القياس، قريباً من المقاصد..

.. من بين عشرات الأحاديث التي تشير إلى الكبائر، يوجد واحد منها (على الأقل) يفسر علاقة الفرد بالجماعة..

الحديث هو «ما أسكر كثيره فقليله حرام»، وأجده هنا يعبر أشد التعبير عن الأمر كله.

ما يضر كثيره، فقليله حرام..

ما يضر المجتمع كله، فهو حرام على الفرد..

في بيتنا (سفينة..)

.. وأجد في حديث السفينة الشهير بعداً آخر..

طالما استعمل للاستدلال على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

أراه الآن أبعد من هذا. أرى السفينة نموذجاً لبيت ومجتمع كامل، ليس كل من فيه ملائكة، وليس كل من فيه شياطين.. بل فيه بشر عاديون.. يخطئون ويصيبون.. ولكن عندما أخطأ نفر منهم وأحدثوا ثقباً من أجل الوصول إلى الماء بسهولة أكبر فإن عواقب الخطأ عمت على الجميع، كما في الأواني المستطرقة..

عندما تسرب الماء من ثقب من السفينة، من موضع ما، كان أن تسرب للجميع.. وأغرق الجميع.. أغرق السفينة بأسرها.. المجتمع كله.

إنها الأواني المستطرقة.. وهي تغرق البيت - المجتمع - السفينة...

عندما تصير الشعيرة ركناً..

كل الشعائر في الإسلام، لديها هذا البعد الاجتماعي الذي يكرس علاقة الفرد بالجماعة بهذا الشكل وبهذه الصيغة خصوصاً.

لكن هناك على الأخص شعيرة تبدو كأنها صممت خصيصاً من أجل تكريس هذه العلاقة التي تذوب من خلالها (الأنا) في الـ (نحن).

لن يكون مصادفةً أن تكون هذه الشعيرة، هي ركناً من أركان الإسلام. وبالذات ركنها الركين الثاني، الصلاة.

بل إني هنا، عندما أتحدث على كون هذا الركن هو الثاني (بالترتيب) مقصود أيضاً، ومصمم من أجل تكريس هذا النوع من علاقة الفرد بالجماعة.

الشهادة أولاً، وبعدها تأتي إقامة الصلاة.

أتأمل في الشهادة مجدداً، شهادة (أن لا إله إلا الله) وأتامل في ذلك الضمير المستتر الذي يتحكم في عائدية الفعل المستخدم (أشهد)..

إنه ضمير مستتر تقديره (أنا)..

و(أنا) هذه، هي التي تصرح بوجودك فرداً، (أنا)، أنا أشهد، أنا وليس غيري، ليس نحن نشهد، ليس هم قد شهدوا، ليس العشيرة ولا القبيلة ولا النظام الشمولي..

أنا، أنا أشهد..

أنا الذي قررت أن أدلي بشهادتي، وهذا يميز كياني كله، ويضع حدوداً لكياني، ويجعلني (فرداً)، وقد كنت من قبل ذلك نسياً منسياً..

كانت حدودك قبلها هباء منثوراً ضمن المجتمع الذي يشيّئك ويجعلك ترساً آخر في عجلته التي لن تكترث لك من قريب أو بعيد..

هذه المرة أنت الذي يشهد... هذه المرة أصبحت فرداً، وهذا الفرد عنده شهادة.. وقد جاء ليدلي بشهادته.. وهذا الضمير المستتر، تقديره أنا، هو إنجاز بحد ذاته .لقد وجدت نفسك أخيراً، وصار لديك ما تدلي به..

.. وتلك الشهادة الملتحمة بالضمير المستتر، ستكون مفتاحاً أكيداً لدخولك الإسلام.

لكنك ستقف معها عند العقبة..

ولكي تدخل أكثر، عليك أن تخرج من الإطار الذي دخلته للتو..

عليك أن تقتحم العقبة!

الصلاة: الأنا في الـ (نحن) والـ (نحن) في الأنا..

وعندها يأتي الركن الثاني ..الصلاة..

وفيها يأتي ضمير مستتر آخر، بتقدير آخر، لن يلغي ذلك الضمير السابق.. ولكن سيحتويه.. ويضمه..

هذه المرة، هذا الضمير، الذي سيسير معك في كل جزء من صلاتك، سيكون بالتقدير (نحن).

لا يمكن أن يكون الأمر مصادفة. وحاشا لله عز وجل ألا يكون قد وضع معنى ومغزى في كل تفصيل من التفاصيل. فكيف بالأركان؟..

وهذا الضمير المستتر الذي تحول من (الأنا) في الركن الأول إلى الـ (نحن) في الركن الثاني.. له دلالات عميقة.. معان كبيرة..

الهجرة: من الأنا إلى الـ (نحن)..

..ويذكرني ذلك بالهجرة من مكة إلى المدينة، حيث تجمع الأفراد (الذين كانوا أنا) ليصيروا (نحن) في أول يوم من نزولهم المدينة؛ عبر

مؤاخاة تقاسم فيها أولئك الأفرادُ المالَ، والبيتَ، بعد أن تقاسموا الفكرة والمبدأ.

وتطربني الآن فكرة أن ذلك كله تزامن مع إقامة أول مسجد في الإسلام، لإقامة الصلاة، كتجسيد شعائري وعملي (ورمزي أيضاً).. لكل تلك المراحل التي مرت فيها (الأنا) بأدوار استحالة.. إلى ال(نحن)..

أنا هنا لا أتحدث عن صلاة الجماعة وفرضيتها، وكونها واجبة أو مندوبة، وكونها فرض عين أو كفاية، أو أجرها ومشقتها، ووجوبها فيما لو سمع الأذان، أو عدمه عند عدم السماع، كل ذلك مهم جداً، لكنني أتحدث في موضوع آخر؛ إني أتحدث عن الصلاة (الإسلامية) بمطلق حالها..

حتى لو صليت بكل انفرادي، في الربع الخالي، أو على قمة جبل، أو على سطح القمر.. إني أتحدث عن شعيرة الصلاة، بغض النظر عن المكان الذي تؤدى فيه، وعدد الأفراد المصطفين في الصف.. أتحدث عن الصلاة، ولو أديتها وحدك منفرداً، في مجرة فارغة تبعد ملايين السنين الضوئية عن أقرب مسجد.

كل ما فيها، هذه الصلاة، يجسد الأنا وهي تستحيل إلى نحن..

كل ما فيها يعكس رؤية الإسلام المتميزة للعلاقة بين الفرد والمجتمع..

من بدايتها، في دعاء الاستفتاح إلى النهاية، حيث التسليم..

دعاء الاستفتاح..

(وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين)..

إنه دعاء إبراهيم.. وعندما تستفتح به صلاتك، **فإنك تتقمص ذلك الدور الإبراهيمي الذي بدأ الإسلام معه، فهو أول المسلمين..**

دعاء الاستفتاح هذا سيذكرك بتلك الرحلة التي استفتحها إبراهيم، بدءاً من تلك الليلة التي بحث فيها عن الحقيقة، رافضاً كل أوثان المجتمع المكدسة، **ومستخدماً عقله** وإدراكه ليعلن: ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَافِلِينَ﴾.

دعاء الاستفتاح ذاك سيضعك على المنصة التي كان فيها إبراهيم، **وتلك الرحلة التي ابتدأت بالتساؤل وانتهت باليقين..**

ويضعك دعاء الاستفتاح على محك تجربة إبراهيم، الذي بدأ (فرداً) وانتهى بأن صار. أمة.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٠].

لقد بدأ الأمر من فرد - وانتهى بأمة..

وعندما تقول تلك الكلمات (وجهت وجهي..) **فإنك تضمر ذلك كله، تضمر القبلة المكية لا بمعناها الجغرافي المجرد، بل بالمعنى العميق لرحلة إبراهيم الذي تقلب بين الآفلين ليبحث عن معبود لا يأفل، وتقلب بين المراكز الحضارية، ليبحث عن حضارة الفردوس المستعاد..**

تضمر أن تنطلق من حقيقة جزئية هي كونك فرداً.. إلى حقيقة أكثر شمولاً؛ في كون هذا الفرد ينتمي إلى ما هو أكبر من مجرد فرديته...

ويبدأ ذلك من دعاء الاستفتاح، منصة الانطلاق تقف عليها الأنا... لتصب في محيط أكبر.. هو (نحن)..

لا صلاة بلا الفاتحة...

وبين الاستفتاح والفاتحة، رحلة تبدأ بالأنا وتنتهي بال(نحن)..

فها أنت ذا هنا تسميه ربّاً للعالمين...، وهذا يضعك على الفور على المحك مع حقية انتمائك الواسع للإنسانية جمعاء، أكبر من انتمائك لذاتك أو لعشيرةٍ أو لقبيلةٍ أو لجماعةٍ صغيرة على هامش التاريخ..

ثم إنك ستستخدم، وأنت تحاوره، ألفاظاً تفيد أنك قد انطلقت من قيود فرديتك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بالضمير المستتر الذي يفيد (نحن)..

لا شيء يمكن أن يغير ذلك.

لا شيء يمكن أن يجعلها (إياك أعبد، إياك أستعين، اهدني الصراط المستقيم)[1]

لا شيء سيغير ذلك، ستظل (نحن) مستترة وطاغية إلى يوم الدين..

لن تخاطبه إلا وأنت كذلك، جزءاً مِنْ (نحن).

كما لو أننا غير مؤهلين لعبادته إلا وقد نزعنا عنا ذلك الغطاء الذي يحتجزنا داخل فرديتنا، واقتحمنا العقبة.. نحو الآخرين.

لكن (الأنا) لن تختفي تماماً في الصلاة، ذلك أنك جزئيات المذاب تتداخل في جزئيات المذيب، لكنها تظل موجودة..

وكلما انحنيت ركوعاً أو سجوداً، ستعود لتستعمل ضمير الأنا.. (سبحان ربي العظيم) ستقول عند الركوع.. و(سبحان ربي الأعلى) عند السجود، لن تقول هنا: (سبحان ربنا الأعلى) أو (العظيم) وأنت في حالة الانحناء تلك.

كم ينسجم ذلك الوضع - وضع الانحناء في الركوع أو السجود - مع

---

(١) مع أني أقسم أن هناك من يريدها كذلك، على الأقل كواقع حال..

حقيقتك بكونك فرداً.. مع ضعفك كونك فرداً.. مع الضعف الإنساني كله.. الذي سيكون حقيقة أكبر عندما تكون فرداً..

وعندما ستقوم من ركوعك، ستقول ما يرجعك إلى ذلك الانتماء الأكبر.. إلى الضمير (نحن). ستقول: (ربنا ولك الحمد..)..

وبين هذا وذاك، وبين كل قيام وركوع وسجود، ستكون تلك الحقيقة الأكبر من فرديتك، ومن كل انتماءاتك... ومن كل الحقائق العابرة الأخرى.

حقيقة أن (الله أكبر).

وعندما تصل إلى التسليم، سيكون السلام (علينا) و(على عباد الله الصالحين)، فهذا الانتماء الجمعي لا فكاك عنه.

وفي تلك التحيات، سيتداخل محمد وإبراهيم، وآل محمد وآل إبراهيم، الاثنان كانا فردين، وانتهيا بأن صارا أمة.. تتعدى الفرد والزمان والمكان..

لست وحدك أبداً...

وعندما تنتهي من صلاتك، ستدير وجهك يميناً وشمالاً لتلقي التحية على من هو بجانبك من الجهتين.. (وقد لا يكون هناك أي أحد).

هل أنت مجنون؟ تلقي التحية على أشباح..

لا، لست مجنوناً، إنك في قمة عقلك، وعدمُ رؤيتك لأحد بجانبك لا يعني أنك وحدك..

فأنت، مادمت موجوداً، ومادمت قد أتممت صلاتك للتو..

فإنهم موجودون فيك..

كما أنك موجود فيهم..

إنها الأنا في النحن.

هذا هو.

هذه هي الصلاة، الركن الثاني من أركان الإسلام.

وهذا ما يميزها بالذات عن الصلاة في بقية الأديان، كتابية أو غيرها..

أعني أن كل الأديان فيها نوع من أنواع الصلاة بمعبودها، من خلال شعيرة تعبدية، يطلق عليها غالباً: صلاة... وهذا يشمل الجميع.

لذلك لا تميز للإسلام من غيره في كون الصلاة مهمة فيه، أو ثانية أركانه..

إنما التميز في هذا الذي تعنيه هذه الصلاة.. في كون الإسلام هو الدين الوحيد الذي تتوجه الصلاة فيه من خلال الجماعة..

هو الدين الوحيد الذي صلاته لا يمكن أن تؤدى بشكل انفرادي (حتى ولو كان المصلي واحداً). الدين الوحيد الذي تعبر الصلاة فيه عن علاقة بالله سبحانه وتعالى عبر ذوبان الأنا في ال(نحن).

الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا تستقيم الصلاة فيه، إلا عبر استقامة علاقة الأفراد بعضهم ببعض، إلا عبر استقامة علاقة الفرد بالجماعة..

إنها ليست تلك النقرات إذن، ولو كانت في منتهى الخشوع، حتى لو كانت دموعنا تسيل مدراراً.. حتى لو كانت قلوبنا ترتجف مثل شمعة في العاصفة.

لا، هذا لا يميز الصلاة في الإسلام، ففي كل الأديان هناك صلاة، ودموع وخشوع... مهما كان رأينا في ذلك، لكن هذا موجود.

الشيء الذي يميز الصلاة في الإسلام، هو أنها تعبر، بشكل شعائري، **عن فلسفة علاقة الفرد بالجماعة.. وتطبيق هذه الفلسفة بشكل عملي، وتجعله أساساً في العلاقة مع الله عز وجل..**

الشيء المميز في هذه الصلاة، هو أنها لا تكون مقبولة إلا عندما يذوب الفرد في الجماعة.

إنها علاقة مركبة، الله عز وجل (وتعالى عن أي جهة) والفرد - الجماعة من جهة أخرى..

وهذا حصري في الإسلام، ليس هناك أي صلاة أخرى في أي دين آخر، تمتلك مثل هذه الصيغة..

وهذا بدوره يعبر عن رؤية الإسلام لعلاقة الفرد بالجماعة، للأواني المستطرقة، للأنا التي تستمد قوتها من الـ(نحن)، للـ(نحن) التي تأخذ التنوع والثراء من الأنا..

هذا هو الركن الثاني من أركان ديننا. هذا هو الثابت الثاني الذي نحتاجه في مواجهة الإعصار.

إنه علاقة الفرد بالجماعة، وانتماؤه الحقيقي لها.. إن المهم في النهاية هو المجتمع.. والعلاقة الأمثل والأكمل والأفضل مع الله عز وجل، هي عبر هذا المجتمع كلاً واحداً.

هذا هو الثابت الثاني، قد تجسد ذلك شعائرياً عملياً في الصلاة، التي هي الحد الفاصل - فقهياً - بين الإسلام والخروج عنه.. (ألا يبدو هذا الآن - بهذا المفهوم - تحصيلاً حاصلاً؟).

إذن الثابت الثاني ليس نقرات نحاول أن تكون خاشعة وتامة الأركان وفي مواقيتها.. بل هو ذلك المفهوم الأعمق لعلاقة الفرد بالجماعة.. وهو

العلاقة التي تناقض مفهوم الفردية الذي هو واحد من أهم ثوابت حضارة الفردوس المستعار، والذي يتسرب إلينا عبر أسماء مختلفة أو أسلوب حياة.. أو حتى بالاسم الصريح الذي لا يتعففون عنه.. الفردية..

سيقولون الآن: ماذا؟ هل تتصورون أنه يمكنكم التقدم خطوة بلا هذا المفهوم الذي سيجعلكم تتنافسون، وسيمدكم بالطموح الشخصي، ويمنحكم الحرية الشخصية؟.

لا تنمية بلا هذه الفردية، لا خطوة إلى الأمام من دونها.. لن يتحسن معدل الدخل الفردي إن لم يكن هناك فردية..

إن لم يقتنع كل فرد منكم أنه هو أهم شخص في حياته، فلا خطوة، ولو واحدة، إلى الأمام.

... لن أقول: إننا على صواب بوضعنا الحالي. بل إنني سأقول: إننا انتهينا إلى فردية خفية هي أشد وطأة من فردية الفردوس المستعار... (على الأقل هم عندهم قوانين تنظم هذه الفردية).

لا أتحدث عما هو موجود الآن.

بل أتحدث عما يجب أن يكون...

وأتمسك بهذا الذي يجب أن يكون.. في مواجهة هذا الذي يريدون له أن يكون (مع أنه يأتي مدججاً بالقاذفات والبوارج، وأجهزة الإعلام، والسلع الاستهلاكية المبهرجة.. ونمط الحياة الذي يقدمونه على أنه النمط الوحيد الممكن). مع ذلك، لا مفر.. من التمسك بثابتنا الثاني: **الفرد في الجماعة.**

أقصد: إقامة الصلاة.

من قال أن أمريكا ستمنعك الصلاة؟

لا ، هي أذكى من ذلك، لو حاولت ذلك لهِجْتَ ومجْتَ وتظاهرت وأحرقت وهددت وتوعدت (وربما نفذت!..).

لكنها ستعاملك كطفل صغير، وستتركك تنقر كما تريد، ولن يضيرها في شيء أن تخشع وتدمع... افعل ذلك كما تريد، فأمريكا غير ملحدة كما تعلمون.

لكنها تريد منك، ودون أن تدري أنت، أن تكون صلاتك مفرغة من أهم معانيها.. أن تكون صلاتك فردية..

أن تكون صلاة منفردة حتى لو كنت تصليها جماعةً في الحرم المكي في صلاة التراويح في ليلة القدر..

إنها تريد أن تسلبك أهم معنى من معاني صلاتك، بل وعلى الأخص المعنى الذي ميز هذه الصلاة عن سواها..

فهل تقبل أنت؟..




الثابت الثالث
اقتصاد (حر) بلا تدخل

لكن هؤلاء الأفراد الأوائل الذين حطوا رحالهم لأول مرة، والذين تميزوا بفرديتهم، والذين بذروا للفردية الأمريكية، احتاجوا أيضاً لشيء آخر غير روح المغامرة والفردية..

لقد احتاجوا لمن يمولهم.. احتاجوا إلى رأس المال الذي يسير تلك الرحلات المكلفة بمقاييس تلك الأيام... حتى كولومبوس، ورحلته التي قام من خلالها باكتشاف أمريكا، كانت ممولة بالكامل من الملك فرديناند الرابع، والملكة إيزابيلا..

ولم يكن هذا التمويل من أجل المغامرة فقط، لقد كان من أجل اكتشاف طريق جديدة للتجارة، للمزيد من الأرباح... والمزيد من الأرباح.. لم يكن التمويل من أجل أرض الحرية، أو مساعدة فقراء أوربة على تحسين مستواهم.. كان من أجل جني الأرباح، والمزيد من الأرباح.

كان من أجل (رأس المال).

ورأس المال، عندما حط رحاله على تلك الأرض، لم يتركها أبداً، بل ترسخ فيها، وتجذر فيها.. وصار ثابتاً من ثوابتها.

عندما التقى الثابتان، الأول (المادية)، والثاني (الفردية)، كان لابد أن يكون رأس المال ثالثهما الذي لا يفارقهما..

وكان لابد لآدم الأمريكي أن يصير رأسمالياً، سواء كان ذلك عبر (سيجار) ضخم في شفتيه، أو عبر هيئة رجال الأعمال، أو من خلال لعبة (مونوبولي monopoly) ـ احتكار ـ يتسلى من خلالها بأوهام أنه احتكر كل شيء لنفسه.

كان لابد أن يتحد الثابتان ـ الأول والثاني ـ لينتجا ذلك الثابت الثالث، الذي يمثلهما قطعاً، ويجسدهما تماماً على أرض الواقع.

ما كان للرؤية المادية (بنكهتها الأمريكية، خصوصاً: البراغماتية، والداروينية الاجتماعية) أن تتجسد على أرض الواقع إلا مع الرأسمالية.

.. وما كان يمكن للفردية إلا أن تكون سماداً ومناخاً ملائماً لنمو الرأسمالية..

وما كان لذلك كله إلا أن يشكل الفردوس المستعار.

تعودنا أن نتعامل مع (الرأسمالية) بوضعها في مواجهة الشيوعية الملحدة الكافرة المقبورة، وفق منطق الحرب الباردة الذي تسلل إلى أفكارنا ومؤلفاتنا ورؤانا، وفشلنا أن نخرج من هذا المنطق حتى بعد أن انتهت الحرب الباردة، بل إن بعض مؤلفينا ومفكرينا لا يزال يعامل الأمر، كما لو أن الحرب الباردة لا تزال ساخنة، وكما لو أنه لم يعلم أنها انتهت..

انتهينا من هذا.. وفجأة نجد أنفسنا، بعد أن كنا مجرد متفرجين على صراع دولي، نقف في مواجهة إعصار لم نكن مستعدين له..

وآن الأوان أن ننظر للرأسمالية وقصة ولادتها دون أن تحظى بامتيازات مزعومة لمجرد مقارنتها بالشيوعية.

كيف ولدت الراسمالية؟..

كان الاقتصاد العالمي، المرتكز أساساً على التجارة العالمية بشكلها

التقليدي، يمر بأزمة من أكبر أزماته، أدى الخروج منها، إلى ولادة عالم جديد... كانت أمريكا من ضمنه..

كان الفكر الاقتصادي وقتها، مقيداً تماماً بال(Mercantilism) والتي كانت بمنزلة عقيدة اقتصادية سائدة آنذاك، ترى أن تكديس الذهب والفضة واستمرار حيازتهما، هو الأساس لدعم استمرار قوة الاقتصاد وثروات الدول[١].

ولما كانت هذه المعادن، موجودة بشكل محدود في الطبيعة فإن الدول كانت تتنافس فيما بينها، على كمية محددة، وتضطر أحياناً إلى الدخول في حروب، واستكشاف مناطق جديدة تحتوي على هذه الثروات. ضمن ذلك الإطار كان اكتشاف أمريكا كما سلف، من أجل المزيد من الذهب، الذي لم يكن مجرد معدن ثمين، بل كان الأساس الاقتصادي الذي تقوم عليه الدول آنذاك..

هذا المفهوم، أدى فعلاً إلى زيادة مخزون إسبانية من الذهب، بما اكتشفته فعلاً من أراضٍ جديدة، ولكنه أدى أيضاً، في نتيجة نهائية إلى (تضخم) لم تستطع معه إسبانية المواصلة، لأنه جعل بضائعها غالية جداً للتصدير، فانتهت بوصفها قوةً اقتصادية، ومن ثم قوة عسكرية..

وهذا كله جعل من الفكر الاقتصادي المعتمد على التجارة (mercantilism) يواجه أزمة حقيقية، خاصة أنه كان يتطلب وجود دولة تنظم هذه المسائل الاقتصادية.

بين هذا وذاك، ومع كل التغييرات التي كان العالم يشهدها، جاء آدم الجديد، بفكر جديد، لا يزال موجوداً حتى يومنا هذا وبقوة[٢].

---

(١) Mercantilism wikipedia the free encyclopedia

(٢) It All Started with Adam, The Freeman; Ideas on Liberty - May 2001, by Mark skousen.

في البدء كان آدم..

آدم الجديد هذا لم يكن أمريكياً في الحقيقة، إنما هو آدم سكوتلندي، لكن فكره ركب أول سفينة[١] وعبر المحيط ليستقر في أمريكا..

يستقر فيها فقط؟ الأمر أكبر، لقد صار هذا الفكر من عوامل الاستقرار هناك... بل صار أساساً من أسس ذلك الفردوس المستعار.

من هو هذا الآدم؟

إنه آدم سميث (Adam Smith)[٢]، الاسكوتلندي المولود في ١٧٠٣ ميلادية، عالم الاقتصاد الذي تغير الفكر الاقتصادي على يديه، إنه صاحب كتاب (ثروة الأمم)[٣] الذي شكل قطيعة جذرية مع كل ما سبق من رؤى اقتصادية.

رأى آدم سميث، أنه يجب ترك السوق وشأنها، دون تدخل من أحد، خاصة من الدول والقوانين التي تشرعها، فالسوق، كما يرى سميث، كانت ستنظم نفسها تلقائياً، فقط لو سمح للأفراد أن يعملوا لمصلحتهم الخاصة دون عوائق أو حواجز قانونية سواء كانت تشريعية أو تنفيذية..

كان سميث، وهو أساساً عالم أخلاقيات، يرى أن كل فرد من أفراد المجتمع يعمل من أجل مصلحته الخاصة، ونيته في ذلك لن تكون سوى مصلحته الشخصية البحتة، لكن ذلك - كما يظن - سيؤدي في النهاية إلى مصلحة عامة لم تكن في نية الفرد بادئ ذي بدء.

كان سميث يرى أيضاً، وكما هو واضح، أن وسائل الإنتاج، سواء

---

(١) It Came in the First Ships: Capitalism in America by Thomas K. McCraw Octrober 12, 1999, http://hbswk.hbs.edu/topic.jhtml?t=bizhistory.

(٢) Adam Smith - Wikipedia, the free encyclopedia, htm

(٣) Wealth of the nations wikipedia

كانت أراضي أو موارد طبيعية أو مصانع، يجب أن تكون ملكاً خاصاً. (ويدخل هذا في التعريف الأساسي للرأسمالية)..

ولما كانت وسائل الإنتاج تابعة للأفراد، ولما كان الأفراد تحركهم نوازع المصلحة، فإن البحث عن الربح سيكون هو المحرك الأساسي للاقتصاد في المجتمع، خصوصاً مع عدم تدخل الدولة في ذلك[١].

وكان سميث يرى، أن عدم التدخل هذا، سيثبت أن السوق يمكن لها أن تتوازن، عبر العرض والطلب، وتحقق أرباحاً، هي في أصلها للأفراد أصحاب وسائل الإنتاج.. لكنها ستعود أيضاً بنفع للمجتمع..

كانت نظرية سميث بدايةً جديدة للفكر الاقتصادي الذي كان إلى حينها مرتبطاً بشدة بالدولة وبسيطرتها. وقد نظر سميث إلى التحولات الاجتماعية العميقة التي صاحبت انهيار عصر الإقطاع والتجارة، نحو بزوغ عصر الرأسمالية الجديد.. وتمثل الأمر، بسحب البساط من أيدي كبار ملاك الأراضي من الإقطاعيين، ووضعها تحت نمط جديد من الناس: أصحاب البنوك، أصحاب المصانع، والسياسيين البورجوازيين الذين صاحبوا هذا التحول وزينوا له.

وخلال القرنين التاليين، شهدت نظرية سميث تحديات كبيرة، من ماركس إلى كيينز[٢]، وشهدت كذلك تطورات كبيرة.. لكن خلال ذلك كله، كان سميث ونظريته دوماً هناك.

والآن، مع سيادة عصر العولمة، والاقتصاد الحر، والسوق الحر،

---

(١) Adam Smith, The Wealth of Nations (New York: Modern Librarey, 1965, (1776) p11.

(٢) The End of Laissez-Faire, Essays in Persuasion John Maynard Keynes (New York: Norton. 1963 (1931) p.312, Keynes's speech was given in 1926.

والسوق الواحدة، يبدو أن آدم سميث قد استطاع أن يتغلب على معارضيه.. وتبدو نظريته كما لو كانت عنواناً رئيسياً من عناوين الصحف الصادرة أمس[١].. وكما يقول ميلتون فريدمان، فإن الأمر قد انتهى نهاية سعيدة! بالنسبة إلى آدم سميث وأتباعه طبعاً، حيث إن الجميع (يسار أو يمين أو وسط) يتحدثون الآن عن فضائل اقتصاد السوق[٢]..

نعم، إنها الرأسمالية، تغير أقنعتها أحياناً، وتحدث شاراتها في أحيان أخرى، تتخلى عن (عدم التدخل) جزئياً إذا كان ذلك سيزيد من ربحها في مرحلة ما، وتعود من جديد إلى مبدأ (عدم التدخل) عندما ترى أن التدخل بدأ يضر بها..

نعم، هي الرأسمالية: (أفراد) يملكون (وسائل الإنتاج)، وهدفهم الربح..

ومن الأفضل أن ندعهم يتنافسون بينهم دون تدخل..

وادعى سميث أن ذلك سيكون أفضل للجميع!!!

عندما يترك الاقتصادي لغة الأرقام (ويتحدث عن الغيب!)

في نظريته تلك، استخدم آدم سميث تعبيراً جديداً، ما لبث أن صار مصطلحاً شائعاً في الأدبيات الاقتصادية.

كان هذا التعبير يختلف عن السائد في لغة الاقتصاد الجامدة، حيث الأرقام والتعبيرات الحركية شديدة الوضوح ولا مجال فيها للتأويلات.

نعم، هذا هو السائد.

---

(١) Ludwig von Mises, Why read Adam Smith Today, in The Wealth of Nations (Washington D, C: Regnery 1998) p. xi.

(٢) Milton and Rose Friedman, Two Lucky People (Chicago: University of Chicago Press, 1998) P.582.

لكن آدم سميث، في موضع معين من كتابه الشهير (ثروات الأمم) ترك الأرقام جانباً، واستخدم تعبيراً مختلفاً، ليعبر فيه عن قناعة عميقة لعلها لا تتفق مع لغة الاقتصاد التقليدية.. (أو مع المظهر التقليدي للاقتصاد).

قال آدم سميث، ما سيتحول فيما بعد ليصير اصطلاحاً معروفاً: إن هناك (يداً خفية invisible hand) تقوم بتنظيم أحوال السوق، العرض والطلب، فيما لو لم يتدخل فيها أحد..

بل قال أكثر من هذا: إن هذه (اليد الخفية) تقوم بتحويل عمل الأفراد، الذين يهدفون إلى مصلحتهم الخاصة فحسب، تقوم بتحويلها إلى مصلحة المجتمع[١].

(اليد الخفية) تفعل ذلك!.

آدم سميث قال هذا؟.

نعم، آدم سميث، المفكر الاقتصادي، بل أهم مفكر اقتصادي على الإطلاق، ومؤسس مذهب الرأسمالية ليس غيره، قال: إن هناك يداً خفية تسيطر على مقدرات السوق، وتعمل من أجل جني المزيد من الأرباح.

لعلها كانت شطحة؟

لا، لم تكن شطحة، فقد كررها واستخدمها مراراً، وتحولت لتصير مفهوماً سائداً... وتعبيراً مكرساً[٢]..

بل إن التعامل مع هذا التعبير (اليد الخفية) ازداد مع مرور الوقت، وتكرس أكثر فأكثر مع انتشار مفهوم السوق الواحدة التي تتجاوز حدود بلد واحد أو قارة واحدة لتضم العالم بأسره.

---

(١) Invisible hand: From Wikipedia, the free encyclopedia.

(٢) Invisible hand and science, petri ylikoski Science Studies 8 (1995): 32-43.

صار هناك الآن من يتحدث عن (دكتاتورية اليد الخفية) باعتبارها وحدها التي تحكم[١].

بل صار هناك، أكثر من هذا، من يستهدف الأحرف الكبيرة، Capital Letters، عندما يريد أن يتحدث عن اليد الخفية Invisible hand وليس مجرد invisible hand.

نعم، لهذه الدرجة، وصل الأمر..

وهل سيكون مصادفة، أن بعض الموسوعات العلمية تشير إلى آدم سميث على أنه (نبي الرأسمالية)[٢].

هل ألمح إلى شيء؟

ربما التلميح بداية، وسيشجعني على الانتقال من التلميح إلى التصريح إن الأمرُ صار مطروحاً صراحة.

مرة أخرى: دين جديد!!

يتردد اليوم، وفي أطياف مختلفة، وعبر قنوات متضادة، القول بأن الرأسمالية، هي بشكل أو بآخر، دين جديد[٣][٤].

يختلف هذا التعبير أحياناً، تارة يقولون: إن الرأسمالية هي دين جديد، وتارة يقولون: إن الاقتصاد، كتعبير أكثر شمولاً، ولكنهم يقصدون

---

(١) the tyranny of the Invisible hand /http/:www.mutualaid.org.

(٢) Adam Smith; capitalism's prophet by Robert L. Formanini- (RePEc: fip: fed-dei: y:2002:n:v:7no1).

(٣) How economics can be seen as religion Samuel Brittan: Financial Times 15/08/02.

(٤) The Promise of Absolute Wealth: Capitalism as a Religion? Christoph Deutschmann Tohoku University Sendal Japan Thesis Eleven, Vol 66, No 1, 32-65 (٢٠٠١)© 2001 Thesis Eleven Pty, Ltd, SAGE publication.

هذا النوع بالتحديد من الاقتصاد.. وأحياناً يقال: إنه السوق، في إشارة إلى اقتصاد السوق المفتوح، الذي يشكل أعلى شكل من أشكال الرأسمالية التي بشر بها آدم سميث[١].

هذا القول موجود، بعضهم يستعمله تنديداً، وبعضهم يستعمله تأييداً، وبعضهم يراه حقيقة واقعة لا مجال للتأييد أو التنديد فيها.

ربما الأمر يختلف بحسب تعريفنا لكلمة دين.. وربما تعودنا أن يكون في الدين أشياء (غيبية) وإيمان بغير المرئي الذي تترفع الحضارة الغربية عن الإقرار به..

نعم، ليس سوى المادة، الأمر محسوم بالنسبة إلى حضارة الفردوس المستعار... أو هكذا يبدو الأمر.

لكن الدين، بعد كل شيء، ليس مجرد أشياء غيبية نؤمن بها، إنه الإطار العام الذي يعطينا قيمنا وأخلاقياتنا، إنه الأرضية العامة التي نقف عليها بينما تمنحنا معتقداتنا ومكونات إيماننا.. إنه الأفق المعرفي والأخلاقي الذي نتحرك في حدوده، ومن خلاله.. وبه يتشكل عالمنا، الذي يحتل رؤوسنا.

نعم، هذا صحيح.. لكنه ليس كل شيء.

الدين فعلاً كل ذلك، لكن هذا ليس كل شيء، لابد من شيء غيبي، العقيدة أو الأيديولوجيا وحدها لا تصبح ديناً، وإلا صارت الاشتراكية ديناً، والماركسية ديناً، والديمقراطية ديناً، والليبرالية ديناً..

الأيديولوجيات لا تصير أدياناً بهذه السهولة، إنها تمنح معتنقيها الأفق المعنوي والقيمي.. لكنها لا تمنحهم الدين.. الدين شيء مختلف.

---

(١) economics as a religion - from samuelson to chicago and beyond - by Robert H. Nelson-psupress.

ويبدو أن الحد الذي يفصل بين هذا وذاك، هو (الغيب).. (الإيمان بشيء خارج عن المرئي).

شيء خفي!

مثل اليد الخفية..؟

لِم إذن يتردد هذا الذي يقولونه (دين الرأسمالية)؟

(دين الاقتصاد)؟.. و(دين السوق؟)[١]

لم إذن يتحدثون عن لاهوت الرأسمالية؟

لَم يتحدثون عن الفكر الاقتصادي[٢] كما يتحدثون عن (لاهوت Theology) ديني[٣].

لِمَ الرأسمالية تحديداً، من دون كل الأيديولوجيات، تعامل الآن على أنها دين؟

الراسمالية بين الأيديولوجيا والعلم الطبيعي..

بدأ الأمر من كون الرأسمالية أو الفكر الاقتصادي الذي يعتنقها، لا يعد نفسه فكراً أيديولوجياً مثل الشيوعية أو الاشتراكية أو القومية أو

(١) the market is the new religion by Daniel singer - the nation magazin january 1, 1998.

(٢) : Toward a Theology of Economics: Arresting Congenital Scarcity by Developing Exchanges Francis Woehrling - journal of markets and morality vo16, no 2 fall 2003.

(٣) : The Global Market Doctrine: A Study In Fundamentalist Theology JOHN McMURTRY/Centre for Research on Global isation 26 mar 04 http://www.globalresearch.ca/articles/MCM403 A.Html 26mar04.

غيرها من الأيديولوجيات، بل يعتقد هذا الفكر، اعتقاداً جازماً أنه فقط يفسر وينظر لما هو طبيعي.. لما هو جزء من قوانين الطبيعة.

الأمر يختلف إذن عن الشيوعية والاشتراكية، إنه أقرب إلى الفيزياء والكيمياء، أو هكذا يصور الأمر ويروج له..

علوم الطبيعة لا تبتدع شيئاً غير موجود في الطبيعة، لكنها تفسر ما يحدث فيها.. تعطي القوانين الرياضية التي تفسر ما حدث منذ نشأت الخليقة، علوم الطبيعة تفسر الظواهر الموجودة في الطبيعة..

القوانين بصيغتها الرياضية ربما تكون معاصرة، لكن الظواهر التي تفسرها موجودة منذ مابعد الأزل بقليل[١].

اقتصاد السوق، أو الفكر الرأسمالي، يعد نفسه أقرب إلى الفيزياء أو الكيمياء منه إلى الأيديولوجية[٢]. إنه يدعي أنه (يفسر) ما يحدث دون أن يستحدث شيئاً. إنه فقط يعطي القانون الرياضي لما هو موجود في العلاقات الاقتصادية السائدة - وهو يستقرئ ما هو موجود فعلاً - ويخرج منها بقانون، ربما صياغته معاصرة، وتطرأ عليها تحديثات بين الحين والآخر.. لكنه يفسر ظاهرة موجودة أصلاً. (هذا ما يدعيه مروجو الرأسمالية بشكلها الحالي). الفكر الرأسمالي، من هذه الناحية، أو على الأقل من وجهة نظر منظريه ومعتنقيه، هو أقرب للفيزياء والكيمياء، لعلوم الطبيعيات، منه للأيديولوجية.. أو للعلوم الإنسانية[٣]..

---

(١) natural sciences- wikipidia the free encyclopedia.

(٢) Us Bioethles? Capitalism is Un Natural! by Narky Commo Tuesday February 01, 2005 Melboune indymedia http://www.axisoflogic.com/artman/publish/article _15334.shml.

(٣) Is Economics a Natural Science? Julie A. Nelson http://www.ase. tufts. edu/ gdae/Pubs/wp/04- 03 economicsacience. pdf.

قوانين الفيزياء والكيمياء وسائر قوانين الطبيعة ممكن أن تستثمر لمصلحة (أو لغير مصلحة) الإنسانية. فهم الطبيعة وسبر أغوارها، عبر قوانين معينة، يمكن أن يسخر ويستخدم في شتى الاستعمالات،... لكن (ظواهر الطبيعة) نفسها، لا يمكن التدخل فيها.. لايمكن تغييرها.. يمكن التوقي من سلبياتها، والاستفادة من إيجابياتها، ولكن لا يمكن التدخل في جوهرها..

فهم وجود الكهرباء في الطبيعة مثلاً، سهل من إمكانيات استخدامها في مجالات الطاقة، وفيما لا يعد ولا يحصى من وسائل.. الفهم نفسه، جعل التوقي من آثار الصواعق، وتحجيم آثارها ممكناً..

لكن الصواعق ظلت تحدث وستظل تحدث.

يمكن فهمها فقط.. ويمكن الاستفادة من هذا الفهم..

ولكن لا يمكن التدخل فيها.

هكذا يرى الاقتصاد الحديث نفسه

إنه يعد نفسه علماً من علوم الطبيعة، يفسر فقط ما هو سائد.. ما هو جزء من قوانين الطبيعة. ما هو جزء مما هو طبيعي.. وبدهي..

وكما لا يمكن التدخل في عمق الظواهر الطبيعية في جوهرها.. فإن علم الاقتصاد، الرأسمالي، اقتصاد السوق تحديداً، يرى، كفكرة أساسية، أنه ينبغي (عدم التدخل).. في أي من العلاقات الاقتصادية.. بل الأمر هو تركها كما هي.. كما تترك الإلكترونات السالبة والبروتونات الموجبة حرة وطليقة في الطبيعة.

بل إنه يرى، أكثر من هذا؛ أن (التدخل) هو أمر ضد الطبيعة، وقد تنتج عنه كوارث غير محمودة العواقب، أكبر بكثير من المساوئ التي قد ينتجها عدم التدخل.

وكانت هذه واحدة من أفكار سميث الأساسية في نظريته الشهيرة، (عدم التدخل.. (دعه يمر) الباب المفتوح.. السوق المفتوح.. أو أي من الأسماء التي اختلفت عبر القرون لمبدأ واحد) وقد وضعه سميث في أواخر الثامن عشر، عندما كان الفردوس المستعار يشكل نفسه.

عدم التدخل إذن!

نعم، عدم التدخل..

ولنعترف أن في هذا مفارقة للأيديولوجيا... لكن هل الاتجاه هو (علوم الطبيعة) فقط؟

أم أنه يتجاوزها؟

... فالوضع هنا أكثر من أن الأيديولوجيا بطبيعتها تقوم على (التدخل).

إنها تقوم على الإيمان بالتغيير، وهذا التغيير يتطلب التدخل؛ سواء من أجل البروليتاريا أو من أجل عرق يعتقد أنه الأفضل، فإن (التدخل) لصيق بالأيديولوجيا..

وعندما يقوم مبدأ على (عدم التدخل).. فإنه يترك الأيديولوجيا حتماً، ويتجه إلى شيء آخر.

بعبارة أخرى، أكثر واقعية، إن مبدأ عدم التدخل الذي أسسه سميث والذي ازداد قوة مع الأيام، خاصة في إعصارنا الحالي هو وجه آخر لعبارة أخرى، أستطيع أن أقولها بضمير مِرتاح.

هذه العبارة الأخرى، هي (الخضوع) (الانصياع) (الاستسلام) لليد الخفية؟

مرة أخرى: هم يقولون: إنه دين جديد..

لكن هذا لن يأخذ الفكر الاقتصادي الرأسمالي من الأيديولوجيا إلى العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء، حتى لو ادعى منظرو الرأسمالية ذلك؛ فالخضوع لا يمكن له أن يصف علاقتنا بالفيزياء والكيمياء!! حتى (عدم التدخل) ليس مصطلحاً وارداً في الحقيقة؛ إننا جزء من عالم نتعايش فيه مع قوانين الفيزياء والكيمياء وغيرها من العلوم الطبيعية المعروفة وغير المعروفة.. التعايش والاستثمار والاستخدام والوقاية، كلها عبارات يمكن أن تصف علاقتنا بالفيزياء والكيمياء..

لكن الخضوع لا..

حتى عدم التدخل، تبدو كلمة ناشزة هنا، ولا علاقة لها بواقع تعاملنا مع العلوم الطبيعية.

الأمر ليس وارداً على الإطلاق مع الفيزياء والكيمياء.

والتأكيد عليه، مع علم الاقتصاد الحر، أو اقتصاد السوق، أو الرأسمالية، ينبهنا إلى وجود فرق أساسي بين العلوم الطبيعية (الفيزياء والكيمياء).. وبين الرأسمالية.. أو علم الاقتصاد..

من البداية جداً نلاحظ أن الفيزياء والكيمياء، لا تشكل رؤانا الخاصة، ولا تملي علينا طرقنا في التفكير.

الفيزياء والكيمياء، وكل علوم الطبيعة من البيولوجيا إلى علم النبات، لا تمنحنا قيمنا الأخلاقية التي نقوم الأمور حولنا من خلالها..

الفيزياء والكيمياء موجودتان منذ وجدنا نحن، وربما قبلنا بكثير!!

لكن ذلك لم يجعلهما، في أي وقت من الأوقات، مشرٌعتان أخلاقيتان..

ولم يحدث في أي مرة، أن تحول قانون من قوانين المغناطيسية أو الجاذبية أو الكهربائية ليصير قانوناً أخلاقياً تستمد منه الإنسانية قيمها وأخلاقياتها ومثلها العليا.

لم يحدث ذلك أبداً في أي من علوم الطبيعة.

لكن الرأسمالية تفعل ذلك!!

إنها تمنحنا قيمنا، تمنحنا رؤانا، إنها تفرض نمطاً معيناً من الحياة، ونمطاً معيناً من القيم، ونمطاً معيناً من التصور للكون من حولنا، وللناس من حولنا، وتفرض أيضاً نمطاً معيناً من العلاقات بين البشر.

وهي بهذا أقرب إلى الأيديولوجيا، منها إلى علوم الطبيعة.

لكنا قلنا: إنها ليست أيديولوجية فهي تقوم أساساً على (عدم التغيير)... وهذا يبعدها عن الأيديولوجيا.

وهي ليست علماً من علوم الطبيعة؛ لأن علوم الطبيعة لا تقدم لنا منظومة أخلاقية.

ليست أيديولوجية ولا علماً طبيعياً..

ما هي إذن؟.

هل هي منزلة بين المنزلتين؟

أم أن الأمر يتجاوز (الحالة الوسط) إلى ما هو أبعد من الاثنين؟؟

لعله سيكون من النافلة القول إن الرأسمالية، أو الفكر الرأسمالي، أو فكر الاقتصاد الحر عموماً يمثل بالنسبة إلى العالم المعاصر الذي نعيش فيه، أكثر من مجرد (علم اقتصاد) وأكثر من مجرد اقتصاد..

الرأسمالية تشكل منظومة أخلاقية وقيمية كاملة، وسواء شعرنا أم لم نشعر، وعينا أم لم نعِ، أنكرنا أو أقررنا، فإن هذه المنظومة تزودنا

بالمنظار الذي نرى الأشياء من خلاله أنها تقهر على أعيننا عدسات لاصقة تجعلنا نرى من خلالها، وتضع ميزاناً واحداً أحادياً لنقوم الأمور كلها من خلاله..

دعونا لا ننكر، دعونا نترفع عن الإنكار والتجاهل..

لقد تسلل الأمر إلينا، صرنا نبحث عن أدلة ونصوص لتؤيده، صرنا نبحث عن أحداث في حياة الصحابة، وأحداث معينة من السيرة، لنغلف هذا الميزان ونعطيه وجهاً شرعياً..

دعونا لا ننكر..

لقد وصلنا إلى هذه المرحلة.

لقد استسلمنا، (لم نتدخل) لكل ما كان يدور..

بعبارة أخرى، كان (**الخضوع**) هو الكلمة المناسبة لوصف ما فعلناه.

وإذ أقول الخضوع هنا، فإني أشبهه بالخضوع المستعمل في الفكر الديني.

إنه الخضوع لقوة عليا..

لمعبود ما..

هل أسميه السوق؟

أم أقول إنه...(يد خفية ما) كما قال سميث؟

أم إن التسميات هنا غير مهمة؟

فتش عن المال...

.. في عالم تحكمه الشركات الاحتكارية عابرة القارات، يبدو أن

الاقتصاد هو العلة الأولى التي تتحكم في كل شيء، من العلاقات بين البشر، إلى العلاقات بين الدول..

فتش عن المرأة كانوا يقولون.

كم يبدو هذا الأمر رومانسياً.

الآن فتش عن المال، فتش عنه في كل ما يدور في العالم، فتش عنه على أنه سبب، ودافع وحافز، فتش عنه فيما دار في الماضي، وما يدور في الحاضر، وما سيدور في المستقبل.

فتش عن المال.. ربما مرة اسمه الذهب، وربما مرة اسمه النفط.. وقد يكون اسمه اليورانيوم أو البلوتونيوم، أو الزئبق.

وقد يكون اسمه عقود الاحتكار... وقوانين تسمح بالمرور... وتسمح بالتنقيب..

تسمح للـ(Laissez fair).

إنه المال.. والمزيد من المال أيها السادة.

هذه هي العلة الأولى، وهذا هو السبب الأول الذي تأتي بعده كل الأسباب... وكل العلل..

لاشيء سوى ذلك، عبر التاريخ ليس هناك سوى ذلك. في العالم كله لم يكن هناك سوى ذلك.

كل الشعارات التي رفعت عبر التاريخ لم تكن سوى شعارات براقة تغلف البحث عن المال.

كل العقائد لم تكن سوى تعبير مبطنٍ أو مباشر على ذلك..

إنه الاقتصاد يحكم كل شيء، ويتحكم في كل شيء، وأنت في النهاية لست سوى مخلوق اقتصادي، دافعك الأول (وربما الأخير)، لا

يمكن أن يجد له أي تطبيق خارج الاقتصاد، وخارج العلاقات الاقتصادية..

تقول لك هذه الرؤية: إن هذا الأمر هو الطبيعة، هوالفطرة، وإن التاريخ كله لم يكن سوى تكرار وتطبيق لهذه الحقيقة.

تقول الرأسمالية: إنها لم تبتدع الأمر؛ كل ما في الأمر أنها وضحته، أنها أنهت التزييف وألغت الشعارات وأظهرت الحقيقة..

هذا ما يريدوننا أن نؤمن به، إنه المال الذي يجعل العالم يتحرك، Money makes the world go round، لا محور آخر غيره يجعل العالم يتحرك.

العالم كله، يدور حول هذا المحور.. يدور حوله (في طواف) قيمي وأخلاقي، يشبه الطواف التعبدي في جوهره، يوم كانت القيم والأخلاق تنبع من (معبود) يمثل هو المحور الذي يدور العالم من حوله.

وهنا خصوصاً، تقع تلك المنطقة التي تجمع الرأسمالية (بشتى أسمائها) مع الدين.. بعد أن عرفنا أنه يفترق عن الإيديولوجية وعلوم الطبيعة.

إنها تشترك مع الدين في كونه يعطي الأرضية الأخلاقية التي تشكل المنطلق والأفق الذي يتحرك فيه الفرد وتتحرك فيه قيمه..

ولنعترف، أن عالم اليوم تسود فيه قيم وأخلاقيات تشكلت من خلال ميزان الرأسمالية، ومنظار الربح وفتش عن المزيد منه..

ولنعترف أيضاً أن الأديان التقليدية قد وجدت نفسها عاجزة عن المواجهة مع وحش الرأسمالية الكاسر، ومع فردوسها المستعار، وفضلت عوضاً عن مواجهة تصورت أنها ستكون خاسرة، أن تنتحي جانباً، لتلعب دور المواساة الروحية للخاسرين في السباق، أو الساقطين فيه، أو

المتعبين منه، الذين يفضلون أن يأخذوا قسطاً من الراحة قبل أن يواصلوا السباق..

...وعندما انسحبت الأديان ومفاهيمها، صارت ساحة القيم خالية.. وكانت الرأسمالية بديلاً لا يبارى، في تشكيل عالم القيم الجديدة.

... وكانت البداية أصلاً، من هذا الادعاء بأن الرأسمالية هي علم من علوم الطبيعة..

كان هذا تمهيداً مباشراً وحقيقياً لكل نتائج الرأسمالية، باعتباره محض نتيجة طبيعية، لشيء طبيعي، إنه محض تحصيل حاصل لابد من التعايش معه... والتأقلم مع إفرازاته..

ومع مرور الوقت، صارت الرأسمالية تستبدل أخلاقياتها وقيمها بالأخلاق والقيم التقليدية.. ومع عجز المؤسسات الدينية وفسادها، صارت الرأسمالية هي دين هذا العصر، بمعنى أنها تلعب الدور الذي لعبه الدين منذ أن عرفت البشرية نفسها.

الاقتصاد الحر هو الحل...!

...كما يتردد عندنا، أحياناً دون عمق، ودون دراسة، أن الإسلام هو الحل. فإن الجانب الآخر، يردد أيضاً وبالطريقة نفسها أن «الاقتصاد الحر هو الحل». أو السوق الحر أو الرأسمالية.

وأنا هنا لا أضع الإسلام بمواجهة الاقتصاد، ولكن أنبه إلى أن (المتدينين) في كلا الجانبين يسلكون السلوك ذاته..

فالإسلاميون يقولون: **إن الإسلام هو الحل**، معتقدين أنه يضم كل الحلول لكل المشكلات التي تواجههم، (وأوافق تماماً أنه يحتوي فعلاً على شيء كهذا، ولكن ليس بطريقة الشعارات السطحية).

... والآخرون، يقولون، بشتى الوسائل: **الاقتصاد هو الحل**... الاقتصاد الحر هو الحل، السوق المفتوح هو الحل.. وهم هنا، يكادون يكونون نسخة طبق الأصل من المنادين بشعار **الإسلام هو الحل**.

فالاقتصاد الحر هو دينهم الذين يدينون به، إنهم يعتقدون أنه يضم كل الحلول لكل المشاكل، وهم يتصورون أنه يوفر القيم والأخلاق والرفاهة التي ستحلُّ - بالتدريج - كل المشاكل الاجتماعية (وبضمنها كما يعتقدون، وجود من يؤمن بشعار مثل الإسلام هو الحل!).

نعم، إنه دين جديد... لكنه لا يسمي نفسه ذلك.. إنه يلعب دوره بحذق، إنه يستبدل بعد أن يستهلك.. ويحل محل أديان تقليدية بعد أن يجعلها عاجزة عن المقاومة..

إنه يبدو كما لو كان يحكي حقيقة علمية باردة مثل «إنه من التأكيد أن حل أهم المشاكل الإنسانية سيقرر فقط على أساس الربح للشركات عابرة القوميات»، كما يؤكد دالي وكوب[١] وكما تروج لذلك كل وسائل الإعلام والمؤتمرات...

لكن خلف هذه الحقائق العلمية، هناك قيم، هناك أخلاق، سيجري انتهاكها، واستبدالها، وإحلال قيم أخرى وسلوكيات بديلة محلها..

خلف تلك الحقيقة العلمية (المفترضة) هناك دين لعله هو الأكثر انتشاراً اليوم.. تدين به المليارات من البشر، مع أنهم يتصورون أنفسهم مسيحيين أو بوذيين أو هندوساً.. أو مسلمين.. وقد يظن بعضهم أنهم بلا دين..

مع أنهم متدينون جداً بالدين الجديد.

---

(١) Herman E. Daly and John B. Cobb. Jr. the Common Good (Boston: Beacon Press, 2nd ed 1994 ، (p178.

دين الرأسمالية ثلاثي الأركان..

ماذا يقول هذا الدين يا ترى؟

إنه يقرر أصلاً أن التاريخ كله بني على البحث عن المزيد من المال.

الربح هو المحرك الأساسي للحياة الإنسانية، وكل التدافع الإنساني يجد له تفسيراً في هذا المحور، وينبغي أن يبقى هذا كما هو لأنه الأفضل، لأنه الأصلح، لأنها الطبيعة كما تريد أن تكون.

... ومن أجل أن يكون ذلك، فإن (عدم التدخل) هو واحد من أهم عقائد الدين الجديد، لا ينبغي على أي حكومة أو مؤسسة أن تتدخل في سير الطبيعة.. بل عليها ترك الأمور على ما هي عليه من تنافس وتدافع..

ولأنه لا دور للحكومة - أو لأي مؤسسة اجتماعية - فإن الأمر إذن هو بين (أفراد) سيتنافسون فيما بينهم على مصالحهم الخاصة في المزيد من الربح، (وهذا يجعل الأمر مرتبطاً بشكل أساسي بالفردية)[١] وبينما يفعلون ذلك سيوفرون فرصاً للعمل هنا وهناك لغيرهم، وسيزيدون من الدخل القومي، ومن معدل دخل الفرد، (ربما) دون أن يكون ذلك في نيتهم انطلاقاً، لكنه يأتي تحصيلاً حاصلاً.

... مادام الأمر كذلك، فهذا الدين طبعاً يؤمن بأن وسائل الإنتاج والثروة يجب أن تكون ملكاً فردياً.. وأن دور الحكومات يجب أن ينحصر في حماية الأفراد وهم يتنافسون فيما بينهم على المزيد من الربح[٢].

---

(١) Capitalism's Pillar: Self-Responsibility by George F. Smith from The Laissez faire Electronic Times Vol 1, No 25 August 5, 2002. Editor: Emile Zola Publisher: Digital Monetary Trust.

(٢) وكما في كل الأديان، فإن هذا المبدأ كثيراً ما اخترق من قبل المؤمنين به، فعدم التدخل كان ينتهك أحياناً لمصلحة الأفراد ولمصلحة استمرار احتكارهم للمزيد من الربح.

نعم، إنه دين جديد ولديه ثلاثة أركان ومبادئ أساسية: الربح، الأفراد، وعدم التدخل.

هل تشعر أن ذلك لا يكفي ليكون ديناً؟..

هل تشعر أن الدين يحتاج إلى خضوع وانصياع لقوة عظمى، هي إله كل دين، بغض النظر عن أي تسميات؟

نعم، معك حق..

أنا أيضاً كنت أشعر بذلك.

وربما كان آدم سميث يشعر بذلك. ولذلك فقد ترك تلك الكلمة الملهمة التي بدت غريبة عن لغة الاقتصاد الباردة، لكنها ما لبثت أن تضخمت.. وترددت.. وصار لها أصداء.. وصارت مصطلحاً شديد الانتشار في الأدبيات الاقتصادية..

إنه مصطلح (اليد الخفية) Invisible hand، الذي استعمله سميث في كتابه ثروات الأمم... اليد الخفية التي قال عنها: إنها تنظم السوق، وتحول النية الفردية الخاصة إلى خدمة المصلحة العامة... وهذه اليد الخفية تعمل على عدم التدخل، والخضوع لها هو الذي يستجلب الخير في النهاية.

ربما لم يكن آدم سميث واعياً بحقيقة الدين الجديد الذي أسسه... لكنه مع الوقت صار، ما تسميه فعلاً بعض الموسوعات، نبياً للرأسمالية.. فما هي العقيدة الدينية، إن لم تكن خضوعاً لقوة خفية؟.

قد يسميها بعضهم إلهاً، ويسميها آخرون وثناً، وقد يسميها آخرون يداً خفية تسير سوقاً اقتصادية وتجلب الفردوس لأتباعها..

نعم، عقيدة دينية..

لقد كان آدم سميث عبقرياً فعلاً عندما ترك ذلك التعبير، لقد عبر عن الجوهر الأعمق لما كان يبدو أنه مجرد نظرية اقتصادية يومها..

لقد عبر عن كونها عقيدة دينية في عمقها الأعمق...

❁ ❁ ❁

وحياتنا المعاصرة تشهد بهذه الحقيقة: «معك قرش بتسوى قرش».

أنت لا تقاس إلا بمعدل دخلك ورصيدك، ومقدار قوتك الشرائية.. كل شيء آخر مجرد تفاصيل لا أهمية لها إلا بمقدار تعلقها بتفاصيل الدخل.. وزيادته.. وجني المزيد من الأرباح.

جوهر الأمر: الخضوع للنتائج

.. والخضوع لهذه اليد الخفية، الذي هو جوهر الرأسمالية، يعني، في النهاية، الخضوع لكل النتائج المترتبة عن الرأسمالية.. سواء كان ذلك ازدياد الهوة بين الفقراء والأغنياء، وزيادة احتكار الأغنياء لمصادر الثروة، أو تدمير البيئة، حتى الحروب والويلات التي يمكن أن تحدث من أجل المزيد من الربح، كلها أمور تصبح، ليست مبررة فقط، بل تصبح تحصيلاً حاصلاً.. تصبح أموراً يخضع لها الجميع بوصفها جزءاً من خضوعهم للفكرة الأساسية..

والتدخل من أجل إحداث أي تغيير في هذا الواقع، سيعد هرطقة وكفراً بهذا الدين القائم على (عدم التدخل).. والذي من المفترض أن يؤدي في النهاية إلى المصلحة العامة.

التدخل هرطقة، التدخل كفر وبدعة، وعلى الحكومة والمؤسسات الرسمية أن (تتدخل) فقط لمنع التدخل.. هذه هي وظيفة الحكومة حسب الدين الجديد..

ويؤسس هذا الدين، أن هذا التدافع من أجل البحث عن الربح لم يكن مبنياً إلا على أساس الفردية، سواء وصل لحد إشعال الحرب بين دول، وأدى إلى تضارب مصالح بين شركات عملاقة عابرة لقارات... إنهم محض أفراد في النهاية، أفراد ويبحثون عن المزيد من الربح، سواء كانوا ملوكاً أو رؤساء أو أصحاباً لشركات عملاقة أو أعضاء في مجلس إدارتها.. إنهم الأفراد... يبحثون عن المزيد من الربح.. وينبغي عدم التدخل..



وللراسمالية أيضاً جنتها الموعودة!

هذه حدود الدين الجديد.

فما ثوابه يا ترى؟.. ما فردوسه الذي يعد به المؤمنين به، كما أي دين يعد بفردوس ما..

إنه فردوس (النمو)!

العبرة النهائية من عدم التدخل، أن النمو سيزيد، سينمو إجمالي الدخل القومي، وهذا سيزيد من معدل الدخل الفردي، وسيزيد الإنفاق.. وستزيد الوظائف، وتزيد الأجور..

هذا هو الفردوس الذي تعد به الرأسمالية. دعوا الأفراد يتنافسون من أجل المزيد من الربح، بلا قيود ولا عوائق - كلما زادت أموالهم، وثرواتهم، فإنهم على الأكثر، سينفقون المزيد من الأموال - ماداموا واثقين أن الحكومة لن تتدخل وتقلص ثرواتهم - وإنفاقهم هذا سيخلق وظائف جديدة، ويعطي أجوراً جديدة، ويشتري سلعاً جديدة وبيوتاً جديدة ضخمة، وهذه البيوت ستحتاج إلى (ديكورات) جديدة وهذا بدوره سيخلق الحاجة إلى وظائف جديدة.. وهكذا..

نعم، إنه (النمو) وفردوس الرفاهية والرخاء، والمزيد من السلع.. إنه النمو الاقتصادي الذي تستخدمه الرأسمالية لتروج لدينها ومعتقداتها، سواء كان ذلك في داخل فردوسها المستعار.. أو في العالم بأسره..

لن أبالغ إن قلت: إن المليارات من البشر، يضعون فردوس (النمو) نصب أعينهم، كما يضع المؤمنون بأي دين فردوسهم الموعود نصب أعينهم، ويكون الوعد بهذا الفردوس، والتحمل من أجله، تصبراً ومواساة على الدرب الذي قد يكون مؤلماً وموجعاً ومليئاً بالعقبات..

لكن الجنة، ونعيمها، الأبديين في حالة الأديان السماوية، يكونان عادة وسيلة لتحمل المسار الدنيوي.

... كذلك هنا، في هذا الدين الجديد، مسار التحول إلى الرأسمالية، وإلى المزيد منها، ثم المزيد منها، يحمل معه مصاعب، ومشاق، الوظائف تقل، والأجور تنقص، والتضخم يزيد..

لكن ذلك كله لا يهم، إنه جزء من صعوبات الدرب، صعوبات الوصول إلى فردوس النمو الموعود..

فلا يقل أحد: إنه ليس بدين جديد!

إذن القبول بالأمر الرأسمالي الواقع، وجعل ذلك بدهية لا تناقش استند على ثلاثة أسس قوية، رسختها الرأسمالية، منظومةً وحيدة للأخلاق والقيم والتصورات.

أولاً: عقيدة غيبية قائمة على الخضوع (لليد الخفية) التي تحرك السوق والاقتصاد، والتي (لا تُسأل عما تفعل).. فهي الأدرى بما هو الأفضل، ولو أننا لم ندرك الحكمة المَرحلية منه.

ثانياً: القبول والتصبر على المصاعب الناتجة من أجل الوصول إلى فردوس النمو الموعود وجنة الرفاهية، والمزيد من التسوق.

ثالثاً: القبول بما يدور نظراً إلى أن الرأسمالية هي علم من علوم الطبيعة، وكل نتائجها النهائية والثانوية تدخل في مجال قوانين الطبيعة التي لا سبيل لتغييرها ولا التدخل فيها..

إنه (عدم التدخل) وقد ترسخ في أذهان المليارات من البشر، صار كل من يقول بغير ذلك - أو يقول بإمكانية وجود شيء غير ذلك - يعد مهرطقاً وكافراً ويستحق أن تعقد له محاكم التفتيش ويحرق كما حرق السحرة والمشعوذون في العصور الوسطى..

أي؛ من يقول: إن (عدم التدخل) ليس أمراً مفروغاً منه، ويحاول أن ينبه إلى نتائجه، فسيكون قد كفر بدين آخر الزمان.. وستلصق به شتى التهم التي تبعد الناس عنه.. من كونه راديكالياً متطرفاً، إلى كونه رجعياً متخلفاً.

... ولن يخلو الأمر من تهمة تربطه بشبكات الإرهاب!

كيف أنقذت الرأسمالية الإنسانية جمعاء بإنقاذها لأمريكا؟!

(كيف أنقذت الرأسمالية أمريكا)[١] هذا هو عنوان واحد من الكتب التي تؤرخ لأمريكا، أو التي تؤرخ للرأسمالية، لا فرق بالنسبة إلى المؤلف وربما لا فرق كبير بالنسبة إلى أي أحد.. فقد كان دافع البحث عن الربح (على أنه شرط من شروط الرأسمالية) هو الذي أدى إلى اكتشاف أمريكا بادئ ذي بدء. وكانت الهجرة الواسعة إليها، استثماراً رأسمالياً في وجه من وجوهها.. ومع مرور الوقت، مرت أمريكا بمراحل متعددة، كانت في حقيقتها مراحل لتطور الرأسمالية. من مجرد استثمار في

(١) How capitalism saved America: the untold history of our country. from pilgrims to the present by Thomas dilorenzo -crown forum - والكتاب حائز على جائزة Ysander spooner في أكتوبر ٢٠٠٤.

أراضٍ زراعية يعتمد بشكل أساسي على استخدام العبيد، إلى صناعة ثقيلة تعتمد على التقانة وعلى الاستخدام الكثيف لرأس المال..

ومنذ المراحل المبكرة جداً، وقبل الولادة الرسمية للولايات المتحدة الأمريكية في ١٧٧٦م، كان هناك بضع شركات احتكارية، تراوحت مجالات استثماراتها بين الأرض والتبغ والعبيد.. وشجع نجاحها المادي على تكرار التجربة، وازدهارها، واستنساخها، إلى أن صارت هذه الشركات هي المشرعة الحقيقية للقوانين في الولايات المتحدة، ومن ثم صارت الرأسمالية، بوصفها شرعة هذه الشركات، شرعة للولايات المتحدة، ودستورها، وصارت حكومة الولايات المتحدة، موظفة وأحياناً معينة.. وإن كانت منتخبة من قبل الشركات الاحتكارية الضخمة[1].

أكثر من هذا، إن محامي هذه الشركات، وخبراءها القانونيين استطاعوا، وعبر سلسلة من التحايلات والخدع والألاعيب، أن يجعلوا من الدستور الأمريكي، يكفل حرية هذه الشركات، على أنها حرية شخصية! فقد استطاعوا أن يفسروا كلمة (أشخاص) الواردة في الدستور الأمريكي، بأنها تشمل أيضاً الشركات العملاقة كونها مملوكة في النهاية لأشخاص.. هكذا انتهى مفهوم (الحرية الشخصية) الذي يصدعون رؤوسنا به إلى أن يصير حرية الشركات العملاقة في التصرف!..

❀ ❀ ❀

... وأكثر من هذا كله، فقد عمد مفهوم الاقتصاد الحر (دعه يمر - دعه يدخل)، إلى إعادة قراءة الولايات المتحدة الأمريكية من جديد، عبر استقراء للأحوال الاقتصادية وللسياسات المتبعة منذ عهد المستعمرات

---

(١) When Corporations Wield the Constitution, by Richard L - Grossman and Ward Morehouse. Nov 2002 htm.

البريطانية، بالتحديد منذ عام ١٦٠٧م في مستوطنة جيمس تاون James Town Settlement إلى العهود الحديثة في عهود ريغان وكليتون..

يرى هذا الاستقراء أن الازدهار الاقتصادي عبر حوالي أربعة قرون كان يتناسب عكسياً مع (التدخل)، كلما حدث تدخل ما، بفرض ضريبة إضافية ما، من أجل ضمان ما، أو من أجل الحفاظ على عمالة ما، أدى الأمر، في نتائجه التراتبية إلى حدوث انحطاط (للنمو).. وانحدار اقتصادي عام..

وعلى العكس من ذلك، يرى هذا الاستقراء أنه كلما سحبت الحكومات يدها من التدخل، وتركت الاقتصاد (حراً)، والسوق (حراً)... أي بعبارة أخرى (الشركات حرة) ازداد النمو الاقتصادي وازدهر ذلك الفردوس الموعود..

... هذه هي خلاصة الفكر الاقتصادي الحديث، كما أرّخه دي لورينزو، مدعوماً بمفكرين اقتصاديين أعلام، مثل آدم سميث، لودفغ فون ميس، ف. أ هايك، مليتون فريدمان، موري روثبارد..

وكانت أمريكا هي الأرض التي ترعرع فيها هذا النوع من الرأسمالية.. حتى تداخل تاريخ كل منهما، ولم يعد يمكن الفصل بينهما..

لم يكن هناك أرض أكثر خصوبة لازدهار الرأسمالية، من أمريكا..

ولم يكن هناك فكر، أكثر ملاءمة للازدهار في أمريكا، أكثر من الرأسمالية..

❁ ❁ ❁

حسناً جداً.

هذا كله قد يكون جيداً للأمريكيين ولحضارتهم ولفردوسهم، ماذا يعنينا من الأمر؟

يستطيعون أن يتبنوا ما يشاؤون من الأنظمة الاقتصادية، وأن يدينوا بها لو أرادوا، يستطيعون أن تكون الرأسمالية دينهم ومنظومتهم القيمية والأخلاقية، وكل أفقهم وكل حياتهم...

ما شأننا نحن...؟

۞ ۞ ۞

الأمر هو، أننا مدعوون إلى هذه الوليمة.. بل إننا، كما هو واضح، مقسورون على المشاركة فيها..

وقبل أن نمد أيدينا للمشاركة.. علينا أن نعرف مكونات هذه الوجبة..

إنها طبعاً مغطاة بالخردل والكاتشب والمايونيز... كما هو كل شيء هناك... لكن تحت هذه الطبقة قد يكون هناك سم دسم، وقد يكون هناك لحم عفن..

وقد يكون هناك لحم محرم... لحم خنزير مثلاً..

علينا أن نعرف..

۞ ۞ ۞

ارقام الفردوس الموعود وحقائقه

فلنتأمل في فردوس (النمو) الذي يعدوننا، ويعدون به المليارات من البشرية..

لن نركز على جوانب الفقر الموجودة في العالم بأسره ونتهم الولايات المتحدة بالمسؤولية عنه.. لا، سنركز على الفردوس المستعار نفسه... ونحاول أن نرى ما هو أعمق من الغلاف الزاهي الألوان، والشعارات البراقة... هناك نمو بأرقام مجردة توحي بالرفاهية والازدهار، رقماً تلو

رقم، قشرة إثر قشرة، نزيلها، وهماً تلو آخر، لنصل إلى عمق الحلم الأمريكي... وحقيقته بالأرقام المجردة.. لنرى ماذا يمكن أن يترسب من هذا (النمو الموعود).

❀ ❀ ❀

إنه عالم الواحد بالمئة!

على الرغم من كل ما تروجه السينما الهوليوودية، فإن في الولايات المتحدة أكبر فجوة بين الأغنياء والفقراء موجودة في الدول المتقدمة صناعياً[(١)].

نعم، فردوس النمو والرأسمالية لم يوزع نموه هذا على رعاياه بالتساوي، بل أحدث فجوة كبيرة بين طبقات المجتمع، وهي فجوة ظلت هوتها تتزايد باستمرار..

فمنذ الثلاثينيات من القرن الماضي، والفجوة بين الأثرياء تتزايد، عندما ازداد معدل الدخل العائلي العام بين عامي ١٩٧٩-١٩٩٢ فإن ٩٨٪ من هذه الزيادة ذهبت إلى ٢٠٪ فقط من العوائل الأمريكية الأكثر ثراء، وبقيت الـ٢٪ الباقية تتقاسمها الـ٨٠٪ من العوائل الأفقر[(٢)]..

والفرق بين معدل الدخل بالنسبة إلى CEO [Chief executive office] (المدير التنفيذي للشركات) وبين معدل الدخل الأمريكي العادي كان ٤٢ ضعفاً في عام ١٩٨٠، وازداد إلى ٤١١ ضعفاً عام ٢٠٠١م.. (أي ازداد عشرة أضعاف) في غضون عقدين فقط (وهذا رقم هائل، خصوصاً

---

(١) Edward N. Wolff, Recent Trends in Wealth Ownership 1983-1998, April 2000.

(٢) income and Inequality:millions left behind Americans for democratic action - february 2004.

لو قارناه بمثيليه في اليابان وبريطانية، حيث يبلغ ١١ فقط في اليابان، ويصل إلى ٢١ في بريطانية)[١].

أما قياس المكافآت بين الـCEO والفرد الأمريكي العادي؛ فهي تبلغ ١٠٠٠ ضعف.

والأكثر من هذا أن الخمس الأغنى من الأمريكيين (أغنى ٢٠٪ منهم) يسيطرون على ٨٣٪ من كل مصادر الثروة. بينما الـ٨٠٪ الأفقر (أي أربعة الأخماس الأخرى) يحصلون على الـ١٧٪ فقط.

وضمن هذا الخمس، هناك نخبة محظوظة، هي الـ١٪ الأغنى، التي تسكت عنها الأرقام الرسمية، وتذيبها ضمن الخمس الأكبر الـ(٢٠٪) الذي يحتويها من أجل ألا تظهر الحقيقة المرة لفردوس النمو الموعود..

هؤلاء الـ١٪ يمتلكون ٤٠٪-٦٠٪[٢] من كل مصادر الدخل.. (مقارنة بـ١٨٪ فقط في بريطانية، التي ستبدو كما لو كانت جنة التوازن الاجتماعي لو قارناها بالولايات المتحدة)[٣][٤].

لكن هذه الأربعين إلى الستين بالمئة من كل الثروة القومية، ستبدو قليلة جداً مقارنة بالحقيقة الأكثر هولاً لما هو أبعد بكثير، وما هو أعمق بكثير خلف هذه الأرقام.

فلو حذفنا قيمة المنازل الشخصية، وصارت القيمة متعلقة بوسائل

---

(١) http//www.inequality.org/execsummay.04.html income and inequality /http://www. ceogo.com /CEOPAY/ statistics.

(٢) Economic Indicators Compiled by the Progressive Review 2001 http://pro-reve.com/statsee2.htm.

(٣) Edward N. Wolff, ibid.

(٤) Time for a Wealth Tax? Edward N. Wolff http://bostonreview. mit.edu/ BR21$$1/wolff.html.

الإنتاج فقط، وإدارة الأعمال، وكل ما يتعلق بها، فإن هذه النخبة التي تشكل ١٪ فقط ستحصل على ٩٠٪-٩٥٪ من كل مصادر الدخل..

والعشرة بالمئة الأغنى - أي العشر الأغنى (ولسنا حتى في الخمس الأغنى) سيحصلون على ٩٩٪ من مصادر الدخل[١].

ماذا يبقى للـ٩٠٪ الباقين من الأمريكيين؟ يبقى الـ١٪، يتقاسمونه ليس كما يريدون، ولكن كما تقتضي قواعد ذلك الفردوس الذي يتحكم في نفوسهم دون أن يعرفوا بالضبط ماذا يدور..

إنه فردوس الـ١٪ فقط، وتسويقه للعالم على غير هذا الأساس يبدو خلطاً وخداعاً كبيرين..

❀ ❀ ❀

وانسجاماً مع هذه الحقيقة، فإن الزيادة الكبيرة في الدخل القومي الأمريكي GNP، التي حدثت بين الأعوام ١٩٨٣-١٩٩٨ ذهبت كلها لطبقة ١٪ حصرياً، والتي تمتعت بزيادة صافية في دخلها قدرها ١٧٪ بعد خصم الضرائب والتضخم طبعاً[٢]..

هذه الزيادة يتوضح حجمها الحقيقي عندما نعلم أن كل الـ٩٩٪ من طبقات الشعب الأمريكي قد هبط دخلها، كلها دون أي استثناء ماعدا طبقة الـ١٪ التي تبدو أن كل ما يدور قد فصّل على مقاسها..

الـ٤٪ التي تلي الـ(١٪) الأغنى، حققت نزولاً طفيفاً جداً (من ٢٢,٣٪ إلى ٢١,٣ من الدخل) أما الأربعون بالمئة الأفقر، فقد نزلت بمقدار ٤ أضعاف ونصف الضعف تقريباً[٣].

---

(١) democracy at risk: rescuing main Street from wall street - a populist vision for the 21st century by jeff gates - published by perseus books may 2000.

(٢) when the bubble burst? Socialism today issue 37 april 1999

(٣) working paper no.300 recent trends in welth growth 1983-1998 Edward N. Wolf.

وعبر أرقام أخرى، فإن الربع الأعلى من الـ١٪، زاد دخلها بمقدار ١٥٣٪ والعشر الأعلى من طبقة الـ١٪ زاد بمعدل ٣٠٠٪[(١)] بينما انخفض معدل دخل الـ٢٠٪ الأفقر بمقدار ١٪.

وفي خلال ست السنوات الفاصلة بين ١٩٨٣-١٩٨٩، زادت ممتلكات أغنى ٥٠٠ عائلة من ٢,٥ تريلون دولار، إلى ٥ ترليونات دولار[(٢)]..

إذن الأمر في النهاية لا يعود ليد خفية تماماً كما قال سميث عندما (أدلج) الرأسمالية.. فقد اتضح أن هناك قبضة حديدية وراء تلك اليد الخفية؛ قبضة الـ١٪)[(٣)].

ما لا نراه في هوليوود..

وبالمقابل، فإن متوسط دخل الأربعين بالمئة الأفقر خلال ١٩٨٣-١٩٩٥ نزل بمعدل الـ٨٠٪[(٤)]..

وفي هذا المجتمع الذي يسوق نفسه على أنه المجتمع - الحلمُ بالنسبة إلى كل شعوب العالم، هناك نسبة (رسمية) تبلغ حوالي ١٢,٥٪ يعيشون تحت خط الفقر الفيدرالي (الرسمي).. هذه النسبة تبلغ حوالي ٣٦ مليون شخص[(٥)]..

---

(١) the matthew effect and fedseral taxation by martin J. mcmahon http: www. law. ufl. edu/faculty/publications/pdf/matt.pdf.

(٢) RESPONSIBLE WEALTH By Donella H. Meadows http:// www.lightparty.-com/ Economic/ Wealth. html.
The Iron Fist Behind the Invisible Hand.

(٣) Corporate Capitalism as a State - Guaranteed System of Privilege by kevin A, Carson http://flag. blackened.net/daver/anarchism/indez.html.

(٤) when the bubble burst? Socialism today -issue 37 april 1999 & working paper no.300,ibid

(٥) U.S. poverty rate up in 03, census reports.
By Joyce Howard Price and S.A. Miller
=

لكن الحقيقة خلف هذه الأرقام الرسمية، أن خط الفقر الرسمي يتناسى، أو يغفل عمداً عن أن المجتمع الأمريكي قد تغير كثيراً منذ الستينيات من القرن العشرين؛ أي منذ أعلن الرئيس ليندون جونسون الحرب على الفقر إلى يومنا هذا، فخط الفقر، المستعمل إلى يومنا هذا كان يضع خطاً وهمياً للحد الأدنى من الاحتياج إلى الغذاء مضروباً في ثلاثة..

لكن الكلفة المتصاعدة للنقل، وللرعاية الصحية، في مجتمع لا يملك وسائل نقل عامة، ولا يملك ضماناً صحياً لكثير من قطاعاته، تجعل من خط الفقر الحقيقي أعلى بكثير من خط الفقر الرسمي هذا، كما تؤكد بعض الدراسات، وتجعل الرقم يصل إلى حوالي ٣٠٪ من السكان، أي حوالي ٧٠ مليون فرد، أغلبهم من الأطفال والنساء والسود[١]..

وحتى لو سلمنا بالأرقام الرسمية لخط الفقر، فإن هناك حقيقة أخرى، هي أن ٤٠٪ من الذين هم تحت هذا الخط، لهم دخل يقل عن نصف الدخل اللازم ليكون المرء على خط الفقر..

❀ ❀ ❀

أين يحدث هذا بالضبط؟

ألا يحكي لنا مروجو الحلم الأمريكي ومسوقوه وسماسرته أن أمريكا هي بلد الفرص، ولا يصورونها لنا كما لو كانت طوق النجاة الذي يقدم للباحثين عن الثروة في كل مكان من هذا العالم المتطلع إلى أمريكا؟؟

= THE WASHINGTON TIMES http://www.washingtontimes.com/national/20040827-121107-4449r.htm

(١) http://www.scoop.co.nz/stories/HL0308/S00011.htm Homeless And Starving in the Land of The Free.
Friday, 1 August 2003, 9:47 pm Column:Jay Shaft.

ألا يقولون لنا: إن كل من جدَّ وَجَدَ في أمريكا، فهل يعقل أن يكون كل هؤلاء الملايين الواقعين تحت خط الفقر، هم مجرد كسالى؟..

نعم، هذا ما يقولونه دوماً، لكن الأرقام تشير إلى شيء آخر، الأرقام تشير إلى أن الـ١٠٪ - ٢٠٪ الأغنى، سيطروا على ٧٠-٨٠٪ في الثروة طوال تاريخ الولايات المتحدة[١].. وأن هذه النسبة، ظلت تتقلص باستمرار، خصوصاً في العقود الأخيرة، لمصلحة طبقة الـ١٪..

وجه الرأسمالية السافر

وللحقيقة، فإن تاريخ الرأسمالية، كان يشمل أدبيات تروج لهذه الأرقام ولتلك الفجوة المتزايدة بين الفقراء والأغنياء على أساس أنها مرحلة عابرة من مراحل التطور الرأسمالي وأن الأمر سينتهي برخاء عميم وبقضاء على الفقر..

أما اليوم، فهذا الكلام الإنشائي - العاطفي - لا وجود له على الإطلاق في أدبيات الرأسمالية المعاصرة، والموجود هو على العكس من هذا، فأدبيات اليوم تروج للإبقاء على الفجوة، بل والحرص على تزايدها باعتبار أن ذلك أمر مفيد للاقتصاد ولتراكم الثروات وزيادة الدخل القومي، بل إن بعض مروجي الاقتصاد الحر من المفكرين الرأسماليين يصلون حدوداً غير متوقعة في هذا المجال. فهناك حديث عن تزايد الفجوة باعتباره أمراً جيداً، وحديث آخر عن تقليص الفجوة باعتباره أمراً غير

(١) Top Wealth Shares in the United States: 1916-2000 Evidence from Estate Tax Returns Wojciech Kopczuk (wkopczuk @ nber.org) and Emmanuel Saez (saez @ econ. berkeley.edu) No 10399, NBER Working Papers from National bureau of Economic Research, Inchttp://www.nber.org/papers/w10339.pdf

عادل[١]! وهناك حديث عن أخلاقيات الرأسمالية بوصفها نموذجاً مثالياً[٢] وعن الأخلاق بوصفها قاعدة أساسية للرأسمالية[٣] وعن الأخلاق الرأسمالية بوصفها أساساً للحفاظ على القيم[٤][٥].

لكن السؤال هو، كيف تسكت كل هذه الملايين عن هذا الوضع؟ كيف تسكت (الأغلبية) الساحقة والتي تشكل ـ في النتيجة النهائية ـ (٨٠٪) من السكان على احتكار ١٪ من السكان للثروة والدخل؟

حلم الثراء.. يخيط الأفواه

هذا السكوت، له عدة جوانب.

ولفهم هذه الجوانب، التي تحيط بهذا السكوت، علينا أن نفهم الطبيعة الطبقية المعقدة للمجتمع الأمريكي (والتي لا تشبه بأي شكل من الأشكال أي نظام طبقي في التاريخ).

ففي المجتمع الأمريكي توجد ثلاث طبقات، واحدة منها فقط هي

---

(١) Don't Narrow My Gap! Why Narrowing "Income Gaps" is Unjust (February 28,2004(capitalism magazine Joseph Kellard by.

(٢) Some Fundamental Insights Into the Benevolent Nature of Capitalism* By George Reisman This article was originally presented as a speech at the Ludwig von Mises Institute on October 19, 2002 and then posted on the Institue's web site on October 25,2002.

* Copyright © 2002 by George Reisman. All rights resrved.

(٣) The Morality of Capitalism The Freeman: Ideas on Liberty - September 1985 by E. Barry Asmus and Donald B. Billings.

(٤) The Moral and the Practicalby Robert W. Tracinskhttp://moraldefense.com/Philosophy/Essays/The - Moral - and - the practical htmi.

(٥) The Moral Basis of Capitalism by Robert W. Tracinskl http://moraldefense.-com/philosophy/Essays/The _ Moral_ Basis of _Capitalism.htm

التي تعمل، وهي مقسمة بدورها إلى أربع طبقات. أما الطبقتان الأخريان فهما لا تعملان[١].

الطبقة الأولى التي (لا تعمل)، هي (لا تقدر) أن تعمل... إنها الفئة المهمشة المكونة من العاطلين عن العمل، والمشردين، والمعوقين وغير المتعلمين. كثيرون من هؤلاء يكونون من الأقليات - ويعتبرون عموماً منبوذين - وقد ينخرطون في أعمال إجرامية تنتهي بهم إلى السجون، وقد يفضل بعضهم السجن (كمأوى) أفضل من حياة التشرد. الاسم الرسمي لهم يتراوح بين الـ(homeless) والـ(outcasts) (المنبوذين). والرقم الرسمي لأولئك الذين هم متشردون حرفياً، أي يبيتون في الشوارع وأنفاق المترو، يبلغ أكثر بقليل من مليونين عام ١٩٩٦م[٢] وقد يصل - إذا قيس حسب وسائل مختلفة - إلى ثلاثة ملايين في بعض الإحصاءات[٣] (أي إن الرقم يدور أيضاً حول ١٪ لكنهم الـ١٪ الأفقر هنا..).

تلي هذه الطبقة التي لا تعمل، طبقة تعمل، وهي تقسم إلى..

المرتبة الأولى - الطبقة التي تستعمل الأيدي (عمال يدويون غير مهرة) ويحصلون على الحد الأدنى من الأجور، من دون أي ضمانات، وغالباً ما يكون ما يحصلون عليه بالأيدي يذهب فوراً لأفواههم، وأفواه

(١) the truth about capitalism by D. Gude http://members.aol.com/dxgude/capital.htm#top

(٢) HOMELESSNESS IN URBAN AMERICA a review of Jan 22, 2001-uc Berkley alumni house literature by heidi sommar

(٣) http;//www,nationalhomeless.org/numbers.html
How Many People Experlence Homelessness?
NCH Fact Sheet # 2
Published by the National Coalition for the Homeless, Septembre 2002

صغارهم hand to mouth، وهم لا يكادون يحصلون على ما يسد الرمق They are barely making it.

المرتبة الثانية - الطبقة التي تستعمل أيديها أيضاً، ولكن مع خبرة (عمال يدويون مهرة) الياقات الزرقاء كما يسمون Blue collar workers، وهم عمال المصانع والنقل، وغالباً ما يكونون بأجور متدنية، وبلا ضمانات كافية، وهدفهم الأول يتركز في الكفاح للبقاء في مرتبتهم، وعدم السقوط في المرتبة الأولى.

المرتبة الثالثة - الطبقة التي تستعمل رؤوسها (أصحاب الياقات البيضاء white collar صحفيون، مشرفون first Line supervisors أساتذة، أكاديميون.. إلخ).

وهؤلاء يحاولون جاهدين الصعود إلى المرتبة الأعلى..

وبعضهم يجد نفسه قد سقط إلى المرتبة الأولى.

المرتبة الرابعة - وتشمل الطبقة التي تستعمل أفواهها بشكل أساسي، الموظفون الكبار في الشركات الكبرى، المديرون رؤساء تحرير المجلات والجرائد الكبرى، كبار الإعلانيين، السياسيون، رجال الأعمال المستقلون، المحامون الذين يعملون لأنفسهم، الأطباء الكبار... إلخ، هؤلاء عادة يتخيلون أنهم يقودون العالم، وأنهم يقفون على قمته، والحقيقة التي يتجاوزونها عادة هي أنهم يعملون عند الطبقة التالية، **العاطلة عن العمل**.

الطبقة الثالثة العاطلة عن العمل هي الطبقة التي (لا تحتاج) للعمل، ولكنها تحصل على أموال طائلة، إنها النخبة الرأسمالية التي تحوز على أرباح عمال الطبقات من المرتبة الأولى إلى المرتبة الرابعة، قد يفضل بعضهم، لسبب أو لآخر، أن يعمل في وظيفة ما، لكن دخله الشخصي

الأساسي يكون من مصدر آخر، هو تلك الاستثمارات الرأسمالية الضخمة..

والمفارقة الكبيرة في الأمر، أن النسبة الكلية لهذه الطبقة العاطلة عن العمل (اختيارياً) هي مطابقة تماماً لنسبة الطبقة العاطلة عن العمل (قسرياً)؛ ١٪... ولكن شتان.

طبعاً هناك بعض التداخل، فقسم من المرتبة الرابعة ينتمي فعلياً للـ١٪، إنهم يعملون، سياسيين، أو مديرين لبنوك، أو أعضاء في مجالس إدارة شركات كبرى، يديرون ويشرفون على أموالهم.. بأنفسهم.. ولكن يظل دخلهم الأساس متأتياً من غير جهد.

مع هذا الوضع الطبقي المعقد، والذي يزداد تعقيداً كل يوم، فإن الطبقة التي تكون عضواً فيها، هي على العموم الطبقة التي ولدك فيها أبواك، أحياناً يحدث تغير، مع الحظ والعمل الجاد تستطيع أن تنتقل إلى مرتبة أعلى من مرتبة والديك، مع أن هذا يزداد صعوبة مع الأيام. وعندما تكون قد وصلت إلى أواخر العشرينيات من عمرك، فإن مرتبتك تكون قد تحددت بشكل شبه نهائي..

مع ذلك، فإن الحقيقة الإحصائية والواقعية، تؤكد أن المولودين في المرتبة الثالثة، أو الحائزين عليها، (وهم أصحاب الشهادات العليا عموماً) يمكن لهم أن يتحركوا إلى المرتبة الأعلى، الرابعة..

هذه الحقيقة على محدوديتها، هي التي تفسر كل السكوت الذي يخيم على الاحتكار الذي تمارسه طبقة الـ١٪ للثروة..

إنه (الوعد بالصعود)... إنه الحلم بالثراء، بالانتقال إلى (مرتبة أعلى). يمتزج هذا الوعد مع عقيدة الفردية التي يستنشق الجميع وجودهم من خلالها... ويصير القبول بالظلم هذا شرطاً من شروط اللعبة التي يلعبها

الجميع.. نعم، إنك ستقبل أن يحتكر الـ١٪ الـ(ثمانين أو تسعين بالمئة) من الثروة مادام عندك فرصة أن تكون جزءاً من هذه الطبقة.

مادام هذا الحلم يداعب مخيلتك، فأنت ترضى باللعبة كلها.. بِشرِّها العمومي، وبخيرها الخصوصي.

وهذا الحلم هو الذي يجعل السكوت مبرراً.

خصوصاً أنه يكون واقعياً ومحتملاً أكثر عند الطبقة رقم (٣)، التي يمكن لها فعلاً أن تحقق بعض الصعود... وهذه الطبقة خصوصاً، هي التي تروج للسكوت ولقواعد اللعبة، وتؤمّن (غض النظر) الذي تحتاجه طبقة الـ١٪ من أجل الاستمرار..

فهذه الطبقة - وتشمل أساساً أصحاب الياقات البيضاء من مثقفين وإعلاميين وأكاديميين - هذه الطبقة تشكل (الرأي العام) الذي يتبناه الناس في الطبقات الأخرى، عبر سيطرتها على وسائل الإعلام والتسلية والترفيه..

ومادامت الطبقة الثالثة تؤمن بقواعد اللعبة، وتؤمن بإمكانية الانتقال إلى مرتبة أعلى، فإنها ستظل تنقل ذلك لكل الطبقات..

(مع أن ذلك - واقعياً - لا يحدث إلا للطبقة التي تضمهم تحديداً، مع استثناء نادر ولكنه موجود، ويخص الفنانين والرياضيين الذين يمكن لهم فعلاً الانتقال من الطبقات الدنيا جداً إلى أعلى الطبقات، ولكن ذلك يظل محدوداً جداً ويخص أصحاب مواهب معينة).

... لكن هذه الطبقة تظل تبث حلم الصعود للجميع، ويظل حلم صبي الحي الفقير (Kid of ghetto) الذي نجح في الوصول إلى فريق كرة السلة (NBA) يداعب خيال الملايين..

... وهو حلم يتحقق أحياناً.. لكن ذلك، إحصائياً، نادر جداً..

وعندما تظل عيناك مصوبة إلى الطبقة الأعلى للصعود إليها، فإنك تغفل غالباً عن النظر إلى السلم الطبقي ككل، وتعجز عن رؤية الظلم المبثوث في عمق هذا التراتب.

بمجرد إيمانك بإمكانية الصعود، فإن ذلك، سيتفاعل مع (الفردية) التي غرست فيك بإتقان.. سيجعلك ذلك مؤمناً بقواعد اللعبة وبنتائجها... ما دام حلم الوصول إلى الـ١٪ ينشب فيك، وفي أعماقك..

خرافة الفرص: بالأرقام والإحصائيات

إحصائياً، حلم الوصول إلى تلك الطبقة هو أشبه بحديث خرافة[١]. والاستثناء الوحيد الممكن قبوله في الأمر هو أولئك النجوم، الذين عرفنا كيف أن ماكنة الدعاية والإعلام (المسيطر عليها تماماً من قبل الشركات الكبرى) تصنعهم وتسوقهم كأيقونات وثنية لكي تتمكن الجموع من التعبد للذات من خلال التقرب للأيقونات زلفى..

.. ولو تأملنا في قائمة فوربس Forbes list التي تشمل أغنى ٤٠٠ شخص في أمريكا لعرفنا حقيقة الأمر بعيداً عن الحلم الأمريكي الذي يروج للصعود والنجاح.

في هذه القائمة: ٤٣,٤٪ من الأسماء الواردة فيها، ولدت أساساً في القائمة... أي إنها موجودة فيها قبل أن تولد، عبر ثروات موروثة لم تبذل أي جهد في الحصول عليها...

١٤٪ من الأسماء، ولدت قريبة جداً من القائمة، عبر حيازتها على ممتلكات تفوق قيمتها مليون دولار...

٦٪ ورثوا ثروات كبيرة جداً، لكن أقل من ٥٠ مليون دولار.

(١) Self - made? Not In America Vol. I No 12 Lead Story Debunking the Myth of the Self - Made Man

ونحو ٧٪ بدؤوا من ثروة تفوق خمسين مليون دولار[١]، الثلث المتبقي، الذي تصفه وسائل الإعلام الماكرة بأنهم صنعوا أنفسهم Self made هم في حقيقة الأمر ينتمون لواحدة من فئتين:

إما فئة انحدرت فعلاً من طبقة دنيا مادياً، ولكن الذي أنجحهم وأوصلهم إلى قائمة فوربس لم يكن الدراسة والكد التقليدي، بل إما الفن أو الرياضة.. وخلف ذلك مؤسسات ضخمة دعمتهم وأوصلتهم (مايكل جوردان مثالاً حالياً على ذلك، وقد يتغير الاسم في أي سنة قادمة لكن النموذج سيظل صحيحاً)..

أما الفئة الأخرى، فهم الذين وصلوا إلى قائمة فوربس عبر الكد والجهد، وغالباً في التخصص في مجال القانون، والذين يوصف وضعهم عادة أنه (مرتاح)، ويكونون قد ولدوا على الأغلب في الـ٢٠٪ الأغنى بحيث أنهم حصلوا على مستوى تعليمي متميز مبكر جداً[٢].

هذه هي حقيقة (حلم الصعود) إذن.

على الرغم من أن الإعلام يمارس خداعاً ومكراً في تقديم نماذج، تخلب ألباب الجماهير، باعتبار قصص نجاحهم، قصص نجاح (شخصية) و(عصامية).. أي إنها صالحة لكل الأفراد في كل الطبقات..

وبينما تروج وسائل الإعلام أسطورة أغنى رجل في العالم (لمدة عشر سنوات على التوالي) بيل غيتس على أنه الرجل الذي بنى مؤسسة

---

(١) - By Richard Muhammad http://straightwords. typepad. com/straightwords ezine/2004/07/.

(٢) BORN ON THIRD BASE: The Sources of Wealth of the 1996 Forbes 400 by Paul Elwood, independent researcher, Cambridge, MA; S.M Miller, Commonwealth Institute, Cambridge, MA. and Marc Bayard, Tara Watson, Charles Collins and Chris Hartman from United for a Fair Economy in Boston, MA.

مايكروسوفت انطلاقاً من مرآب منزله، متناسين، أو متغافلين، عن حقيقة انتماء غيتس الطبقي، فوالده كان محامياً لامعاً ومن أهم المحامين في ولاية سياتل، ووالدته كانت مديرة بنك مهم، وجده لأبيه كان حاكماً للولاية.. وجده لأمه كان مؤسساً لواحد من أهم البنوك الأمريكية، وهو شخصياً كان قد درس في ثانوية كلفتها أكثر من كلفة الجامعة التي درس فيها لاحقاً وهي من أغلى الجامعات كلفة: هارفرد[١]، [٢]، [٣]...

كل ذلك يوضح أن الرجل قد ولد في طبقة ثرية، الـ٥٪ الأغنى على أبعد تقدير وهي طبقة تسمح بالصعود لمراتب أعلى، ضمن الطبقة نفسها..

عالم يحكمه ملأ الواحد بالمئة

ماذا يعني هذا كله؟

إنه يعني أن الأغلبية من السكان في أمريكا سوف تظل حيث هي، حيث ولدت، وهذا يشمل ٧٤-٧٩٪ من السكان يتوزعون على كل الطبقات العاملة الثلاث (حيث إنه ليس كل من في المرتبة الثالثة يستطيع التحرك إلى المرتبة الرابعة) بالإضافة إلى الطبقة غير العاملة قسرياً من المهمشين والمعوقين والمنحرفين..

هناك أقلية لها نسبة تتراوح بين ٢١-٢٤٪ وتشمل جزءاً من الطبقة الثالثة التي تتمكن من الصعود إلى الطابق الرابع، بالإضافة إلى الطبقة الرابعة، وأخيراً هي تضم النخبة الرأسمالية التي تتحكم في ٨٠٪ من الدخل..

---

(١) Learn all about bill gates http://encyclopedia, Lockergnome.com/s/b/Bill Gates.

(٢) The Birth of a Giant Powered by Thunayan Al Emair http:/www.agu.edu.bh/ elun/Vo14- N04/birthof Jiant.htmi.

(٣) How to be as rich as bill gates by Philip greenspan /http://philip.greenspun.-com/bg.

...هناك أيضاً نسبة لا تذكر تتمكن من الإفلات من طبقتها الفقيرة للوصول إلى أعلى الطبقات، ومع أنها تسوق نموذجاً لإذكاء روح السكوت والقبول باللعبة، إلا أن الطبيعة المهنية لهذه النسبة (الفن والرياضة) تحجم من أهمية هذه النماذج.

وهناك فوق كل ذلك، نسبة الـ١٪ التي تسيطر على كل شيء... وتحتكر كل شيء... وتتحكم في كل شيء... وتشرع - بما تملك من وسائل - لكل القوانين التي تُحكِمُ من سيطرتها على كل شيء.

... وهل يعني هذا أن نسبة الـ١٪، ستظل (هي هي) دون تغيير في الأشخاص بأعينهم؟

لا طبعاً، ليس هذا هو المقصود، وإن كان هذا يحدث في أحيان كثيرة، تتغير الأسماء، ويتغير الأشخاص، تنقص ثروات، وتزيد ثروات... ويحدث (تداول) في الثروة.. لكن هذا لا يكون إلا بين الأغنياء.

المال هنا، يتداول بين الأغنياء..

إنه متداول بينهم..

المال هنا، هو ﴿دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ﴾.

لكن هذا الوصف المفزع لاحتكار الثروة والمال في فردوس النمو المستعار يذكرك بشيء. على الأخص هذه الكلمة الأخيرة عن تداول المال، تذكرك بشيء، لست متأكداً ما هو، لكنك تشعر أن هناك شيئاً ما في هذا الوصف، يرتبط في ذاكرتك برابطة معينة..

لست متأكداً، لكن هناك شيئاً ما يبعدني عن كل هذه الأجواء، عن أمريكا وأغنيائها وقائمة فوربس، وحلم الصعود، ونخبة الـ١٪ التي تدفع أقل نسبة ضرائب من كل الـ٩٩٪ الآخرين. شيء ما في هذه الأرقام

والأجواء يذكرني بشيء آخر، ويشدني إليه، مبتعداً عن هذه الأرقام والأجواء..

مشدوداً إلى ذلك الشيء الآخر..

إنه ذلك الكتاب على الرف.

إلى آية محددة فيه.. على وجه الخصوص.

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٥٩/٧].

سيحكون رؤوسهم متفكرين. الآن ما الذي ذكرك بهذا؟ كنا نتحدث عن أمريكا وأثريائها ورأسماليتها ونخبها المحتكرة، ما الذي جاء بهذه الآية الكريمة هنا؟ إنها تتحدث عن الفيء ومنافذ توزيعه، ولا علاقة لهذا بذاك، لا تخلط الأوراق رجاءً، واترك الآية الكريمة في مكانها (معززة مكرمة).

لكن لا... الربط واضح، والشبه صارخ، وهذا التعبير القرآني المعجز ﴿دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾. يتحدى العصور والقرون وظروف الزمان والمكان، ويصل إلى تلك القارة التي لم تكن قد اكتشفت يوم نزوله، ويصل بعبارة واحدة إلى أعمق أعماقها، وعلى الرغم من كل المظاهر السطحية التي تحيط بها..

نعم، إنها دولة فعلاً، تلك الـ١٪ تشرع وتخطط وتسن قوانين وتخوض حروباً وتعين رؤساء ينتخبهم الـ٩٩٪ الباقون، تفرض عقوبات على دول، وتحاصر أخرى... وتحتل أخرى..

نعم، إنها دولة فعلاً، دولة داخل دولة، دولة صغيرة غير مرئية، ولكنها تسيطر وتقود الدولة الرسمية الأضخم حجماً في العالم.

إنها دولة الـ١٪ التي تسيطر على الـ١٠٠٪..

دولة بين الأغنياء (منهم).

سيعترضون هنا، الآية تقول (منكم) أي إنها تخاطبنا نحن المسلمين، ولا تخاطب الأمريكيين، أو أي أمة أخرى.

فلا داعي للخلط مجدداً.

لكن هذا ذاته هو بيت القصيد..

إنني لا أضمر الوعظ لأمريكا... (فتشومسكي يفعل ذلك بشكل أفضل)، لكنني أذكر هنا، أن هذه الـ١٪ لم تنتج إلا من تلك الرأسمالية، وتلك النظرية، ومن ذلك النمو الذي يبشروننا بفردوسه واقتصاده الحر..

وبما أن إعصار ذلك الفردوس يجتاحنا، وهو يفرض قيمه وثوابته علينا.. فإن الـ١٪ أمر يخصنا نحن أيضاً، كما يخص الأمريكيين..

ليس الـ١٪ منهم هو ما يخصنا، بل المبدأ نفسه، مبدأ اللاعدالة الذي سيقدس بينما يتم تغليفه بحكاية النجاح الشخصي والحرية الفردية والكفاح العصامي...

مبدأ الفجوة التي تتزايد كلما زاد الأغنياء غنى وزاد الفقراء فقراً..

إنها الـ١٪ منا، التي ستبرز أكثر فأكثر، كلما سرنا في درب الفردوس المستعار.. واستعارة قيمه وثوابته.

منهم، منكم - لا فرق كبير حقاً..

المهم هنا هو ألا يكون ﴿دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾.

أسباب النزول ليست مسلسلاً رمضانياً آخر (لا يشاهده أحد...)

لا أستطيع فهم آية الفيء هنا كما لو كانت مشهداً في مسلسل تاريخي يحكي لنا عن أسباب النزول، محاطة (بديكورات) تاريخية مهلهلة وفيها جمال ونخيل وصحراء وخيام وبيوت من الشعر وملابس بدوية..

لا ، الأمر أكبر من ذلك كله، إنني أستوعب (ديكورات) المشهد ثم ألغيها، أهضم التاريخ من أجل أن أخرج منه.. وهنا المشهد يمكن أن يتكرر بـ(ديكورات) معاصرة، بين ناطحات السحاب، في أي قارة يمكن تخيلها، ووسط أزياء معاصرة..

نعم، آية الفيء ليست مشهداً في مسلسل تاريخي. ولن نسمح لأي أحد أن يقنعنا بأنها كذلك.

أفهم آية الفيء بأنها تتعامل مع (زيادة كبيرة في الدخل) جاءت إلى المجتمع، وكان تعامل القرآن مع الأمر مختلفاً تماماً عن تعامل الفردوس المستعار مع الزيادة التي طرأت على الدخل القومي، والتي ذهب معظمها لطبقة الـ١٪ حصرياً..

أما القرآن فقد حدد بدقة لمن تذهب الزيادة؛ للطبقات الأفقر من المجتمع..

وحدد أيضاً، وهو أهم هنا، لِمَ فعل ذلك..

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ﴾ [الحشر: ٥٩/٧].

إضاءة

أتامل في (كي) هنا..

لغوياً وقواعدياً هي أداة تعليل.

ولكن عندما تأتي في هذا السياق، **فإنها تصبح مقصداً من مقاصد الشريعة.**

يتحول الأمر من القواعد إلى العقائد. بل لعله يبقى في القواعد، لكن ليس القواعد اللغوية، لكن قواعد البناء الآخر، **قواعد الفردوس المستعاد.**

إنها القواعد التي يقوم عليها ذلك البناء البديل..

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ﴾

الآن أفهم!

وأتأمل فيما يلي هذه الآية.

ليس ما يلي الآية، بل ما يلي هذه العبارة بالضبط ويبقى ضمن الآية نفسها...

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٥٩/٧].

هذه هي تكملة الآية ذاتها..

كي لا تكون دولة...

انتصار الهوامش على المتون

طوال عقود، اختزنتها ذاكرتي الشخصية، وطوال قرون، اختزنها وعينا الجمعي، كانت آية ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ تستخدم في اتجاه آخر تماماً.. وأستطيع أن أقول أن لا علاقة له بـ (الدولة بين الأغنياء) التي جاء ضمن سياقها..

استخدمت الآية، من قبل المؤسسة الدينية التقليدية، وشيوخها ووعاظها ودعاتها، للتشديد على أمور معينة وضعوا عليها شعار (السنة)، ولا أذكر مرة واحدة، ولا حتى مرة واحدة، تحدثوا فيها عن تداول الثروة، واحتكار الأغنياء لها، مع أن هذا كان المقدمة الأساسية التي مهدت لـ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾...

كان هناك تهديد ووعيد منبثق من هذه الآية... لكن (ما آتاكم) كانت تحصر دوماً بإطالة اللحى، وتقصير الثياب، والنزول على اليدين عند السجود ووضع اليدين على الصدر أو البطن أو إسبالهما عند القيام...

﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ كانت تنصب دوماً على عدم إسبال الإزار، وعدم الأخذ من اللحى وعدم نتف الحواجب، وعدم ارتداء الحرير، وعدم ارتداء الذهب (المحلق).

لست الآن بصدد مناقشة هذه الأوامر والنواهي وحقيقة حجمها النسبي من كل (السنة)، لكني أذكر فقط، أن السياق، لم يكن يتحدث عن تفاصيل التفاصيل، وإنما عن مقصد من مقاصد الشريعة...

كان يتحدث عن عدم احتكار النخب للأموال.

كان يتحدث عن التوازن الاجتماعي.

وعن العدالة الاجتماعية..

فكيف وصلنا يا ترى إلى هنا؟ إلى حيث تعد تفاصيل التفاصيل هي أساس (ما أتاكم) و(ما نهاكم عنه).. وننسى الأساسيات والقواعد؟..

كيف وصلنا إلى حيث تنتصر الهوامش على المتون؟

وتنتصر تفاصيل المظاهر والهيئات على الجوهر الأعمق للأمور؟..

هل كان الأمر لأن المؤسسة الدينية التقليدية، ارتبطت، عبر نشوئها، بمؤسسة السلطة التي احتكرت الثروة، حالها حال نخب الملأ في كل زمان ومكان، وفضلت أن تروج للتفاصيل الصغيرة التي ينشغل فيها الناس، لكي تلفت أنظارهم عن الاحتكار الحاصل من قبل السلطة، والظلم الذي يحاصرهم، بينما هم منشغلون بصغار التفاصيل؟؟

أم أن الأمر كان أكثر بساطة، وأن المؤسسة لم تقصد شيئاً، لكن اعتمادها آليات القياس المجزئة بدلاً عن المقاصد العامة، جعلها تصل لهذا؟..

سيّان، النتيجة كانت واحدة..

وفي كل الأحوال، فإن ملأ كل زمان ومكان سيكونون فرحين بالأمر، فرحين بأن آية مثل ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ تتجه نحو اللحية والإزار والحواجب والجوارب ..**وتترك مسائل توزيع الثروة والتوازن والعدالة الاجتماعيين.**

فذلك سيجعل تحكمها بالثروة أيسر، ووقتها سيكون هذا الأمر جزءاً من قدر لا رَادّ له..

لن أدعي هنا، أن الإسلام يحتوي على نظرية اقتصادية متكاملة تصلح لكل زمان ومكان...

ببساطة، ليس هذا هو الأمر... وليس هذا هو الهدف الذي من أجله أنزل الإسلام..

لكني أؤكد أن الإسلام يحتوي على ضوابط، وحدود، وثوابت... تدخل في مجال الاقتصاد (الذي يسميه الخطاب القرآني) - الإنفاق - (ويا للمفارقة!!)..

وهذا الثابت هنا لا يحدد للاقتصاد عمله، ولا يتدخل في بنية العملية الاقتصادية..

لكنه (يتدخل) فقط من أجل إحداث توازن اجتماعي، إنه يحدث تدخلاً لإصلاح كفة الميزان، وهو يتدخل استباقياً أحياناً، لتكون كفتا الميزان أساساً متقاربتين..

نعم، إنه يتدخل من أجل أن تكون الفجوة بين الأغنياء والفقراء متقاربة..

ويتدخل من أجل تقليصها... من أجل ألا تستمر بالتزايد...

نعم، إنه يتدخل، **الإسلام يتدخل**، شاء آدم سميث نبي الرأسمالية أم

أبى، شاء الاقتصاد الحر أم أبى، شاءت معاهدات الجات والنافتا أم أبت.. الإسلام يتدخل..

نعم، إنه يتدخل.

التدخل: ثابتنا الثالث

وليس تدخله هذا عابراً..

بل إن (التدخل) هو جزء من أركانه.

نعم، صدق أو لا تصدق: التدخل هو ركن من أركان الإسلام الخمسة...

في جوهر الأمر، وفي عمق من أعماقه، فإن (الزكاة) ليست نسبة العشر أو نصف العشر أو ٢,٥٪ التي تعدها الفقه التقليدي في أذهاننا...

إنها ليست هذه النسبة التي تدفع على بعض ما كان موجوداً في عهد نزول القرآن، وتنشأ مما هو موجود الآن من مصادر الدخل (كما هو رأي بعض التقليديين).

إنه ليست صدقة يدفعها الثري إلى الفقير على باب الجامع وينتهي الأمر.

إنه، في نهاية الأمر، ألا يكون هناك فقير على باب الجامع..

إنه، الحق المعلوم الذي يستخرج من أموال الأثرياء شعيرةً، عبادةً، تعطى للفقراء، لإحداث التوازن الاجتماعي...

إنه تلك النسبة التي تسحب من الزيادة التي تطرأ على دخل الأثرياء، لتضاف إلى دخل الفقراء، فتقلص الهوة بين الجانبين.. وتمنع ازديادها..

الزكاة، هي تلك العتلة التعبدية التي تعدل الميزان.. وتوازنه..

إنها لن تقضي على وجود الفقر، ولا على وجود الثراء، لكنها ستمنع وجود الفقر المدقع، ووجود الثراء الفاحش... ستكون الزكاة عنصراً يدخل المعادلة فيقلبها... ويمنع استمرار تلك الدورة القديمة (الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً).

الزكاة هي هذه الشعيرة التعبدية التي (تتدخل) لمنع استمرار ذلك الظلم..

نعم، معها، يكون التدخل (عبادة)..

... وأمام دين الرأسمالية الجديد، الذي (عدم التدخل) ركن من أركانه، فإن لدينا في فهمنا الجديد أن التدخل هو ركن من أركان هذا الدين.

وثابت من ثوابته..

ليس هدف الإسلام تكوين مدينة فاضلة خيالية...

وفردوسه ليس (يوتوبيا) لا وجود لها إلا في خيال المفكرين، أو الكتب المركونة على الرفوف في الأبراج العاجية..

إنه ليس عن مجتمع مساواة مطلقة... حيث الجميع أثرياء بالشكل نفسه... (فهذا عادة ينتهي إلى مجتمع الجميع فيه فقراء، باستثناء حكامه!!).

إنه ليس عن القضاء المطلق على كل أشكال الفقر، ولو بإبادة الأغنياء وتوزيع ثرواتهم على الفقراء..

إنه ليس بانتزاع الملكية من أيدي الأغنياء، فالأمر أعمق من أن يكون بأيديهم، إنه في (النفس البشرية)... ولو أخذت الملكية من الأغنياء، ووزعتها على الفقراء - ولو بشكل متساو - فإن (التملك) سيعود ليقوم من أنفسهم كطائر فينيق لا يموت بسهولة...

الإسلام وثوابته لا ينفي الملكية، ولكنه يتدخل بحيث لا تصير هذه (الملكية) وحشاً كاسراً تقوده طبقة الملأ لتحتكر المزيد والمزيد...

الإسلام لا ينفي حق التملك الخاص، لكنه ينفي حق الأغنياء في أن ينفردوا بالثروة، ينفي حقهم في أن يحلقوا دونما قيود بعيداً عن بقية طبقات المجتمع..

إنه لا يضع حدّاً أعلى للملكية لا تجوز مجاوزته..

لا ، ليس هذا ما يضعه الإسلام نصب عينه هنا كأساس في ثابت الزكاة - ركن التدخل - لكنه يضع حداً (أدنى) ينبغي عدم الهبوط تحته..

(والحد الأدنى والحد الأعلى مرتبطان ببعضهما البعض أكثر مما تتصور للوهلة الأولى، ارتباط كفتي الميزان ببعضهما البعض).

وسيكفل هذا الحد الأدنى للجميع، فرصاً متساوية من الحاجات الأساسية... الغذاء... الملبس.. المأوى.. التعليم والصحة.

إنه الحاجات الأساسية التي لو منحت على قدر من المساواة فإنها ستمنح فرصاً معقولة للجميع، لاجتياز فجوة معقولة الحجم والمساحة بين الفقراء والأغنياء.

إنه ذلك الفردوس المفقود، فردوس الحاجات الأساسية المكفولة ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طـه: ٢٠/١١٨-١١٩].

إنه ذلك الفردوس الذي طردنا منه؛ يكفل الحاجات الأساسية، والذي على ما يبدو، ليس من طريق للعودة إليه، إلا إذا استعدنا ذلك التوازن الاجتماعي، وذلك المجتمع الذي يكفل للجميع الضمانات الأساسية..

أمريكا ليست الخيار الوحيد

... وهل أتحدث عن يوتوبيا؟

وإذا كانت أمريكا، وهي أمريكا! تملك في فردوس نموها ٣٦ مليون فقير - رسمياً - فكيف السبيل إلى تحقيق ما أتحدث عنه؟.

لا، ليس يوتوبيا، وإذا كان الإعلام العالمي كله، يروج لأمريكا على أنها أرض الأحلام، فهذا لا ينفي وجود تجارب أخرى؛ لن أنفي هنا أن بعضها رأسمالية أيضاً، ولكنها بنمط آخر من الرأسمالية، غير النمط الأمريكي الذي تروج له وسائل أخرى.

هناك التجربة اليابانية التي تملك قدراً أكبر من العدالة الاجتماعية، وهناك النمط الألماني - الفرنسي (أو ما يسمى بالرايني) من الرأسمالية الذي يمنح الجميع ضمانات معقولة، على الرغم من وجود أثرياء ورأسماليين إلا أن نسبة الفقراء أقل...

...وهناك أيضاً دول نجحت في تقليص الهوة بين الفقراء والأغنياء، مثل عموم الدول الاسكندنافية..

وأنا لا أقول هنا: إنها دول تحقق نمطاً إسلامياً من التوازن الاجتماعي، إنما أقصد فقط أن الإسلام لا يتحدث عن يوتوبيا غير ممكنة التحقيق، وأن كل ما هنالك في هذا العالم هو الكابوس الأمريكي الذي يروج على أنه أفضل حلم ممكن الحصول عليه...

وعتلة التوازن الاجتماعي هذه، المسماة بالزكاة، ليست بأي شكل من الأشكال، مؤسسة للعمل الخيري، إنها ليست جمعية خيرية يشترك في افتتاحها رجال الأعمال وزوجاتهم، ويجدونها فرصة لالتقاط الصور التي ستزين لاحقاً صفحات المجتمع في المجلات.

إنها ليست مناسبة للرياء والتشاوف واستعراض الملابس والمجوهرات.

وهي بالتأكيد ليست مناسبة للأثرياء ليثبتوا أن أياديهم بيضاء وأن قلوبهم رقيقة.

الزكاة ليست فضلاً من الأغنياء، وليست مِنَّة منهم... إنها (حق معلوم) إنها فريضة، إنها ركن من أركان الدين...

ليس هذا فقط: الزكاة عندما يدفعها الأثرياء لا تحسب في مصلحة الفقراء فحسب، بل إنهم هم أيضاً يستفيدون منها، تحصيلاً حاصلاً نهائياً....

عندما تكون ثرياً، فإن ثراءك وأموالك كلها لم تأت من فراغ قطعاً؛ لقد أتت من المجتمع، سواء كانت إرثاً عائلياً، أو ناتجاً من جهدك الخاص في العمل والكد والتحصيل الدراسي، أو مزيجاً مثمراً من الاثنين معاً...

في كل الأحوال، إنه المجتمع الذي منحك هذه الثروة، ولو أنك كنت تعيش في فراغ مطلق اجتماعياً - لو كانت هناك فرصة كهذه - لما وصلتك أي ثروة.

والمجتمع الذي كان بطريقة ما، قناة لإيصالك إلى الثروة، أو لإيصال الثروة إليك، يتطلب منك، أن تدفع - عبر القناة نفسها - ما يسدد دينك نحو ذلك المجتمع..

الزكاة هنا نوع من آلية التغذية الارتجاعية ..feedback التي توازن الأمور، إنه يسدد للمجتمع كله دينه عبر الزكاة..

وهي في الوقت نفسه تؤدي دور صمام الأمان الذي يكفل للجميع العيش في مجتمع أمين ومتوازن..

فمجتمع الضمانات المكفولة للجميع، ينزع فتيل الجرائم، ويبطل مفعول القنبلة الموقوتة التي تنام عليها المجتمعات التي تسيطر عليها طبقة الـ١٪...

ومع أن الأرقام الإحصائية لا تربط بين حقيقة الـ١٪ وحقائق ارتفاع معدلات الجريمة بكل أنواعها من القتل إلى السرقة مروراً بالاغتصاب... إلا أن الربط واضح تماماً..

إنه المجتمع غير المتوازن الذي يدفع بالبشر إلى أن يكونوا غير متوازنين..

ومجتمع الحاجات الأساسية المكفولة؛ والفجوة المتقلصة، والميزان المتعادل، سيجفف الجريمة من منابعها..

ووقتها سيكون أجر الحارس الشخصي body guard قد دفع سلفاً... وعبر منافذ خاصة تقلص من الحاجة إليه.

كل ثابت من ثوابت هذا الدين - أي كل ركن من أركانه - يرتبط بالثابت الآخر ويختلط به.. وهذه المرة أيضاً نرى ذلك جلياً، فثابت (الزكاة - التدخل من أجل التغيير) يرتبط بثابت الصلاة (الأنا التي تذوب في الجماعة)..

أنت عندما تدفع الزكاة، فإنك - بوصفك فرداً - قد لا تشعر بكبير تغيير يحدث في المجتمع حولك...

لكن كونك فرداً هو جزء من جماعة، سيجعلك تشعر بأن إضافتك هي جزء من تلك العتلة التي تحدث التوازن...

إن (انتماءك إلى الجماعة) الذي رسخته إقامة الصلاة، يساهم في (التوازن الاجتماعي) الذي تؤكده الزكاة...

وهذا ذاته متضاد مع (الفردية) التي تغذي (الرأسمالية) وتذكي روح السباق نحو القمة هناك...

لا شيء بالمصادفة في هذا..

ثابت مقابل ثابت..

ومقابل كل ركن من أركان الفردوس المستعار..

هناك ركن آخر... بديل... للفردوس المستعاد.

إضاءة

أتأمل في الزكاة...

أنقب في معانيها... وأبحث عن خياراتها..

ويسطع علي، بين المعاني، شيء لم يكن في بالي.

إنه النماء!...

مقابل فردوس النمو الموعود، والركض وراء مزاياه، والاستسلام أمام كل ما يتطلبه.. هناك فردوس آخر... بديل..

إنه فردوس النماء...

فردوس النمو وفردوس النماء

للوهلة الأولى يبدو التشابه مصادفة (حسنة)..

لكن الاختلاف، الذي يقع خلف التشابه، هو المهم هنا..

ففي فردوس (النمو) أنت مطالب بعدم التدخل، وبترك الأمور تسير كما هي، من أجل أن يتراكم المزيد من الثروة على الدخل القومي، وذلك سيزيد من حصتك في النهاية (أو شيء كهذا..).

... أما فردوس (النماء) فهو يقوم على (تدخل) أنت جزء منه، شئت أم أبيت، وأنت بنفسك تقوم باقتطاع جزء من مالك لتضيفه إلى طبقة أخرى من المجتمع... وهذا الاقتطاع سيحقق - لك ولغيرك على حد سواء - نماءً...

كيف يحقق لك الاقتطاع نماءً بالضبط؟

الجواب على هذا السؤال هو الجواب على القضية كلها. يتجه (النمو) - مفاهيم فردوسه وخطوطه البيانية - نحو إكثار الدخل القومي، أو الفردي، أو سندات الخزينة، أو أي اسم من الأسماء التي نستطيع أن نختصرها فنقول: المال.

نعم، النمو، الذي يتحدثون عنه، هو من إكثار المال، والاقتطاع الذي تحدثه الزكاة، لن يؤدي إلى إكثار المال، لن يؤدي إلى النمو..

إنما سيؤدي إلى النماء!

بينما ينصب هدف (النمو) على المال.

فإن النماء يتجه نحو هدف آخر.. هدف أكثر أهمية من المال، بالنسبة إلى قيم الفردوس البديل. هدف أهم من المال؟ ماذا هناك أهم من المال في عالم تسيطر عليه المادة؟

بلى، هناك ما هو أهم.

إنه عنصر مهم جداً، سقط (عمداً) - وليس سهواً - من معادلة النمو...

لكنه بقي ثابتاً أو أصيلاً في معادلة النماء..

فهو فيها الهدف.

إنه الإنسان..

إنه الهدف النهائي والأساسي من معادلة الزكاة، ومن فريضتها..

و(النماء) الذي يتحقق منه هو مرتبط بالإنسان نفسه؛ بتوازنه، بتكامله مع الآخرين، بتحقيقه لمجتمع يكفل الضمانات الأساسية لكل أفراده..

نعم، النماء الإنساني، هو الذي سيتحقق من الزكاة..

النماء الذي يحقق الإصلاح، ويحقق التنقية، وكلها مترادفات لغوية لكلمتي الزكاة والتزكية... بدلاً من تنمية ستذهب عوائدها إلى جيوب الـ١٪... هناك (تنقية) توازن الإنسان وتتكامل مع حاجاته وفطرته..

.. وذلك كله لا يتحقق إلا عبر ركننا الثالث، اسمه الرسمي المعروف والمنتشر جداً هو الزكاة... لكن جوهره هو (**التدخل**).

في دينهم، دين الرأسمالية الجديد، (عدم التدخل) واحد من أهم الأركان... وفردوسهم، يعتمد على (النمو) ليجلب إليه المعتنقين والمؤمنين.. عندنا الأمر مختلف...

التدخل - من أجل التوازن - ركن من أركان ديننا.

وفردوسنا اسمه النماء، وأساسه مجتمع متوازن..

ينتج إنساناً متوازناً...




الثابت الرابع
استهلاك بلا حدود

في العقد الثاني من القرن العشرين، على الأخص في عام ١٩١٥، حدث في أمريكا ما غيرها إلى الأبد، وغيَّر العالم كله من بعدها[١]..

ففي ذلك العام، حدثت أزمة للشركات الصناعية، واجتمع نفر من كبار مديريها لتباحث الأمر، فقد تبين أن المصانع قد أفرطت في الإنتاج (over production)، وأن مخازن تلك الشركات قد امتلأت عن آخرها ببضاعة راكدة ولا تجد من يشتريها.. لقد اشترى الأثرياء كل ما يريدون وانتهى الأمر..

كان العرض قد فاق الطلب بمراحل، وكان ذلك مشكلة حقيقية لأنه كان يعني، لهؤلاء الرأسماليين، لا الخسارة المادية المباشرة المتعلقة بكلفة صنع وخزن بضائع راكدة.. ولكن كان الأمر أخطر من ذلك، لقد كان يعني أن هناك (حدوداً للنمو)... كان ذلك يعني أن هناك حدوداً لتلك الأموال التي ستتراكم في جيوبهم... وكان ذلك يعني أن توازن العرض والطلب لن يكون على الدوام أمراً مضموناً..

.. وكان ذلك خطراً يهدد الرأسمالية في أعز ما تملك...

---

(١) Teaching Indigenous Languages, edited by Jon Reyhner Chapter 23-the invisible doors between cultures by Robert N. st.clair (pp.287-291) Flagstaff, AZ: Northern Arizona University. Copyright 1997 by Northern Arizona University.

بابا فورد

ولأن الرأسمالية وأحلامها هي التي كانت في خطر، وليس مجرد شركات تعاني من ركود، فقد اتفق هؤلاء الرأسماليون على مواجهة الأمر، والتجؤوا إلى هنري فورد (١٨٦٣-١٩٤٧) عرّاب الرأسمالية الصناعية الكبير[١] الذي لم تكن الأزمة قد وصلته آنذاك، لكنه رصد الأمر وتحسب له..

أحيل الأمر إلى قسم الدراسات الاجتماعية Sociology department، وبعد عدة اجتماعات عاصفة، طلع القسم بمجموعة اقتراحات، ستتحول لاحقاً إلى قرارات، لكن هذه القرارات لن تخص تلك الشركات... إنما ستخص أمريكا بمجموعها، ومن ثم سيكون لها شأن بالعالم كله.. الذي أعادت أمريكا تشكيله..

مفكرو فورد ومؤسسوها خرجوا باقتراحين مذهلين، وكانا يخصان العمال في هذه الشركات والمصانع التي تعاني من أزمة الوفرة في الإنتاج.

الاقتراح الأول ركز على تقليل ساعات العمل من ٦٠ ساعة في الأسبوع إلى ٤٨ ساعة فقط، والاقتراح الثاني كان أن تزيد أجور هؤلاء العمال (الذين كان الاقتراح الأول ينقص من ساعات عملهم)[٢].

زيادة في الأجور؟ وإنقاص في ساعات العمل؟[٣]

أي اقتراح هذا، خصوصاً أمام أزمة وفرة البضائع؟

هل كانوا مغفلين؟

---

(١) Henry Ford wikipedia, the free encyclopedia.

(٢) teaching indigenious languages, ibid.

(٣) Hours of Work in U.S. History Robert Whaples, Wake forest University, Eh.NET ENCYCLOPEDIA.

لا، لم يكونوا مغفلين... على العكس من ذلك، كانوا شديدي الذكاء، شديدي المكر..

وثالثهما الشيطان..

كان هذان المقترحان، وما تلاهما من خطوات عملية، يهدفان إلى هدف واحد، سيصير لاحقاً ثابتاً من ثوابت الفردوس المستعار وركناً من أهم أركانه...

كان الهدف وراء تلك المقترحات، هو (خلق مستهلكين جدد) هم هؤلاء العمال أنفسهم هذه المرة، بدلاً من المستهلكين التقليديين من الأثرياء الذين اشتروا وانتهى الأمر...

كان الهدف من المقترح الأول الذي قلص ساعات العمل هو خلق وقت للترف، وقت الفراغ (Leisure time)..

اثنتا عشرة ساعة من الفراغ مرة واحدة أسبوعياً!

وكان الهدف من المقترح الثاني ـ الذي زاد من حجم الأجر الأسبوعي ـ هو أن تكون جيوب العمال ملآنة في وقت الفراغ هذا...

... وعندما يجتمع الاثنان، الفراغ والمال، فإن شيطان التسوق سيكون ثالثهما...

وكان شيطان (التسوق) هذا هو بالضبط ما تحتاج إليه الرأسمالية من أجل أن تستمر، وتكون بلا حدود...

شيطان التسوق هذا هو مارد القمقم الذي قال: شبيك لبيك للرأسمالية، ولعرابها فورد وكبار مديري شركاتها التنفيذيين.

وعندما جاء وقت التنفيذ فإن فورد ـ تحديداً في عام ١٩٢٦م ـ والذي كان مسؤولاً عن تشغيل أكثر من نصف العمال في كل الولايات المتحدة

آنذاك، طبق نظاماً حقق فيه المزيد من التقليص لساعات العمل، وأعطى فيه الأجر نفسه لخمسة أيام من العمل الأسبوعي، وأربعين ساعة في الأسبوع، أطلق عليه اسم (الأسبوع القصير short weak).

كان فورد شديد الوضوح في هذا الأمر، فهو المعروف بعدائه الشديد للحركات العمالية المتصاعدة آنذاك، لم يكن يقصد إلا الربح له وحده. وفي مقابلة شهيرة[١] له أكد أن هذا الوقت المستقطع يصب أيضاً في مصلحة الأرباح في الناتج النهائي، حتى لو قضاه العامل في غير المصنع... كان فورد يرى أن عمالاً وموظفين بخمسة أيام في الأسبوع لديهم الوقت الكافي للاهتمام بأنفسهم وحاجاتهم أكثر من أولئك الذين يعملون ستة أيام في الأسبوع؛ كانوا يرتدون ثياباً أفضل ويأكلون طعاماً أفضل ويهتمون بوسائل نقل أفضل من أولئك الذين يعملون أياماً أكثر..

وكان ذلك يعني - حسب فورد، ومن قبله فريق بحثه - أن وقت الفراغ Leisure time أساسي ومهم لازدهار الصناعة الرأسمالية..

ربما الأمر واضح جداً اليوم... لكنه لم يكن كذلك يومها...

لقد تلمست الرأسمالية الدرب، واكتشفت أن عليها أن تغرس هذا الشيطان بعمق في نفوس الرعايا..

لم تكن معادلة (الفراغ + المال) تؤدي حتماً إلى التسوق يومها كما الآن... فقد كان (للادخار) قيمته أيضاً في ذلك العصر الغابر..

... لكن بقليل من المغريات (التخفيضات الموسمية - التقسيط) وبكثير من حملات الإعلان والدعاية التي ازدادت تمرساً... استطاعت

(١) HENRY FORD: WHY I FAVOR FIVE DAYS WORK WITH SIX DAYS PAY, by Samuel crowther From World's Work, October 1926pp.613-616. http://www.worklessparty.org/timework/ford.htm.

الرأسمالية أن تخلق الحاجة إلى التسوق، كما لو كانت حاجة أساسية، كما لو كانت فطرة.

لم يحدث ذلك فجأة، إنما بالتدريج، لكنه حدث فعلاً...

احتاجت تلك الشركات - الرائدة في هذا المجال - إلى أن تضحي قليلاً - ولو على المدى القصير - (بتخفيض ساعات العمل وزيادة الأجور)؛ وذلك من أجل أن تجني الأرباح على المدى البعيد...

لقد قدمت طعماً مجانياً لهم، من أجل أن تستدرجهم إلى وليمة يدفعون ثمنها.. لكي تأخذ منهم باليمين ما كانت قد أعطتهم بالشمال.

وأنشأت، تلك الشركات، محال لبيع منتجاتها وسلعها في المصانع نفسها.

كان ذلك من باب استدراج العمال...

لكن الأمر كان أكبر من كل ذلك..

لم يكن الأمر مجرد أن تأخذ منهم باليمين ما أعطته لهم بالشمال..

كان أن تزرع الأمر فيهم هذه النزعة إلى الشراء والاستهلاك حتى لو لم يعد عندهم المال اللازم للشراء...

كان الأمر أن يصير الاستهلاك حاجة داخلية، نزعة عميقة تغرس في داخل الإنسان، وليس مجرد ترف كمالي، و(إكسسوار) يمكن ممارسته عند فراغ الوقت وامتلاء الجيب...

كان الأمر هو ألا يكون الشراء والاستهلاك عادة محصورة بالأثرياء فقط، بل أن يصير الأمر مغروساً عند الجميع، فقراء وأغنياء، عمالاً بياقات زرق، أو موظفين بياقات بيض..

إنه أن يصير الاستهلاك هاجساً جماعياً... حاجة جماعية، يتنافس الجميع من أجل إرضائها وإطفائها..

... والشيء المهم هنا، ألا يكون هناك (رضى) إلا بشكل عابر عند الشراء فقط.

من أجل المزيد من الاستهلاك.

حدث في أوائل القرن الماضي

... خلال العقود الثلاثة التالية، تعاملت المؤسسات الرأسمالية مع بعض العراقيل، طريقة تعاملها تلك آنذاك، حددت إلى حد كبير شكل العالم الذي نعيش فيه اليوم..

كان هناك، في أمريكا عام ١٩١٥، ١١ مليون مهاجر قادم جديد (جاؤوا خلال العقد والنصف الأول من القرن العشرين). وكان هؤلاء يشكلون في معظمهم الطبقة العاملة التي تريد الشركات الرأسمالية أن تضمها لنادي الاستهلاك..

لكن الأمر كان أن هؤلاء في معظمهم كانوا قادمين من مجتمعات بقيم حضارية مختلفة (إيرلنديون، إيطاليون، روسيون أو من شرق أوربة عموماً).. من أجل جر هؤلاء إلى الاستهلاك ومن ثم أن تستبدل بقيمهم المغايرة (قيم جديدة) تساعد المؤسسات الرأسمالية على الخروج من أزمتها[١]..

وفهم ما حدث لهؤلاء الملايين من المهاجرين في العقود الأربعة

(١) Ewen, Stuart (١٩٧٧). Captains of consciousness: Advertising and the social roots of the consumer culture. New York:McGraw-Hill.

الأولى من القرن العشرين مهم جداً لفهم ما حدث للمليارات من البشر فيما بعد.

وعلى الأخص ما حدث لنا.

قيم الكبار وقيم الصغار

كان أول ما اصطدمت به الرأسمالية وهي تروج لشيطان التسوق، هو تلك القيم التي كانت تحترم الكبار في السن وتضع القرار بأيديهم...

كانت معظم المجتمعات التي انحدر منها هؤلاء المهاجرون تُجِلُّ وتقدر وتحترم الكبار في السن، وتخضع الفئات الأصغر سناً لسلطة الكبير وقراراته..

لكن ذلك ما كان ليروق للشركات الرأسمالية؛ فالكبار في السن كانوا أيضاً هم الأقل تقبلاً لقيم الاستهلاك وشراء البضائع الجديدة، وكانوا حريصين بطبيعتهم على قيم الادخار، وكانوا يرون الاستهلاك سرفاً غير مبرر... وبسبب سلطتهم على أبنائهم وأقربائهم فإن رأيهم هذا كان ينسحب على هؤلاء أيضاً...

عمدت الشركات الرأسمالية إلى توجيه سهامها إلى تلك القيم أساساً، قيمة احترام الأكبر، وعملت على تفريغها من محتواها من أجل ترك الباب مفتوحاً أمام الأجيال الجديدة لتستهلك كما تريد، (أو كما يريد أصحاب الشركات)..

كيف فعلت تلك الشركات ذلك؟..

عملت أولاً على عدم توظيف الكبار في السن، وكان ذلك أنهم سيعيشون (عالة) على من هم أصغر منهم في السن ضمن عوائلهم، وكان ذلك يضعف من موقفهم الشخصي أولاً، ومن الاحترام للكبار كلهم.

ثم عملت، ثانياً، على تخفيض أجور الكبار بالسن من العمال، وترويج أنهم **(الأقل كفاءة)، و(الأقل فائدة)، و(الأقل قدرة على التأقلم)**.. وكان ذلك لا يضعف القدرة الاقتصادية لهم فحسب، ولكن كان يضعهم في إطار آخر مناقض تماماً لما كانت عليه مكانتهم السابقة؛ كانوا في موضع القرار، وفي كرسي الصدارة.. والآن أصبحوا الأقل فائدة، والأقل كفاءة.. عدا عن كونهم الأقل دخلاً.

ثم عملت ثالثاً عبر ماكنة الإعلام التي سيطرت حتى على الجرائد والمجلات وتصدر باللغة الأصلية لهؤلاء، عملت على تقديم (صورة شابة لأمريكا) عبر التركيز على الشباب والشابات وحدهم ولا أحد سواهم في المواد الإعلانية.

كان ذلك يرسخ شعاراً كانت وسائل الأعلام تروجه، مفاده أن الصغير جميل Young is beautiful.

وكان ذلك كله يهدف إلى استبدال قيم تؤثر الشباب على الكبار.. وتسليم سلطة القرار لهم[١][٢].

نموذج (العائلة) التي تستهلك أكثر

أما ثاني ما اصطدمت به الشركات الرأسمالية مع هؤلاء المهاجرين، فكان نموذج العائلة الكبيرة العدد، المكونة من ثلاثة أجيال على الأغلب (الجد، أولاده، وأحفاده من كل ولد منهم).

لم يكن هذا النموذج يروق للشركات الرأسمالية ولحسابات الربح

---

(١) Sennett, Richard (1978). The fall of public man: On the social psychology of capitalism. New York: Vintage.

(٢) All consuming images: The politics of style in contemporary culture. New York: Basic Books/Harper Collins, (1988).

والاستهلاك؛ فالعائلة الكبيرة العدد التي تضم عدداً كبيراً من البشر، تستهلك أقلَّ؛ مقارنةً بالعدد نفسه من البشر فيما لو ضمتهم عوائل (نووية) صغيرة..

فالعائلة الكبيرة العدد تجلس في غرفة جلوس واحدة وتحتاج، بمقاييس ذلك العصر، إلى مذياع واحد، ومصباح كهربائي واحد، ومدفأة واحدة، ومكواة واحدة، ومنضدة طعام واحدة....

لكن عندما تنشطر تلك الأسرة الكبيرة إلى عدد الأسر الأقل حجماً فإن معدل الاستهلاك سيتضاعف بقدر أعداد الانشطار التي حدثت على (الأسرة - الأصل). فكل أسرة (نووية) ستحتاج هي الأخرى، مهما كان عدد أفرادها قليلاً، إلى منضدة ومدفئة ومصباح ومذياع ومكواة، حالها حال الأسرة الأصل..

وكلما زاد تشطر الأسرة، ولو بخروج الأفراد منها مستقلين دون تكوين أسر جديدة، فإن ذلك سيزيد من معدل الاستهلاك.. (وكان هذا هو ما حدث لاحقاً وبالتدريج، فالشاب أو الشابة في الغرب عموماً، وأمريكا خصوصاً يتركون المنزل فور بلوغهم الثامنة عشرة، وسواء عاشوا مع صديق أو صديقة، أو مع شريك في السكن، أو بمفردهم، فإنهم سيحتاجون حتماً إلى ابتياع السلع الأساسية (وربما غير الأساسية)... وهذا كله سيزيد من معدل الاستهلاك، ومن ثم من أرباح المؤسسات الرأسمالية)..

الجديد هو الجيد

الأمر الثالث الذي اضطرت تلك المؤسسات إلى التعامل معه بحسم، هو أن أولئك المهاجرين انحدروا من مجتمعات كانت تعتز بالأشياء القديمة[1]، حتى ولو كانت موروثة من جيل آخر، وحتى لو كانت قد

(١) TRANSMISSION OF VALUES the Information Age Crisis by Robert N. st clair and John A. Busch in Socialization.

استعملت واهترأت من الاستعمال، حتى ولو كانت قد استعملت من قبل موتى...

هذا الاعتزاز بالسلع القديمة كان يدفع إلى إصلاح الكسر أو الخلل مرة تلو الأخرى، بدلاً من ابتياع سلعٍ جديدة بديلة.

لذلك ركزت وسائل الإعلام، على أن (الجديد هو الجيد Good is new)، وعملت على الترويج للاستبدال، وعلى تكوين مواسم الاستبدال، وعلى إضفاء القداسة والهيبة والبريق لا على القديم - كما في القيم السابقة - بل على الجديد.. بوصفه الأفضل، والأكثر كفاءة، والأكثر قوة (**إلى أن يصير قديماً في الموسم التالي**)[1].

خلال ثلاثة عقود من كل ذلك، وعلى الأخص مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، كان كل ذلك قد صار حقيقة واقعة..

كانت حضارة الاستهلاك قد صارت حقيقة واقعة..

(لن أقول هنا أن ما حدث معنا، كان بالضبط مثلما حدث مع أولئك العمال المنحدرين من مجتمعات أخرى.. لكن هناك تشابه كبير فيما حدث لنا ولقيمنا.. لقد قام الإعلام بذلك على أتم وجه.. وانتهكت قيم الكبار وقيم أخرى أيضاً كما حدث مع مهاجري أمريكا...

ومن دون أن نشعر وجدنا البساط وقد سحب من تحت قيمنا..؛ **حتى لو كانت فتاة الإعلان التي روجت للقيم البديلة غطت شعرها بالحجاب**)..

... لقد وجدت الرأسمالية أنها بوصفها ديناً - بلا طقوس ولا شعائر - لن تذهب إلى أي مكان يريده الرأسماليون، ما لم يرتبط هذا الدين، **بشعيرة، بطقس تعبدي يسنده**...

---

(١) teaching indigios languages, ibid

.. وكان التسوق هو ما وجدته الرأسمالية طقساً لدينها...

ولم تكن لتذهب إلى أي مكان، غير الركود، غير العرض بلا طلب، لولا أنها غرست في المليارات ذلك الشيء الذي صار عميقاً فينا لدرجة أننا لا نتخيل أنفسنا من دونه.

إنه الاستهلاك.

الركن الركين الرابع من أركان الفردوس المستعار.

بدأ الأمر من جزئية اقتصادية بحتة، لكنه تطور ليتدخل في كل جزئيات حياتنا...

وتطور الأمر، مع الوقت، من تدخل في جزئيات الحياة... إلى تشكيل للحياة نفسها...

...شهد الاقتصاد الأمريكي، إبان الحرب العالمية الثانية، رواجاً وازدهاراً كبيرين... كانت الرأسمالية الأمريكية تعيش فترة انتعاش ما تصورت أنها ستحصل عليها عقب ركود الثلاثينيات، وكان العالم الصناعي - باستثناء أمريكا - يعيش في دوامة حرب ألحقت الشلل بمصانعه...

والتفت هذا العالم إلى أمريكا، وكانت هناك، تمول ترسانة الحلفاء بالأسلحة والمعدات العسكرية، ومن جهة أخرى، الحاجات الصناعية غير العسكرية..

وكانت الفاتورتان، تصبان في الخزانة الأمريكية، وتدران الربح الوفير والخير الكثير، لنخبة الـ١٪ التي تسيطر على الأمور هناك...

لكن الحرب انتهت[١]، وكان انتهاء الحرب نذير شر وشؤم لكبار

(١) في الظاهر فقط، حيث إن الخزينة الأمريكية ومصانع الأسلحة استفادت في =

الرأسماليين الذين كان شبح الركود الكبير طوال فترة الثلاثينيات يسيطر عليهم...

وكانت نهاية الحرب، تعني نهاية دوران عجلة المصانع، وانخفاض الإنتاج وكساد البضائع... ونهاية الأرباح...

وكان ذلك مخيفاً جداً، للرأسماليين خصوصاً...

مخيفاً أكثر من فظائع الحرب نفسها (وبالتأكيد فهم لم يرسلوا أولادهم إلى النورماندي أو ألمانية أو اليابان).

... وكان لابد لهم أن يجدوا حلاً يطرد شبح الركود.

حفل يومي مستمر منذ نحو نصف قرن

وكان ذلك بالضبط ما فعلته الرأسمالية الغربية، لو أردنا النظر من موقع مختلف.

لقد عمدت إلى إقامة (حفلة زار) - شملت المجتمع الأمريكي أولاً، ثم صارت احتفالاً عالمياً - وضحكت فيه على ذقون الجميع، الذين صدق بعضهم ما قيل له على الفور، وشارك بعضهم الآخر على سبيل المشاهدة فقط ...**لكن الأمر تسلل إلى عقولهم بالتدريج.**

في حفلة (الزار) هذه اقتنع الجميع أن هناك شبحاً مخيفاً ساكناً في بيت كل منهم - في المجتمع الأمريكي بأسره - كامناً منتظراً الفرصة السانحة للظهور...

= الواقع من فترة الحرب الباردة أكثر مما استفادته حتى في أثناء الحرب العالمية الثانية، ناهيك عن استفادتها من الحروب الساخنة التي كانت بلدان العالم الثالث تخوضها بالنيابة عن العالم الأول..

وكان اسم هذا الشبح المخيف الكساد أو الركود.. ولم يكن قد مضى عقد واحد على رحيله، بعد سكون طوال فترة الثلاثينيات.. إلى أن بدأت الحرب العالمية الثانية، التي أدارت عجلة الاقتصاد... وطردت ذلك الشبح..

والآن وقد انتهت الحرب، يبدو الشبح مجدداً على الأبواب، أو لعله لم يغادر قط، لكن انكفأ قليلاً...

كان لابد من حفلة الزار تلك، لا لتطرد الشبح؛ فذلك لم يكن ممكناً، أو أنه لم يكن هدف حفلة الزار التي انهمك فيها الجميع...

وكان الهدف هو استحضار شيطان مضاد للشبح... شيطان يستطيع أن يكبح ذلك الشبح الذي يتهددهم...

وكان كل هدف الزار أن يستحضر هذا الشيطان.

وكان اسمه **شيطان التسوق**.

كان هذا هو بالضبط ما حدث؛ فقد اكتشف الرأسماليون الكبار الذين يسيطرون على اقتصاد البلاد - ومن ثم يديرون دفة سياساتها - اكتشف هؤلاء أن الحل الوحيد لتفادي ركود آخر هو جعل الأمريكيين يتركون أي أثر للادخار قد بقي فيهم[١]، ينغمسون في التسوق والاستهلاك بشكل غير مسبوق، لا في أمريكا ولا في أي مكان آخر في العالم..

لقد رأى هؤلاء أن التسوق هو الآلية الوحيدة التي ستجعل عجلة الإنتاج تدور، وقدروا أن شكل الازدهار الذي يطمحون إليه لن يكون إلا بالاستهلاك المتزايد الذي سيخلق طلباً متزايداً، والذي سيؤدي إلى إنتاج متزايد[٢]... ومن ثم سيؤدي إلى أرباح متزايدة.. (وهذا هو المهم)..

---

(١) Shopping Till We Drop by WILIAM GREIDER April 10, 2000 The Nation.

(٢) The Culture of Consumerism Christopher clasch http://educate. si.edu/ap/essays/cconsume4.....

وهكذا عمد السياسيون، والاقتصاديون، والإعلاميون والنقابيون، إلى الترويج لتلك الفكرة على أكثر من صعيد، أكثر من اتجاه.. ففي تلك الفترة المبكرة - التي كانت الولايات المتحدة تتقاسم فيها السيطرة على العالم مع الاتحاد السوفييتي، كان شبح الشيوعية وفكرة إلغاء الطبقات التي روجت لها، كانت قائمة أيضاً وتشكل خطراً كامناً على الرأسمالية الأمريكية[١]..

ولذلك فقد كان مروجو التسوق، يروجون معه أن ذلك التسوق المتزايد والاستهلاك المتزايد، سيخلق في النهاية مجتمعاً متوازناً وبلا طبقات، وينعم فيه الجميع بجنة موفورة السلع والبضائع بلا تمييز.

نعم، كانت هذه الاستراتيجية من وراء التسوق، كان هذا هو الهدف المعلن.. التسوق والاستهلاك المتزايدان سيؤديان إلى المزيد من الطلب على الإنتاج، وهذا سيؤدي إلى الحاجة إلى المزيد من الوظائف... ومن ثم سيقضي على البطالة، وهذا أيضاً سيؤدي إلى المزيد من الاستهلاك؛ لأن هؤلاء العمال الذين حصلوا على وظيفة سينفقون أجورهم على شراء السلع.. وهذا سيؤدي إلى المزيد من الطلب، **وهكذا دواليك إلى أن ينتج مجتمع بلا فقر ولا بطالة، ويشتري فيه الجميع كل ما يريدون..**

هذه هي الرسالة التي كان التسوق يوصلها للناس.

«استمروا في التسوق، والمزيد من التسوق واحرصوا على شراء كل جديد، وسيؤدي هذا كله إلى مجتمع عادل ومتوازن».

---

(١) A Consumers' Republic
The Politics of Mass Consumption in Postwar America
Lizabeth Cohen
Hardcover | Knopf | January 2003

عندما يصبح التسوق واجباً وطنياً مقدساً...!

وكان للأمريكيين رغبات تسوق مكبوتة من حقبة الثلاثينيات، ولكن كان لديهم أيضاً خوف من (عوادي الزمان) التي قد تكرر الثلاثينيات، وكان ذلك يتجلى في سبل للادخار وجمع السندات، وكان ذلك لا يتلاءم مع متطلبات الرأسمالية في اقتصاد ما بعد الحرب...

كان لابد للتسوق أن يغرس بعمق في عقلية الأمريكيين...

كان لابد للتسوق أن يصبح، وسط هذا السياق، مسألة وطنية[١].. بدلاً من أن تتبرع لأمريكا بالمال أو الدم، تستطيع أن تخدمها بالتسوق، وفي الوقت نفسه تحصل على سلعة تشتهي الحصول عليها[٢].

التسوق سيكون نوعاً من حب الوطن، وسيكون المزيد منه دليلاً على المزيد من الوطنية.. بل سيصير التسوق (هوية وطنية).

إنها تلك الوصية (تسوق حتى الموت Shop till you drop) وهي تتحول لتصير أسلوباً للحياة ومنهجاً للعيش..

بعد ١١ أيلول سبتمبر: تسوقوا حتى الموت، أو إنكم إرهابيون!

ويذكرني ذلك، بطريقة مباشرة بأول خطاب وجهه الرئيس الأمريكي لشعبه عقب أحداث سبتمبر[٣]..

---

(١) Consumensm as patriotism fronline Volume 19 issue 11 May 25- June 07 2002.

(٢) The landscape of mass consumption by Lizabeth Cohen, nthposition online magazine.

(٣) Shop Till you Drop or You're Terrorist. November 27, 2002 By Charles Sullivan DEMOCRATICUDERGROUND.COM

كان الأمريكيون قد صدموا بما حدث؛ فقد اكتشفوا للمرة الأولى أن هناك أشراراً في هذا العالم، وكانوا قبلها يعتقدون أن العالم كله طيب، كما هم، وصدموا أكثر عندما اكتشفوا أن هؤلاء الأشرار يكرهونهم لهذه الدرجة، وكانوا يعتقدون أن العالم كله يحب أمريكا ويعترف بفضلها...

وأدت (صدمة الاكتشاف) إلى انكفاء الأمريكيين على أنفسهم، وانخفضت معدلات التسوق بشكل كبير في الأيام التالية للاعتداء..

(.. وكان ذلك خطراً ليس على نمط الاقتصاد، ولكن على نمط حياة صممت من أجلها، ولذلك خرج الرئيس الأمريكي ليقول لشعبه: «أن يعود لحياته الطبيعية»..

ولم يجد مثالاً على «الحياة الطبيعية» غير أن يقول لهم، مسترسلاً، أن يذهبوا للمجتمعات التسوقية (Malls) ويمارسوا التسوق)..

.. بالحرف الواحد.

هكذا قال لهم.

... كان ذلك معناه، أن يمارسوا هويتهم التي تشكلت عبر العقود، أن يمارسوا (مواطنتهم) في وجه أكبر أزمة عصفت بوطنهم في العصر الحديث..

أن يمارسوا التسوق!

نعم، لقد تشكلت هذه الهوية، بالتدريج، في العقدين اللذين تليا الحرب العالمية الثانية..

ولم يكد يمضي نصف قرن حتى صار الأمر هوية لا جدال فيها، لدرجة أن يخاطب الرئيس مواطنيه - وفي خضم أزمة راح ضحيتها نحو ثلاثة آلاف أمريكي - ليقول لهم: تسوقوا، فأمريكا بخير مادمتم تتسوقون..

لكن كيف حصل أن صار التسوق ونزعته الاستهلاكية، عميقة لهذه الدرجة في الذهنية الأمريكية؟

كيف صار الأمر هوية وطنية حقيقية، ونمطاً عميقاً للحياة، حيث يبدو أي شيء سواها كما لو كان غريباً جداً وشاذاً جداً.

كيف صارت حياة التسوق بدهية لا تناقش من بدهيات الحياة المعاصرة؟

من السهل جداً أن نقول: إنه الإعلام وماكنته الإعلامية، من أبسط إعلان مسموع مباشر في محطات الإذاعة، إلى أضخم فيلم سينمائي، يروج لنمط حياة دون أن يقول شيئاً مباشراً... وسيمر ذلك بالإعلانات البصرية التلفازية التي تخطف الأنفاس والعقول في ثوانٍ.. وباللافتات الضوئية التي تنير الشارع - وربما تعدها أنت أنها تنير حياتك - بالترويج لسلعة معينة.. وباللافتات الضخمة في الطرق السريعة وأنت مجبر قسراً على متابعتها في الطرق شئت أم أبيت، وفي أغلب الأحيان لن تكون قد أبيت..

نعم، إنه الإعلان والإعلام، وقد نجحا في استراتيجية غرس الاستهلاك ونزعة التسوق لا في أمريكا وحسب، ولكن في العالم كله.

لقد أحسنت الرأسمالية استغلال هذا السلاح.. وجعلت من شيطان التسوق ساكناً في أعماق كل فرد بالتحديد.. وكان هذا هو ضمانها الأساسي في استمرار جني الأرباح.

لكن ليس الأمر في الإعلام وحده.

بل هو أعمق.

في ذهن كل منا، صورة معينة من نمط الحياة الأمريكية، عن ذلك الحلم الأمريكي، قد تختلف الصورة وأبعادها من شخص لآخر، قد

تختلف درجة وضوحها من فرد لآخر.. لكن تلك الصورة موجودة فينا، وقد التقطناها كـ(فايروس) منذ نعومة أظفارنا...

بيت الأحلام

فلنراجع القواسم المشتركة لتلك الصور التي غرست فينا، صورة الحلم الأمريكي الذي أنشب أظافره في عقولنا منذ نعومة أظفارنا..

هناك أولاً بيت ضخم ومترف، أول ما يحضر في ذهنك هو حجمه الكبير، والمساحات الواسعة المتوافرة في كل تفصيل من تفاصيله.

غرفة الجلوس تبدو واسعة بحجم ملعب صغير، والمرآب واسع بحيث يستطيع أن يحتوي ثلاث سيارات على الأقل، إضافة إلى ذلك الشارع الواسع العريض أمام البيت والذي يمكن لسيارة ضخمة أن تقف فيه دون أن تضايق أياً من السيارات المسرعة.

المطبخ سيكون واسعاً، وكل ما فيه سيكون كبير الحجم، دلالة المتانة والجودة، من البراد إلى الفرن مروراً بالمجمدة والشواية الـtoaster

... وكما كانت المنازل التقليدية، في عصور ما قبل أديان التوحيد، تضع وثنها في ركن مهم من البيت، فإن (التلفاز) سيحتل هذا الموقع نفسه، في المنزل الأمريكي الذي سكن عقولنا كـ(فايروس) قبل أن نحاول أن نسكن نسخة منه..

في ركن ما، مركزي وأساسي، سيكون هذا التلفاز، مرة بشاشة هلامية، ومرة بشاشة مسطحة، سنراه يكبر مرة تلو أخرى، حتى يكاد يأخذ الغرفة كلها بحجمه..

ولن يكون ذلك محض مصادفة تقنية، بل سيكون رمزاً للدور المركزي الذي لعبه التلفاز في الأمر كله..

في جعلك، وجعلي، وجعل الملايين من سوانا، نبتلع الطعم، طعم التسوق والاستهلاك..

فلنطفئ التلفاز الآن!

ولنحاول أن نفهم كيف نشأ هذا البيت (الذي سكن أحلامنا) على أرض الواقع الأمريكي.. لقد عرفنا أنه تسلل إلينا عبر ماكنة الدعاية، ولكن **كيف نشأ هذا البيت المترف، كيف صار (حقيقة أمريكية) يمكن ترويجها للعالم كله، وترويج أمريكا كلها عبره؟**

في الحقيقة، كان هذا (البيت) هو واحداً من أهم دعامات الاستراتيجية التي استطاعت زرع التسوق ونزعته بعيداً في عمق الشخصية الأمريكية.

كيف بالضبط؟

لقد حدث ذلك عبر مزيج من سياسة حكومية عامة، وسياسة خاصة انتهجتها الشركات العقارية بالتعاون مع البنوك الضخمة في الولايات المتحدة.

واتجهت هذه الاستراتيجية إلى (نزعة تملك) فطرية وحقيقية موجودة في النفس البشرية منذ أن وجدت هذه النفس.

إنها نزعة (الحاجة إلى المأوى).. وأن يكون هذا المأوى ملكاً شخصياً لك..

على نزعة فطرية حقيقية وأصيلة بدأ العمل..

وهناك كان الاستثمار الحقيقي..

.. ثم جاءت الضواحي..

بدلاً من الإيجار العالي للشقق الضيقة في المدن المزدحمة، تقدم

الحلم الأمريكي ليغري مواطنيه بأن يكون لكل منهم بيت واسع ومترف.. وأن يكون ملكاً خاصاً.

وكان العرض مغرياً جداً يتضمن قروضاً بلا ضمانات، وفوائد قليلة، وأحياناً من دون دفع مسبق، وكان يخص الجنود العائدين من الحرب، فيما عرف لأحقاب GL BILL[١] وكانت العروض الأخرى - لغير المجندين - مغرية أيضاً.. مع تسهيلات اقتراض وائتمان وفوائد قليلة.

كان الأمر مغرياً جداً، لكن كان فيه أمر واحد، ومهم جداً، وسيشكل نموذجاً لنمط الحياة في العقود المقبلة[٢].

الأمر هو أن هذا البيت، لن يكون في المدينة.

بل سيكون في الضواحي.

خلال بضع سنوات فقط، من بدء هذه السياسة، وبالتحديد من عام ١٩٤٧-١٩٥٣، كان سكان الضواحي قد ازداد عددهم، بمعدل ٤٣٪ مقارنة بـ١١٪[٣] فقط زيادة في عموم السكان..

وخلال عقد الخمسينيات كله، وفي أهم عشرين تجمعاً سكانياً مدنياً في أمريكا، فإن الزيادة في عدد سكان المدن ستكون ١٪ فقط، مقابل زيادة ٤٥٪ لضواحيها.. وستكون نسبة البناء في الضواحي بمقدار ٧٥٪ من كل البناء في الولايات المتحدة.[٤]

(١) The BOOMING OF THE BURBS The Seattle Times on August 18. 1996, By Sharon Boswell and Lorraine McConaghy Special to The Times.

(٢) How We Became a Consumers' Republic by sean Silverthorne, Editor, HBS Working Knowledge February 10,2003.

(٣) THE 1950S: POST-WAR AMERICA HITCHES UP AND head for the 'burbs Tyson Freeman Sep30,1999 national realestate Investor

(٤) Tyson freeman ibid

وبحلول عام ١٩٦٥ فإن أغلبية السكان يكونون قد انتقلوا للضواحي. وقدرت نسبة سكان الضواحي في عقد التسعينيات بـ ٦٠٪.[١] وبعضهم يقدرها حالياً بـ ٨٠٪.[٢]

حسناً، ماذا في الأمر؟ سكنوا في بيوت ضخمة ونظيفة ومترفة وصارت ملكاً لهم في الضواحي. ما المشكلة؟ لا مشكلة. لكنه الطعم الاستهلاكي الذي ابتلعه الجميع وهم لا يريدون أكثر من إشباع فطرة حقيقية بسيطة، وهي امتلاك مأوى لائق..

لكن الطعم تضمن أكثر من ذلك بكثير.. ولم تكن الشركات العقارية وشركات الضمان والائتمان قد تبنت العمل الخيري عبر تلك القروض قليلة الفائدة، **بل كانت الخطة كلها مدعومة من قبل شركات ستجني الثمار لاحقاً، وعلى المدى الطويل.**

أول تلك الشركات كانت شركات صناعة السيارات فورد وجنرال موتورز[٣].

ما علاقتها بالأمر؟.

سنرى.

❀ ❀ ❀

(١) msn-encarta encyclopedia united states- population

(٢) digital history. Postwar America: 1945-1960
.www.digitalhistory. uh. Edu/database/article_display.cfm?HHID=511

(٣) http://www.bilderberg.org.ncl.htm. the oil industry and destruction of public transport.
Institutionalising Overconsumption Culture.. how ours has been twisted by economic values:
By don Mayer, Oakland University

أن تسكن في الضواحي، على بعد (٣٠ ميلاً من مكان عملك، يعني أنك يجب أن تقتني سيارة واحدة على الأقل..).

وإذا كانت زوجتك تعمل أيضاً فإن الأمر سيجعلها تحتاج إلى سيارة أخرى، حتى إذا كانت لا تعمل فهي ستحتاج للسيارة في إيصال الأولاد إلى المدرسة أو للتسوق.

سيارتان الآن، على الأقل.

ولأنك تعيش في الضواحي فإن سيارتك ستستهلك بأسرع من المعتاد، وذلك يعني أنك ستقوم باستبدال واحدة أخرى، حديثة، بها خلال سنتين أو ثلاث.

سيارتان.. كل سنتين؟؟

نعم، ربما لم يكن الأمر واضحاً عندما وقعت عقود القروض والائتمان التي تملك من خلالها الناس تلك المنازل في الضواحي، لكن في الوقت نفسه، كانت عقود أخرى توقع، هي عقود تلك السيارات الفارهة، التي ستشهد صناعتها انفجاراً هائلاً غير مسبوق في الخمسينيات، نتيجة مباشرة لسياسة إعمار الضواحي، وكان رقم السيارات المصنعة يتضاعف أربع مرات في كل سنة[١].. (إلى أن بلغ ٨ ملايين سيارة في كل عام من أعوام الخمسينيات وهو رقم غير مسبوق وغير مقارب، ويشكل نسبة نمو ٨٠٪ من إجمالي الناتج العالمي الذي كان يبلغ آنذاك نحو ١٠,٥ ملايين سيارة في العالم كله)[٢]. وكانت الأرباح التي

(١) POST WAR AMERICA THE POSTWAR ECONOMY: 1945-1960 http:// www.nrilinks.com/usa/History/ch11- 4.htm

(٢) Automotive History-A Chronological Historyhttp://www.aaca.org/his- tory1959-1940

صبت في جيوب الرأسماليين -في خلال فترة وجيزة- كفيلة بالإيحاء أن الأمر كان يمشي حسب الخطة المرسومة بدقة.. وكان الاستهلاك المتزايد للسيارات خصوصاً، يخلق طلباً، والطلب يخلق إنتاجاً، والإنتاج يحقق أرباحاً.. وهكذا تستمر العجلة بالدوران.

لكن الأمر لم يقف عند السيارات وشركات إنتاجها العملاقة، فأن تسكن في منزل جديد وواسع- وكنت قبلها تعيش في شقة مستأجرة، وغالباً ضيقة - يعني أنك- على الأغلب- ستشتري أثاثاً جديداً- خاصة أن أثاثك القديم كان مصمماً لغرف أصغر في شقة ضيقة- وسيجر الأمر الأدوات المنزلية الكهربائية خصوصاً..

وخلق ذلك طلباً هائلاً- ترافق مع الانتقال إلى الضواحي - على **الأثاث والأدوات المنزلية الكهربائية خصوصاً.. وحقق ذلك أرباحاً هائلة للشركات الصناعية المنتجة.. وأسهمت أيضاً في المزيد من الدوران لتلك العجلة التي كان دورانها هو الهدف الأول- وربما الوحيد - في كل ذلك.**

ومن أجل تحقيق المزيد من الأرباح، والسرعة في الإنجاز، فإن طرق البناء التقليدية، قد استبدلت بها طرق بناء أخرى، أكثر سرعة ولكن أقل كلفة، وأيضاً أقل متانة وجودة. (وكان هذا هدفاً بحد ذاته، إذ إنه سيدفع أصحاب البيت إلى الانتقال منه لاحقاً، إلى بيت جديد، وطبعاً يجب أن تشتري تجهيزات جديدة، وأثاثاً جديداً. وكل ذلك طبعاً سيضخ المزيد من الطلب ومن الأرباح).

.. في الطريقة التقليدية، كانت الطاقة القصوى لكل متعهد بناء، بيتين أو ثلاثة في السنة، على أقصى تقدير.

أما في طريقة البناء الجماعي (Mass construction)، فقد كانت خطوط الإنتاج المتوازية تنجز ٣٦-٥٠ منزلاً في اليوم الواحد. وبعض

المقاولين كان ينتج بيتاً كل ١٥ دقيقة (وهذا ساهم طبعاً في سرعة انتشار مدن الضواحي تلك..)[1]

لكن البيت هنا الذي ينتج بطريقة الـMass construction هذه، لم يعد بيتاً. لقد صار محض (منزل). محض منزل آخر من سلسلة منازل متطابقة الملامح، لا بصمة شخصية في أي منزل من هذه المنازل. كل منزل هو نسخة طبق الأصل من الآخر. (وكان ذلك رمزاً كبيراً لما سيتمخض عنه عصر الإنتاج الجماعي والاستهلاك الجماعي **..إنه سينتج في النهاية، أفراداً متشابهين، كل فرد هو نسخة طبق الأصل من الآخر.. كل فرد لا يمكن تمييزه من الآخر..)**.

الضواحي ونزعة الفردية..

وكان هذا المسكن في الضواحي يعبر- وبطريقة ربما لم تكن مقصودة من أحد - عن تلك الفردية شديدة التأصل في عمق التجربة الأمريكية. كان الفرد عبر هجرته للضواحي يعبر عن تلك النزعة الفردية التي تم غرسها فيه بعمق وإتقان، كانت الضواحي هي ذلك الحل المدني السكاني الذي يعبر عن ذلك الركن الركين الذي استندت عليه حضارته: **الفردية.**

كان النزوح إلى الضواحي- في شكله الخارجي- يمثل رغبة في بيت أوسع، وهواء أنظف، وجيرة أكثر هدوءاً، لكن لو نظرنا إلى ذلك بشكل أعمق لوجدنا أنه يمثل أيضاً رغبة في الانعتاق من المجتمع ومن الناس، والاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من المسافة بين الفرد وبين الأفراد الآخرين من حوله..

إنه ذلك الأنبوب المعزول - المفرغ من العلاقة بالآخرين - ينعكس ليصير حركة عمرانية.. يحس بالحاجة للابتعاد عن شبكة الأنابيب

(١) Digital history post war America.ibid.

الأخرى، تلك هي حقيقته داخله، وقد وجدت الفرصة لتتحقق عبر سياسات الحكومة والتسهيلات المصرفية والمقاولات منخفضة الكلفة.

كانت الضواحي في داخله- قبل ذلك كله- تعبر بصدق عن تلك الفردية التي تريد الانفراد بعزلتها.. تريد أن تنعتق من المجتمع[١]..

وقد أبلى الرأسماليون بلاء حسناً في استثمار ذلك كله...كالعادة.

وتصير السيارة هويتك..

...ولأن نقطة الانطلاق ستكون من تلك المنازل شديدة التشابه- لدرجة التطابق التام- فإن جو التنافس المحموم، والميل الفطري الذي يملكه الإنسان للتميز ..**ستدفع كل عائلة إلى التميز من جارتها الأخرى- كيف؟.**

بامتلاك سيارة مختلفة، أحدث طبعاً، وأكبر طبعاً، وأكثر ترفاً بالتأكيد.

في منزل الضواحي ذاك وكل منزل يشبه الآخر- لم يكن هناك وسيلة أخرى للتميز والاختلاف ..غير السيارة..

وأضحت السيارة رمزاً أكبر بكثير من مجرد وسيلة للنقل، **أضحت وسيلة التفرد والتميز الشخصي. أصبحت مكوناً من مكونات الشخصية الجديدة، الشخصية الأمريكية (التي ستسوق بالتدرج لتصبح شخصية عالمية)..**

لقد دخلت السيارة إلى أعماق هذا الشخص، فصارت أهم وأوضح ما يمكن أن يتميز به.. كان وجوده كله يرتكز على المظهر، **وكان أوضح**

(١) The Growth of The Suburbs and The parameters of the new urbanism- mcmaster university Loss of The Sense of community, www.eng.mcmaster.ca/civil/sustain /designparam/background/ htm/

ما في هذا المظهر هو تلك السيارة التي كان ظاهرياً يمتطيها، لكنها كانت تمتطي أعماقه وتسيطر عليها.

كانت السيارة قد أصبحت شخصيته.. جوهر كينونته، كان داخله فارغاً جداً، لدرجة أن (السيارة) كانت لا تكاد تكفيه..

وتدافعت شركات السيارات، كرايسلر وفورد وجنرال موتورز، تقدم مختلف الأسماء والأنواع والألوان والأشكال، وكان ذلك الآدم الأمريكي- الذي يبحث عن التميز من جاره الآدم الأمريكي الآخر - نهماً لامتطاء حقيقته وكينونته المتجسمة في شكل حديدي له أربع عجلات.. وهو السيارة..

.. وكان يحتاج إلى المزيد، إلى التجديد، كان يحتاج إلى الرونق، الذي كان يخف كلما أصاب هذه السيارة البلى أو القدم..

كانت حاجته (الشخصية) نابعة من أعماقه هو، من حاجته إلى أن يصقل كينونته بالاستهلاك وشراء سيارة جديدة، أكثر بكثير من حقيقة أن السيارة استهلكت (وظيفياً) وتحتاج إلى الاستبدال.

لا، لقد بدأ الأمر من تلك البيوت المتطابقة في الضواحي.. ومن الحاجة إلى التميز لا تجد تطبيقاً لها إلا في سيارة حديثة. **وأحدث.. وأحدث.**

.. وكان ذلك كله يصب أرباحاً وفيرة في جيوب الرأسماليين..

..وكان هذا هو المهم دوماً..

التنافس مع آل جونز الألداء

في مكان ما، من الضواحي، انتشر ذلك المفهوم الأمريكي جداً، والسائد جداً keep up with the jones .. تنافس مع آل جونز.

كان المفهوم - الذي يعد الآن مثلاً سائراً معروفاً جداً - قد صيغ للمرة الأولى في ذلك العقد الذي ساهم في تشكيل أمريكا التي نعرف اليوم، ومن ثم العالم الذي نعرف اليوم،.. إنه ذلك العقد الذي بدأت الرأسمالية تكتشف فيه أن لا حل لها ولا مخرج إلا بتكريس الاستهلاك في نفوس الناس من حولها..

كان ذلك عام ١٩١٣ يوم نشرت لأول مرة تلك المسلسلة الشعبية المصورة التي حملت هذا العنوان المحمل بالمعاني (التنافس مع آل جونز).. وحققت نجاحاً ساحقاً جعلها تصدر لثمان وثلاثين سنة متتالية، وحققت خلال نجاحها هذا هدفها الأول الذي كرست من أجله: غرس التنافس على الشراء. غرس حمّى التسوق عند الناس. وجعل هذا التسوق حلبة المنافسة الوحيدة التي يتسابق فيها الناس.. وعندما انتهى صدور المسلسلة، كان عنوانه، المحمل بالمعاني، قد غرس بعيداً في عمق الثقافة الاجتماعية الأمريكية.. كمثل سائر على ألسن الناس.[١]

آل جونز هنا ليسوا عائلة محددة بعينها، ل هم الجيران الألداء دوماً. **إنهم الجيران الذين بابهم أمام بابك. ومرآبهم مقابل مرآبك.**

آل جونز هنا، هم العائلة المنافسة لك. إنهم المستوى الذي عليك أن تحرص على تجاوزه دوماً، إذا اقتنوا هم سيارة حديثة وضخمة، عليك أن تتجاوزهم بسيارة أحدث وأضخم. وإذا ابتاعوا لابنهم درجة حديثة وغالية الثمن فعليك بالمقابل أن تبتاع دراجة أحدث وأغلى. وإذا كان ثوب السهرة الذي سترتديه ابنتهم في حفل تخرجها غالياً، فإن الثوب الذي ستشتريه لابنتك في تخرجها يجب أن يكون أغلى. وإذا ذهب ابنهم للدراسة في جامعة يال، فإن ابنك يجب أن يذهب إلى هارفرد.

---

(١) keeping up with the joneses, wikipedia the free encyclopedia

وهكذا ستظل تتنافس مع آل جونز، وهم بدورهم سيتنافسون مع آل جونز- خاصتهم - وهؤلاء سيكونون أنت وعائلتك..

سيؤدي هذا التنافس المحموم في إثبات التميز، عبر الاستهلاك والمزيد منه، إلى ضخ المزيد من الأرباح في أرصدة تلك النخبة، نخبة الـ١٪ التي تسير كل شيء في ذلك الفردوس المستعار.

هل ستطرق مفكراً، وتقول: إن آل جونز هم جيرانك أيضاً بطريقة ما، وإن التنافس معهم يكاد يكون مهيمناً على حياتك أيضاً.؟

نعم، أعترف. لم يعد آل جونز يسكنون الضواحي فقط. إنهم الآن في كل مكان، إنهم الآن جيرانك وجيراني، يسكنون المدن والضواحي من كل قارة في هذا العالم الذي استباحته حضارة الفردوس المستعار.

..نعم، لقد وصلنا الأمر، وتسلل إلينا وصرنا نعده بدهية من بدهيات الحياة - صرنا نعده طبيعة إنسانية لا يأتيها الباطل من خلفها ولا من بين يديها...

لن أقول: إن حضارة الفردوس المستعار ابتكرت الحسد، وإنها اخترعته ولم يكن موجوداً قبلها في النفس الإنسانية. لا، الحسد موجود منذ قابيل وهابيل، والطمع موجود منذ آدم.. لكن الفرق الكبير هو أن يكون الحسد موجوداً صفةً ذميمة - تحاول تشذيبها ومقاومتها في داخلك - وبين أن يصير هذا الحسد نفسه محوراً لحياتك ومركزاً لكل وجودك.. ومحركاً لسلوكياتك..

فرق بين أن يكون الحسد موجوداً كظاهرة إنسانية بحجم محدود- وبنسبة محدودة - وبين أن يصير أسلوباً للحياة ونمطاً للعيش.. وأكثر من ذلك أن يصير رقماً مهماً في معادلة اقتصادية، بسيطة مهما تعقدت.

يزيد الاستهلاك.. يزيد الطلب.. يزيد الإنتاج ويزيد الربح..

ما كان يمكن للحسد الممثل بمقولة keeping up with the jones أن يصير أسلوباً للحياة، إلا في الضواحي، حيث نقطة الانطلاق التي بدأ منها الأفراد متشابهة لدرجة التطابق، بحيث يصير امتلاك السلع والبضائع وسيلة للسباق والتنافس والتميز بين الأفراد..

.. وفّرت الضواحي- حيث كل شيء فيها واسع، من شوارعها إلى واجهات منازلها- مناخاً ملائماً لذلك السباق، كل شخص من السكان سيتمكن أن يرى بالضبط ماذا اشترى آل جونز عندما عادوا من السوق وأنزلوا حاجيات المواد المشتراة من السيارة- التي اشتروها مؤخراً أيضاً- وسينتظر هو أيضاً أن يجعل آل جونز يعلمون أنه ليس أقل منهم، وأنه وعائلته سيعودون محملين ببضائع أكثر في السيارة الأحدث..

كان هذا هو المناخ الأكثر ملاءمة لكل أيديولوجيات الحلم الأمريكي، من الداروينية الاجتماعية، حيث الحياة حلبة سباق لا يتوقف أبداً، إلى الفردية، حيث مفهوم (نفسي نفسي) هو السائد، إلى الرأسمالية والاقتصاد الحر، حيث كل شيء له سعر وخاضع للطلب والعرض..

كان هذا هو المناخ الذي احتضن كل هذه المفاهيم، والذي احتضن -بوصفه ناتجاً نهائياً- ثمرة كل هذه المفاهيم المتمثلة في سعار التسوق المحموم، الذي صار حاجة بحد ذاته بغض النظر عن السلعة المبتاعة..

حيل شرعية! (حسب شريعة الغاب الراسمالي)

(وكان لابد، مع كل هذا المناخ، أن تتوافر شروط أخرى لتسهيل الانغماس في سعار الاستهلاك وتحويله إلى وباء جماعي مزمن يشارك فيه الجميع دونما استثناء).

ففي عملية التسوق هذه، ومع أن الفرد كان يحصل على سلعة يحتاج (أو لا يحتاج إليها)- أو يتصور ويعتقد أنه يحتاج إليها- فإنه في المقابل

كان يدفع بشكل مباشر ونقدي .cash كان يمارس عملية (تبادل) قد تؤثر فيه، وتقلل من مستوى استهلاكه الذي من المطلوب أن يتزايد دوماً، لذلك لجأت الرأسمالية وشركاتها الضخمة إلى ابتكار طريقة تقلل من شعور الفرد بعملية الدفع هذه (دون أن تقلل مما يدفع طبعاً).

لم يكن الأمر سوى فخ ذكي يجعل هذا الفرد لا يشعر بأن جيوبه قد فرغت بينما هو يخرج حاملاً أكياس المشتريات وصناديق السلع التي تبضعها..

كيف؟

تقسيط ظاهره مريح..

كان الأمر عبر طريقين اثنين. أولاً عبر نظام التقسيط، يجعل المرء لا ينتبه إلى أنه سيدفع أكثر في نهاية الأمر، لكنه سيكون مرتاحاً إلى أنه لن يدفع الكثير عند استلام السلعة، وإنما سيدفع على أقساط، مبالغ معينة ستكون، عندما تجمع في نهاية الأمر، أكبر من المبلغ المتوجب دفعه فيما لو اشترى من دون تقسيط[١]..

لم يكن هذا التقسيط أمريكياً مئة بالمئة فقد ابتدأ في فرنسة، ولكن كان مقيداً بجملة من الشروط تجعله شبه معطل، وما إن انتقل إلى أمريكا حتى استثمرته شركة singer لصناعة ماكنات الخياطة وانتبهت إلى فوائده في تشجيع الاستهلاك، وسرعان ما انتقل الأمر إلى شركات السيارات ومن ثم كل ما هو معروض للبيع في أمريكا[٢]..

---

(١) An All-Consuming Century Why Commercialism Won in Modern America Gary Cross Columbia University Press http://www.columbia.edu/cup/catalog/data/023111/0231113129.HTM

(٢) installment buying and selling Encyclopedia infoplease http://www.infoplease.com/ce6/bus/A0825286.html

وعلى الرغم من أن المبلغ المقسط سيكون أكبر مما لو دفع المبلغ كله (مباشرة)، إلا أن فكرة التقسيط نفسها كانت جذابة للفرد..

وسيسقط هذا الفرد في فخ التقسيط. سيستسهل أمر الدفع المقسط المؤجل ما دام لا يدفع الكثير في الحال، وسيؤدي به الأمر إلى المزيد من الشراء بالتقسيط، وسيصب ذلك أرباحاً أكبر (..وإن كانت مؤجلة قليلاً) في جيوب تلك النخب التي تتحكم في كل شيء.

هل يضايقك (الدفع النقدي)؟

أما الطريقة الثانية، التي سهلت الانغماس ضمن الاستهلاك والمزيد منه، فكانت نظام (الكريدت كاردز)، بطاقات الائتمان credit card التي خففت من شعور الفرد بأنه يدفع، وإنما الأمر محض بطاقة ممغنطة يتحاسب معها لاحقاً.

بدأ الأمر عام ١٩٥٠، في مدينة نيويورك مع بطاقة ورقية استعملها ٢٠٠ شخص فقط (معظمهم من الباعة الجوالين) وكان مجال استخدامها ١٤ مطعماً فقط يضطر هؤلاء الباعة إلى الأكل فيها في أثناء تجوالهم الذي يروجون فيه للسلع والبضائع. كانت البطاقة صادرة من شركة وسيطة، تملك ضمانات مع مستخدمي البطاقة، وتتحاسب مع المطاعم لاحقاً، ولا تأخذ أكثر من مبلغ بسيط من كل مستخدم (ثلاثة دولارات سنوية عام ١٩٥١)[١].

بعد مضي فترة وجيزة، لاحظ أصحاب المطاعم أن مستخدمي البطاقة- والذي هم زبائن أصلاً في هذه المطاعم قبل استخدامهم للبطاقة- لاحظوا أن هؤلاء أصبحوا يترددون أكثر، ويأكلون أكثر،

(١) credit card, wikipedia

وينفقون، عبر البطاقة، أكثر مما كانوا يفعلون أصلاً عبر النقد المباشر cash.

هذه الملاحظة كانت ترصد أولى إرهاصات الظاهرة التي ستتحول لتصير سلوكاً عالمياً.. وخلال عام واحد فقط، وبسبب أن تلك البطاقة أسهمت في المزيد من الاستهلاك، توسع العمل بها، وخرجت عن نطاق المطاعم الجوالين إلى المخازن الكبرى و٢٠٠ ألف شخص خلال سنة واحدة فقط[١]..

وخلال عقود كانت تلك البطاقة قد خرجت من نطاقها الأمريكي لتصبح ظاهرة عالمية، تعبر عن الفخ الاستهلاكي الذي سقط فيه مئات الملايين من الأفراد، **وهم يتصورون أنهم يحسنون صنعاً..**

ستصبح بطاقة الائتمان هذه وسيلة للمزيد من الاستهلاك، ستقول لك همساً في أذنيك: تبضع الآن، وادفع لاحقاً، واخرج من المتجر وأنت محمل بكل ما تشتهي وتريد من ضروريات السباق مع آل جونز..

(لن تخبرك لا همساً ولا صراخاً أن المبلغ الذي سيتوجب دفعه لاحقاً هو أكبر مما لو دفعته نقداً مباشرة).

(ولن تخبرك أيضاً أنك ستكون مديناً للبنك الذي منحك بطاقة الائتمان، فيما لو لم يكن لديك ما يغطي تكاليف المشتريات وأن هذا الدين سيكون بفائدة، وأن الفائدة ستكون مركبة.. وستتراكم.. وأنك قد تقضي (ماراثونك) اليومي بين المزيد من التسوق والمزيد من تسديد الديون..).

(إنها لن تقول لك بالتأكيد، ذلك الرقم الصاعق لحجم الدين الشخصي الناتج عن بطاقة الائتمان، credit consumer debt، والذي

(١) history of credit cards-http: didyouknownow.cd/creditcard.html

بلغ، مع فوائده، مبلغ ١,٧ تريليون دولار، ولن تخبرك أيضاً أن نسبة الدين بلغت ١١٠٪ من حجم الدخل العائلي!)[١]

لا، لن تخبرك البطاقة الممغنطة بذلك، فالوعي بهذه الحقائق قد يخفف من حمى التسوق التي يفترض أن تظل عالية.. من أجل أن تظل العجلة تلك تدور وتدور وتضخ الأرباح والأرباح. الحقيقة ليست مهمة، والحقائق ليست مهمة، والأرقام ليست مهمة، المهم أن تتسوق حتى الموت.

إنها تلك الوصية الغالية.Shop till you drop ...

ثم جاء حصان طروادة..

خلال الفترة نفسها التي شهدت ازدهار ظاهرة الضواحي والتسابق مع آل جونز وبطاقة الائتمان المفخخة، ظهر على الساحة لاعب مهم، كان موجوداً قبلها بشكل محدود.. لكنه، ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، وخلال عقد الخمسينيات وبعدها، صار لاعباً أساسياً ومهيمناً على كل قواعد اللعبة.

ما هو؟ من هو؟ إنه ضيف لا يفارقنا، وموجود في كل بيت من بيوتنا، لعلنا لن نفقد أحداً من عوائلنا- فيما لو غاب- كما سنفتقده هو إذا غاب، ليس ضيفاً عابراً بالتأكيد، بل هو من أهل البيت.

إنه التلفاز أيها السادة.

❁ ❁ ❁

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، كان هناك عشرة آلاف جهاز تلفاز فقط في طول الولايات المتحدة وعرضها. خلال بضع سنوات وقبل أن

---

(١) /www.repaydebt.org fact sheet credit counselors: offering real soloutions for real people/1-800-repaydebt

ينتهي عقد الأربعينيات قفز الرقم إلى ١٧ مليوناً... وقبل أن تنتهي الخمسينيات كان هناك ٦٠ مليون جهاز في الولايات المتحدة[1]..

سيكون ذلك له معنى مباشر مرتبط بأرباح الشركات المصنعة..

ولكن هناك معنى أكبر وأعمق، هو ما أقصد هنا...

فستُّون مليون جهاز في ٩٠٪ من البيوت الأمريكية كان يمثل ٦٠ مليون حصان طروادة داخل كل بيت من البيوت التي دخلها. كان يمثل ٦٠ مليون حصان طروادة داخل كل رأس من الرؤوس التي تشاهده.

إنه الإعلام وقد دخل ليعيد تشكيل الملامح والثقافة وطريقة الحياة، وقد وجد في التلفاز وسيلته الأكثر انتشاراً للوصول إلى العقول.. وللدخول إليها..

وعندما سيدخلها، فإنه سيستوطنها ولن يخرج منها بسهولة.. وسيعيد تشكيلها، وتشكيل آفاقها، وعقائدها..

إنه التلفاز أيها السادة، وانتشاره في هذا العقد خصوصاً يذكر بأن الهدف الأساسي لنخبة الـ١٪ كان الترويج للاستهلاك، من أجل تفادي الركود..

وكان التلفاز وسيلة من أجل ترسيخ ذلك. من أجل تحويل الاستهلاك من نزعة منبوذة في عالم ما قبل أمريكا، إلى ميل غريزي وطبيعي وأصيل من غرائز النفس الإنسانية ونزعاتها..

للوهلة الأولى، سيكون التلفاز وسيلة جيدة للتسلية وقضاء الوقت.. وسيكون ذلك منطقياً وعقلانياً تماماً، فملايين الأفراد الذي رحلوا إلى

---

(١) Kingwood College Library American Cultural History The Twentieth Century1940-1949

الضواحي خلال تلك الفترة هجروا المدينة وشبكة علاقاتهم الاجتماعية فيها، لم يكن لهم نشاط اجتماعي بديل، أو علاقات اجتماعية قوية، فكان التلفاز يقدم لهم ذلك البديل الذي يقتلون فيه وقت فراغهم، ويسليهم بعروضه المتنوعة بين الضحك والتشويق والدراما والمسابقات.

كان هذا منطقياً جداً، وكان يبرر أيضاً السبب في ذلك الرواج الشديد لأجهزة التلفاز في تلك الفترة. لقد تغيرت البنية الاجتماعية تماماً عندما انتقل السكان إلى الضواحي، حيث العوائل المتجاورة لا تعرف من بعضها البعض غير أن كل عائلة هي آل جونز التي يجب منافستها، أو اللحاق بها على الأقل..

وهكذا كان، تمزقت بنية المدينة، ونشأت بنية الضواحي، وبين هذا وذاك، كان التلفاز تعويضاً حقيقياً عن العلاقات الإنسانية..

منطقي جداً فعلاً، لكن لماذا تفعل المحطات التلفازية ذلك؟

أقصد، إنه عالم منفعة ومصالح هذا الذي نعيش فيه، فلماذا تقوم هذه المحطات، وهي مجانية، (وكثير منها لا يزال كذلك) بقتل أوقات فراغنا وتسليتنا مقابل.. لاشيء؟

لا، ليس دونما مقابل، فلا شيء مجاني في عالم رأس المال والاستهلاك وبقاء الأصلح، لكن هناك أشياء مؤجلة، وأشياء قد تدفع لاحقاً.

محطات التلفزة هذه تسلينا وتقتل فراغنا، ولكنها، بين التسلية والدراما والمتعة، تقدم فواصل إعلانية دسمة وهذه الفواصل الإعلانية الدسمة، هي محور حياة هذه المحطات التلفازية.. هي دورها الحقيقي الذي أدته، ولا تزال تؤديه منذ تلك الفترة الحاسمة في تاريخ الفردوس المستعار التي تلت الحرب العالمية الثانية.

أيديولوجية في مشهد من سطرين..

للوهلة الأولى، سيبدو الإعلان بريئاً جداً، شديد الوضوح والبساطة، سيبدو كما لو كان ببعدين لا ثالث لهما، ولا يحتوي على أي شيء خبئ أو خفي في داخله. سيبدو الإعلان مباشراً ولا يحتمل تأويلات: شركة ما، تروج لسلعتها، عبر إعلان مرئي، يعدد، بوسيلة واضحة جداً، محاسن معينة لهذه السلعة. وقد يكون هناك بعض المبالغة- قد تصل لدرجة الكذب- في ذكر إيجابيات مفترضة للسلعة المراد ترويجها، لكن ذلك كله مقبول إلى حد ما، ويعد جزءاً من سياسة البيع والشراء والمساومة والمراوغة المتعارف عليها منذ أول سوق وأول بيع وشراء في هذا العالم..

سنتصور أن الإعلان هنا، يمثل دور الوسيط التقليدي في الأسواق القديمة، يسير وهو يعلن عن بضاعته، ربما يرفع عقيرته بالغناء وهو (يدلل) على جودة بضاعته ومتانتها..

ربما هناك جزء من هذا الدور في وظيفة الإعلام المعاصرة، لكن هناك دوراً أعمق بكثير، وأهم بكثير يؤديه هذا الإعلان، لا ليروج لتلك البضاعة بعينها، **ولكن ليروج لحياة تكون البضائع هي أهم ما فيها**[1]..

حتى لو لم تشتر البضاعة المعينة التي يبدو لك أن ترويجها هو الهدف من الإعلان، حتى لو لم تكن تلك البضاعة موجودة في أسواقك، **فإنك ستلتقط الفكرة من الإعلان.**

---

(١) Toward A Critical Theory of Advertising By john Harms Southwest Missouri State University Douglas Kellner The university of Texas at Austin, Home-page: http:/www.gseis.ucla.edu/faculty/Kellner/kellner.html http:/www.gseis.ucla.edu/faculty/kellner/DK97CV.htm

ستأخذ دون أن تشعر الجملة الأساسية الموجودة بين السطور، ستأخذ الأيديولوجية العميقة الساكنة فيها، دون وعي...

الشاشة والمرآة التي تعكسها في دواخلنا

ربما ستندهش، أي جملة هذه هي التي بين السطور؟ كم سطراً أصلاً يوجد في الإعلان، حتى تكون هناك جملة بين سطوره؟. وعن أي أيديولوجية أتحدث؟. هل صار هناك أيديولوجية للإعلان أيضاً؟

نعم، هناك. والإعلان ليس عن ترويج سلعة معينة، بقدر ما هو ترويج لفكرة، لمنظومة أفكار، لنمط معين من الحياة..

السلعة التي يروجها الإعلان هي -على الأغلب- ليست البضاعة التجارية التي يلمعها الإعلان، بل السلعة هنا هي (أنت)[١]. السلعة هي صورة في ذهنك لذاتك ولشخصيتك ولنمط حياتك، يقدمها هذا الإعلان مركزاً في أقل من نصف دقيقة، وبطريقة غير مباشرة، عبر الحديث عن سلعة سترتديها أو ستستعملها أو ستحتسيها..

نعم. السلعة هنا، ليست تلك السيجارة، أو الشراب المنعش، أو معجون الأسنان، أو حتى (الستيريو) عالي المواصفات، إنما السلعة هي تلك الصورة التي ستترسخ في ذهنك، صورة ذلك (النموذج)- فتى الإعلان، أو فتاة الإعلان- الذي يستخدم هذه السلع، والذي يبدو في أشد حالات السعادة وهو يستخدمها، هو السلعة الأساسية التي ستقبل عليها.

هذا النموذج، وصورته في ذهنك، هو ما ستحاول لاحقاً أن تقسر

---

(١) Brands R Us (How by Stephen garey- media and values magazine issue 51 summer of 1990 Advertising Words(.

نفسك على الدخول فيه. سيكون هذا النموذج (قالباً) ترسخ في ذهنك أنه وحده هو القالب الذي يمكن حقاً العيش فيه بسعادة.

نعم. إنه نموذج السعادة هذا الذي تبتلعه دون أن تدري أنه يبتلعك..

ربما لن تقفل التلفاز وتذهب لتشتري السلعة نفسها التي روج لها الإعلان على الفور، لكن في داخلك، وبالتدريج، مرة تلو مرة تلو مرة، سيترسب الشعور العميق والاعتقاد الراسخ، أن **السعادة لن تأتي إلا عبر السلع**، وأنك كلما اقتنيت سلعاً أكثر، زادت سعادتك.. سترسخ في ذهنك صورة لنفسك - self image[١] صورة شبيهة بصورة فتى الإعلان، **وستعتقد جازماً أنك لن تتألق مثله (أو مثلها) إلا إذا حصلت على تلك السلع التي يروج لها..** ربما لن تستطيع شراء العلامات التجارية المميزة نفسها ،لكنك ستشتري علامات أخرى أقل سعراً وكلفة.. وكلما زادت أصالة العلامة التجارية[٢] (الماركة trade mark) ازدادت صورتك بريقاً وبهاء ولمعاناً..

الإعلان لا يروج لسلعة بعينها فحسب، وليس هذا إلا شيئاً مباشراً في آثاره، لكن الأهم من السلعة، أنه يروج **لحياة السلع فيها هي أهم ما فيها..**

لا أزال أذكر أوائل الثمانينيات في القرن الماضي، عندما انتشرت أجهزة (الفيديو كاسيت)، وانتشرت معها أشرطة سجلت لبرامج من محطات تلفزة تابعة لدول أخرى، بعضها دول مجاورة وبعضها الآخر دول غربية، وكان ضمن هذه البرامج فواصل شدتنا وأبهرتنا، وزرعت تلك

(١) measuring up:how Dawn Heinecken, Vickie Rutledeg shields university of pennsylvanial press advertising affects self-image

(٢) ideology of advertising adidelo http:/www.mediaknowall.com/advertising/ adideol.html

الأيديولوجية الخفية في عقولنا، نحن الذين كنا نعيش في مجتمع شبه اشتراكي، تسيطر فيه الدولة على كل ما يستورد من سلع، وتفرض ذوقاً معيناً ولوناً معيناً ونوعاً معيناً من كل شيء..

كنا نتداول تلك الأشرطة ونسأل بلهفة (فيها إعلانات؟)..

نريد أن نطمئن أننا سنرى شيئاً من تلك الجنة، ومن تلك السعادة، ومن ذلك البريق والتألق على تلك الوجوه التي تستعمل السلع في الإعلان..

وكانت تلك الإعلانات، تشكل لنا، دون أن نعي، مرآة في أذهاننا..

مرآة نريد أن نرى صورتنا فيها.. مرآة هي أفقنا العقلي وطموحنا وقيمنا الحقيقية.. شكلت تلك الإعلانات، وسواها، مفهومنا الحقيقي للسعادة. وشكلت لنا، هدفاً نحققه هو ذاته على الرغم من كل الشعارات التي ندعيها.. وهذا الهدف هو تحقيق هذا المفهوم من السعادة (.. عبر المزيد والمزيد من السلع.. بل إن قمة السعادة ستكون في وجود خيارات متنوعة من السلع، وقرار المستهلك باختيار واحد منها هو ذلك القرار الذي يجلب له السعادة)[١].

لا أذكر أياً من العلامات التجارية التي روجت لها تلك الإعلانات المبكرة. وكذلك لا يذكر عموماً أحد أي إعلان بعد مضي فترة قصيرة من التوقف عن بثه.. العلامة التجارية (trade mark) قد تمحى من الذهن، لكن الرسالة خلف الإعلان تظل راسخة في الأذهان، إنه ذلك المفهوم الأحادي للسعادة عبر الاقتناء.. ولا شيء سواها.

---

(١) The Impact of Variety on Consumer Happiness: Marketing and the Tyranny of Freedom. Desmeules, Rémi.2002. Academy of Marketing Science Review (Online(١٢)٢٠٠٢ (http://www.amsreview.org/articles/desmeules12-2002.pdf

غسيل دماغ: جماعي ويومي

.. يتعرض الفرد الواحد، في اليوم الواحد-والذي يعيش في عصر العولمة الذي يجتاح كل شيء -إلى ما لا يقل عن ٣٠٠٠-١٠٠٠٠ إعلان عبر وسائل الإعلام المختلفة، من محطات الإذاعة إلى الإنترنت مروراً بالتلفاز واللافتات في الشوارع.

قد يزيد هذا العدد أو يقل تبعاً لدرجة (تقدم!) المحيط بالفرد أو تخلفه.. ولكن في كل الأحوال فإن كل فرد معاصر يتعرض لعدد هائل من الإعلانات التجارية بمختلف الأساليب والأنواع. النتيجة الأكثر عمقاً والأهم على المدى البعيد، هي أن هذه الإعلانات تقوم بعملية (غسيل دماغ) جماعية، قد لا نكون واعين بها وقد نكون، لكنها الحقيقة: هناك عملية إيحاء (وبعضهم يذهب إلى أن هناك رسائل سرية موجهة إلى اللاوعي[١]) وهناك عملية غسيل للدماغ[٢][٣]، وغزو كامل للعقول ولنمط التفكير عبر أعاصير الإعلانات التي تجتاحنا كل يوم، والتي صارت جزءاً من إيقاع حياتنا اليومي. وهذا ذاته هو الخطير في الأمر، أنه صار طبيعياً جداً وروتينياً جداً ولم نعد ننتبه إلى خطورته..

لقد أبحرنا بعيداً في التيار.. صرنا جزءاً منه.. بعيداً عن نقطة اللاعودة ..

لم نعد مخيرين، لقد سلبت إرادتنا..

الآن، والآن فقط، صرنا مسيرين.

---

(١) Is Subliminal Advertising F.ffeetive:By:Selena McIntyre, http://www.bpsoutdoor.com/articles/subliminalads.htm

(٢) Subliminal Advertising 20th Century Brainwashing and what's hidden in the microsoft's logo by Dr.Lechnar

(٣) Little elves and mind control: advertising and its critics' Helen Irving The Australian Journal of Media&Culture vol.4 no2(١٩٩١)Television and Edited by John Hartley

ولو أننا توقفنا قليلاً لنتذكر من أين بدأ الأمر، لوجدنا أنه بدأ من ذلك الاعتقاد بأن المزيد من الاستهلاك سيبعد الركود، وسيخلق المزيد من وظائف العمل، وسيحقق ذلك ـ على المدى البعيد ـ مجتمعاً متوازناً للجميع..

إذن كان الاستهلاك، بدايةً، مجرد وسيلة، وسيلة للوصول إلى مجتمع (اقتصادي الديمقراطية) بمعنى أنه مجتمع تتمتع فيه الأكثرية الساحقة من الناس بالرفاهية الاقتصادية.

كان ذلك هو الهدف المعلن عندما انتهت الحرب العالمية الثانية، المهم لم يكن الاستهلاكَ بحد ذاته، بل إبعاد شبح الركود والفاقة..

..مع الوقت، خصوصاً مع عدم تحقق تلك اليوتوبيا الموعودة، **فإن الاستهلاك بحد ذاته صار الهدف**، لم يعد الأمر مرتبطاً بزيادة الوظائف التي ستؤدي إلى تحسين معدل الدخل في مجتمع سيصير سعيداً، لا، **لقد صار الاستهلاك هو الهدف، صارت السعادة لا تتحقق إلا بالاستهلاك.**

سعداء نعم، لكن على الشاشة فقط

مع ذلك، مع أن الاستهلاك قد وصل حدوداً فلكية، ومؤذية للبيئة، إلا أن ذلك، على ما يبدو، لم يحقق زيادة، ولو نسبية، في سعادة الإنسان.

وأنا لا أتحدث هنا عن السعادة الإنسانية بالمطلق، أي: إني لا أتحدث عن الناس الذين يعيشون في العالم المتخلف الذي لا يزال على أولى خطوات الاستهلاك والسعادة، بل أتحدث تحديداً عن أولئك الذين هم هناك، الناس في ذلك الفردوس المستعار، الذين يشكلون، مجموع ٥٪ من سكان الأرض، ولكنهم يستهلكون حوالي ٣٥٪ من مجموع ما يستهلكه كل الـ٩٥٪ الباقون..

ألا يفترض أن يكون هؤلاء الناس، هم الأكثر سعادة على الأرض

قاطبة؟ ألا نعدهم قد وصلوا لذلك الفردوس المستعار الذي نتمنى لو نصل إلى جزء منه؟ ألا يمثلون- بنمط حياتهم- (المثل) و(النموذج) الذي نسعى لهاثاً وراء تقليده؟.

فهل نعتقد أنهم وصلوا للسعادة؟

إذا كانت السعادة بالاستهلاك، فالمفترض أن يكونوا قد وصلوا لقمتها القصوى..

بين عامي ١٩٥٧ و٢٠٠٣ تضاعفت نسب الاستهلاك الأمريكي ثلاث مرات، وهذا يعني أن نسبة من يشعرون بالسعادة، يجب أن تزيد، حسب قانون التناسب الطردي بين السعادة والاستهلاك الذي تروج له أيديولوجية الإعلان.

إحصائياً لم يحدث هذا. على العكس، الأرقام الإحصائية تشير إلى العكس من هذا. فعلى الرغم من تضاعف الاستهلاك ثلاث مرات، فإن نسبة من يشعرون (بالرضى) في حياتهم، هبطت من ٤٢٪ عام ١٩٥٧ إلى ٣٠٪ فقط عام ٢٠٠٣[١]. على الرغم من ازدياد معدلات الاستهلاك بشكل كبير..

الشيء الأهم في هذه الإحصائية وغيرها.. أن الذين قالوا إنهم سعداء لم يكونوا من الأغنياء جداً.. (كما أنهم لم يكونوا من الفقراء جداً)..

تشير دراسات كثيرة[٢]، [٣]، تشمل إحصاءات ميدانية واسعة، إلى أنه

(١) Happiness through consumption: towards a theoretical approach based on human needs satisfaction Monica Guillen Royo university of Bath

(٢) SUSTAINABLE CONSUMPTION AND HAPPINESS Ruut Veenhoven Erasmus University Rotterdam, Netherlands. Driving forces and barriers to sustainable consumption Paper presented at the international workshop University of leeds, UK, March5-6,2006

(٣) what can economics learn from happiness research? BRUNO S.FREY and =

في حالة توافر الحاجات الأساسية (السكن - الطعام - والضمان الصحي) فإن أي زيادة في الدخل فوق هذه الحاجات لا يشترط أن تؤدي إلى زيادة في شعور المرء بالسعادة. بعد الوصول إلى مستوى دخل يؤمن هذه الحاجات، فإنه تفقد- إحصائياً- أيّ علاقة رياضية بين الشعور بالسعادة، ومعدل الدخل[١].

وتحدد واحدة من الدراسات، أنه بوجود معدل دخل لا يقل عن عشرة آلاف دولار سنوياً (وهو أقل من نصف معدل الدخل الفردي في الولايات المتحدة) وبوجود الضمانات الأساسية، فإن أي زيادة إضافية على الدخل، لن تزيد من شعور المرء بحياة أفضل (well being) مع أنه غالباً ما يستهلك أقل من فرد آخر يبلغ معدل دخله ٢٠ ألف دولار.. أو ٣٠ ألف دولار؟.

أليس ذلك عجيباً؟.

أعني أنه مخالف لتلك الحقيقة التي ألقمتنا إياها ثقافة الإعلان منذ طفولتنا، كلما زاد دخلك فستزيد من تسوقك واستهلاكك، وسيزيد هذا من سعادتك؟.

نعم، ثقافة الإعلان ألقمتنا هذه الأيديولوجية، وجعلتها بدهية من بدهيات الحياة التي لا تناقش. لكن هذه الحقيقة الإحصائية تقول بعكس ذلك. هذه الحقيقة الواقعية، المأخوذة من الناس الحقيقيين، من مشاعرهم، وأزماتهم، وإحباطاتهم، تقول شيئاً عكس ما يقوله أولئك الذين يظهرون في الإعلانات والذين يتحركون في أقنعة الماكياج وبين

= ALOIS STUTZER Journal of Economic Literature

(١) Will money increase subjective will being? Literature review and a guide to needed research by ED DIENER and ROBERT BISWAS-DIENER

الأضواء الاصطناعية وحسب تعليمات المخرج، ويقبضون ثمناً (ليمثلوا) السعادة التي يقنعوننا بها..

حقيقة الإحصاء تقول غير ما تقوله (الحقيقة المضخمة)-(Hypereality) التي قضينا حياتنا ونحن نمتصها دون أن نشعر..

ماذا إذن يجعل الاستهلاك قوياً هكذا إذا كان قد فشل مرتين، منذ بزغت حضارة الفردوس المستعار على العالم أجمع؟.

فشل مرة في أن يكون وسيلة إلى تحقيق الرفاهية للجميع، كما كانت تزعم الرأسمالية في أول حربها الباردة مع الشيوعية.

ثم فشل مرة ثانية في أن يكون معبراً إلى السعادة بشكل شخصي وفردي.

فما الذي يجعله قوياً، وعصياً على الاستئصال؟ ما الذي يجعله محصناً حتى من النقاش والجدال؟

ماذا كنا سنفعل من دون (شيفروليه)؟

يمثل الاستهلاك، في صيغته الحالية، شديدة الإسراف، وسيلة نحقق بها وجودنا.. وسيلة لتحقيق الذات.. وإثبات الهوية[(١)، (٢)].

نعم، لقد صارت (السلع) التي نحملها من الرفوف من المجمع التجاري ونضعها في العربات المعدنية التي ندفعها.. بتلذذ شديد - ولكن خفي- ومن ثم نحملها في أكياس أو صناديق إلى بيوتنا ونحن نعرف أنا لا

---

(١) Consumption, Identity-Formation and Uncertainty
Alan Warde Sociology, Vol. 28, No. 4, 877-898 (1994)
DOI: 10.1177/0038038594028004005
© 1994 BSA Publications Ltd.

(٢) Identity, Self and Consumption: A Conceptual Framework Hogg,M.K. & Mitchell,P.C.N.(١٩٩٦)Journal of Marketing Management 12;629-644

نحتاج حقاً إلى معظمها..، صارت تلك السلع، تمثلنا فعلاً، قيمتها **صارت تمثل قيمتنا أمام أنفسنا قبل أن تكون أمام الآخرين..**

نعم، صار التسوق وسيلة لتحقيق الذات. لتحقيق احترام أفضل للذات. لتحقيق صورة أفضل للذات.

.. أليس ذلك هو النهاية المنطقية والمتوقعة لمسار الأحداث في الفردوس العالمي المستعار؟ ..**أليس أن يكون التسوق تحقيقاً للذات، وللوجود كله، تحصيلاً حاصلاً لفردوس بني أساساً على حجر الأساس، وهو المادة**، وكانت أركانه الأخرى تباعاً هي: (الفردية) التي رسخت كون الفرد هو مركز الكون الذي تدور حوله كل المجرات والعقائد، (والرأسمالية) التي هي شريعة الطبيعة في ترك الأغنياء يحوزون كل شيء؟ هل كان يمكن في مناخ كهذا، ألا يصبح التسوق، والحصول على السلع، والمزيد منها، **هو الوسيلة الوحيدة المتبقية لإثبات الذات؟**.

عندما يكون كل ما حولك يستعمل ميزاناً واحداً هو **(المادة)**، ويستعمل لغة واحدة هي (المادة)، وتكون الإعلانات من أمامك ومن خلفك ومن بين يديك وعن يمينك وعن شمالك- عندما تكون محاصراً بالإعلان الذي يقول إن معجون الأسنان ماركة كذا يجعلك متألقاً وواثقاً من نفسك وتنفث عطراً طيباً من حولك. وإعلان آخر يجعل من شراب غازي معين كما لو كان غازاً بديلاً عن الأوكسجين ذاته، وآخر يخبرك عن سيارة بمحرك رباعي الدفع هي أفضل تعبير عن شخصيتك، وآخر يصور لك امرأة تمرر أصابعها على كرسي جلدي، وعلى مخمل مترف بطريقة مليئة بالإيحاءات الجنسية، ثم تمرر يدها بالطريقة نفسها على جهاز الهاتف المحمول بماركة معينة. وإعلان يصور لك الطبيعة الساحرة في الغرب الأوسط، ورجل يتفجر حيوية ونشاطاً وهو ينفث دخان سيجارة ما، وصوت يقول لك: «توج متعتك بنكهة».. (نوع معين سأترفع عن

الترويج له) فتخطر في بالك كل المتع التي يمكن أن يكون هذا الرجل قد حصل عليها، ثم توج كل ذلك بمتعة هذه السيجارة، فستقرر أنت، كتعويض، بأن تحصل على قمة متعته عبر تدخين السيجارة نفسها.

وسيحاصرك إعلان آخر، يقول لك إنك لن تكون سعيداً حقاً مع عائلتك، وإن أولادك لن يفيضوا أدباً ونشاطاً وحيوية، وإن التقطيبة لن تغادر وجه زوجتك، إلا إذا ركبتم سيارة حديثة كتلك التي تظهر في الإعلان، والتي يقودها رجل مبتسم وبجانبه زوجته مبتسمة كما لو كانا يلتقطان صورة زفافهما، وخلفهما ثلاثة أطفال لو كانوا في رحلة إلى مدينة الألعاب لكانوا أقل سعادة من تلك التي على وجوههم لمجرد ركوبهم السيارة. كل تلك التفاصيل الحميمة للسعادة العائلية تم تسويقها إلى العالم بوصفها هدفاً ونهاية بحد ذاتها، ولن تتمكن من أن تحوز هذه السعادة إلا عبر ابتياع تلك السلع المنبثة عبر صور السعادة العائلية[١]..

إنك محاصر فعلاً من كل الجهات، وأين المفر؟. لا مفر هناك.

ليس سوى أن تفر إلى المزيد من التسوق، لن يحقق لك ذلك تلك السعادة التي يروجون لها، لكنه قد يحقق (ذاتك).

قد تشعر بأنك حققت شيئاً في حياتك، قد يجعلك تشعر بالاحترام لنفسك، بالإنجاز..

إنه التسوق، وسيلتك الأخيرة للحصول على هوية، في عالم لا يعترف إلا بالمادة، ولا يحترم إلا المادة، والسلع هي الوسيلة الأكثر سهولة ـ والأكثر وضوحاً ـ لتحوز الاعتراف والاحترام في هذا العالم[٢].

---

(١) The commercialization of intimate Life Arlie Russell Hochschild Notes from Home and Work university of California press

(٢) Consumption: A Gateway to Self-Identity, www. knowledgbed. com/sociology/ consumption.html written by Michael Black.

تحقيق الذات عبر... التسوق وشراء الحاجيات

في النهاية، وبعد كل الألقاب، وكل الشهادات، وكل المهن وكل الإنجازات، فإن القدرة الشرائية للفرد Purchasing power parity هي التي تهم في هذا العالم، الذي تتحكم فيه المادة وأخلاقياتها وقيمها، ليس هناك أصدق من القدرة الشرائية لتقيم مكانتك الحقيقية الاجتماعية..

دعونا نترفع عن الإنكار، دعونا نكف عن التهرب من مواجهة الحقائق..

دعونا نقر أن المهن الأكثر احتراماً في مجتمعنا قد لا تكون الأكثر فائدة ونفعاً بقدر التي تمنح صاحبها قدرة شرائية أكبر.

نعم، إنها القدرة الشرائية هي التي تجعل زوجتك راضية وفخورة بك.

وهي التي تجعل جيرانك يحترمونك ويتفقدونك .بل إنها هي التي تجعلك تحترم ذاتك..

دعونا على الأقل نقر أن ذلك بدأ يغزونا، حتى لو كنا نقاوم، ونتمسك بقيم أخرى لاحترام الآخر واحترام الذات، فإن ذلك بدأ يتسلل بالتدريج.. رويداً رويداً.

إنها قدرتك الشرائية هي التي تحدد مكانتك وانتماءك لمجتمع الفردوس المستعار الذي تتوسع حدوده يوماً بعد آخر.

أنت وذاتك لست سوى كيس فارغ.. وقدرتك الشرائية هي التي تملأ ذلك الكيس بالسلع والمشتريات.

وكلما ازددت قدرة على الشراء وعلى ملء ذلك الكيس الذي هو أنت وذاتك، ازددت تحقيقاً لها، وازددت احتراماً لنفسك، وازداد الآخرون احتراماً لك.

القدرة الشرائية هي هويتك، وأنت لا تحققها، لا تحقق ذاتك إلا عبر الاستهلاك.

وسيكون هذا التسوق، بالنسبة إلى بعضهم، هو الذي يميز الإنسان.. عن الحيوان...![1]

تخيلوا!

أنا أتسوق إذن أنا موجود!!

أنا أشك إذن أنا موجود.

قالها ديكارت، جزءاً من برهانه للوصول إلى وجود الله.

كان الشك يومها، برهاناً على الوجود، في تلك المرحلة المهمة التي شهدتها الحضارة الغربية في عصر النهضة والتنوير..

أنا أشك، إذن أنا موجود- قالها ومضى، لم يكن يدري كيف ستمضي الأمور، وكيف سيؤدي شيء إلى آخر، وكيف سيصير شيء آخر، بعيد تماماً، هو برهان الوجود، بالنسبة إلى الملايين، بل إلى مئات الملايين من البشر..

أنا أتسوق إذن أنا موجود[2] - هذه هي النسخة الجديدة من المعادلة السائدة اليوم، لم يعد الفكر والتفكير والتساؤل معبراً إلى إثبات الوجود. فذلك عصر ذهب وولّى، إنما هو التسوق الآن. إنما هو السلعة تلو

(١) I shop therefore I am: the new scholarship on 18th century consumption or, LIFE IN A NETWORK OF HUMANS AND NONHUMANS William B. Warner English, UC Santa Barbara

(٢) I Shop, Therefore I Am: Compulsive Buying and the Search for Self by April Lane Benson-publisher. Jason Aronson July 2000

الأخرى تثبت بها وجودك..، هو إثبات مؤقت وعابر.. فأنت ستحتاج دوماً إلى السلعة التالية، لتثبت بها وجودك.. وبعدها السلعة التي تلي..وتلي.. وتلي.

وهكذا سيكون إثباتك لوجودك جزءاً من دورة الاستهلاك التي لا تنتهي، والتي ترمي بالأرباح في جيوب نخبة الـ١٪..

أنت تثبت وجودك، وهم تزيد أرباحهم، ياللعجب!!

(والآن نعرفُ ما هو حقاً أفيون الشعوب..).

۞ ۞ ۞

صدق أو لا تصدق: صار الأمر مرضاً، وهو وباء أيضاً..

ومدمنو الأفيون أو المخدرات عموماً لا يبدؤون من الإدمان. إنهم يبدؤون عادة من البحث عن المتعة المختلفة أو من الهروب من واقع مرير، وهم يجدونها لسويعات أو أقل حسب كمية الجرعة، لكنهم سرعان ما يصطدمون بواقعهم المحبط وقد عاد ليحيط بهم من كل جانب، علاقاتهم المفككة وحياتهم الروتينية والنظرة الدونية للذات.. وهذا سيدفعهم إلى التكرار من جديد، المخدرات مرة أخرى.. فتمنحهم شعوراً عالياً يخلصهم من تلك المكانة الدونية التي حصروا أنفسهم فيها.. ومن ثم، يزول تأثير المخدر فيسقطون من (عل) ويكون ارتطامهم بالقاع أكبر وأشد وطأة.. ويصبحون أكثر كآبة.. وهكذا يسرعون مرة أخرى للشعور العالي عبر جرعة أكبر.. وأكبر.. هذا هو الإدمان..

لا يختلف الأمر مع أفيون الشعوب الحقيقي ـ الذي تروجه الجهات المسؤولة عنه والتي تصب أرباحه في جيوبها ـ . الأمر هو نفسه مع أي إدمان، هيروين أو أفيون أو (تسوق). كل ما في الأمر أن (التسوق)

لا يقضي على الحياة البيولوجية، **وإنما يركز على الحياة النفسية والرصيد المستنفد دائماً..**

هل في الأمر مبالغة لفظية؟. لا، لقد صار الأمر موثقاً بلغة العلم والطب النفسي[١]. وصار هناك -اليوم- عيادات للعلاج النفسي ومواقع على الإنترنت خاصة لمعالجة مدمني التسوق والذين يعانون من تلك الحالة المرضية (**التي هي نتاج حضارة الفردوس المستعار**) والتي صار اسمها العلمي (مرض التسوق القسري) (compulsory shopping disorder)..

يقول أحد المختصين: إن المرض هو في حقيقته وبائي وواسع الانتشار جداً[٢]، وهذا على الأخص ما يجعل الناس غافلين عنه، لأن الجميع تقريباً مصابون به، بل إنه وسيلة للتشاوف والتباهي الاجتماعيين، وهو مفيد جداً للتسابق مع آل جونز الأقربين.. إنه نمط للحياة..

فكيف ينتبه المصاب به إلى أنه مرض؟.

ينتبه فقط من يتورط بتراكم الديون إلى حدود لا يعود يمكنه تسديدها..، يبدأ الأمر بقرار يأخذه هذا الشخص بأنه **(سيمسك يده)** وسيتوقف عن التسوق.. وسيتفاجأ مع نفسه أن الأمر ليس بالسهولة المتوقعة، بل إنه صعب جداً. وستبدأ المعاناة، بالضبط كما يحدث مع سائر المدمنين، **إنهم لا يدركون حجم المشكلة إلا عندما يحاولون ترك الإدمان..**

يدمن الأشخاص على التسوق ليهربوا من مشكلة معينة في داخلهم، قد تكون في العمل، وقد تكون في العلاقات الشخصية، وقد تكون مع

---

(١) medicinenet.com-compulsive shopping disorder

(٢) Our new epidemic: compulsive buying Growing army of us shop because we can't stop; debt gets out of control By Mary Ethridge Beacon Journal business writer, Beacon journal Sun, Jul. 11, 2004.

الذات، وقد تكون مركبة من كل ذلك. وهم يجدون في التسوق ملاذاً يمنحهم- ولو مؤقتاً- القوة، ويشعرهم بالجاذبية وربما الأمان، (لأنهم يهربون من الشعور بالضعف وبكونهم مرفوضين ويفتقدون إلى الأمان في حياتهم الشخصية).. وعندما يقسرون - لسبب مادي- على ترك هذا الملاذ، فإن الأسباب التي دعتهم إلى الهروب إلى هذا الملاذ ستتضخم، وستتدهور نظرتهم لأنفسهم أكثر فأكثر..

هؤلاء، وكثيرون من غيرهم - وربما منا نحن أيضاً- لا يتسوقون من أجل سلعة معينة (يحتاجون إليها)، إنما يتسوقون من أجل حاجة نفسية تتعلق بإرضاء الذات، أو أحياناً بالبحث عن الذات وتحقيقها..

كثيرون يفعلون ذلك، يهربون من إحباطهم وأزماتهم بالعودة محملين بسلع ربما لن يستعملها أحد..

دعونا لا ننكر أنه وباء، وأنه عالمي الانتشار.

وأنه وصلنا.

وعلى الطريقة الأمريكية في التعامل مع سطح الأمور، فقد وجدت شركات تصنيع الأدوية والعقاقير فرصة ذهبية لجني الأرباح عبر تسويق دواء معين[1] يستهلكه مدمنو التسوق ليقللوا من استهلاكهم!.

ليست نكتة، بل حقيقة. يوجد عقار كهذا. لن أذكر اسمه التجاري حتى لا أروج له أيضاً، لكنه موجود ومستهلكوه يقولون إنهم بعد ستة عشر أسبوعاً من استعماله استطاعوا التقليل من تسوقهم عبر الإنترنت!!.

.. ولو أنصفوا، لو كانوا يريدون الحل حقاً، لما تركوا أصل المشكلة وجذرها الحقيقي، واتجهوا نحو آثارها الجانبية وأعراضها السطحية..

---

(١) Compulsive Shopping By Greg Nigh August19,2003znet daily commentaries

لو كانوا يريدون معالجة الأمر، لاتجهوا إلى نمط الحياة الذي يكرس، بل ويقدس، التسوق، والقدرة الشرائية، بوصفها وسيلةً لإنجاز الذات وتحقيقها..

لا ، ليس العقار المضاد هو الذي تستهلكه وتنجو من الإدمان، إنما هو القيم الأخرى البديلة التي ستجعلك تنجو من تدمير ذاتك عبر ما تتخيله تحقيقاً لها ..

القيم البديلة لنمط حياة (تسوق حتى الموت) .Shop till you drop

إضاءة

أتوقف عند هذه الوصية Shop till you drop (تسوق حتى الموت).

هل تذكرنا بشيء؟ هل تقرع جرساً ما في ذاكرتنا؟.. هل تدق على أبواب عقولنا؟. أم أننا وعقولنا أضحينا أكياساً فارغة نملؤها بالتسوق ليربحوا (هم)؟!

ألا تذكر (تسوق حتى الموت) بنصيحة أخرى، بل بأمر قرآني آخر، يمثل محور حياة مختلفة تماماً عن حياة التسوق حتى الموت.؟

Shop till you drop هي النسخة الأمريكية، المعدلة، من تلك الآية التي تلخص محور حياتنا..

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ١٥/٩٩].

إنهما نمطا حياتين، لا يلتقيان، واحدة محورها هو التسوق إلى أن يأتي اليقين، والأخرى محورها هو العبادة (بكل الأطياف الواسعة لهذه الكلمة) إلى أن يأتي اليقين. وشتان..

بين (تسوق حتى يأتيك اليقين)،.. وبين ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾.

(عبادة التسوق) وكاتدرائياتها الفاخرة..

.. ومع ذلك، فالتسوق، عندما يكون محوراً للحياة بالشكل الذي هو عليه في الفردوس المستعار، فإنه يكون عبادة بمعنى ما.

ومحلات (السوبرماركت) الضخمة، والمجمعات التسويقية الكبيرة (malls) هي دور العبادة التي تؤدى فيها هذه الشعيرة - الأساسية، إنها الكاتدرائيات المعاصرة التي تنتشر في العالم أجمع، وتوحد الناس على اختلاف ألوانهم وأعراقهم ولغاتهم ودياناتهم (المفترضة)(١) - تجمع كل هؤلاء في دين واحد، من خلال تلك (الأيقونات): الماركات العالمية التي يشتركون في التسابق على الحصول عليها، من (الببسي كولا) إلى (الأديداس).

نعم، إنها شعيرة، إنها عبادة، ولو راقبتم الجموع المهرولة عندما تفتح أبواب الـ(malls) مع بدء موسم تنزيلات أعياد الميلاد، لتذكرتم على الفور هرولة المؤمنين وحماسهم عندما يطوفون حول الكعبة ويسعَون بين الصفا والمروة.. وأنا أعرف أن التشبيه لا يجوز، لكني لا أشبه الكعبة (بالسوبر ماركت)، وإنما أشبه حماس المؤمنين وهرولتهم، بحماس أولئك الذين وجدوا في التسوق لذة لا توازيها غير لذة الصلاة بالنسبة إلى المؤمنين..

نعم. إنها شعيرة. والسلع هنا هي قرابين تقدم على مذبح (السوبرماركت) لمعبود مفترض هو الذات.. والتي عرفنا كيف أن الفردية ومذهبها قد نصبتها إلهاً واحداً ليس من سواه..لكن ـ كما في الكثير من الأديان ـ فإن المعبود ليس سوى وهم آفل لا يستطيع أن يتقبل أيّاً من تلك

(١) TEMPLES OF CONSUMPTION: SHOPPING MALLS AS SECULAR CATHEDRALS- by ivan Illich http://www.trinity.edu/mkearl/temples.html

القرابين التي تقدم له، لكن الذي يأخذها سراً ويستفيد منها هم **طبقة الكهنة التي تخدم المعبد وتتكلم باسم ذلك المعبود المفترض..**

والكهنة هنا هم الرأسماليون، نخبة الـ١٪، التي تسيطر على كل مفاصل الاقتصاد، وتزين لك ولغيرك أن تستمر بالعبادة والتعبد لذاتك وإرضائها وتحقيقها والبحث عنها وعن المزيد من الإرضاء لها.. عبر تلك القرابين التي ستصب أرباحها في جيوب الكهنة ذاتهم.

الصورة واضحة الآن .(المول) و(السوبرماركت) **هما مجرد نسخة حديثة من ذلك المعبد. الوثن الذي تقدم له القرابين وتحرق له البخور هي (الذات العليا) التي تقدست وتكرست عبر عقيدة الفردية، الديانة في هذا المعبد هي الرأسمالية التي تحرص على ألا يتدخل أحد في تداول المال بين الأغنياء وحدهم، والكهنة هم أولئك الرأسماليون ونخبة الـ١٪ التي تتزايد حصتها يوماً بعد يوم..**

والقرابين التي يقنعك الكهنة بالاستمرار في تقديمها، من أجل أن يستمروا في الانتفاع، هي تلك السلع التي تتسوقها من أجل البحث عن ذاتك..

إنها كاتدرائية العصر الحديث، ولم يخبرنا أحد بذلك.

بين الإنفاق القرآني والإنفاق الاستهلاكي

أتأمل في حرص الفردوس المستعار على أن (تنفق)، وأقارن بين هذا الحرص وبين الاستعمال القرآني لمصطلح (الإنفاق).

الفردوس المستعار يحرص على أن (تنفِقَ) آخر ما لديك، ولو استدنت، ولو أشهرت إفلاسك، من أجل أن تستمر عجلة الربح في الدوران..

أما (الإنفاق) القرآني فهو إنفاق من نوع آخر. إنه سيكون مبدئياً ودنيوياً بلا مقابل، لكنه سيكون بمقابل كبير، ليس أخروياً فقط لكن وأكثر حتى على الصعيد الدنيوي..

(الإنفاق) الذي تروج له ماكنة الفردوس المستعار- متوسلة إرضاء لذاتك ولو بتدميرها- مختلف عن الإنفاق القرآني، **الذي لا يتوسل إرضاءك لذاتك، ولكنه يجعلها تتفتح وتنمو باتجاه (الآخر)..**

الإنفاق الأول يدمر ذاتك عبر نفخها لحد الانفجار..

والثاني يجعلها تنمو حقاً، يجعلك تجدها فعلاً، وتحققها فعلاً، عبر تواصلها مع الآخر..

وشتان..

ثابتنا الرابع: الانقطاع عن الاستهلاك

.. كما في كل مرة، فإن الركن الرابع الركين من أركان الفردوس المستعار، الاستهلاك، يقابله الركن الرابع من أركان الإسلام. على الرغم من أن ذلك سيبدو غريباً جداً للوهلة الأولى..ولكن قد لا يبدو كذلك عند الوهلة الثانية..

تعودنا على الصيام. أعني أننا تعودنا على فهمنا السطحي الأولي له وأخذناه كما هو، جاء رمضان، ذهب رمضان، ويبقى مفهومنا نفسه. إمساك عن الطعام والشراب والجنس، من طلوع الفجر لحين الغروب..

للوهلة الأولى هذا هو، لكن لو تأملنا مفهوم الصيام في ضوء الإعصار المعاصر لوجدنا أن المفهوم يتوسع، ويتوغل في الأعماق.. أعماق أزمتنا، وأزمة الحضارة المعاصرة، حضارة الفردوس المستعار.

حضارة الفردوس المستعار تقول لك ألا تكف عن الاستهلاك.

تجعل ذلك جزءاً من ديمومتها.. جزءاً من طريقة استمرارها. إنها تعد هذا الاستهلاك ركناً أساسياً في بنائها.. تعده حلاً جاهزاً لكل أزمة تمر بها..

هذا عندهم.

أما فيما يفترض أن يكون عندنا، فحضارة الفردوس المستعاد، على العكس من كل ذلك، تضع **الانقطاع** ركناً من أركان بنائها..

(الانقطاع عن الاستهلاك) تحديداً.

(ولو بشكل مرحلي، ولو بشكل محدود بزمان معين..).

لم نأخذ الصيام على أنه كذلك أبداً، لكن لا تزال لدينا الفرصة أن نعيد النظر.. ولو أننا ابتدأنا من حيث البداية، من حيث الصيام لغة، لوجدنا هذا المعنى مهيمناً: إنه (الترك) (الانقطاع) (ليس عن الطعام والشراب فقط، ولكن عن أي شيء، كما في ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾، أي تركاً للكلام هنا)..

وعندما يكون الانقطاع والترك مركّزين أساساً على (الطعام والشراب والجنس) فإنك لن تستطيع إلا أن تنتبه إلى أن هذا (الصيام ـ الانقطاع) **يريد أن يجر انتباهك إلى نوع معين وطبيعة معينة من العلاقة مع الذات ومع الآخر..**

فبالطعام والشراب، وحتى بالجنس، يبني الفرد علاقة مع ذاته ومع الآخرين، **علاقة قوامها الإشباع والامتلاء.**

فلننتبه أن هذا الإشباع يكون متوجهاً حصراً لحاجات غريزية وأساسية، حاجات بيولوجية، لاشك في أصالتها في الفطرة الإنسانية، لم تغرسها وسائل الإعلان وغسيل الدماغ، إنما هي حاجات لولا وجودها لكف الجنس البشري عن البقاء..

على الرغم من ذلك، يأتي الصيام، بالانقطاع عن هذه الحاجات الأساسية للوجود البشري.. لماذا؟..

لأنه يريد أن يقول لنا إن هناك نوعاً آخر من الوجود لا يمكن إدراكه إلا من خلال (الانقطاع) - ولو المؤقت، ولو المرحلي- عن الغرائز الحسية التي تشكل أساسات الوجود البيولوجي..

هذا الانقطاع - المرمز شعائرياً بالصيام- يجعلنا نعي وجوداً آخر، أعمق من مجرد الوجود المرتكز على الغرائز والحاجات الأساسية..

إن هذا الامتناع الشعائري عن الطعام والشراب والجنس سيضعنا في بعد آخر.. سيحررنا من ربقة القيود الحسية التي تجعلنا لا نفهم للوجود بعداً غير الحس: أكل وشرب وطعام وملذات حسية، عادة لا نستطيع الخروج من هذه القيود. مواعيد طعامنا مقدسة- أحياناً تكون أكثر قدسية بالنسبة إلى بعضهم من مواعيد الصلاة!- وأنواع الطعام التي نلتهمها كذلك مقدسة، ونمضي أوقاتاً غير قليلة في الحديث عنها ناهيك عن تعلمها وإعدادها.. (فضلاً عن التهامها)..

كل ما في حياتنا مما يتعلق بهذه الأشياء الثلاثة (الأكل والشرب والجنس) محاط بقيود التعود والنمطية التي تكرس نوعاً من الوجود الحسي الذي لا نتخيل لنا وجوداً غيره.

ثم فجأة، يأتي الانقطاع عن كل ذلك وقد صار شعيرة دينية.. ولو فهمناها حقاً لفهمنا أنها تريد أن تأخذنا إلى بعد آخر، بعد غير حسي، بعد يقول لنا إن الحياة ليست هذه القيود فقط. ليست أكلاً وشرباً وجنساً، وإنما هي أيضاً القدرة على تجاوز ذلك، على الأخص القدرة على الامتناع عن كل ذلك، واكتشاف معان أخرى- غير حسية- للحياة..

إنها «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» وهي تتحول من قول مأثور لأنبياء ما قبل القرآن إلى ركن من أركان الدين الجديد..

إنها الخروج من ربقة السلع والحاجات المادية الحسية التي سقطنا في أسرها، والتعرف على نمط آخر للعيش خارجها..

نعم، بهذا المعنى أجد في فريضة الصيام **انقطاعاً عن الاستهلاك**.

وعلى الأخص عن استهلاك النفس الذي يؤدي إلى تدمير الذات الحقيقية عبر وسائل عدة (أهمها حالياً هذا الانهماك المرضي في جمع السلع).

أعرف إن ما أقوله صعب على الفهم. وهو في بعض مقاطعه يبدو أقرب إلى الهيروغليفية منه إلى العربية، لكنه ما كان سيكون كذلك لولا أن فكرتنا التقليدية عن الصيام، والتي كرستها المؤسسة الدينية التقليدية، لا تعدو أن تكون تعليقاً مؤقتاً للعمليات الهضمية والبيولوجية، وما إن يرفع الأذان حتى نهب لنستأنف تلك العمليات، وبهمة ونشاط أكبر.

هذا ما حرصت المؤسسة على تلقيننا إياه، ومطلع رمضان في كل عام كانت تعطينا حقنة مقوية من نظرتها الضيقة التي تقزم كل المعاني العملاقة المحتواة في الصيام..

.. لقد أصبحنا نعرف كيف أن رمضان يصفد شياطين الإنس والجن، أكثر مما نعرف أنه يجب أن يطلقنا نحن من أصفادنا وقيودنا الاستهلاكية.. ويحررنا من كل ما تعودنا عليه في أسر العادات البيولوجية..

وإذا كان رمضان يمثل (انقطاعاً) عن تلك الحاجات الاستهلاكية البيولوجية- على الرغم من كونها أساسية وغريزية- **أفلا يكون انقطاعاً- من باب أولى، وأهم - عن الحاجات غير الأساسية التي تم غرسها فينا بواسطة الإعلام وأجهزته الأخطبوطية؟؟**

(الانقطاع عن الاستهلاك) سيجعلنا نعرف أن الانقطاع ممكن، أن حياتنا التي لا يمكن أن نتخيلها دون كل تلك السلع التي نغرق فيها، يمكن أن تستمر، وأحياناً بتركيز أكبر، لو خف قليلاً ضجيج تلك الحاجات الأساسية وغير الأساسية التي نزحم أنفسنا بها..

لن أقول، بأي حال من الأحوال إنه يمكن الاستغناء عن الاستهلاك كلياً، فذلك لن يكون سوى بسخافة من يقول إنه يمكن الاستغناء المطلق عن الأكل والشرب والجنس.. (وهذا إن حدث فسيؤدي حتماً إلى انقراض الجنس البشري)، لكن تجربة الانقطاع صوماً، تعطينا الفرصة لنستعيد التوازن، عندما نكون قد فقدناه، وعندما تكون تلك الحاجات قد سيطرت علينا فإنها تعلمنا كيف نستعيد السيطرة نحن عليها..

.. الناس، في حياتنا المعاصرة، وفي حضارة الفردوس المستعار خصوصاً، **صارت تعيش لتأكل، ولتشرب، ولتمارس الجنس..** هذه المتع الثلاث الأساسية، والتفنن فيها، وتنويعها، كلها صارت أهدافاً بذاتها **(صار الناس يعيشون من أجلها..)..**

لقد صارت متعاً منفصلة عن سبب وجودها الأساسي: **(وهو أن تساهم في استمرار وجودنا..).**

تابعوا- مثلاً - ما يدور من حديث عن أنواع الأطعمة، والكميات المستخدمة، وبرامج الطهاة، والمقادير، وطرق التزيين، والمقبلات، وفواتح الشهية..

سنكشف سريعاً: لم يعد الأمر متعلقاً باستمرارنا في الحياة عبر الطعام والشراب **..لقد خرج عن السيطرة.**

بعبارة أخرى: كان الطعام والشراب وسيلتان للعيش. مع تحول

الأمور، وفقدان السيطرة، **تصير الحياة كلها وسيلة للطعام والشراب.. والاستمتاع بهما..**

والشيء نفسه بالنسبة إلى الجنس وتحوله من وسيلة للعيش واستمرار الأجيال إلى هدف للحياة وللأجيال، ولا أريد الخوض في البراهين والتفاصيل لكنها الحقيقة التي نعرفها جميعاً.

نعم.. لقد خرج الأمر عن السيطرة. ما كان محض وسيلة، صار هدفاً بحد ذاته.

الصيام يقلب الطاولة على هذا الوضع.

إنه يقول لك: يمكن لك أن تستعيد السيطرة على ذاتك وتتخلص من عبوديتك لهذه الحاجات..

إنه يدربك على الاستغناء عنها (ولو لفترة محدودة) من أجل أن تكون **قوياً وقادراً على السيطرة عليها فيما بعد..**

.. (الانقطاع) يعلمك كيف تكون أقوى منها، ويسلم زمام المبادرة بيديك..

وبدلاً من أن تروضك هي، وتركبك هي.. تروضها أنت، وتركبها لتكون وسيلة للحياة

(الانقطاع يجعلك **تأكل لتعيش**).

لا أن تعيش لتأكل.

هذا هو الصيام، هذا هو الانقطاع.

.. وما هو هكذا مع تلك الحاجات شديدة الأصالة في النفس البشرية، يكون كذلك أيضاً مع تلك الحاجات الاستهلاكية التي أضيفت لنا عبر وسائل الإعلام، (من باب أولى).

وعندما تمارس (الانقطاع عن الاستهلاك) على أنه ركن من أركان حضارة الفردوس المستعار، فإنك لن تستغني عن الاستهلاك بالمطلق، بل ستستعيد سيطرتك على السلع وحاجتك لها، بعدما كانت قد سيطرت عليك وصرت محتاجاً للتسوق من أجل التسوق بحد ذاته.

الانقطاع عن الاستهلاك بوصفه شعيرة يقول لك: إن ذلك ممكن، وإنك يمكن أن تتسوق من أجل أن تعيش.. لا أن تعيش من أجل أن تتسوق، كما هو الحال السائد اليوم..

وهذا لا يعني أن الصيام، بالشكل الذي نمارسه اليوم، له أي صلة من قريب أو بعيد بموضوع إعادة السيطرة على الغرائز والحاجات الأساسية، وتحويلها إلى وسائل للعيش بدلاً من أن تصبح أهدافاً له.

على العكس، لقد كرس الصيام بشكله الحالي كل هذا، إنه محض هدنة مؤقتة نتوقف فيها عن (مبطلات الصيام) من أجل أن نستعيد قدراتنا ونجهد إمداداتنا للاستئناف بكميات أكبر ونوعيات أفضل.

نقضي وقت (الانقطاع) ونحن (نتشهى) ونفكر (ماذا سنعد للإفطار اليوم؟) ونتسوق أكبر كمية ممكنة من أجل إعداد أكبر وليمة ممكنة..

وعندما يدق مدفع الإفطار، تنتهي الهدنة، ويبدأ الهجوم. وفي النهاية لا نكون قد استهلكنا الطعام.. بل سيكون الطعام هو الذي استهلكنا، وانتصر علينا مرة أخرى.. ونجح في أخذ زمام المبادرة.

ولم لا؟ فالانقطاع هنا لم يكن سوى هدنة، ونحن لم نجرب الدخول في بعد آخر (غير البعد الحسي)، يمنحنا معنى وهدفاً للحياة التي نعيشها..

إنما هي حياة من أجل العلف والجنس، حتى لو كان يشمل أرقى الأطعمة وأغلى المكونات.

❁ ❁ ❁

لن ألوم المؤسسة هنا.

فهي على الأكثر لن تفقه حرفاً مما أقول. البعد الذي تتحرك فيه يختلف. الموجة التي تبث عليها مختلفة.. ورادارتها لن تستلم الذبذبات فيما أقول..

إنه بعد آخر هذا الذي أتحدث عنه.

وبالتأكيد لن نجد الحل عندها.

ذلك أن المؤسسة، بشكلها الحالي على الأقل، جزء من المشكلة.

الثابت الخامس
الآن وهنا

لكن هذا البناء الحضاري للفردوس المستعار، المستند على الثوابت الأربعة ـ السابق ذكرها ـ كان يحتاج إلى ثابت خامس ليتحقق على الواقع الفعلي..

الثابت الأول، المادية، كان بمنزلة الحجر الأساس الذي قام عليه البنيان كله. كان بمنزلة المؤونة التي دخلت في كل الأركان التالية.

الثابت الثاني، الفردية، كان بمنزلة العمود الرئيسي الذي رفع البناء، كان بمنزلة الركن الذي نصب الوثن داخل ذلك الهيكل، وكان هذا الوثن، هو الفرد ذاته، وقد جعلته الفردية، ركناً من أركان الفردوس المستعار يتعبد لذاته، وأطلقت العنان لكل فرد لأن يتعبد لذاته هو..

الثابت الثالث، الرأسمالية، كان بمنزلة الديانة التي شرعت لعدم التدخل في دورة الأموال في الطبيعة، من أجل أن تضمن سيطرة الأفراد على الكم الأكبر من المال..

وكان الثابت الرابع، الاستهلاك، هو بمنزلة الثابت المتمم لكل من الثابتين الثاني والثالث، فلولاه ما كان استمر تداول المال بين الأغنياء، وما كان استمر تراكم الثروة عندهم..

لكن، كل تلك الأركان، لن تقيم بناءً ما، ما لم تحتو على ركن معين ضروري..

كل فردوس، كل حالة حضارية على الإطلاق،كانت تحتوي على بعد زماني- مكاني، يشكل بعدها النهائي الذي تتحقق فيه.. كل فردوس لا يحتوي على هذا البعد الزماني- المكاني سيكون ناقصاً.. مشوهاً..

وسيكون مسطحاً، لن يرتفع قيد أنملة في مكان.

ولن يكون له أي وجود زمني..

وكل فردوس، لن يكون فردوساً، ما لم يشتمل على أهم ما في الفردوس، ما لم يحتو على ذلك الوعد بالحياة الرغدة، بالجنة ومباهجها وملذاتها.

كل فردوس، يحتمل جداً ألا يصبح فردوساً، ما لم يحتو على تلك (الجنة) حيث كل شيء مباح.. وكل المحرمات ملغاة..

والمباح اللانهائي هذا، سيتحد على الأغلب، مع ذلك البعد الزماني- المكاني.. حيث الزمان لا نهائي.. والمكاني لا نهائي..

مكوناً ما نعرفه.. أو ما تعرفه الأديان التقليدية كلها بالآخرة..

فهل يحتوي الفردوس المستعار على شيء كهذا؟.

هل له جنة ومباهج وملذات لا نهائية.. وبعد زماني ومكاني غير نهائيين.. يتحدان معاً ليكملا الفردوس وأركانه؟.

الأبد الأمريكي

بالتأكيد للفردوس المستعار آخرته الموعودة، ولأمريكا جنتها الموعودة حيث النعيم يدعي أنه مقيم أبداً.

نعم، لأمريكا (أبدها).. وآخرتها التي لا تنتهي... لأمريكا نعيمها اللانهائي، وفردوسها الذي يسكن بعداً (زمانياً مكانياً) يشكل الركن الخامس من أركان بنائها الحضاري الذي تروجه ليسكنَ العالم كله..

وعلى الأخص ليسكن رؤوسنا..

فلنقرر أولاً أن الأمر قد يكون عسيراً على التوضيح، فمفهوم الوقت، والبعد الذي يختلط فيه مفهوما الزمان والمكان من المسائل الفلسفية التي شغلت العقل الإنساني منذ بداية بزوغه حتى اليوم، ومحاولة وضعه في إطار ثوابت الفردوس المستعار والثوابت المضادة للفردوس المستعار هو أمر صعب نوعاً ما.

لكن هذا سيكون صعباً جداً لو انطلقنا فقط من المجلدات الضخمة والرفوف العالية والأبراج العاجية..

لكننا، ومنذ البداية، اتفقنا أن البحث عن الثوابت لا يبدأ هناك، وإنما يبدأ عند الناس الحقيقيين، عند أولئك الذين يكونون (الحضارة) حقاً.. ويصنعونها حقاً.. بصعودها، بسموها وبانحطاطها.. من (الواقع الفعلي) نأخذ إرهاصات الثوابت. وبعدها، يمكننا أن نذهب إلى تلك الرفوف العالية ومجلداتها الضخمة، لنبحث عن المصطلحات التي تفسر وتنظر.

❁ ❁ ❁

بدأت إشكالية مفهوم الزمان والبعد الزماني -المكاني في الفردوس المستعار من حقيقة بسيطة جداً. حقيقة واقعية لا تحتاج إلى المجلدات والمصطلحات الفلسفية لنكتشفها..

لكن هذه الحقيقة- التي بدأت بسيطة- انتهت إلى أن تصبح واحدة من أهم أركان الفردوس المستعار، واحدة من أهم أركان هذا العالم الذي غرسته حضارة الفردوس المستعار..

وهذا ذاته يجعل هذه الحقيقة تستحق الكتب والمجلدات.

إنها بدهية من بدهيات المعرفة التاريخية..

ولا يوجد من ينكرها، بل لا يوجد داع لإنكارها أصلاً..

لكن الأهم من الإقرار بهذه الحقيقة هو تمييز أهميتها.. وتمييز نتائجها المتتالية..

أمريكا... التي ولدت البارحة

أتحدث عن حقيقة كون أمريكا بلا تاريخ.

أتحدث عن حقيقة كونها، من دون كل الأمم والحضارات عبر كل التاريخ، وحدها، من دون تاريخ.

لم يحدث هذا على الإطلاق، في أي حضارة أخرى، بل في أي مجتمع آخر.

لم يحدث قط أن نشأت أمة، في أي مكان في الأرض، في أي فترة من التاريخ، دون أن يسبق نشوءها وبزوغها تاريخ ما.

وحدها أمريكا تميزت بهذا؛ بأنها بلا تاريخ.

وإنها اليوم، تتصدر هذا العالم الذي ورث حضارات عمرها آلاف السنين، بينما لا يتجاوز عمرها هي، بضعة قرون.

❀ ❀ ❀

.. طوال التاريخ، كانت هناك هجرات لأقوام انتقلوا من أماكنهم الأصلية، إلى أماكن أخرى وفرت لهم ظروف معيشة أفضل، واستطاعوا من خلال هذه الظروف الأفضل أن يقدموا حضارة أفضل، ما كان

باستطاعتهم أن يقدموها لو بقوا في أماكنهم الأصلية. حدث ذلك عبر التاريخ كله.

لكن هذه الهجرات لم تكن تؤدي إلى نشوء حضارة بلا تاريخ.. فقد كان الأقوام المهاجرون يحملون معهم تاريخهم على ظهورهم، بل في رؤوسهم، بل إنه أحياناً كان هو الذي يدفعهم إلى هذه الهجرة.. كانوا يفرون أحياناً بتاريخهم، بموروثهم الحضاري من قيم ومعتقدات، وكانوا ينتقلون إلى مكان آخر أكثر أماناً للحفاظ عليها من قيم غازية لحضارة أخرى..

بالتأكيد كان التفاعل مع القيم الأخرى في المجتمعات الأخرى يحدث بعض التغيير في منظومة القيم الأصلية ..وهذا طبيعي، وهو جزء من سنة التدافع والتلاقح الحضاري التي تحكم العلاقات بين الأمم..

لكن التاريخ ظل هناك، ظلت تلك القيم التاريخية موجودة في الهجرات، لذلك فهم لم يهاجروا من التاريخ، بل حملوه معهم..

وفي المجتمعات والحضارات التي نشأت بعد تلك الهجرات، كان التاريخ موجوداً فيها.. لم يحدث أبداً أن نشأت حضارة عبر القفز على التاريخ أو إلغائه..

لم يحدث أن نشأت حضارة عبر الانسلاخ من التاريخ.

إلا حضارة واحدة فقط.

هي حضارة الفردوس المستعار.

أمريكا إذن بلا تاريخ.. بالمقارنة مع كل الحضارات الأخرى، بل مع كل المجتمعات الأخرى، إنها الأحدث نشوءاً بين كل تلك الحضارات..

ولا مجال لحصول توازن بين كفتي الميزان فأحدث الحضارات والمجتمعات الأخرى تسبقها ببضعة قرون.. ولا سبيل لتغيير ذلك..

لكن المسألة هي أن عدم وجود تاريخ لأمريكا **قد تحول ليصير ظاهرة عالمية، بعد أن أصبح ظاهرة أمريكية أولاً.**

إنه ليس أن أمريكا (أحدث) زمنياً من التجارب الحضارية الأخرى، لكنه أن أمريكا (أدلجت) الأمر، **وجعلت من الانسلاخ من التاريخ ركناً مهماً في بنائها الحضاري..**

هذا هو المهم، **كثير من الحضارات والمجتمعات نشأت عبر الهجرة، لكن التاريخ كان يظل موجوداً.**

في أمريكا اختلف الأمر، **تجمع الأشتات من كل مكان وقرروا أن التاريخ وموروثاته عبء ثقيل لا يحتمل عبور المحيط..**

وقرروا أنه لا مكان لذلك في العالم الجديد.

وقرروا الأمر من تلك اللحظة العابرة حيث حطوا رحالهم على أرض الأحلام.

تلك اللحظة العابرة هي التي تفرض قيمها، هي التي تحمل شروطها.

وهي وحدها التي تستحق الاهتمام..

لاشيء مسبق، في التاريخ، في اللحظة السابقة، يستحق أن نتوقف عنده.

لاشيء في التاريخ، أو قيمه، أو مفاهيمه، يجب أن يحكمنا، أو يتحكم فينا..

لم تكن هذه النتيجة قدراً لا فكاك منه.

أعني، أن كل الأشياء تبدأ جديدة، وبلا تاريخ، لكن مع مرور الزمن، تعتق، ويصير لها تاريخ..

لم يحدث هذا الأمر مع أمريكا..

فقد صار هناك موقف من التاريخ نفسه.

لقد اكتشفت أمريكا حرية التخلص من عبء التاريخ، وأثقاله..

اكتشفت أن بإمكانها التحرك بسهولة أكبر، إذا ما تخلصت من قيود التاريخ وأغلاله..

وجدت أن ذلك هو في حقيقته امتياز، وأن ما يعدونه في الحضارات **الأخرى مفخرة ومدعاة للتباهي، هو في حقيقته عبء ثقيل، والتخلص منه أفضل، من الناحية العملية..**

لذلك لم تجد أمريكا تاريخاً ما، ولم تهتم بالتفاعل مع تاريخ الشعوب التي سكنت قارة أمريكا قبل اكتشافها، بل أبادت ذلك التاريخ بكل ما يحمله من خصوصية وتراكم معرفي، لا لأنه تاريخ (المهزوم) فقط، بل لأنه (تاريخ) أيضاً.

مجرد كونه (تاريخاً)، تابعاً إلى ماض لن يعود، وكف عن أن يكون، مجرد كونه كذلك كان كافياً لأن يباد، **إنه التاريخ، وكل تاريخ هو مهزوم عند أمريكا، هزمه الحاضر، هزمته اللحظة الآنية.**

اللحظة الحالية هي التي تنتصر على التاريخ، عند أمريكا.

..وفق هذا المفهوم.. فإن كل لحظة حالياً، هي أفضل، من اللحظة التي سبقتها **..وكل حقبة زمنية معاصرة، هي أفضل، من الحقبة التي سبقتها..**

وكل قيم، ومثل، ومبادئ، وأخلاق، تنتج من اللحظة المعاصرة، هي -بالضرورة والحقيقة- أفضل من قيم ومثل وأخلاق ومبادئ نتجت عن لحظة سابقة، لأنها قيم انتصرت على تلك القيم السابقة. مجرد انتمائها لفترة أقرب زمنياً صار يجعلها منتصرة، ويمنحها الحصانة والقداسة. بالضبط بعكس التقليدي والسائد في الحضارات الأخرى من تقديس قديم لمجرد كونه كذلك.

الآن صار الجديد والحديث هو المقدس، هو المنتصر..

إلى أن يأتي الأحدث- ليلغيه.

أي إلى أن تأتي اللحظة الآتية.

بدأ الأمر من ذلك الانسلاخ الكبير من التاريخ، الذي حدث عندما نشأت أمريكا وقد تحللت من ثقل التاريخ..

وتطور الأمر ليصير فلسفة لفهم التاريخ، قائمةً لا على الإلغاء، فذلك أمر مستحيل فلسفياً..، بل (تأدلج) الأمر، وتحول إلى منظومةٍ فلسفية ترى أن التاريخ يسير بشكل خطي، كل نقطة في الخط أفضل من التي سبقتها، وهكذا يسير التاريخ بشكل خطي إلى ما هو أفضل على الدوام..

التاريخية: فلسفة أن (الآن أفضل من الأمس)

في وقت ما، من أوائل عصر النهضة، وفي قارة أخرى هي أوربة، ظهرت هذه الفكرة، فكرة التقدم progress[1] للمرة الأولى، على

(١) ROBERT A.NISBET, THE IDEA OF PROGRESS Updated: February 23,2004
THE ONLINE LIBRARY OF LIBERTY © 2004 Liberty Fund, Inc
http://oll.libertyfund.org/Essays/Bibliographical/Nisbet0190/progress.html

الأخص عند مفكرين اثنين كانا أول من مهد لفلسفة التقدم التاريخي هذه، وهما: تورغوت A.R.J Turgot (١٧٢٧-١٧٨١) كوندوركوت ١٧٩٤-١٧٤٣ Condorcet[١].

فكرة التقدم التاريخي استندت على ملاحظات كان لها وزنها في عصر النهضة، كانت المعرفة تزيد، وكان الفن والآداب يواجهان ازدهاراً كبيراً، وكانت سيادة الإنسان تزداد على الطبيعة وثرواتها.. وكان ذلك له تأثيراته على العقل الإنساني الذي سجل هذه الملاحظات.

كان التاريخ يبدو كما لو أنه يتقدم فقط إلى الأمام..

مع هيغل (١٧٧٠-١٨٣١) تماسك الأمر أكثر وصار فلسفة متكاملة أطلق عليها (التاريخية) Historicism، تأثر هيغل بمبادئ الثورة الفرنسية التي عاصرها وشهد انتشار أفكارها التحررية، ورأى أن هذه الأفكار، التي هي - برأيه - الأفضل من بين كل العقائد والأيديولوجيات حتى ذلك الوقت، ستشهد انتصاراً تدريجياً عبر تقدم التاريخ..، وعد هيغل هذا التقدم **حتمية تاريخية** لا مهرب منها ولا مجال لتصنيفها بالصواب أو الخطأ[٢]. بل إنه رأى أن تاريخ الإنسانية كلها، **هو تاريخ الفكر، وهو يتقدم نحو شكله النهائي المطلق، الذي سيتوج نهاية التاريخ.**

شهدت تاريخية هيغل انتشاراً كبيراً في القرن التاسع عشر، ثم ما لبثت أن شهدت انطفاءً في القرن العشرين، لكن ذلك لم يكن لوجود فلسفة تاريخية أخرى تعارضها، على العكس، لقد تجذرت فكرة التقدم التاريخي في كل جوانب الثقافة حتى صار يصعب التمييز بينها وبين غيرها من الفلسفات.

---

(١) condorcet wikipedia free encyclopedia

(٢) historicism, wikipedia the free encyclopedia

لقد صارت أمراً بدهياً، شأناً روتينياً من شؤون الحياة اليومية، من يريد الخوض في الفلسفة بكل الأحوال؟.

داروين مؤرخاً..؟؟

(ألا يشبه ذلك، في ناحية من النواحي، ذلك المبدأ الدارويني الذي يبدو أنه لم يقتصر على البيولوجيا كما تصورنا أول الأمر؟ لقد تدخل ليسكن لب الأمر وجوهره في الفردوس المستعار وحضارته، لعل أهون الأمور كانت البيولوجيا، لكنه تطور ليسكن كل المبادئ وكل القيم، وليشرعن ويعطي الشرعية لسيطرة شعوب على أخرى، وأمم على آخرى، وطبقات على أخرى..

وأخيراً، إنها فكرة التاريخ الدارويني.. كل مرحلة تاريخية بقيمها وأفكارها، هي الأفضل من التي سبقتها، ولولا أنها كذلك لما كانت وصلت..).

ثم انتهى التاريخ..

(بعد نحو قرنين، وبالتحديد في صيف عام ١٩٨٩، عاد هيغل برؤيته التاريخية ليضرب واجهات الصحف والدوريات الأمريكية، كان ذلك عندما قام فرانسس فوكوياما، بنشر مقالته المثيرة للجدل في دورية National Interest[١] والتي رأى فيها أن الليبرالية الديمقراطية الغربية، عبر انتصاراتها المتتالية على أنظمة الحكم المختلفة، من أنظمة الحكم الملكية الوراثية، إلى الفاشية، والنازية، ومن ثم الشيوعية (التي كان انهيارها حدثاً مدوياً في الفترة التي كتب فيها المقال)، رأى فوكوياما أن

---

(١) The End of History and the Last Man Francis Fukuyama (1992) publ. penguin.

هذه الليبرالية- عبر انتصاراتها المتتالية- قد تكون النتيجة النهائية لعملية تطور الأفكار والأيديولوجيات وارتقائها في التاريخ.

إنها الأيديولوجية التي تضع نقطة النهاية لديالكتيكية الأيديولوجيات التي نظر لها هيغل.

حقق المقال أصداء قوية. وتحول فوكوياما (الشاب آنذاك) إلى نجم[١]، وهو أمر نادر في أمريكا لأن النجومية هناك تختص بممثلي السينما وأبطال الرياضة، لكن نشوة الانتصار على الشيوعية بعد عقود الحرب الباردة، وبلاغة عنوان المقال وتأثيره الفوري (**نهاية التاريخ**)،أكسب فوكوياما امتياز النجومية الذي نادراً ما يحوزه المتحدثون عن الفلسفة، وخصوصاً عن فلسفة التاريخ الذي هو أكثر السلع كساداً في بلد قام على إلغاء التاريخ والقفز على معطياته..

(ربما لهذا السبب ذاته، ولأن فوكوياما- الياباني الأصل الأمريكي العقلية- أعلن فلسفياً وأيديولوجياً ما أرادت أمريكا دوماً أن تنهيه عملياً: التاريخ.. ربما لهذا السبب خصوصاً عومل فوكوياما على أنه نجم)..

لكن هذه الأصداء الاحتفالية سرعان ما جوبهت بمقالات فلسفية تناقض وترد وتفند فوكوياما. ليس لأن الليبرالية الغربية ليست هي النموذج الأرقى في منظور هؤلاء الذين هاجموا فوكوياما، بل لأن مقولة فوكوياما أوحت بأن فتيل الديالكتيك والصراع قد نزع، وهو أمر تخشى بعض المؤسسات في أمريكا من حدوثه لأنه سينسف مبررات وجودها، ومن ثم سيلغي ميزانياتها الضخمة.. لذلك تدافع المنظرون والمفكرون الاستراتيجيون وهم يردون فوكوياما بتكوين مبررات لبقاء تلك

---

(١) Francis Fukuyama & the end of history by Roger kimball, www. newcriterion. com/archive/10/feb92/fukuyama.htm by Roger kimball.

المؤسسات؛ عبر خلق أعداء (وهميين مصطنعين أو حقيقيين مضخمين) يساهم وجودهم في استمرار دوران دفة الإنتاج العسكري والميزانية الضخمة للبنتاغون.. من هذا المنطلق تم تبني مقولة أخرى هي (صدام الحضارات) لهنتنغتون بدلاً من (نهاية التاريخ) **على الرغم من عدم وجود اختلاف جوهري في فحوى أن (الليبرالية الغربية) هي المثل الأعلى الذي سيسود وينتصر سواء كان ذلك من خلال داروين أو هيغل أو الجنرال باتون أو فورد أو مايكل جاكسون أو الميكي ماوس).**

المفارقة في الأمر، أن الفلسفة التي تؤصل لعملية الانتقاء التاريخية هذه، تنهي التاريخ نفسه، إذ ما الفائدة من التاريخ كله، إذا كان الحاضر هو خلاصته المنتقاة؟.. ما الفائدة من التاريخ وأعبائه وأثقاله، إذا كان الحاضر يحوي قيماً وأفكاراً هي الأفضل والأكثر صلاحية ومنفعة في معركة الديالكتيك التاريخي الحضاري؟.

فقد التاريخ كل قيمة، صار مجرد سرد لأفكار بالية وقيم تعرضت للهزيمة وهي بصدد الانقراض..

وعندما يذهب بريق القيم عن التاريخ، ويحل محله بريق متوهج لأفكار اللحظة الراهنة، لا يعود للتاريخ أي فائدة أو وظيفة..

ولا يعود أحد يلتفت إليه.

ضعف الذاكرة الأمريكية

ظاهرة انعدام الحس التاريخي هذه، أثارت انتباه مجموعة من المفكرين الأمريكيين المعروفين بالرصانة، من أمثال نعوم تشومسكي Naom Chomsky وآرثر شاليسنجر Arthur M.Schlesinger وهواردزن Howard zinn وستيفن برتمان Stephen Bertman الذين رأوا في

الظاهرة سلوكاً غير واعٍ تمارسه أمريكا لتعبر بعمق عن موقفها من التاريخ، بالنسبة إلى هؤلاء فإن جهل الأمريكيين العاديين بالتاريخ- حتى تاريخهم الخاص- هو أكثر من مجرد جهل أو لامبالاة أو قلة معلومات، كما قد يتبادر للأذهان عند الوهلة الأولى، بل الأمر أعمق بكثير، ففي إحصاء أجري في التسعينيات من القرن الماضي كان هناك نسبة تزيد عن النصف من الطلاب الجامعيين في السنوات المنتهية (الموشكين على التخرج) ممن لا يعرفون في أي قرن حصلت الحرب الأهلية الأمريكية! أكثر من هذا فإن ٦٠٪ من الأمريكيين البالغين لم يكونوا يعرفون من الرئيس الأمريكي الذي أمر باستخدام القنبلة الذرية، ولا أين استخدمت بالضبط، ٢٠٪ منهم ليس عندهم علم إذا كان السلاح الذري قد استخدم أصلاً أم لم يستخدم. النسبة نفسها لم تعرف من هم أعداء أمريكا في الحرب العالمية الثانية[١]..

مع (جهل) كهذا، يبدو واضحاً أن الأمر أبعد من أن يكون مجرد جهل، بل هو حسب هؤلاء المفكرين، تعبير عما أسموه (ضعف الذاكرة الأمريكية) American amnesia وهو المصطلح الذي انتشر استخدامه لاحقاً للتعبير عن انعدام الحس التاريخي في الثقافة الأمريكية، وارتباط ذلك بطبيعة الحضارة التي تركز على الآن فقط ونمطها[٢].

كان ذلك مناسباً جداً لأمريكا. كما هو واضح.

كانت أمريكا تحتاج إلى أن تلغي التاريخ. تلغيه بوصفه فكرة، أيديولوجية وفلسفة، بعدما نشأت هي، عبر القفز على حقائقه والهروب منه.

---

(١) America's Amnesia Walter E.Williams 21-01 May14,2001

(٢) Can America Remember Its Past?Stephen Bertman Current (12/2000).

كانت تحتاج لا إلى فلسفة تعلن نهاية التاريخ فحسب، بل كانت تحتاج أكثر، إلى فلسفة تعلن انتصار الحاضر. فلسفة تمجد اللحظة الراهنة..

كانت أمريكا تحتاج إلى فلسفة (تؤدلج) واقعاً سلوكياً عملياً في أعماق كل فرد من أفرد سكان الفردوس المستعار.. إذ ليست المصطلحات في نهاية الأمر إلا انعكاساً فلسفياً لما كان يجري فعلاً على أرض الواقع وفي سلوك الناس.

ولقد جاءت هذه الفلسفة فعلاً، لتصنف ما هو حاصل فعلاً.

لاشيء غير الآن، ولا شيء غير الـ (هنا)...

مثلت فلسفة (الحاضرية) (التي هي ترجمة عربية لـ presentism) مثلت بديلاً حقيقياً لما تحتاج إليه أمريكا.. ولما كانت تمارسه فعلاً.

تقول هذه الفلسفة إن الحقيقة الوحيدة موجودة في الوقت الحاضر (present time)، لا يوجد حقيقة في الماضي لأنه لا وجود له، ولا توجد حقيقة في المستقبل لأنه لا وجود له أيضاً (ما دام لم يأت)[١].

لا الماضي ولا المستقبل لهما فاعلية - حسب هذه الفلسفة الـ-presentism والوجود الوحيد الذي له حقيقة، ومن ثم له فاعلية، هو الحاضر- الآن، لا شيء عدا هذا مهم. لا شيء عدا الحاضر له أهميته. بل لا شيء عدا الحاضر له وجود على الحقيقة، على الإطلاق، الحقيقة المطلقة الوحيدة هي الوقت الحاضر. والحقيقة الوحيدة هي التي ندركها من خلال هذا الوقت الحاضر. كل شيء عدا هذا هو وهم، عدم[٢]..

(١) The philosophy of Time Cheryl Chen department of philosophy http://serendip.brynmawr.edu/local/sclsoc/time/chennotes.html

(٢) presentism wikipedia the free encyclopedia

وكان هناك جاذبية شديدة لهذه الفلسفة، لا لأنها كانت تؤدلج واقعاً سلوكياً فحسب، بل لأن الإدراك والوعي[1] يرتبطان - ظاهرة - بالحواس ومحفزاتها المباشرة. والإدراك والوعي الإنسانيان بشكليهما الأولي والبدائي، ينتجان من تعامل (الحواس) مع محفزات آنية..وهذا الشكل الأولي من الوعي والإدراك هو الشكل الأوسع انتشاراً عند البشر (وكذلك عند الحيوانات).. والخروج منه، إلى وعي أكثر شمولاً، وإدراك أكثر سعة، يتطلب منظومة من الحواس تتجاوز الحواس الخمس وتتضمن بالتأكيد وعياً بالتاريخ (الذي لم تعد له فاعلية وأهمية في فلسفة الزمن الخاصة بالفردوس المستعار).. كان الحاضر موجوداً بقوة في وعي الإنسان وذهنه بشكل مطلق، فكيف إذا انسلخ من ماضيه مركزاً على حواسه الخمس؟. كيف إذا لم يفهم أن هناك كينونة ووجوداً خارج هذه الحواس الخمس والحدود الضيقة للحاضر الآني؟؟

إنه **(الحاضر)**- الزمن الآني المباشر- وحده وقد جثم على الأذهان والعقول وحاصرها من كل الجهات..

لم يعد هناك ماض.. (ولا حاجة إليه)..

.. ولم يعد هناك مستقبل في نهاية المطاف (.. ولا إعداد له).

.. إنما هو حاضرك الشخصي، ولا شيء سواه، وحده الزمن الآني والحالي هو الزمان المطلق.. وحده يحيط بك من كل الجهات..

.. هذا الزمان الحالي- العابر- هو مطلق الزمن الذي تعترف به **الحضارة الأمريكية**.. هذا هو بعدها الزماني.. الذي حطت فيه رحالها، وأعلنت فيه استقرارها النهائي.

---

(١) presentism and Consciousness Neil McKinnon Australian journal of philosophy 81,4.p305

هذا الزمان الحالي هو -بطريقة ما- أبديتها المطلقة، إنه مفهومها المطلق عن الزمان، كما لكل حضارة وثقافة مفهومها الخاص، فحضارةٌ تتجه للماضي، وحضارةٌ تتجه للمستقبل البعيد. لكن أمريكا ركزت على أبدية من نوع آخر، **أبدية (الآن) فحسب.. وبهذه الأبدية يكتمل بناء ذلك الهيكل، هيكل الفردوس المستعار..**

هذا المفهوم للزمان هو الضلع الناقص الذي من خلاله تتحقق كل الأركان الأخرى السابقة. إنه البعد الذي يمنح كل الأبعاد الأخرى وجودها الحقيقي على أرض الواقع..

بلا هذا المفهوم الخاص للزمان، ستنهار كل الأركان الأخرى للبناء، ستكون الأساسات هشة إن لم يأت هذا الركن ليمنح للأركان الباقية مفهوم الأبدية الخاص بالفردوس المستعار. كل شيء سيكون معرضاً لأن يكون زائلاً بشكل واضح، إلا أن يأتي هذا الركن ليغير من مفهوم الزوال، عبر حقن مفهوم جديد للأبدية.. وللأزل..

إنه الـ(presentism)- لا حقيقة غيرُ الحاضر، غيرُ اللحظة العابرة، وهو يتقدم ليقدم لنا ذلك الأبد الذي هو الآن، والآن فقط..

.. وعندما تكون الأبدية الآن، فإن بعدها المكاني الملتصق بالآن، سيكون اسمه (هنا)..

(الآن، وهنا)[1]...

---

(١) تعبير (الآن وهنا) استخدم منذ أواسط القرن التاسع عشر للإشارة إلى الواقع المادي المدرك بالحواس المباشرة، وهو يستخدم بكثرة في مجال الدعاية والإعلان الغربية، كما أنه استخدم من قبل البابا جون بول السادس عشر في معرض هجومه على حضارة الآن وهنا المادية، وأدين بالشكر هنا إلى الأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي استخدم المصطلح في كتابه (الفردوس

=

هذا هو عنوان الفردوس الأمريكي وتوقيته.

كل ما تريده تحصل عليه (الآن وهنا). وكل ما تحقق نفسك به هو (الآن وهنا). (الآن وهنا) هو المكان والزمان، وكل ما عدا ذلك مجرد خيال بائس .الآن هو عصفور اليد الذي تستغني به عن عشرة عصافير وهمية على شجرة الماضي أو المستقبل.

(الآن وهنا) مسافة محددة من الوقت، داخل مساحة محددة من الفضاء، كميتان فيزياويتان داخل إطار مادي، تحددان آفاق عالمنا وأبعاده، وتمنع عنا التواصل مع أي بعد آخر خارج قفص (الآن وهنا)، بل إنها تحجب عنا رؤية أي شيء خارج نطاق قضبان هذا القفص العميقة في أذهاننا وأدمغتنا ..لم نعد نتخيل أن هناك أبعاداً أخرى للزمان والمكان خارج هذه الجدران المحيطة بزماننا العابر ومكاننا الفيزيائي المحدود..

لم نعد نتصور أن هناك زمناً يتجاوز اللحظة العابرة إلى ماض تتراكم فيه التجارب والرؤى، أو إلى مستقبل غير منظور يكون (آخرة) الأمر كله.

لا ، لم يعد ذلك كله أمراً له وزن في حساباتنا أو تصوراتنا..

لم يعد وعينا يحتمله، أو إدراكنا يلتقطه.. لقد صارت حواسنا مبرمجة على إدراك هذين البعدين المحددين للزمان والمكان..

الآن، وهنا..

ولا شيء غير هذين.

لقد (علقنا) في هذا المفهوم.

= الأرضي). دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩.

طالما رأينا وتابعنا في أفلام الخيال العلمي التي تبثها (هوليوود) كيف أن البطل أو البطلة يعلقان في زمان آخر- مستقبل بعيد أو ماض سحيق- وكيف أن عطباً ما يصيب آلة الزمان المفترضة، فيظلان حبيسين- ونظل حبيسين معهما ونحن مبهورون بالحدث والفكرة- إلى أن يتم إصلاح الخلل وتعود آلة الزمن إلى الحاضر، إلى الآن وهنا..

ما تابعناه على الشاشة هو ما حدث معنا ومع العالم كله منذ أن هيمنت عليه أمريكا وفردوسها المستعار..

لقد علقنا نحن أيضاً. حدث خلل ما في مفهوم الزمن، وعلقنا في بعد زمني ومكاني واحد، لكنه ليس الماضي ولا المستقبل هذه المرة.

إنما هو الحاضر، وقد علقنا فيه.

إنه الآن وهنا، وقد حبسنا فيه دون أن نعي ذلك.

كل الثوابت والأركان لا تمتلك الفاعلية الحقيقية إلا عبر هذين البعدين.

فعبر (الآن) وعبر الـ(هنا)، تستطيع (المادية) أن تحقق وجودها، لا شيء مادياً سيكون له أي أهمية ما لم يكن مرتبطاً بـ(الآن وهنا)..

كل مادة ستكف عن أن تكون مادة، بمجرد أن تخرج عن الحيز الناتج عن تقاطع الآن وهنا.. أي ذكر لمادة تنتمي لبعد آخر سيجعل أثرها قليلاً كما لو كانت مجرد خيال، **بل إنها فعلاً تكون محض خيال، إلى أن تثبت العكس..**

.. كذلك الأمر مع مبدأ (الفردية)- أن أهميته لا تتحقق إلا من خلال (الآن وهنا)- لا يمكن للفردية أن تكون حافزاً إلا من خلال هذا الشعور الضيق المحدود بالزمان والمكان، لا يمكن لسباق الصراع من أجل البقاء أن يبدأ إلا من خلال الآن وهنا.

في الحيز الضيق (للأنا) و(للهنا) ستبدو (الأنا) -التي تخصك- ضخمة وشاسعة كما لو كانت كوناً منفصلاً ومستقلاً بحد ذاته، سيزيد ذلك من التنافس من أجلها وجعلها محوراً لحياتك، وحكماً على كل أشيائك، أما لو توسع عالمك الزماني والمكاني نحو ماض بعيد، وآخرة غير منظورة، فلربما تعود الأنا إلى حجمها الطبيعي، مصطفة مع الذوات الأخرى في الانصهار والتلاحم الجماعي الذي يشكل جوهر المشاركة الإنسانية..

وعبر مفهوم (الآن وهنا) يمكن للرأسمالية أن يكون لها معنى حقيقي، وحده هذا المفهوم يبرر الظلم والاستغلال الذي سيقع لأناس آخرين في مكان آخر وزمان آخر، خصوصاً أن هذا الظلم لن تتضح نتيجته إلا عبر تراكم بعيد المدى، ليس (الآن وهنا).

وفي (الآن وهنا)سيكون الاستهلاك هدفاً بحد ذاته، ففي (الآن وهنا)- في (الآن وهنا)فقط- تكون السلع الجديد أكثر جاذبية وبريقاً.. وكلما مر الوقت وعبَر (الآن وهنا) نحو (الآن وهنا) آخر خفّ بريق السلعة القديمة، واحتجنا إلى شيء جديد، وسلعة جديدة لتضفي بريقاً وجاذبية على مرحلة (الآن وهنا) التالية..

نعم، كل ركن من أركان الفردوس المستعار، لا يتحقق، لا يتماسك، لا يكون.. إلا عبر هذا المفهوم.

مفهوم (الآن وهنا).

إنها ثقافة كاملة ارتكزت على هذا الفهم.. ثقافة (الآن وهنا).

ثقافة تمجد الآني والعابر، وتروج للعيش في اللحظة بأقصى حد ممكن نظراً إلى أنها كل ما هنالك، ثقافة ترى أن (الآن) هو الفرصة السانحة التي لا تتكرر، وأن الـ(هنا) هو كل ما هنالك من أبعاد..

إنها ثقافة كاملة، تسكن كل المفردات، من نموذج إعلاني يجعلك تعيش الأبد في لحظة، عبر سلعة تستهلكها في أقل من دقيقة، إلى منظومة أفكار ومبادئ تكرر عليك بأكثر من طريقة وأسلوب حتى «تكاد تنومك مغناطيسياً»- أن الإنسان يعيش مرة واحدة.. «**وإن الحياة قصيرة... وإنها تنفلت بسرعة، فاغتنم كل لحظة تمر لأنها لن تعود مرة أخرى..**».

إنها حضارة كاملة بنيت على هذا المنظور.

الآن وهنا- ولا شيء سوى هذين البعدين..

الآن!.

وهنا!.

هذا هو الفردوس الذي تقدمه الحضارة الأمريكية للعالم كله.

فردوس (الآن وهنا)، فردوس اللحظة العابرة التي ضخمت و(أُدلجت) لتصير (أبداً لا نهائياً). هذا هو الفردوس الأمريكي، عنوانه: هنا، وزمانه: الآن..

لكن ماذا يقدم هذا الفردوس من وعد لقاصديه؟.

لكل فردوس قائمة وعوده، ومباهجه ومغرياته- تشكل جوهر هذا الفردوس وفحواه النهائية- تشكل صلب الأمر بالنسبة إلى المؤمن بهذا الفردوس..

إنه المقصد النهائي، والحاضر الأولي، والدافع الأكثر أهمية لكل ما يخوضه المؤمنون من أجل الوصول إلى فردوس..

.. فما الذي يقدمه هذا الفردوس المستعار ؟..!

ما الذي (لديه) من وعد، من ثواب، ليقدمه للمؤمنين به؟.

ما الذي يقدمه الفردوس المستعار في نهاية المطاف؟.

دلل حواسك كلما أحببت!

منذ الركن الأول، المادة- والتي هي الحجر الأساس الذي بنى عليه الفردوس المستعار لعبة الحواس دوراً أساسياً في (مؤونة) البناء- كانت الحواس هي الأداة الأساسية لتعريف المادة وتحديدها.. بالحواس الخمس تحدد أفق هذه الحضارة ومنظورها، وحدها هذه الحواس امتلكت (الأهلية) و(القوامة) لتكون (عرابة) هذا الفردوس وحارسته، ولأنها موجودة في مؤونة بناء كل ركن، واحد تلو الآخر، فإن الركن الأخير سيكافئها هي ذاتها. تلك الحواس التي كانت الحكم والجمهور، ستكون هي الفائزة في نهاية المطاف..

الثواب في الفردوس المستعار سيكون إرضاء تلك الحواس...

سيكون إمتاعها، سيكون جعل إمتاعها هو المقصد النهائي من الأمر كله..

المتعة، اللذة، هذا هو الأمر. الآن وهنا. وحياتك كلها صممت من أجل أن تستمتع بها. أي شيء آخر هراء. إنك لا تعيش مرتين، إنما هي مرة واحدة. فلا تكن مغفلاً وتضيعها في شيء آخر غير المتعة..

إنما هي المتعة، الآن، وهنا!.

.. يقدم الفردوس المستعار ثواباً للمؤمنين به يقوم على إرضاء النزعات والغرائز الحسية، وهو إرضاء يفوق مسألة الإشباع الطبيعي كماً ونوعاً..

كل شيء مباح في هذا الفردوس. كل الشهوات ممكنة التحقيق فيه. كل الخيالات الجامحة يمكن أن تصير واقعاً معاشاً (الآن وهنا)، وتكف عن أن تكون مجرد خيال..

سيبدو الأمر للوهلة الأولى كما لو كان امتداداً أفقياً وعمودياً وشاقولياً وبكل الاتجاهات لمبدأ (الحرية الشخصية) المنبثق عن (الفردية)..

لكننا لو تعمقنا أكثر، لوجدنا أن هذا (الشخص) أو (الفرد) الذي يؤمن بحريته الشخصية في إرضاء شهواته كما يشاء، سنرى أن هذا الشخص قد تم إعداد حوافزه وأهدافه، وحتى شهواته، بشكل مسبق، بحيث أن مبدأ **(الحرية الفردية) لن يكون سوى شعار تبريري لفلسفة اللذة التي تم غرسها بعمق من خلال نمط الحياة التي تقدم المتعة على كل شيء.**

إنها المتعة أولاً، وعلى الأخص في هذا المكان والزمان الناتجين عن تقاطع الآن مع الـ(هنا).

المتعة ليست بدعة امريكية

سأكون محتالاً فاشلاً لو حاولت الادعاء بأن إرضاء الحواس والشهوات هو بدعة أمريكية.. لقد اكتشف الإنسان، منذ أن صار هناك إنسان على الإطلاق، اللذة المتولدة في داخله نتيجة لإرضاء حواسه ورغباته.. (لولا ذاك ما استمر البشر في الوجود والتناسل، فقد كانت الرغبة وإطفاؤها سببين أساسيين في الاستمرار كما لو كان الأمر فخاً أعد بإتقان من أجل بقاء الجنس البشري)..

وعبر التاريخ، بين الإطفاء والإرضاء والانغماس.. كانت الحواس ونوازعها علامة فارقة في تاريخ الإنسانية وسيرها..

في كل حضارة- كل حضارة على الإطلاق- كان هناك (موقف) رسمي وقيمي من الحواس والنوازع الحسية، يختلف ويتفاوت بين الكبت والمحاربة والاستسلام لهذه الغرائز..

.. حتى في اشد الحضارات محاربة للغرائز- ورغماً عن أنف الشعارات الرسمية والقيم المعلنة- كان هناك أفراد يركضون خلف غرائزهم وخلف إطفائها.. (سواء تستروا أو أظهروا العلانية..)

كل هذا طبيعي، تشترك فيه كل الحضارات الإنسانية على اختلاف منظوماتها القيمية..

..وكل هذا، لا يزال خارج الموضوع، إذ إنه طبيعي، ولأنه كذلك فهو يدخل ضمن تناقضات الفطرة الإنسانية، وتفاعلات الطبيعة الإنسانية ضمن تدرجاته المختلفة.

لكن عندما تصير (اللذة) مبدءاً أساسياً في الحياة، وعندما تفسر كل الدوافع، وكل الحوافز، وكل الأفعال، بناءً على اللذة والمتعة الحسية بالتحديد.. فالأمر يخرج عن الطبيعي ..**إلى ما هو (غير طبيعي)**..

وعندما يتحول الأمر من الأفراد (المتفلتين) من عقال سيطرتهم على شهواتهم، **ليصير سلوكاً اجتماعياً محبباً ونمطاً من الحياة يلاقي الترويج والتشجيع، فإن الأمر مختلف.. كل الحضارات، على اختلاف هوياتها ومنظومات قيمها، تواجه انهياراً أخلاقياً في أواخر أيامها، تعاني** من التفسخ والفساد والترف كونه جزءاً من دورة حياتها الحضارية، حدث ذلك مع كل الحضارات المعروفة، ولا داعي لتبرئة الحضارة الإسلامية من ذلك، إلا إذا قررنا أنها تكف عن كونها (إسلامية) لحظة يشيع الانحلال والتحلل فيها..

.. كل ذلك طبيعي، وهو جزء من سنن الانهيار الحضاري وحتمياتها..

(أي إن التحلل الأخلاقي والإباحية ليسا اختراعاً أمريكياً، بل هما ظاهرتان عالميتان في مراحل مختلفة عبر تاريخ الإنسانية)..

لكن الفرق بين ما نراه اليوم في الفردوس المستعار، وما كان ظاهرة عامة، هو أن التحلل الأخلاقي كان مصاحباً لانهيار الحضارات، أي إنه كان عرضاً متأخراً لسرطان مدمر في مراحله المتقدمة.

أما في حالة الفردوس المستعار، فالتحلل لا علاقة له بانهيار الحضارة، إنه جزء من الحضارة نفسها بالمفهوم الأمريكي، **إنه نوع من (نمط الحياة) التي تمثل القيم الحضارية الأساسية..** إنه ليس عرضاً عابراً في قصة سقوط الحضارة، كما كان عبر التاريخ..

هذه المرة، هذا التحلل هو هدف مستقل بحد ذاته، **إنه ليس ناتجاً ثانوياً،** بل هو شعار الحياة نفسها: **المتعة واللذة،** والاستمتاع بالحواس وإرضاؤها إلى أقصى حد متخيل.. الآن وهنا..

.. وعندما تخرج من التاريخ، وتلغي كل تلك المجسات التي تصلك بالماضي وخبراته وتراكماته المعرفية، والعبرة المتولدة من كل ذلك، فإنك تنغمس في حاضر ضيق محدود، مجاله الوحيد هو الآن وهنا..

وعندما تلغي الوعي التاريخي، والحس التاريخي، وتلقي بالتاريخ كله وراء ظهرك كما لو أنه لم يكن، كما فعلت أمريكا؛ عندما يحدث كل ذلك، فلن يكون لديك سوى (الحواس) **تنغمس فيها لتجد كينونتك وسر بقائك..**

ليس سوى المتعة، واللذة، هدفاً لكل حياتك..



تشكل فلسفة اللذة -Hedonism[1] التي نشأت في القرن الخامس قبل الميلاد- منهلاً تاريخياً لفلسفة ركزت على المتع الحسية داخل حدود

(١) Hedonism-wikipedia the free encyclopedia

الجسد ضمن مفهوم (الآن وهنا). ولدت هذه الفلسفة داخل مرحلة التحلل الأخلاقي للحضارة الإغريقية، وكان لها فلاسفتها المعروفون الذين تركوا بصمتهم الواضحة على الفكر الإغريقي (والذي نعرف جيداً أنه صار جزءاً مهماً من الفكر الإنساني، حيث إنه دخل في فكر كل الحضارات بالتوالي، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر).

كان أرستيبوس Aristippus (٤٣٥-٣٢٥ق.م) هو المؤسس الأول لمدرسة اللذة. كان أرستيبوس تلميذاً مهماً لسقراط، وكان يرى أن اللذة هي الغرض الأقوى في الحياة، وأن اللذات الحسية هي أقصى ما يحصله المرء في حياته..

كان أرستيبوس مهماً أكثر في التأثير في فيلسوف أكثر شهرة منه هو أبيقور Epicurus (٣٤١-٢٧٠ق.م) الذي كان يرى أن الأحاسيس لا يمكن أن تخطئ، وإنما الخطأ يحدث في تفسيرها، ولذلك فاللذة لا يمكن أن تكون خطأ، ما دامت صادقة، ولذلك تظل مصدراً أساسياً للخير والخير فقط في معتقده..

قد نعتقد أن الانغماس في الشهوات واللذات الجسدية هو مجرد ركض وراء الغرائز والشهوات.

وقد يكون ذلك الاعتقاد صحيحاً عندما يكون الأمر مجرد مسألة محدودة، في مرحلة عمرية معينة..

لكن عندما يصبح الأمر منهجاً للحياة، مستنداً على قاعدة فكرية، ومتخذاً من الفلسفة تبريراً عقلانياً للغوص في الشهوات، فإن الأمر يختلف، وتكون له معان مختلفة تماماً عن الركض المرحلي المؤقت خلف الغرائز.

عندما تدخل هذه الـ(ism) إلى الأمر، فإنها (تؤدلجه)، تحوله من

مجرد (شهوة)، و(بحث غريزي عن اللذة)، إلى منظار كامل للحياة، فلسفةً للعيش، وترويجاً لمبدأ..

.. وعندما دخل الـ(ism) إلى كلمة (hedon) الإغريقية، التي تعني اللذة، تحول الأمر إلى مجرد عبث جنسي، إلى فلسفة ترى أن **اللذة الجنسية هي الهدف الأهم في الحياة، بل إنها أعلى (خير) يمكن أن ينتج..**

..ذهب فلاسفة الإغريق، ذهب أرستيبوس.. ذهب أبيقور، وذهب كل أولئك الذين كانوا يرتعون في شهوات أجسادهم، ويتفلسفون معتقدين أن ما يفعلونه هو منتهى الرقي، ومنتهى الفلسفة..

.. ذهب كل أولئك. لا أظن أنه حتى عظامهم صمدت أمام عوادي الزمن.. لم تنفعهم تلك اللذة التي منحوها حياتهم، انتهت تلك الأجساد التي عبدوها ودللوها وأسرفوا في تدليلها إلى أن تتحلل في التراب..

ذهب الجميع، وذهبت كل شهواتهم، كما لو أنهم لم يكونوا.. وكما لو لم تكن ..

لكن الفلسفة بقيت، الـhedonism بقيت!!

لن أدعي قط أن أمريكا قد بعثت فلسفة الـ hedonism من المقبرة اليونانية.. وأنها أعادتها إلى الحياة في فردوسها المستعار بعد قرون من الموت..

ظلت فلسفة اللذة موجودة في العمق، تطفو وتغطس، تروح وتجيء، في كل العصور تقريباً، تجزر عندما تسيطر القيم الأخلاقية (الدينية خصوصاً)، وتمد عندما تضعف هذه القيم..

لم تمت فلسفة اللذة تماماً..

لكنها، بالتأكيد، لم تشهد- حتى في عهد مهدها الإغريقي الأول- انتعاشاً كالذي شهدته في الفردوس المستعار..

أمريكا هي بلد اللذة hedonism بامتياز[١].. إنها الأمة التي تنفق على اللذات وأنواعها أكثر مما تنفق على التربية والتعليم والصحة مجتمعين[٢]، إنها الأمة التي تعد (قضاء الوقت الممتع) هو كل ما يهم[٣]...

إنها الأمة التي أعلنت، في بيان استقلالها في المادة الثامنة تحديداً، عن كون اللذة وفلسفتها واحداً من مبادئها الرسمية (تلميحاً).

كيف؟

إنها تلك الإشارة التي تربط بين الحق في الحياة، وطلب السعادة (Pursuit of happiness)- على أنها مادة أساسية من مبادئ استقلال الفردوس المستعار - وموضوعاً كله ضمن إطار الفرد ورغباته وما يعتقد أنه (حريته الشخصية)[٤].

نعم، المادة الثامنة من إعلان الاستقلال تتحدث عن (طلب السعادة) باعتبارها هدفاً أساسياً من أهداف هذه الأمة الناشئة..

(.. وماذا في الأمر؟ (طلب السعادة) أمر مهم جداً. والبشرية كلها، منذ أن صارت هناك بشرية، تطلب السعادة..).

---

(١) The Hedonistic Face of Humanism Robert L.Waggoner Copyright(c) ,Robert.Waggoner, Selma. Alabama,1996

(٢) It's A playboy world William S.Banowsky. (Old Tappan. NJ: Fleming H.Revell Company, Spire Books, 1969٢٥ ؛(

(٣) George Barna and William paul McKay. Vital Signs: Emerging Social Trends and The Future of American Christianity (Westchester, IL: Crossway Books. 1984١٤٠-،١٣٩(.

(٤) The Declaration of Independence, www.//usconstiution.net/declar.html

الأمر هو أن (السعادة) عندما توضع هدفاً في الفردوس المستعار، فإنها ستكون ضمن ثوابته (المادة)- (الفردية)- و(الآن وهنا)..

وماذا ستكون السعادة عندها، غير هذا الإرضاء الآني للغرائز والحواس، ومن ثم إرضاؤها مجدداً،.. ومجدداً.. باستثارتها من أجل إرضائها، والشعور بالسعادة التي ينص عليها إعلان الاستقلال؟.

ماذا ستكون السعادة، في هذه التربة، غير ذلك؟. غير نبتة الشهوة وهي تروى بالمحفزات والمثيرات؟.. ومن ثم تشعر (إحساساً) بالسعادة لحظة إطفاء تلك الشهوة؟..

ماذا ستكون هذه السعادة غير مبدأ اللذة (pleasure principle) دون سفسطة الإغريق وتنظيراتهم المملة؟..

ماذا سوى فلسفة اللذة، hedonism، وهي تنتصب لتصير مفهوماً للسعادة، والبحث عنها.. في ذلك الفردوس المستعار الذي تقع حدوده لا في القارة التي يسكنها فحسب، ولكن في رؤوس مئات الملايين ممن يسكنون قارات أخرى، وصاروا يؤمنون بمبادئ الفردوس المستعار (دون أن يعرفوا أنها مبادئه)، بل صاروا يعدون تلك المبادئ جزءاً من فطرتهم.. جزءاً من الطبيعة الإنسانية..

(.. سيقولون: أوف!. كلمة أخرى وتصير السعادة والبحث عنها حراماً. ويصير مجرد ذكرها كبيرة من الكبائر، وقد نتعوذ بالله من السعادة والبحث عنها.. يا أخي كفانا نكداً. دمرتم الدين ودمرتمونا بهذه الكآبة .﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ «وحبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب». فما المشكلة في أن تكون السعادة هدفاً؟. ولماذا هذا الربط القسري بين السعادة وفلسفة اللذة hedonism ؟ بل ما المشكلة في اللذة أساساً، ألم يكن الرسول ﷺ يعاشر نسائه؟. لماذا نفترض أن يكون ذلك كله في الحرام؟.)

وأيضاً..

(ولماذا نفرض أن هذه اللذة مرتبطة بالحواس الجنسية؟. لماذا لا نرى إلا هذا الجانب؟ هل لأننا لا نفكر إلا فيه؟ هل لأننا نعاني من مشاكل في هذا الجانب؟؟.

لماذا لا ندعهم وشأنهم ونرى اللذة في العبادة أو الجوانب الروحية؟.)

وكلام من هذا القبيل..

دعونا نكف عن هذا التهرب من الحقائق.

دعونا نكف عن هذا الإنكار.

فلنواجه الحقائق كما هي. لا كما نريدها أن تكون.

لا تنس أن تقضي وقتاً ممتعاً..

سيكون من العبث أي إنكار بأن نموذج الحياة الأمريكية الذي سوق إلى العالم كله، هو نموذج لحياة هدفها الأساسي- (وربما الوحيد)- هو الاستمتاع..

إن الاستمتاع بالحياة (life enjoyment) هو الهدف النهائي لتلك الحياة، هو تلك (الجنة) التي يقدمها الحلم الأمريكي، في نهاية المطاف، الاستمتاع إلى أقصى حد ممكن بهذه الحياة البشرية (الآن وهنا - التي هي الأبد الأمريكي..).

وقبل أن يقول أي أحد، إن المتعة بحد ذاتها، وبالمفهوم المطلق لا مشكلة فيها.. فقد تتمتع وأنت تنجز عملاً، وقد تتمتع وأنت تداعب أطفالك، وقد تتمتع وأنت تصلي لله في خشوع..هذا كله خارج صدد النقاش، فالمتعة هنا هي (تحصيل حاصل) .وهي ليست هدفك الأساسي مع العمل والأطفال، ومع الصلاة..

أما في الفردوس الأمريكي فالهدف هو أن تستمتع. الحياة قصيرة فاستمتع بها. قضاء الوقت الممتع having a good time هو الشعار الأساسي والمبدأ الأساسي. قد تكون نسبة ضئيلة تشعر بالمتعة في مساعدة الآخرين وفي الأعمال الخيرية، وهي تفعل ذلك من أجل المتعة. فالمتعة هي المبدأ الأساسي. وهناك نسبة تكرس نفسها لأمور أخرى تجد المتعة فيها. لكن الأرقام لا تكذب أيها السادة. الغالبية الكاسحة ستصوت للجسد. ستصوت للجنس، ستصوت لإثارة الشهوة وتحفيزها من أجل الاستمتاع بإطفائها فقط.. إنها فلسفة اللذة وقد تحولت لتصير جوهر الجنة الأمريكية، وخلاصة ما تقدمه أمريكا لرعاياها.. (أو لضحاياها..؟)..

لم يصح الأمريكيون ذات يوم، ويهبوا لممارسة الجنس في الشوارع، كما أن الأمر لم يبدأ منذ أن حط الأمريكيون الأوائل رحالهم على تلك القارة..

على العكس..

كانت هناك الكثير من القيم المحافظة أخلاقياً في أول الأمر. بل إن الكثيرين من المهاجرين الأوائل كانوا ينتمون لطائفة البيوريتانيين (puritans)- التطهريين- الذين يشددون على قيم العفة الأخلاقية..

لكن بالتدريج، ومع مرور الوقت، اندثرت قيم التطهر والعفة، وانتهى الأمر إلى ما آلت إليه الأمور في الفردوس المستعار، حيث يبدو أبيقور وأرستيبوس (مؤسسا مبدأ اللذة) شديدي المحافظة مقارنةً بحفلة الجنس الجماعي(الـorgy) التي صارت جزءاً من نمط الحياة الأمريكية- ومفهوم امتلاك الوقت السعيد ..having a good time

بدأ الأمر من مفهوم الفردية individualism الذي مر ذكره..

لقد ضخم هذا المفهوم (الفرد) بكل ما فيه من رغبات وغرائز وشهوات. صار (الفرد) معياراً للقياس والحكم بغض النظر عن أي حكم أخلاقي مسبق... ومن الفردية نشأ مفهوم (الحرية الشخصية personal freedom). والخصوصية privacy التي دمغت طابع الفرد الأمريكي..

كل ذلك مهد بالتدريج، رويداً رويداً، لما حدث فيما بعد من انفلات أخلاقي نراه اليوم حقيقة لا مجال لإنكارها.

بدأ الأمر من الفردية، من الاعتزاز بالحرية الشخصية، من (ليس لأحد الحق في التدخل في شؤوني الخاصة) mind your own business.

وانتهى إلى تلك الإحصاءات المخيفة، عن واقع الحياة هناك، من معدل عدد الشركاء للجنسين (average of partners)، إلى الجنس العرضي casual sex إلى مفهوم (لقاء لليلة واحدة) one night stand.

لكن الفلسفة بعد كل شيء، هي مجرد (وجهة نظر).

صحيح أنها تعكس توجهاً اجتماعاً عميقاً، لكنها في النهاية مجرد وجهة نظر، لا تملك سلطة الحقيقة العلمية. الفلسفة قد تكون جذابة نخبوياً، وقد تؤمن بها النخب وتنظر وتفسر بها الأشياء من حولها.. لكنها لا تكون قوية فعلاً إلا إذا اختلطت بسلوكيات الناس ومفاهيمهم، ودخلت في رؤوسهم ولو كعناوين عريضة...

شيء ما حدث وغير تلك الفلسفة من كونها مجرد وجهة نظر إلى (حقيقة علمية).

شيء ما حدث وحول مبدأ اللذة -hedonism إلى اللذة السايكولوجية hedonism psychological[1].

---

(١) Psychological hedonism,wikipedia,the free encyclopedia

لقد جاء من جوانب الأمر إلى حقيقة قدرية تفسر السلوك الإنساني كله بأنه محض بحث عن لذة..

لقد جاء فرويد!..

فرويد ونظريته وسيجاره..

من النادر جداً، أن يكون هناك، أي شخص عاش في إعصار الفردوس المستعار الذي يجتاح العالم كله، دون أن يكون قد عرف عن فرويد، أو سمع به على الأقل (مع أن ما سمعه - على الأكثر- سيكون مبالغة إعلامية عن حجم فرويد الحقيقي..)..

كان سيغموند فرويد SIGMUND FREUD (١٨٥٦-١٩٣٩)، طبيب الأعصاب النمساوي، مؤسساً لنظرية من نظريات علم النفس، هي نظرية (التحليل النفسي)[١]، والتي يعدها عموم الناس أنها كل علم النفس، أو أنها (مرادفة) لمصطلح علم النفس، وهو أمر بعيد تماماً عن الحقيقة على الرغم من أنه سوق وروج له على أنه ذلك، وكان لهذا الترويج أثره المتراكم السلبي على المدى البعيد.

رأى فرويد أن الجنس هو محور حياة كل فرد، وسواء شعر هذا الفرد أم لم يشعر، إلا أن الدافع الجنسي هو الذي يسيطر على اللاشعور (subconscious) ويتحكم اللاشعور في كثير من العمليات الشعورية الواعية، وفي الكثير من دوافعنا وحوافزنا. أي إن الدافع الجنسي اللاواعي هو الذي يفسّر جل سلوكنا وتصرفاتنا..

وفي رأي فرويد، أن الحوافز الجنسية تولد كمية من الطاقة النفسانية أسماها اللبيدو libido للسلوك والنشاط العقلي، وهذه الطاقة موازية

---

(١) freud,wikipedia free encyclopedia

للطاقة الجنسية وإن كانت مختلفة عنها. وحسب فرويد، فإن هذه الحوافز الجنسية إن لم تشبع فإن الطاقة النفسانية (libido) تزيد الضغط، كما يحدث للمياه المندفعة في أنبوبة صمام مفتوح. وربما تزيد الصراعات من التوتر. ولكي يعمل الناس بطريقة عادية، لابد من اختزال هذا الضغط، فإذا لم يفرغ فإن الأنبوبة مع الوقت تنفجر عند انضغاط نقطة فيها، ويظهر الناس السلوك الشاذ..[١].

قسم فرويد مراحل تطور الشخصية عن طريق الخبرات المبكرة التي يمر بها الأطفال خلال مجموعة متعاقبة من المراحل النفسية الجنسية حيث إن الطاقة الجنسية (وهي الطاقة النفسية نفسها) تتركز، حسب فرويد، في ثلاث مناطق حساسة جنسياً (وهي الفم والشرج والأعضاء الجنسية). ويختزل الإنسان إلى مراحل عمرية تتعلق بهذه المناطق، فالمرحلة الفموية تتعلق بعلاقة الطفل بأمه عبر الرضاعة وشعوره باللذة من خلال استعمال فمه في الرضاعة، ومن ثم تأتي المرحلة الثانية وهي المرحلة الشرجية التي يتعلم فيها الطفل السيطرة على عملية التبرز، ويشعر باللذة بعد أن يفرغ البراز، وبعدها تأتي المرحلة الثالثة وهي المرحلة القضيبية (من السنة الثالثة حتى الخامسة) حيث يرى فرويد أن معظم الأطفال يمارسون العادة السرية وتكون الأم محط تخيلات الذكور فيما عرفه فرويد أنه عقدة أوديب، بينما يكون الأب هو محط تخيلات الإناث في عقدة ألكترا الموازية..

هذه المراحل الثلاث- والتداخلات والصراعات الناشئة خلالها- بالكبت أو بالقمع أو بالعقوبات التي يفرضها الوالدان، تحدد مصير الشخصية وطبيعتها في المستقبل..

---

(١) مدخل علم النفس لندال. دافيدوف، دار ماكجروهيل للنشر. الدار الدولية للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ص٥٨٤.

فالخلل في المرحلة الفموية (حيث يمثل الفطام الصراع الأساسي فيها) يؤدي إلى ظهور صفات لاحقة في الشخصية تتجلى في الطفل الذي حرم من الرضاعة مبكراً في تكوين صفات مثل التشاؤم والشك بالآخرين والانتقاد والحسد، أما الطفل الذي أسرف في تدليله فتظهر فيه صفات مثل التفاؤل وسهولة الانخداع، ويكون عموماً كثير الإعجاب بالناس حوله..

يرى فرويد أن خللاً في المرحلة الشرجية (حيث يمثل الارتخاء الذي يؤدي إلى إفراز الفضلات مصدراً للذة، بينما يشكل تركيز الأهل على تعليم استعمال المرحاض والتوقيت بمنزلة تهديد لهذه اللذة)، سيؤدي إما إلى ظهور صفات مثل الادخار والعناد والبخل والتحدي والترتيب والدقة والسلبية، أو إلى صفات مثل الإهمال وعدم التنظيم والتهور عندما يكبرون لاحقاً[١]..

.. ويتمثل الصراع في المرحلة القضيبية ـ حسب فرويد ـ من خوف مفترض لدى الذكور من فقدانهم لأعضائهم التناسلية (عقدة الخصاء) ومن شعور الإناث بأنهن أقل من الذكور لأنهن لا يملكن هذا القضيب، ويتخلص الذكور من هذا الشعور بمبادرة يكبتون فيها حبهم للأم ـ ويتقمصون شخصية الأب ـ (يجاهد لطفل ليصبح مثل أبيه) وبذلك يحصل على خصائص نمط الجنس الذكري الممثل في الأب.

هكذا يكون الصراع للحصول على اللذة (ولو بمعنى الرضاعة والتبرز) محوراً للحياة الشخصية لكل فرد حسب رأي فرويد..

وهكذا يكون الجنس والرغبة الجنسية (التي افترض فرويد أن الأم كانت موضوعها الأول) محوراً لكل الصراعات التي تشكل شخصيتنا..

(١) Freud's Psychosexual Stages of Development.
David B. Stevenson '96, Brown University http://www.victorianweb.org/science/freud/develop.html

فإذا كان لديك نهم في الأكل والثرثرة فإن مرحلتك الفموية كان فيها أزمة معينة ثبتت fixation جزءاً من طاقتك الليبدو هنا، وإذا كنت تميل إلى التحدي، أو عندك نوع من الميل إلى الادخار، فإن جزءاً من تلك الطاقة قد ثبت عند المرحلة الشرجية.

.. وهكذا... دون حاجة إلى الاسترسال في أزمات المرحلة القضيبية..

لكن كل شيء فيك، حسب فرويد، قد اكتمل وأنت في الخامسة..

(..إنها رؤية حزينة جداً، والأكثر حزناً أن هناك من صدقها.. شيء محزن، ومؤسف فعلاً، أن يختزل الإنسان، (الإنسان!)، إلى ثلاث مناطق حساسة، بمعزل عن أي شيء آخر، هي الفم والشرج والفرج، ولاشيء آخر..

إنه شيء محزن، بل محزن جداً.. أن يشطب كل شيء آخر، لمصلحة هذه المناطق الثلاث، التي يدعي فرويد أنها وحدها تكمل شخصية الإنسان.. وكل ما عداها هباء..).

نعم، إنه شيء محزن والأكثر إثارة للحزن أن الإنسان قد صدق ذلك..

لكن فرويد لم يختزل الإنسان وحده، إنما اختزل الإنسانية كلها، لقد فسر التاريخ والحضارة والفنون والأدب بناءً على محور اللذة الجنسية وطلبها، والألم الناتج عن الحرمان منها.. بل إنه استخدم نظريته ليفسر أديان التوحيد الكبرى..

وبالأخص ليفسر (رموزها) الدينية..

كل تلك القيم الكبرى، كل تلك المثل العليا، انتهت لتكون محض حاجات بيولوجية، تولد لذة معينة، ويؤدي الحرمان منها إلى تكوين أزمات واضطرابات: ليس سوى البيولوجيا هناك، براز وفطام وعقدة خصاء مفترضة..

أخطر ما في الأمر، أن فرويد جرد مسألة اللذة من (الخيار) الذي كان موجوداً في فلسفة اللذة القديمة- hedonism- وكذلك عن فلسفة بنثام bentham ومل mill ولوك locke الاجتماعية.. التي رأت أن البحث عن اللذة هو خيار فردي بالدرجة الأولى.

لم يعد الأمر خياراً بعد الآن.

فالصراعات العقلية الثابتة بين حوافز اللذة والعدوان، تسيطر- كالقدر!- على شخصية الإنسان.. حتى دون أن يكون واعياً..

.. لم يعد الأمر خيار الشهوة والغريزة والانغماس فيها..

صار (قدراً) لا فكاك منه. حسم أمره قبل أن تفهم ما الأمر.

وسواء اتجهت حياتك نحو العفة والفضيلة، أو الانغماس في الجنس العابر كقطط الشوارع، فإن ذلك ليس سوى نتيجة نهائية، قدر، لمشاكلك الجنسية مع والديك ومحاولتك الحصول على اللذة من والدتك وإفراطها أو تفريطها في ذلك..

صار الأمر قدراً كتب في غياهب طفولتك، وليس عليك سوى أن تنفذ. لا يمكن لك أن تكون سوى (روبوت) تتحكم فيه عن بعد مراحله الفموية والشرجية والقضيبية (المفترضة!)..

لم يعد الأمر بيديك. لقد صارت يداك غير مهمة!، وتقدمت أعضاء أخرى-حسب فرويد- لتحتل الصدارة.

..والأخطر من هذا كله، أن نظرية فرويد- التي كانت مجرد آراء- عوملت كما لو كانت حقائق علمية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وساهم هذا الشيء في استسلام عامة الناس (الذين لا يمكنهم التحقق من علمية فرويد ونظريته المعقدة أو عدم علميته) لتلك الحقيقة. إنه قدرهم، هذا الاستسلام للدوافع الجنسية، ومن يمكنه الفرار من قدره؟..

الاستسلام كان حلاً أسهل لبقايا الشعور بالذنب المتخلفة من عهود الأديان التقليدية والأخلاق البيوريتارية والعصر الفكتوري..

إن الدوافع الجنسية تتحكم بنا شئنا أم أبينا.. وقد أصبحت حقيقة علمية، بالضبط كما أصبح أكل الغني للفقير حقيقة علمية بمنطوق دارويني اجتماعي، وكما أصبحت سيادة نخب الـ١٪ حقيقة علمية اقتصادية..

إنه هذا السياق المتعب، سباق الفردوس المستعار حيث الجميع أفراد ويتسابقون، وهي المحطة الأخيرة، هذه هي الجائزة التي تأخذها لأنك جزء من هذه المنظومة .إنها اللذة. وهذه الجنة الأرضية. لا ذنب. لا قيود. **إنها محض حقيقتك العلمية، حقيقتك الوحيدة، أن تطلب اللذة من المهد (حرفياً!) إلى اللحد..**

.. هذه هي الجنة. هذا هو ثواب الفردوس المستعار.. اللذة المتعة..

ليس بعد ألف سنة، ليس عندما تقوم الساعة..

بل (الآن وهنا)..



امريكا بلداً محافظاً: ليس فيلماً من افلام الخيال العلمي

.. كانت أمريكا، عموماً، أمة محافظة مطلع القرن العشرين. خصوصاً إذا قورنت بأوربة- فرنسة وإنكلترة- ذات السمعة السيئة.. مع أن هناك كثيراً كان يجري تحت الستار، إلا أن القوانين كانت شديدة الصرامة بهذا الخصوص، كان هناك قانون (Comstock laws) المطبق منذ عام ١٨٧٣، الذي يحرم نشر أي معلومات ذات طابع جنسي أو طبعها أو توزيعها، بما في ذلك وسائل منع الحمل والإجهاض..[١]

(١) Comstock laws-wikipedia the free encyclopedia

ومن القصص المعروفة في مجال صرامة الأخلاق الأمريكية آنذاك وطبيعتها المحافظة، أن كاتبة اجتماعية تدعى آيدا كرادوك Ida Craddock، أصدرت كتيباً صغيراً يحتوي على إرشادات وتعليمات لليلة الزفاف (حيث كانت ليلة الزفاف آنذاك هي التجربة الأولى غالباً للزوجين، أو للعروس العذراء على الأقل، أما الآن فاحتمالية وجود عروسين عذراوين ليلة الزفاف يصلح ليكون مادة لفيلم كوميدي لا أكثر، وكان ذلك كله قبل مئة سنة فقط..).

المهم أن هذه الكاتبة قدمت للمحاكمة الفيدرالية على أساس أنها تروج للفحش. وقد انتهى الأمر بأنها انتحرت ليلة بدء جلسات المحاكمة![1]. (حدث ذلك في أمريكا، في أوائل القرن العشرين. وليس في بلد من العالم الثالث يطالب فيه الإسلاميون (الأصوليون) بتطبيق الشريعة.).

.. والحادثة الأكثر صرامة، هي تقديم الممرضة مارغريت سانغر Margaret Sanger[2] للمحاكمة بسبب تأليفها لكتاب إرشادي عن وسائل منع الحمل، والحكم عليها بالسجن لمدة ٤٥ عاماً بتهمة نشر الفاحشة، فرت قبل تنفيذه إلى أوربة..[3]

كل ذلك كان خلال العقد الأول من القرن العشرين. كانت أمريكا لا تزال ملتصقة - على الأقل قانونياً- بالقيم الأخلاقية المحافظة..

وفجأة، تغير كل شيء، وطلع الجنس من قبعة الساحر الأمريكي ليبهر الجميع كما لو أنهم لم يعرفوه من قبل، وصارت (ثقافة غرفة النوم)

---

(١) twentieth century: An American sexual history,The Czuczka,danaSIECUS Report, Dec1999/Jan2000by

(٢) Margaret Sanger wikipedia the free encyclopedia

(٣) the twentieth century,ibid

أساسية في ثقافة الفردوس المستعار، ومن ثم انطلقت ثقافة غرفة النوم إلى الشوارع الخلفية، ومن ثم إلى الشوارع الرئيسية..

وكان لفرويد، وللفرويدية عموماً (Freudism) دخل في هذا التحول..

أحب هنا أن أشير إلى أن أثر (فرويد) لم يكن بشكل شخصي، أي إن الفرضية لا تعتمد على وجود فرويد -شخصه وأفكاره- لكي تكتمل. كان هيكل الفردوس المستعار قد قام على الأركان الأربعة، ولكنه كان يحتاج إلى الركن الخامس الذي يكمل بناءه، ولو لم يكن فرويد لكان غيره. كانت الانطلاقة الجنسية والتنظير للذات الجسد والإباحية (حتمية) حاصلة لا محالة في فلسفة الفردوس المستعار.. واسم فرويد أو اسم غيره هو مجرد تفصيل في المسألة..

ما كان يمكن لحضارة قامت على الثوابت التي قامت عليها أمريكا، والتي عرضنا لها، من مادية، وفردية، ورأسمالية دون تدخل، واستهلاك متجدد.. ما كان يمكن لمنظومة الثوابت تلك إلا أن تنتهي بثابت أخير يختزلها كلها في اللذة (الجنس، الآن، وهنا..).

.. فرويد ليس سوى تفصيل.

لكنه تفصيل مهم.

فرويد في أمريكا...

في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين، ذهب فرويد إلى أمريكا، ليقوم بإلقاء محاضرات في الجامعات، مبشراً بنظريته في الدوافع الجنسية التي تسيطر على كل شيء (تسيطر أيضاً على السيكار الذي لا يفارق فمه!)..

وقبل أن أسترسل في ذكر نجاح زيارته تلك، وأسباب ذلك النجاح، أذكر أن تلك الفترة كانت فترة ازدهار ورخاء اقتصاديين..

وأنها الفترة نفسها التي شهدت بداية غرس الاستهلاك عادةً يومية في المجتمع الأمريكي.

إنها الفترة التي بدأ فيها الترويج (للتنافس مع آل جونز) keep up with the joneses...

إنها الفترة التي اقترح فيها خبراء فورد زيادة الأجور، وتقليل ساعات العمل..

إنه وقت الفراغ leisure time، وقد بدأ يصير أساساً في أمريكا..

.. وها هي ذي أمريكا، تلتفت لتبحث عن الجنس..

.. وها هو ذا فرويد يأتي إلى أمريكا.

(حدث في أمريكا، ما يحدث في كل منا بوصفه فرداً على حدة. عندما يزيد وقت الفراغ في حياتنا الشخصية، نلتفت إلى الجنس وإلى الإثارة، لنقضي الوقت الممتع في ذلك، ولو عبر الإثارة المتكررة بوسائل مختلفة..

.. وعندما صار هناك (وقت فراغ) أمريكي، أكبر حجماً من أي وقت فراغ في أي حضارة أخرى، التفتت أمريكا إلى الجنس، التفاتاً أكبر مما فعلت أي حضارة أخرى في التاريخ، لقد التفتت إلى الجنس وبقيت ملتفتة إليه. وجدت الملاذ في اللذة، وجدت نفسها هناك.. وصار ثابتاً من ثوابتها. بالضبط كما أن الاستهلاك والمزيد منه ثابت من ثوابتها..)

لم تكن نظرية فرويد، من الناحية العلمية، خالية من ثغرات وأخطاء قاتلة. كانت بعض تفسيراته يناقض بعضها بعضاً، وكان عدد الحالات التي

درسها وفسرها لا يكفي لتقديم نظرية متكاملة. كما أن نقطة انطلاقته الأولية كانت لا تخلو من مشاكل وانتقادات، فقد انطلق من الحالات المرضية العصابية ليفسر (الحالة السوية) في تفسير لم يعد فيه معنى للسوي أو غير السوي..

عدا ذلك، فإن الكثير من تلامذته، وأيضاً من زملائه، خالفوه في عمق نظريته، واختلفوا على الأخص مع جوهرها المتعلق بحجم الجنس وطلب اللذة في تكوين الشخصية.

ومع ذلك، يظل فرويد هو الأكثر رواجاً وانتشاراً.. وتظل آراؤه صاحبة سيادة جماهيرية مهمة، ولعلها الأكثر رواجاً بين كل النظريات الأخرى في علم النفس..

وهذه المشكلة الحقيقية.

ليست المشكلة أن فرويد قال ما قاله. الأمر هو أن هناك من صدقه.

وأنهم كثر..

في البداية يكون الفضول عاملاً حاسماً في الانتباه لما يقول فرويد. ولعل هذا جزء من الطبيعة البشرية بعموميات الانتباه للممنوع والغريب عن السائد..

لكن الأمر تجاوز الانتباه إلى التصديق، ومن ثم الإيمان بالنظرية عقيدةً للحياة والعيش.. وهنا كان دور أمريكا في الأمر...

دور الفردوس المستعار..

هنا يأتي فرويد بالنسخة الأمريكية المعدلة، التي انتشرت إلى العالم كله.

كيف دخل فرويد تحت جلودنا؟

لم يكن فرويد أمريكياً، لكن ابن شقيقته إدوارد بيرنيز[١] Edward Barnays (١٨٩١-١٩٩٥) كان نمساوي المولد، أمريكي الهوية.

إدوارد بيرنيز هذا، الأقل شهرة عندنا، هو الذي روج أفكار خاله ونظرياته في أمريكا، وهو الذي جعلها تنتشر لتبدو كما لو كانت حقيقة علمية وقدراً لا جدال فيه.

يعد بيرنيز الأب الحقيقي لعلم الدعاية والعلاقات العامة[٢] Public Relations، ولا ينازعه في هذا إلا معاصره أيفي لي (Ivy Lee)، افتتح بيرنيز مكتبه في نيويورك في عام ١٩١٩، واستطاع خلال فترة وجيزة أن يفرض نفسه على أنه أهم وكيل إعلاني في أمريكا (America's no.I publicist)- كانت معرفته بعلم النفس عموماً من خلال صلاته بخاله فرويد، تتيح له أن يستخدم علم النفس وعلم الاجتماع والدوافع من أجل الترويج لما يريد الترويج له.

كان بيرنيز يقول بصراحة: (إذا فهمنا الآليات والدوافع التي تحرك الجماهير فإننا نستطيع أن نقود ونحرك هذه الجماهير لما نريده دون أن تشعر). كان يسمي هذه الطريقة في تكوين الرأي العام (هندسة الرضا) Engineering of the consent.

كان بيرنيز يدير الإحصاءات ويروج لنتائجها، ويرسل الرسائل الشخصية وغير الشخصية، وينشر المقالات في الجرائد، وصور الكاريكاتير، والنكات في الإذاعة، وكلها كانت تنصب في مصب تغيير الرأي العام.

---

(١) Edward Barnays wikipedia the free encyclopedia

(٢) Larry Tye, The Father of Spin: Edward L.Bernays and the Birth of public Relations (1998).

عناوين المؤلفات التي ألفها بيرنيز تفصح دون غضاضة عن طبيعة فكرة: (بلورة الرأي العام) Crystallizing the public opinion 1923[١]، الدعاية proppaganda1928[٢]، وهندسة الرضا engineering of consent 1947[٣]..

كان بيرنيز يرى أن توجيه عقول الجماهير (Manipulation of the masses) عملية ضرورية لتقليل الفوضى والصراعات التي تنشأ في مجتمع ديمقراطي..

زبائن مكتبه - الذين روج لهم- كانوا عادة السياسيين الذين سيتم انتخابهم لاحقاً بالتصويت الديمقراطي، آيزنهاور مثلاً كان زبوناً مفضلاً، وأيضاً أهم الشركات الصناعية مثل جنرال موتورز، دودج، شركة التبغ الوطنية.. مؤسسات الصحة العامة وغيرها.. وكان دوره الأهم مع كل هؤلاء هو أنه كان يعرف- بخبراته في علم النفس- كيف يقنع الناس أنهم يحتاجون جداً إلى شيء معين، وهم في الحقيقة لا يريدونه، ويكون هذا الخيار هو إرادة تلك الشركات الضخمة و السياسيين الذين على وشك الفوز.. اختير بيرنيز عن جدارة، ليكون واحداً من ١٠٠٠ شخصية أثرت في الإنسانية، في كل العصور..

---

(١) Bernays, Edward L,1891-

Title	**Crystallizing public opinion.**
Publisher	New York,Liveright Pub.Crop.1961

(٢) Bernays, Edward L,1891-

Title	**propaganda, by Edward L.Bernays.**
Publisher	New York,H. Liveright, (1933, c1928).

(٣) Bernays, Edward L,1891-

Title	**The engineering of consent. (Contributors) Howard Walden Cutler (and others).**
Publisher	Norman, University of Oklahoma press

الخال سيغموند

.. وكان لابد للخال سيغموند أن يكون له حصة في عمل ابن الأخت البار الذي انتقل إلى أمريكا. كان بيرنيز متأثراً جداً بأفكار خاله، ويقول المقربون من بيرنيز، إن أي شخص سيلتقي معه للمرة الأولى، ويتحدثان لمدة لا تزيد عن عشر دقائق، فإن بيرنيز كل لابد أن يتطرق إلى الخال سيغموند وأفكاره..

حمل بيرنيز معه سلة مؤلفات خاله، ووجد له مترجماً جيداً، ودار نشر ممتازة. وأدار حملة دعائية واسعة لترويج كتب فرويد. دعم الجامعات التي تتبنى منهجه، ودعم الأساتذة الذين يدرسونه في قاعات المحاضرات. أقام الندوات والحلقات الدراسية. أظهر المقالات في الصحف، والموضوعات في الإذاعة، والنقاشات المباشرة، وزاد في الحبكة بوضع تعليقات عابرة هنا أو هناك، نكتة أو (قفشة) أو جملة مأثورة. تعامل مع نظرية فرويد كما لو كانت أمراً منتهياً، كما لو كانت حقيقة محسومة.

كان التلاعب بعقول الناس--mass consumer persuasion وصنع أفكارهم، هو (صنعة) بيرنيز وشغله الشاغل. كانت تلك حرفته..[١]

ونشهد طبعاً أنه أدى عملاً جيداً من هذه الناحية، فقد أدخل تلك النظرية التي لا تصدق، إلى ما تحت جلودنا..[٢] وجعل الإعلام الوسيلة الأساسية لتصديق كل ما لا يصدق..[٣]

---

(١) Edward Bernays, Biography of an Idia: Memoirs of a public Relations Counsel

(٢) How Freud got under our skin
Tim Adams, Sunday March 10,2002

(٣) Toxic Sludge Is Good for You: Lies: Damn Lies and the Public Relations Industry
by John Stauber and Sheldon Rampton
Publisher: Common Courage press, Monroe, Maine

وأكرر هنا أن الأمر لم يكن مؤامرة عائلية على الإطلاق. لو لم يكن الخال فرويد لكان أي شخص آخر، له نظرية أخرى ربما لا تكون مطابقة لنظرية فرويد، لكن نتيجتها كانت ستكون مشابهة: **الجنس بوصفه تفسيراً للدوافع. الجنس بوصفه حقيقة مطلقة.** كان ذلك حتماً مقضياً في الفردوس المستعار. شيء يؤدي إلى الآخر، ثم تنتهي قطع (الدومينو) المتساقطة إلى هدفها الحتمي. ما كان يمكن لقطع (الدومينو) التي تألف منها الفردوس المستعار، إلا أن تؤدي إلى ذلك الجنس، وتلك اللذة، الآن وهنا، ثواباً نهائياً لتلك الجنة الأرضية..

لو لم يكن فرويد، لكان غيره..، والمهم هو التنظير للجنس وإزاحة أي شعور بالذنب أو بتأنيب الضمير فيما لو تصرفت كآلة جنس sex machine.. فقد اتضح الأمر أنه حقيقة علمية لا مفر منها.. قدر لا هروب منه، وإذا كنت تشعر بوخز في ضميرك فذلك -لابد- لأن والدتك أخطأت معك- في غياهب طفولتك- في مرحلتك الفموية أو الشرجية.. ربما أنبتك أو عنفتك على تبولك أمام الناس، كم هي قاسية، لابد أن علاقتها بك كانت مضطربة لأن علاقتها بأمها كانت مضطربة هي الأخرى، وقد حاولت أن تفرغ ذلك فيك أيها المسكين. لكن الآن وقد عرفت، حاول أن تلقي ذلك وراء ظهرك..

وانطلق!.

الصمام المفتوح

كان أخطر ما في نظرية فرويد، هو تلك العبرة المستخلصة منها في نهاية الأمر: **الصمام يجب أن يظل مفتوحاً كي لا ينفجر الأنبوب.** وكان ذلك مغزاه الكبير، في واحد من أهم الحقول التي أثر فيها فرويد بشكل مباشر: **التربية.**

فرويد لم يكن أمريكياً بالتأكيد، لكن الدكتور سبوك كان كذلك (Benjamin Spock) وقد حمل نظرية فرويد إلى مجال التربية، ومعها العبرة الأهم: يجب ألا يكون هناك أي حرمان، أي قمع، أي منع. يجب أن يكون كل شيء مباحاً مع الأطفال، وإلا عانوا الكبت. والكبت سيئ، وقد يؤدي إلى أمور غير سوية.

سبوك، ومعه فريق من التربويين الأمريكيين، حملوا أفكار فرويد كما لو كانت سرطاناً خبيثاً (برأي البروفسور توري Torrey)[١]، ونشروها في مجال التربية والتعليم.. وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه من إباحية وحرية جنسية وتفكك اجتماعي..

سبوك، ومعه مارغريت ميد Margaret Mead، روث بندكت Ruth Bendict، أريك أريكسون Erick Erickson، كارل مننغر Karl Meninger، أدوا تلك المهمة التربوية الناجحة، ربوا ذلك الجيل على أمل أنه سيكون: بلا عُقَد..

(..سيتضح لاحقاً، أنه سيكون الأكثر تعقيداً).

امك ثم امك ثم امك..

تأثير سرطاني آخر، كان لفرويد، على الرغم من أن أحداً لا يكاد يذكره، أنه لم يكتف بتشويه واحدة من أقدس العلاقات الإنسانية بين البشر، وهي علاقة الأمومة، وتحويلها إلى علاقة جنسية بين رضيع وامرأة بالغة، لكن ذلك لم يكن كل شيء في هذا المجال..

(١) Freudian Fraud: The Malignant Effect of Friud's Theory on American Thought and Culture By E. Fuller Torrey.362pp. New York, Harper Collins1992

فالتأثير بعيد المدى، كان أنك، ستلقي بعبء مشاكلك كلها على أمك، أي عيب فيك، أي مشكلة في شخصيتك أو في تعاملك مع الناس أو مع زوجتك أو أطفالك، كل ذلك سيكون مرده إلى أمك، (.. وسيخلق هذا نوعاً من الحنق والرفض تجاهها، سواء شعرت أم لم تشعر).. وسيكون ذلك بديلاً لمواجهة مشاكلك ومحاولة اقتحامها بالتصدي لها، فأمك موجودة كبش فداء متوافراً دوماً، وجاهزاً تضحي به بدلاً من مواجهة الذات..

إنها **أمك ثم أمك ثم أمك**،كما عندنا في الحديث الشريف، لكن هذه المرة بالاتجاه الآخر، المعاكس تماماً..

هل نستغرب الآن من التدهور الذي أصاب العلاقة بين الأمهات والأبناء فور بلوغهم المراهقة؟ هذه المرحلة العمرية تكشف لهم عن نقاط ضعف فيهم وفي تكوينهم، وقد يكون ذلك كله من طبيعة المرحلة لا من طبيعتهم، لكن عبء اللوم والمسؤولية سيلقى على الأم (**أمك ثم أمك ثم أمك- ومن ثم الأب- بالضبط كما عندنا**).. أو غيابه، وسيكون ذلك أفضل من عبء المواجهة..

إنهما الوالدان (الأم غالباً، والأب ثانياً، وربما تكون تهمته الغياب) هما اللذان يحاكمان على منصة العلاج النفسي في عيادات العلاج النفسية شديدة الانتشار في الولايات المتحدة..

من يستطيع توقع علاقة أفضل (إحصائياً) بين الأمهات والأولاد؟.

ليس ذلك سوى تحصيل حاصل وناتج لذلك الدرب الطويل الذي ابتدأ من (المادة) - حجرَ أساس - وانطلق من الفردية في سباق الغابة التي لا ترحم، وانتهى إلى قفص (الآن وهنا) حيث الزمان المحدود والمكان المحدود هو الأبد الوحيد الذي يمكن للفردوس المستعار أن يكون من خلاله..

إلا إذا..

.. دعونا لا نشمت بكل ذلك، ليس من أجل كرم الأخلاق والمروءة، ولكن الأمر فينا أيضاً ولو حرصنا على الإنكار وغض النظر. لقد وصل فرويد وأفكاره إلينا أيضاً. إنه تحت الجلد، حتى لو لم يسمع به بعضهم.. لقد جاء إلينا ضمن العبوة الأمريكية الكاملة. ضمن نمط الحياة الأمريكي ككل، ضمن قضاء الوقت الممتع.. having a good time

دعونا ننتبه لذلك الإعصار، ولنتذكر، أن أمريكا قبل قرن واحد فقط كانت محافظة جداً لدرجة أن كتيّباً إرشادياً عن ليلة الزفاف، كان يمكن أن يقدم للمحاكمة وتنتحر مؤلفته خوفاً من الفضيحة..

لكن الدلائل تشير إلى أننا نحذو حذوهم، حذو القذة بالقذة..

.. على درب ذلك التحلل المريع..

(إلا إذا.....)

❁ ❁ ❁

كانت (الفرويدية) بمنزلة إحماء فكري، رياضة نفسية، استعداداً لنشاط حقيقي وفعلي كانت أمريكا ستنغمس فيه، خلال العقدين التاليين لانتشار الأفكار الفرويدية، وستجر العالم معها، تباعاً، كان ذلك أكثر من مجرد نشاط، بل إن اسمه الرسمي سيكون (ثورة).

إنه (الثورة الجنسية).

كتاب جنسي.. (كله ارقام)!!

بدأت طلائع الثورة الجنسية بكتاب هز المجتمع الأمريكي بعنف. لم يكن كتاباً فاضحاً مثيراً من تلك الكتب الجنسية الرخيصة التي تدغدغ مشاعر القراء وتستهدف غرائزهم..

على العكس من ذلك، كان كتاباً إحصائياً، يعتمد أساساً على الأرقام المجردة والبيانات والجداول.

وعلى الرغم من ذلك فقد حقق رواجاً غير مسبوق. وظل الكتاب الأكثر مبيعاً في طول الولايات المتحدة وعرضها لمدة سبعة وعشرين أسبوعاً متلاحقاً في لائحة مجلة (تايم) لمبيعات الكتب، وأحدث ردود أفعال شديدة على المستويات الشعبية والرسمية[1] (حتى إن مؤلفه كاد يتعرض لتحقيق حكومي)..

ولا يزال هذا الكتاب، على الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على صدوره، يثير جدلاً، ولا يزال يُعد علامةً بارزة في التجربة الأمريكية.. ما هو هذا الكتاب؟.

ومن هو مؤلفه؟.



ثم جاء كينزي..

ولد ألفرد كينزي[2] (١٨٩٤-١٩٥٦) لأبوين من أسرة أمريكية متوسطة شديدة التدين والمحافظة، كان متفوقاً في كل مراحل دراسته، شديد الاهتمام بمواد الحيوان والنبات والأحياء. وتخصص في النهاية بعلم الحيوان zoology، وتنقل بين جامعتي هارفورد وإنديانا كأستاذ جامعي مرموق.

من الخارج، كان كينزي أستاذاً جامعياً رصيناً وزوجاً وفياً وأباً لأطفال، نموذج لعائلة أمريكية محافظة، قد لا تختلف كثيراً عن العائلة التي نشأ فيها أصلاً..

---

(١) Kinsey, Alfred(١٩٥٦-١٨٩٤) gale encyclopedia of psychology by Margaret allc

(٢) Alfred Kinsey wikipedia the free encyclopedia

لم يكن هناك إشارة إلى أن هذا الرجل المحافظ، سيكون طليعة لثورة التفلت الجنسي والإباحية التي ستغمر الفردوس المستعار (ومن بعده العالم كله)..

عام ١٩٤٧، أسس كينزي معهداً لدراسات الجنس تابعاً لجامعة أنديانا (سيعرف لاحقاً باسم معهد كينزي لدراسات الجنس). وقام هذا المعهد بالإشراف على بحث مدعم من مؤسسات ضخمة مثل معهد (روكفلر)، وبمشاركة فريق بحث ضخم جداً، باستطلاع واسع شمل أكثر من ١٦,٠٠٠ شخصاً، وتركزت أسئلته عن السلوك الجنسي، ومظاهره المختلفة للأشخاص الذين شاركوا في الاستطلاع.

كانت الأسئلة صريحة، واضحة، بالأسماء العلمية المباشرة. وكانت الأجوبة صريحة كذلك. وكان ذلك كله جديداً. لا تنسوا أن أمريكا كانت بلداً محافظاً حتى وقت قريب من هذه الفترة التي قام فيها كينزي باستطلاعه. وكانت الدعاية الأمريكية تركز على صورة (العائلة الأمريكية السعيدة) كنموذج مثالي صالح للترويج والاقتباس في العالم كله..

.. في العام التالي للبحث، بالتحديد في عام ١٩٤٨ صدرت نتائج بحث كينزي، في كتاب حمل عنوان (السلوك الجنسي عند الذكر البشري (sexual behavior in human male.[١] وهو الكتاب الذي أحدث كل الضجة التي ذكرناها.. ومهد لما عرف لاحقاً بالثورة الجنسية في عقد الستينيات من القرن العشرين.

❀ ❀ ❀

(١) sexual behavior in the human male, by Alfred Kinsey, Wardell Baxter Pomeroy, Clyde E.Martin

أرقام لما يدور تحت الأغطية

بالأرقام المجردة، قال كينزي للأمريكيين إن حقيقة ممارساتهم الجنسية بعيدة تماماً عن القوانين والقيم الأخلاقية التي كانت سائدة آنذاك.

لم يتحدث عن خطأ تلك الممارسات أو صوابها، ولا عن صواب القيم الأخلاقية السائدة أو خطئها.

كان يتحدث عن (**الأمر الواقع**) إحصائياً. كان يتحدث عما يحدث فعلاً، أو على الأقل، **هكذا قدم كينزي أرقامه..**

جاءت أرقام كينزي لتقول إن أكثر من نصف الذكور الأمريكيين يمارسون الجنس خارج الزواج Extramarital، أي إنهم يخونون زوجاتهم.

بالمقابل، فإن ٢٦٪ من الزوجات الأمريكيات، ممن أعمارهن تقل عن الأربعين عاماً قمن بخيانة أزواجهن فعلاً..

وبخصوص الجنس للمرة الأولى، فإن ٦٨٪ من الذكور كانوا قد مارسوه قبل عمر ١٨ عاماً. وتراوحت نسبة ممارسة الجنس قبل الزواج (Premarital sex) بين ٨٥-٩٨٪ من الذكور اعتماداً على الوضع الاجتماعي والاقتصادي. أما بخصوص الإناث، فإن ٥٥٪ منهن، كما تشير الدراسة، قمن فعلاً بالجنس قبل الزواج.

٤٦٪ من الذكور الذين شملتهم الدراسة، كان لديهم تجاوب جنسي مع كلا الجنسين (Bisexual)، ١٠٪ من الذكور في الدراسة كانوا مثليين حصريين فقط.. (أي إن لديهم ميولاً شاذة مثلية فحسب).

أرقام أخرى أفصحت عن وجود ممارسات جنسية (شاذة) (والوصف هذا مني، لأن كينزي كان ضد هذا التوصيف) بين الأزواج. الدراسة

(والكتاب من بعدها) لا يتورع عن ذكر لأي وصف لهذه الممارسات، ولن ألمح إلى أي منها ترفعاً، علماً أنها صارت معروفة (وشبه بدهية!) بسبب سيادة ثقافة البورنو.. المهم أن الدراسة أشارت إلى حدوثها بين الأزواج بنسب مرتفعة على الرغم من كونها محرمة في كل الشرائع السماوية، وبعضها كانت تعد جرائم يعاقب عليها القانون.

من ضمن ذلك، وجود نسبة ٢٢٪ من الذكور تتفاعل مع الممارسات السادية- المازوشية في أثناء الجنس، وتصل في بعض تفاصيل هذه الحالة، إلى أن ٥٠٪ من الذكور يشعرون بالمزيد من اللذة إذا ما تعرضوا للعنف الجسدي في أثناء الجنس!.

وأوضحت الدراسة، إلى أن الجنس مدفوع الثمن، مع البغايا، ليس أمراً نادراً في بلد الحرية والانفتاح. فقد اتضح أن حوالي ٧٠٪ من الذكور، لديهم تجارب جنسية مدفوعة الثمن مع مومسات.

أكثر أرقام كينزي ترويعاً، كانت تلك التي تتحدث عن وتيرة حدوث الرعشة الجنسية القصوى (orgasm) عند أطفال تتراوح أعمارهم بين (٥ شهور- أحد عشر عاماً). فالنماذج التي استخدمها كانت تشمل أطفالاً بهذا العمر فعلاً؛ ٥ شهور، أحد عشر شهراً، سنتان، سنتان ونصف السنة.. إلخ..[١]

أرقام كينزي تشمل أيضاً أن ١٧٪ من ذكور الأرياف قد مارسوا الجنس مع الحيوانات..[٢]

---

(١) Data from Alfred Kinsey's studies

كل الأرقام مستقاة من بحث كينزي نفسه.

http://www.kinseyinstitute.org/research/ak-data.html

(٢) zoophilia Encyclopedia Britannica

http://www.britannica.com/eb/article?tocId=9001423

كان هذا هو الكتاب، الذي تصدر قائمة المبيعات في الولايات المتحدة لسبعة وعشرين أسبوعاً حسب قائمة مجلة التايم.

(قد نقول للوهلة الأولى إن بعض هذه الأرقام منخفض جداً (!)، وإننا نتوقع من الأمريكيين نشاطاً أكبر (!!) لكن في عام ١٩٤٨ لم يكن الأمر كذلك، وكانت هذه الأرقام صدمة لمؤسسات المجتمع الأمريكي..)

قوة الأرقام..

كانت أرقام كينزي موجهة نحو أعراف المجتمع وتقاليده المعلنة. بصورة خاصة كانت موجهة نحو نظرة (المجتمع) نحو ما هو (طبيعي) و(غير طبيعي). وسواء كان مصدر هذه النظرة الاجتماعية دينياً أو أخلاقياً فإن (الطبيعي) هو ما يسود و(غير الطبيعي) هو تلك النسبة الضئيلة المنبوذة اجتماعياً، المهملة إحصائياً، والتي يعاقبها المجتمع بالطرد من جنته..

أرقام كينزي قلبت الطاولة، لم يعد الطبيعي هو السائد، ولم يعد الشاذ هو تلك النسبة المنسية على الهوامش والتي يمكن أن تهمل دون أن تحدث تأثيراً .أصبح الأخير له وزنه الاجتماعي ونسبته المهمة..

بالنسبة إلى كينزي، هذا التوصيف للطبيعي والشاذ مرفوض أساساً. إنه يعلق على الأرقام والبيانات قائلاً: «**الشيء الوحيد غير الطبيعي هو ما لا تستطيع فعله**». **مجرد حدوث هذا الشيء، مجرد حصول (الفعل) يجعله طبيعياً على الفور.**

في واحدة من أشهر تعليقاته، والتي انتشرت لتصير بمنزلة القول المأثور، يقول كينزي: لا يمكن إطلاق وصف (heterosexual) (شخص له ميل نحو الجنس الآخر، أو ما يسميه المتخلفون من أمثالنا بالطبيعي) أو (homosexual) (شخص له ميل نحو الجنس نفسه أو ما نسميه نحن

بالشاذ) على أي شخص بالإطلاق. بل هناك سلوك من هذا القبيل أو ذاك في أي مرحلة عمرية محددة. وقد يكون للشخص في أكثر من مرحلة من عمره، مَيلان مختلفان، أي إن الطبيعة الجنسية للإنسان لا تكون (hetero)، أو (homo) بقدر ما تكون مزدوجة الميل (bisexual)![١].

حسب كينزي، كان هناك ٤٦٪ من الأشخاص يمتلكون هذه الازدواجية في الميل... أقل قليلاً من النصف!.

هل هناك معنى للطبيعي، أو لغير الطبيعي، بعد هذه النسبة؟؟.

لم يعد أصحاب الميول الشاذة منبوذين اجتماعياً، ولم يعد بالإمكان طردهم أو نبذهم من المجتمع..

لقد صاروا هم المجتمع..

.. كان هذا الرقم صادماً جداً، للمجتمع ولأعرافه وأخلاقياته ولمفاهيمه..

الأرقام الأخرى كانت صادمة أيضاً لأخلاقيات المجتمع ودعاماته. فحقيقة أن نصف الأزواج الأمريكيين كانوا يخونون زوجاتهم كانت حقيقة جديدة تماماً. الخيانة طبعاً موجودة في كل مجتمع- ولا أظنها إلا ستكون هناك في المدينة الفاضلة- لكن المسألة هي في نسبة تلك الخيانة، وعندما تصل للخمسين في المئة، فذلك يعني أن هناك رجلاً واحداً من بين كل اثنين متزوجين يخون زوجته بشكل منتظم..

.. وكان ذلك تحريفاً لصورة تلك العائلة الأمريكية السعيدة، الرجل وزوجته جالسان في المقعد الأمامي للسيارة الفارهة، والأطفال في المقعد الخلفي..

---

(١) Kinsey,et al. (1948). Sexual Behavior in the Human Male p639. pp.639. 656.

(.. وكان رقم الخيانة النسوية الموازي، ذو الـ٢٦٪ متمماً لصيغة العلاقة الزوجية على حقيقتها. وكان هذا الرقم يعني أن الأزواج الخائنين لزوجاتهم، لم يكونوا يخونونهن مع عشيقات عازبات أو مع مومسات، بل كانوا يفعلون ذلك مع زوجات لرجال آخرين. (ربما كانوا هم أيضاً يخونون زوجاتهم..).. وهكذا قلبت أرقام كينزي صورة تلك العائلة الأمريكية السعيدة. وحولتها إلى صورة مغايرة لزوج ربما كان يخون زوجته، وربما كانت تخونه في لعبة احتمالات رياضية لا تنتهي.

حقيقة تلك النسب العالية لممارسة الجنس قبل الزواج كانت صادمة أيضاً للمؤسسات الاجتماعية في الفردوس المستعار.. إنها الأربعينيات بعد، ونظرتنا التقليدية عن مجتمع أمريكي متهتك ومنفلت (والمبنية على المجتمع الأمريكي الحالي) لا تنطبق على مجتمع الأربعينيات من القرن العشرين الذي كان لا يزال محافظاً إلى حد بعيد (أو كان يتصور نفسه كذلك).. وكانت الجمعيات الشبابية الكشفية والرياضية، المنبثقة من الكنائس، خصوصاً الإنجيلية منها، منتشرة جداً بين أوساط الشباب الأمريكي، وكانت لا تزال تروج لقيم التطهر والعفة..

كينزي قال لتلك الجمعيات، أو لتلك القيم التي تروج لها، إن كل ما تفعله لا يعدو أن يكون عملية غير ذات جدوى من الناحية الإحصائية، وأن ٦٨٪ من الذكور، كانوا قد مارسوا الجنس فعلاً، حتى قبل أن يكملوا دراستهم الثانوية..

.. وكان ذلك كله صادماً.

وعندما أقول إنه كان صادماً، لا أعني أن الأمريكيين شعروا بالحاجة لتغيير سلوكهم الذي أحصاه كينزي ووضعه في جداول وبيانات وأرقام..

لا.. لن يحدث هذا في الفردوس المستعار.

الصدمة التي أتحدث عنها كانت ستؤدي إلى تغيير الأعراف، تغير المعيار الذي يتم من خلاله توصيف السلوك.

كانت ستؤدي إلى تغيير القيم الأخلاقية المعلنة..

.. وليس إلى تغيير السلوك.

ولم يكن ليحدث هذا إلا في الفردوس المستعار (أو أي مكان يغزوه ويسيطر عليه فكر هذا الفردوس..)

ماذا لو حدث هذا في مكان آخر وزمان آخر؟

قلت سابقاً: إن الفساد الخلقي وانتشار الرذيلة بشتى أنواعها كان على الدوام مصاحباً لانهيار الحضارات، في كل العصور وكل الأماكن..

لا تختلف في ذلك أي حضارة، بغض النظر عن مصادر قيمها وتشريعاتها والأسماء التي تنطوي تحتها..

مع ذلك، فإن (رد الفعل) الذي سيحدث تجاه نشر إحصاء لنسب الرذيلة في أي مجتمع آخر، كان سيكون مختلفاً جداً عن ذلك الذي حدث في الفردوس المستعار.

فلو حصل أن كان هناك (كينزي) ما، في بغداد أواخر العصر العباسي، أو لندن العصور الوسطى، ونشر إحصاء يواجه الناس بحقيقة ما يفعلونه، ونسب ما يفعلونه، لكان رد فعل الناس تجاه هذا الإحصاء مختلفاً، وكانت الصدمة التي ستحدث مختلفة جداً وكانت ستؤدي إلى تغيير سلوك الناس، إلى استغفارهم، إلى توبتهم، كان هذا الإحصاء سيحدث رد فعل عكسياً وكانوا سيفسرون الأرقام أنها اقتراب الساعة، ونهاية الزمان، والسفينة الغارقة..

..(ولو حدث إحصاء مماثل، في بغداد في العصر العباسي، أو لندن

العصور الوسطى، بعد مرور عامين من الإحصاء الأول، لوجدنا انخفاضاً في معدلات الرذيلة ونسبتها..).

ذلك أن الإحصاء كان سيكون (عبرة) و(موعظة) تواجه الناس بحقائقهم، في ظل وجود مصدر ثابت للقيم والأخلاقيات والسلوك.

.. ذلك الإحصاء كان سيحدث تغييراً في السلوك، إذ إن مصدر القيم والأخلاق كان ثابتاً..وكان واضحاً.

كان مفهوم الخطأ والصواب، الحلال والحرام، واضحاً تماماً.

الإحصاءات والفردية وكونك مصدراً وحيداً للتشريع

(خطيئة الجميع ليست خطيئة على الإطلاق، التوقيع: كينزي)

مع الفردوس المستعار الأمر مختلف، فمصدر القيم ليس ثابتاً، ليس واضحاً كما كان الأمر في أي حضارة ومجتمع آخر. لقد صارت القيم تنبع من (الفرد) نفسه، مما يريده ولا يريده، صار الصواب والخطأ والحلال والحرام ينبع من ذلك المبدأ الذي كان أساسياً في نشوء الفردوس المستعار، والذي كما هي تداخل في كل تفصيل لاحق من تفاصيل البناء..

إنها الفردية، والمجتمع مكون من مجموعة أفراد، وقيم المجتمع تنبع مما يريده هؤلاء الأفراد.. من غالبيتهم تحديداً..

إنها الفردية تتمثل لتصير مصدراً وحيداً للتشريع القانوني والاجتماعي **(قد يسميها بعضهم ديمقراطية) (وقد يسميها آخرون بالرأي العام) (وقد يسميها آخرون أي شيء آخر..)**

لكنها الفردية، وقد نصبت كل فرد مشرعاً لنفسه، وستأخذ في النهاية ما يريده أكبر عدد من الأفراد يكون حكماً تصدره، دون أن يكون قاطعاً

أو نهائياً أو ثابتاً، فالأمر متروك للفرد (..للأفراد..) وهؤلاء يمكن لهم دائماً أن يغيروا ما يريدون.. حسبما يريدون..

إنها الفردية، قد تتمثل في استطلاعات تمثل اتجاهات الرأي العام، وقد تتمثل في سلوك إباحي فردي، أو في حرية شخصية في حدودها القصوى..

لكنها - الفردية - بوصفها عقداً اجتماعياً ينظم العلاقة بين الأفراد ويؤسس لمجتمع كامل قائم على هذا الأساس.

كانت أرقام كينزي صدمةً من أجل مراجعة لقيم السلوك التي تصور الأمريكيون أنهم لا يزالون يحتفظون بها. فجأة اتضح أن ثوب الماضي لم يعد يتسع لسلوك الحاضر، فكان لابد أن يتمزق، تتكشف حقيقة السلوك، والحاجة لثوب من القيم والأعراف الجديدة.

ببساطة كانت أرقام كينزي، تقول ما قاله هو بصراحة: «خطيئة الجميع ليست خطيئة».

Every body's sin is nobody's sin[١].

لم يعد الجنس بشتى ممارساته (عيباً) حسب القيم والأعراف الجديدة.. مادام الجميع يفعلونه..

منطقي جداً.

حسب مفهوم الفردية، وما تؤدي إليه..

(١) Doctor Sex,ph.D.
Are we all Kinseyans now?
Julian Sanchez
http://www.reason.com/0502/cr.js.doctor.shtml

(.. ويمكن لنا هنا أن نرصد أهمية استطلاعات الرأي في الدول الغربية، والولايات المتحدة خصوصاً، كل شيء هناك يكسب شرعيته من استطلاعات الرأي التي تقوم بها غالباً وسائل الإعلام ومراكز البحوث، وتشمل كل شيء ابتداءً من شن الحروب إلى تعديل قوانين الضمان، إلى زواج المثليين، إلى إباحة الإجهاض.. وهي استطلاعات تكون حساسة للتغيير من فترة لأخرى، وتحدث تأثيراً مزدوجاً على مراكز القرار، وعلى الرأي العام أيضاً..

كل شيء مباح، مهما بدا مخالفاً لقيم الأخلاق (التقليدية) ما دام يستمد شرعيته من سلطة الاستطلاع والرأي العام والأغلبية..

ماذا تريد منهم الآن؟

إنهم أحرار فيما يريدون، وهم يعرفون مصلحتهم.

هذه هي الديمقراطية!.

(..وما دامت السلعة الرائجة التي يتحدث عنها الجميع اليوم هي (الديمقراطية)- سبحوا لمجدها الآتي ولو على ركام قيمنا وجثث أطفالنا- فعلينا أن ننتبه لهذا الجانب منها، الذي يقدس الاستطلاعات والرأي العام ويعيد تشكيل القيم والمفاهيم من خلال: إن كذا ٪ من المشاركين في الاستطلاع يفضلون..)..

إنها سطوة الأرقام، تسيطر من دون أن نشعر على القيم والمفاهيم، وتقرب إلى العقول ما كان يبدو بعيداً ومرفوضاً..

لست بصدد الدفاع عن الحكم الاستبدادي والرأي الواحد، فليس هناك ما هو أكثر إشاعة للفساد منه، لكن تنصيب كل فرد مشرعاً لنفسه، ومن ثم الاحتكام إلى غالبية (الأفراد) هو أمر خطير جداً، خصوصاً في غياب مصدر ثابت وواضح للقيم والأخلاقيات.

..وعلينا أن ننتبه هنا إلى هذا، فهو يحدث عندنا أيضاً؛ أن يتسرب إلينا وإلى مفاهيمنا هذا الاحتكام لرأي الجمهور دون وجود ضوابط واضحة.. ولن يقف الأمر عند حد معين نتوهم أنه لن يتم تجاوزه، فالإحصاء لعبة خطرة، والاحتكام إلى (الرأي العام) و(الغالبية) يمكن أن يكون إيجابياً لفترة، وسلبياً لفترات، مثال ذلك أننا نسمع من يروج الآن، كيف أن الإسلام هو الخيار الذي تريده الجماهير، أو كيف أن الغالبية العظمى من فتيات الجامعات هن محجبات.. حسناً جداً، هو كذلك، لكن ماذا لو كان الأمر غير ذلك؟ هل سنترك الإسلام لو أن الاستطلاعات جاءت بخيار آخر من تلك التي يروجون لها؟.. هل سيكف الحجاب عن كونه فريضة، لو أن نسبة ارتدائه انحسرت؟.

قواعد اللعبة ستجعل منا ملزمين بالقبول بذلك. وإلا فالأجدر أن نضع ضوابط قبل المشاركة.. وقبل الترويج للعبة الأرقام..)

نموذج كينزي

النموذج الذي تستخرجه نتائج كينزي-والذي عرف لاحقاً (بنموذج كينزي)-هو نموذج يَعُدّ اللذة (orgasm) هي ذاتها سواء حصلت من جراء اتصال رجل مع زوجته، أو مع رجل آخر، أو مع طفل صغير، أو حتى مع حيوان، كينزي يقول إنه لم يجد فرقاً بين كل ذلك، واللذة هي ذاتها في كل اتصال. تشير نتائج كينزي أنه كلما بدأ المرء ممارسة الجنس مبكراً، ازدادت احتمالية أن تكون علاقته الزوجية أكثر استقراراً، وكان هو (صحياً) أكثر معافاة.

نموذج كينزي يرى أن الإنسان، هو مزدوج الميول الجنسية، وأن المزاعم الدينية(!) تقسره نحو العفة، أو الميل الواحد نحو الجنس الآخر، أو العلاقة الأحادية monogamy.

أخيراً، يشير نموذج كينزي إلى أن الأطفال يمكن لهم أن يحصلوا على اللذة الجنسية دون أن يحدث ذلك أي أذى لهم من أي نوع، حتى لو حدث من زنا المحارم أو من أقارب أكبر منهم. الإنسان، حسب كينزي، هو كائن جنسي orgasmic من المهد إلى اللحد، وهذه حقيقة حسب إحصاءات كينزي، في مجتمع الرأي العام والأغلبية(١)..

❁ ❁ ❁

كانت تلك هي القنبلة التي فجرها كينزي عام ١٩٤٨.

..وكما استخدمت أمريكا علم الذرة وفيزياءها في تلك القنبلة الذرية التي فجرتها عام ١٩٤٥ على اليابان، فقد استخدمت أيضاً علم الإحصاء (Statistics) في تفجير القنبلة الجنسية..

وإذا كانت القنبلة الأولى قد سقطت على اليابان فحسب، فإن الثانية قد سقطت على عموم طول الولايات المتحدة وعرضها، انتشرت تأثيراتها إلى كل العالم..

تزوير في نتائج الانتخابات، يكشف بعد فوات الأوان

(اتضح لاحقاً، ولكن بعد فوات الأوان، وبعدما عوملت أرقام كينزي على أنها حقائق علمية، اتضح أن كينزي كان منحازاً في بحثه، وأنه تعمد أن تكون عينته ستؤدي بنتائج كالتي وصل إليها، فحوالي (٣٠٠٠) شخص من أصل الـ(١٦,٠٠٠) الذين قابلهم، كانوا من المساجين- في أثناء قضائهم فترة السجن- ومعظمهم كان قد حكم عليه بسبب جنايات جنسية.

(١) (pp Kinsey: crimes & consequences Excerpt from Chapter7 of Judith Ries-man's 170,171) The Institute for Media Education, Crestwood,KY 1998-2000.

إضافة إلى انتشار ممارسة اللواط بين المساجين بصورة عامة. وكان لابد أن اختياراً كهذا سيؤثر في نتائج البحث، وكان كينزي يعرف ذلك بالتأكيد..[١]

ولم يكن تحيزه هذا دونما دوافع شخصية، فقد اتضح أن كينزي كان شاذاً ومثلياً، وكان يمارس الجنس بصورة روتينية مع أعضاء شاذين من فريق بحثه[٢].

واتضح لاحقاً أنه تعمد انتقاء المومسات في بحثه التالي عن السلوك الجنسي لدى المرأة، والذي نشره عام ١٩٥٣..

الأخطر من كل هذا، أنه أشرف على تدريب، وربما موّل، عمليات اعتداء جنسي على الأطفال، بزعم أنه يقوم بمراقبة ردود أفعالهم، من أجل أبحاثه العتيدة[٣]..

هذا هو كينزي، هل كان يمكن لنتائجه أن تكون إلا كما كان هو، مريضة ومقرفة ومليئة بالانحرافات؟ لقد عُدّ لاحقاً أنه (نموذج للتحيز) في البحوث العلمية، وصار كتابه يعد مثالاً على الدرجة التي يمكن فيها للميول الشخصية أن تتدخل في عمل الباحث ونزاهته[٤]. إنه كينزي، الذي احتفلت به (هوليوود) عام ٢٠٠٤ وقدمته في فيلم سينمائي يحمل اسمه..

---

(١) FRAUD OF THE CENTURY?
j.Gordon muir and john H. court/may1992 edition of catholic medical quarterly
http://www.catholicdoctors.org.uk/CMQ/May_1992/KINSEY_sex_freud.htm

(٢) the kinsay Report: Modeling a Frankenstein Man
Copyright © p.Meehan March,2002. All rights reserved

(٣) Kinsey: Science of Crime By Elizabeth Wright Reprinted from Issues & Views, Winter 1999

(٤) Kinsey and the Homosexual Revolution by Judith Reismann

طبعاً لا شيء عن انحرافاته وتحريفاته، وإنما عومل كبطل حرر المجتمع الأمريكي من عقده وأوهامه..

هل يمكن (لهوليوود) إلا أن تفعل ذلك؟.

هل كان يمكن لحضارة الفردوس المستعار إلا أن تكون شاكرة لكينزي؟.)

بعض هذه الحقائق، التي كشفت انحياز كينزي وانحرافاته، وحتى جرائمه، أميط اللثام عنها بعد نحو خمسين عاماً من صدور البحث..

كان الوقت قد فات من أجل أي تصحيح، وصارت أرقام كينزي التي ربما كانت منحازة وكاذبة في الأربعينيات، صارت تبدو محافظة جداً بمفاهيم التسعينيات..

لقد عوملت تلك الأرقام على أنها حقائق، وعملت آلية الدفع المتبادل بين صورة الرأي العام والفردية على تكريس تلك الأرقام وزيادتها.. وتحول ما كان كذباً ومغالطة إلى حقيقة لا مجال للتشكيك فيها..

كانت أرقام كينزي بمنزلة تصويت (ديمقراطي) لمصلحة الجنس قبل الزواج، والجنس خارج الزواج، والجنس خارج إطار أي شرعية أخلاقية..

ولأنه مجتمع ديمقراطي كما تعلمون، فقد تبوأت هذه المفاهيم سدة الرئاسة بالتصويت، واعتنقها الناس لأنها فازت بالأغلبية..

ماذا سيحدث لو اكتشف بعد خمسين عاماً أن هذا التصويت كان مزوراً؟. لقد انتصرت تلك المفاهيم وانتهى الأمر، لم يعد هناك مجال للعودة بالزمن والتصحيح..

ماذا لو كشف اليوم مثلاً أن أبراهام لنكولن فاز عبر التزوير؟ ماذا يمكن عمله، وقد أصبح شخصية مركزية في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.. وطبع ببصمته تاريخها ودستورها وتاريخها الاتحادي؟

كذلك الأمر مع كينزي وأرقامه التي روجت للإباحية والجنس خارج الشرعية. حتى لو كان كينزي قد (زور) فيها **فقد انتصرت أرقامه وانتهى الأمر**.. ولم يعد بالإمكان فعل شيء حيال ذلك.

وهذه أيضاً ديمقراطية، لو كنتم تعلمون..

أرقام كينزي تتحول إلى صور صقيلة

لم تكد تمضي خمس سنوات، وبالضبط في السنة نفسها التي أصدر فيها كينزي وفريقه الكتاب الثاني المتمم للأول بعنوان (السلوك الجنسي لدى أنثى الإنسان) حتى صدر في الولايات المتحدة العدد الأول من مجلة صقيلة ستتصدر بسرعة واجهات بيع الصحف والمجلات، إنها البلاي بوي playboy، التي أصدرها في تلك السنة هيو هينفر Hugh Hefner[١]، والتي عبرت بالصور الحية اللامعة ما عبر عنه كينزي بالبيانات والأرقام الجامدة.

اعترف هيفنر أن كينزي أوحى له بالنجاح الذي سيحققه لو أصدر مجلة كهذه[٢]، وكان نجاح هذه المجلة المدوي، والجدل الذي أثاره نشر تلك الصور العارية، حلقة أخرى متممة لسلسلة فرويد وكينزي في تعبيد الطريق نحو الثورة الجنسية الظافرة.

(١) Hugh Hefner wikipedia the free encyclopedia

(٢) Hugh Hefner and the Playboy Lifestyle By Steve Gallagher
http://www.purelifeministries.org/Unchained/02-Feb_Files/Articles/0220-playboy_lifestyle.htm

شهد عقد الخمسينيات فيما بعد صدور مجلات أخرى نافست البلاي بوي في المزيد من الإباحية والخلاعة، ربما كانت حوافز صدورها مادية بحتة، مجرد المزيد من الربح، لكن دلالات صدورها وانتشارها كانت أعمق من ذلك. فبينما كانت تروج وتحقق الربح، كانت تنتشر معها مفردات تلك الثورة الجنسية، كانت تروج للثورة على كل الأعراف، والسلوكيات التقليدية، كانت تدخل تلك الصور بكل التفاصيل الدقيقة إلى رؤوس الناس وخيالاتهم ورؤاهم..

تشكل فكرتهم عن (اللذة) و(المتعة) التي ستحقق لو أنهم جربوا القفز إلى داخل تلك الصور، أو بتحويل حياتهم إلى شيء مشابه لها..

عام ١٩٦٠، أجازت منظمة الغذاء والدواء FDA دواءً سيكون له أثر حاسم؛ إنه حبة منع الحمل[١] التي ستسهل على الإناث الانخراط في حمى ذلك التحرر المتفلت من أي مسؤولية أو عواقب.. بعكس كل وسائل منع الحمل الأخرى، كانت (الحبة) سهلة ورخيصة، وكل ما تحتاجه الأنثى هو أن (لا تنسى)..

Masters and Johnson قاما ببحث بعنوان human sexual responses في عام ١٩٦٦ وخرج البحث بنتيجة أن المرأة تستثار مثل الرجل، تمر بمراحل الإثارة نفسها التي يمر بها وتميل أيضاً للاستمتاع بالعلاقات العابرة بعكس النظرة (المتخلفة) التي تتصور هذا الشرف حكراً على الرجل[٢].

عام ١٩٦٨، أصدرت المحكمة الفيدرالية الأمريكية قراراً يجيز تصوير

---

(١) the American experience the pill- people and events
http://www.pbs.org/wgbh/amex/pill/peopleevents/e_fda.html

(٢) masters and Johnson wikipedia the free encyclopedia

الأفلام الإباحية ١٠٠٪ (hardcore) على أساس أنها نوع من أنواع (حرية التعبير)[١].

وفي عام١٩٧٣، أسقطت جمعية الأطباء النفسانيين الأمريكية (American Psychiatric Association) الشذوذ الجنسي من قائمة أمراضها[٢].. لم يعد هناك داع لأن يبحث الشاذ عن علاج لشذوذه..ذلك أنه لم يعد شاذاً بعد تلك السنة..

صار الشاذ طبيعياً حسب تلك القائمة..

خلال تلك الفترة، وعلى الأخص في عقدي الستينيات والسبعينيات، انتشر مفهوم يفصل الجنس عن أي عاطفة حقيقية بين ممارسيه، إنه مفهوم (الجنس النقي)[٣] Pure sex بمعزل عن الحب أو المشاعر، أو حتى الصداقة والمعرفة المسبقة بين الشخصين اللذين بصدد الممارسة.

العصر الهيبي والحب الحر، وعشرات الكتب والأكاديميين وهم يفلسفون وينظرون، وتأخذهم ما يشبه النشوة الصوفية وهم يمتدحون الجنس للجنس، وانتشرت، حتى في الأوساط الأكاديمية، مفاهيم مثل مفهوم الزواج المفتوح، حيث يمارس الزوجان، كلٌّ على حدة، العلاقات الجنسية كما يشتهي كل منهما.. مع من شاءا من شركاء.

الوقاية خيرٌ من.... العفة!

(.. لابد من الإشارة هنا، أن عقد الثمانينيات من القرن العشرين، شهد انحساراً (ولو طفيفاً) في تنوع الفعاليات الجنسية وكثرة عدد الشركاء

---

(١) pornography wikipedia the free encyclopedia

(٢) homosexuality and psychology wikipedia the free encyclopedia

(٣) pure Sex by Tony Payne and phillip D Jensen, published by Mathias Media 1998

الجنسيين[١]. وذلك بسبب انتشار مرض الإيدز، والخوف من انتقال العدوى عبر العلاقة الجنسية. لكل هذا الانحسار كان عابراً، فالعقلية وطريقة التفكير التي شكلتها حضارة الفردوس المستعار تجد الحلول الوقائية المنحصرة في بعدها الزماني والمكاني فقط، وتستثني الحاسة التاريخية، ولذلك تجدها تفكر في وقاية عابرة ودقيقة تتلخص في المانع المطاطي، وتبتعد عن تجفيف المشكلة من منبعها الأساسي، بالضبط كما فعلت في مشكلة إدمان التسوق، وظاهرة التسوق القسري، حيث ابتدعت عقاراً لتخفيف الحالة..

.. وهكذا ركزت دورات التثقيف الجنسي والمناهج التعليمية الموجهة للمراهقين على الوقاية من الإيدز، لا بالعفة فذلك أمر غير مطروح، ولا حتى باختيار شريك واحد فذلك أمر عفا عليه الزمن، وإنما بالمانع المطاطي الذي ينصح الذكور بأخذه معهم أينما ذهبوا، تفادياً لأي حادث جنس عرضي لم يكن بالحسبان[٢]!.

وهكذا انتهى الجزر الجنسي في الثمانينيات، بمد جنسي أكثر عتواً في التسعينيات، وتفننت مؤسسات المتعة في استغلال الضيف الجديد الذي دخل الحلبة ليقي من انتقال الأمراض، فصارت هناك أنواع معينة تزيد من الشعور بالإثارة والمتعة، فهذا ما يهم و(الآن وهنا)، وكل ما عدا هذا المثلث لا يعدو أن يكون سفسطة..).

---

(١) Understanding Changes in Sexual Activity Among Young Metropolitan Men:1979-1995 By Leighton Ku,Freya L.Sonenstein, Laura D. Lindberg,-Carolyn H.Bradner, Scott Boggess and Joseph H.Pleck family planning perspectives Volume 30.No6. November/December1998

(٢) Increased Condom Use Among Teenage Males,1988-1995: The Role of Attitudes By joseph J. Murphy and Scott Boggess family planning perspectives volume30,No.6 November/December1998

فلا شك هنا أن كل تلك الأسماء التي عبدت الدرب نحو الثورة الجنسية من فرويد وبيرنيز وكينزي وهفنر وسواهم، كل هؤلاء لم يكونوا مهمين بأشخاصهم بقدر ما كان دورهم تحصيلاً حاصلاً..

إن مفهوم (المتعة-الآن-وهنا).. كان لابد أن يكون نهاية المطاف بالنسبة إلى الفردوس المستعار. كان ذلك هو الضلع الناقص الذي لا بد أن يتشكل رغماً عن كل طهرانية الآباء المؤسسين للأمة الأمريكية.. كانت تلك هي الجنة التي وعد بها المؤمنون بالفردوس المستعار.. المتعة. الآن، وهنا..

فما حقيقة المشهد الجنسي الحالي في الفردوس المستعار؟

ما هي أرقامه وبياناته، وإحصائياته بعيداً عن عقد كينزي السرية وتحيزاته؟ (ليس بعيداً جداً في الحقيقة، إذ ساهمت أرقامه المتحيزة في تكوين رأي عام، ومناخ إعلامي سهل خلق فرانكشتاين جنسي..).

الجنس الآن وهنا..

في ذلك الفردوس المستعار الذي يعده مئات الملايين أرض أحلامهم، وأقصى أهدافهم، هناك نسب مهولة.. ومرعبة..

في استطلاع[1] قامت به محطة ABC الإخبارية في مطلع الألفية كانت هناك الأرقام الآتية:

٤٢٪ من الأمريكيين، يصفون أنفسهم بأنهم مغامرون جنسيون Sexually adventurers أي إنهم يميلون إلى المغامرة في اختيار الشريك الجديد والأساليب الجديدة (أي التي قد نراها نحن شاذة)..

---

(١) primetime live poll: American Sex Survey A peek Beneath the Sheets Analysis By GARY LANGER, with CHERYL ARNEDT and DALIA SUSSMAN

٣٠٪ من الرجال في أرض الأحلام والتحرر دفعوا نقوداً من أجل الجنس.

١٤٪ من الجميع شاركوا في جنس ثلاثي (زنا يتقاسم إثمه ثلاثة: رجلان وامرأة أو امرأتان ورجل).

٤٢٪ من الرجال يقولون إنهم حصلوا على جنس في أول لقاء (first date sex).. أي إنهما تعارفا ومن ثم ذهبا لممارسة الجنس (أفكر هنا بحزن، إن القطط والكلاب تناور أكثر في مواسم تكاثرها.).

٤٥,٦٪ من كل طلاب الثانوية (الذين تبدأ أعمارهم من الثالثة عشرة) مارسوا الجنس.

٦١,٥٪ من الطلاب في الصفوف المنتهية (فعلوها) و ٢٥,٦٪ منهم استعملوا العقاقير، في أثناء ذلك..

٢٠٪ من الطلاب مارسوا الجنس قبل أن يتموا الخامسة عشرة..

٤٠٪ ممن هم دون الـ١٧ كان لديهم بين (٢-٥) شركاء جنسيين و٧٪ كان لديهم (٦-٩) شركاء..

في استطلاع آخر[١]، شمل المراهقين وصغار السن ونشاطاتهم الجنسية - استمر لثلاثة أشهر - ١٥٪ من الإناث المشاركات في الاستطلاع كان لديهن شريكان أو أكثر خلال فترة الاستطلاع فقط مقارنة بـ ٣٥٪ من الذكور..

---

(١) Multiple Sexual Partners Among U.S. Adolescents And Young Adults By John S.Santelli, Nancy D. Brener.Richard Lowry, Amita Bhatt and Laurie S. Zabin, family perspective planning Volume30, No6, November/December1998

أهم ما حدث من تغيرات تلت كينزي هو ردم الفجوة التي كانت موجودة بين أرقام الإناث والذكور، فقد كان الذكور (حسب كينزي) أكثر نشاطاً من الإناث. وقد عمل إحصاء كينزي ومؤسسات الفردوس المستعار وناشطات الحركة النسوية على إزالة هذا العار الذي لحق بالمرأة.. شيئاً فشيئاً ردمت الفجوة وقللت الهوة بين الجنسين، وصار تشابه أرقام الإناث بالذكور ظاهرة إحصائية مميزة لعقدي الثمانينيات والتسعينيات.. (أتساءل هنا إن كانت هذه (المساواة) هي من ضمن ما يريده دعاة الليبرالية والديمقراطية).

إحصائياً، شهدت إناث الجيل الذي ولد بين عامي (١٩٦٣-١٩٧٢) نشاطاً جنسياً مبكراً أكثر، وشركاء جنسيين أكثر.. من الجيل الذي ولد قبله (بين عامي ١٩٥٣-١٩٦٢).. وأكثر بكثير من الجيل الذي قبله (١٩٥٢-١٩٤٣)..

بالنسبة إلى العذرية، فإن معدل فقدانها بالنسبة إلى هذا الجيل (أي الذي راهق في أواسط السبعينيات وأوائل الثمانينيات) هو ١٧,٥ عاماً، مقارنة بـ١٨ عاماً للجيل الذي ولد قبله بعشر سنوات، و١٩ عاماً لجيل الأمهات..

في الوقت نفسه، فإن ٩٨٪ من إناث هذا الجيل المتزوجات مارسن الجنس خارج نطاق الزواج، مقارنة بـ٦٩٪ من إناث الجيل الذي سبق..

الفرق بين عدد الشركاء كذلك لم يعد كما كان بين الإناث والذكور. جيل الإناث الذي ولد بين (١٩٦٣-١٩٧٢) كان لديه ضعف الشركاء الجنسيين الذي حصل عليه الجيل السابق (١٩٥٣-١٩٦٢) وستة أضعاف الجيل الأسبق (١٩٤٣-١٩٥٢)!!

وفي الفترة الجامعية، حصلت المرأة على ٥ شركاء جنسيين متخلفة

بمعدل نسبي عن الرجل الجامعي الذي حصل على معدل ٧,٢ من الشريكات الجنسيات[١]..

وفي استطلاع أعده موقع ومجلة المذيعة أوبرا وينفري عن الجنس العابر casual sex، فإن ٧٤٪ من النسوة الأمريكيات المشاركات في الاستطلاع قد مارسن هذا النوع، ١٩٪ منهم يزرن الحانات لهذا الغرض، و٢٥٪ منهم يقلن إنهن فقدن عذريتهن بهذه الطريقة[٢]..

وفي إحصاء آخر فإن ٨٥٪ من الذكور و ٧٧٪ من الإناث كانوا قد مارسوا الجنس قبل أن يصلوا للسن الجامعي[٣]...

في دراسة أخرى وصلت نسبة المنغمسين في سلوك سادي- مازوشي إلى ١٤٪ من الذكور و١١٪ من الإناث[٤]...

وفي استطلاع واسع[٥] شمل نحو ٦٤,٠٠٠ ألف شخص، ١٦,١٪ منهم فقد العذرية بواسطة جنس عرضي (casual sex)، أي عبر لقاء عابر مع شخص دون أن تكون هناك عاطفة مسبقة أو علاقة ممهدة، ٢٪ من كل هؤلاء فقدن عذريتهن باعتداء جنسي، و٢٪ آخرين عبر (زنا

---

(١) Her Way : Young Women Remake the Sexual Revolution A STATISTICAL PORTRAIT OF A GENERATION PAULA KAMN by From HER Way

(٢) MR. RIGHT VS. MR. RIGHT NOW
http://www.oprah.com/health/omag/health_omag_2004, 10_casualsex.jhtml

(٣) National Center for Health Statistics.1995, National Survey of Adolescent Males
www.dgi-usa.org/pubs/fb-teen-Sex.html#sa

(٤) Janus S., and Janus, C. The Janus Report on Sexual Behavior.1993.New York:John Wiley &Sons

(٥) sex survey http://www.survey.net/index.html

محارم)، وفي الاستطلاع نفسه هناك حوالي ١٢٪ من أصحاب الميل المزدوج (الشاذ والطبيعي)، ٤٪ شواذ حصرياً.

.. من بين المشاركات، هناك ١٣,٥٪ لديهن شريك واحد فقط، مقابل ١٩,٨٪ لديهن ما بين خمسة شركاء جنسيين وعشرة، ٦٪ لديهن أكثر من خمسين شريكاً. وهناك أكثر من ٥٠٠ شريك جنسي، علماً أن (التعداد) يصبح صعباً بعد رقم أربعين.. (كما تعلق واحدة من المستطلعات!!).

وعموماً فإن المعدل العام للشركاء الجنسيين حسب إحصائية ABC هو (١٣) شريكاً جنسياً للفرد الواحد. وكما تعلق واحدة من المشاركات في الاستطلاع، عن معدل عدد الشركاء لامرأة في الثلاثين (إنه أقل من مادونا وأكثر من الليدي ديانا!!)[(١)].

مع هذه الوفرة في عدد الشركاء الجنسيين، التي تبلغ حد التخمة، أو حتى تبلغ حدود المشاع الجنسي، نتوقع أن كل فرد من أفراد الفردوس المستعار قد أخذ (حقه) وزيادة... وأن لا أحد هناك.. لا يحصل على مبتغاه، إلا بسهولة ويسر..

❁ ❁ ❁

(١) هناك ملاحظتان لابد من الإشارة إليهما إنصافاً عند مقارنة الاستطلاعات الحديثة بأرقام كينزي. الملاحظة الأولى هي هبوط نسب الشاذين جنسياً (الحصريين) عن إحصاءات كينزي، وهبوطها إلى أرقام تتراوح بين الـ ٤-٧٪. والثانية هي هبوط معدلات الخيانة الزوجية عن الأرقام التي ذكرها كينزي. والتفسير المتعلق بالملاحظة الأولى هو أن كينزي - بدافع من ميوله الشخصية- قد تحيز في نتائجه، نسب الممارسات الشاذة ومزدوجي الميول قد ازدادت على أي حال، في الاستطلاعات الحديثة. أما بالنسبة إلى الخيانة الزوجية وانخفاض نسبتها فذلك يعود إلى انهيار مؤسسة الزواج أصلاً وارتفاع نسب الطلاق. أي إن نسب الخيانة انخفضت في زيجات صمدت أصلاً بوجه الانهيار والطلاق وهذا طبيعي جداً ومتوقع.

اغتصاب في الفردوس؟

مع ذلك، أو بسبب ذلك، فإن في هذا الفردوس المستعار أعلى نسبة اغتصاب رسمية في العالم بين كل الدول التي تجري فيها مثل هذه الإحصاءات (٤مرات أكثر من ألمانية، ١٣ مرة أكثر من إنكلترة، و٢٠ مرة أكثر من اليابان.).

في هذا الفردوس المستعار، حيث مفهوم (المتعة- الآن وهنا) يمتزج مع الفردية التي تجعل كل فرد جزيرة منعزلة ومحوراً للكون في الوقت نفسه، هناك في كل دقيقة ١,٣امرأة تغتصب. أي ٧٨ حالة اغتصاب كل ساعة. ١٨٧٢ كل يوم، ٥٦١٦٠ كل شهر، ٦٧٣,٢٨٠,٢٠٠ حالة اغتصاب كل سنة..

هناك واحدة من كل ثلاث نساء أمريكيات معرضة لاعتداء جنسي خلال حياتها.. ومن كل أربع فتيات جامعيات هناك واحدة تعرضت لاغتصاب أو لمحاولة اغتصاب[١]..

حسب مكتب التحقيقات الفيدرالية، فإن ٣٧٪ فقط من الحالات ترفع إلى الشرطة، وتمضي الحالات الأخرى بلا شكوى خوفاً من المزيد من الاعتداء الانتقامي، وهذا يعني أن الأرقام الحقيقية هي أكثر بكثير[٢]..

(لا أملك إلا أن أتساءل هنا، وأوضاع المرأة في الفردوس المستعار على هذه الحالة.. لم لا يهتمون بأمرهم ويتركون نساءنا يصلحن أمورهن بأنفسهن؟).

كل هذا، وأكثر.. وهناك المزيد..

❁ ❁ ❁

(١) rape statistics http://oak.cats.ohiou.edu/~ad361896/anne/cease/rapestatisticspage.html

(٢) American rape statistics http://www.paralumun.com/issuesrapestats.htm

هناك نسب وأرقام تصف حالات من الشذوذ الجنسي أجد نفسي عاجزاً عن ذكرها..، حالات تفوق القدرة على الوصف، هي بنسب مئوية بأرقام صحيحة، أي إنها ليست كسوراً عشرية، بل أرقام صحيحة، قليلة غالباً، لكنها مخيفة..

هناك جنس مع حيوانات- كلاب غالباً- (وهو أمر أتمنى ألا تكون له دلالاته إذا ربطناه بولع الغربيين بتربية الكلاب..).

وهناك جنس مع الأطفال ..pedophilia بنسب لن أذكرها لكنها ليست قليلة، وزنا محارم يشمل أكثر من العم والخال بل يمتد إلى الأخ ٢٪، الأخت١٪ حتى الجد١٪..

وهناك شيء مروع ومرعب، وكلمة قرف أو تقزز قليلة بحقه، شيء اسمه necrophilia، وهو ممارسة الجنس مع.. الموتى، أغالب حاجتي للتقيؤ، وأقول إن بعض الإحصاءات تشير إلى وجود نسبة ١٪ من المستطلعين، قد ذكر أنه قام بهذا الفعل الشنيع.

لا أعرف كيف، ولا أريد أن أعرف كيف، وكل ما أريده هو أن أغالب رغبتي الملحة في التقيؤ..

آخر عذراء في أمريكا..

وتذكرني هذه النسبة الفظيعة، بنسبة واحد في المئة أخرى، هي نسبة عذراوات أمريكا اللواتي تجاوزن الثلاثين من أعمارهن.

نعم، توجد عذراء وعمرها تجاوز الثلاثين في أمريكا..

ونسبة وجودها مثل نسبة هذه الـ necrophilia الفظيعة...

واحد في المئة!

غشاء البكارة؟ لم لا؟

سيقولون، اظهر على حقيقتك، بعد كل اللف والدوران، ها أنت ذا مثل كل الآخرين، تعيِّر الغربيين بما تعده أنت عاراً، وتترك كل محاسن حضارتهم وتركز على مثلبة واحدة: الجنس!، بل إنك تركز على ما تعده أنت مثلبة، وفق مفاهيمك المرتكزة على المنظومة الدينية.. أما هم، فهم سعداء بهذا ولا يبدون منزعجين لما يدور عندهم..

كلكم هكذا - سيقولون - أنتم الإسلاميون، مهما بدوتم مختلفين، ومهما تحدثتم بأسلوب مختلف.. كلكم في النهاية **لا يهمكم إلا غشاء البكارة..**

أريد ألا أكون مختلفاً هنا، وأنا أقول، بل وأنا أصرخ في وجه ذلك الإعصار القادم من هناك: نعم، **غشاء البكارة مهم.** ولن أسمح، لأي إعصار من القيم الأخرى، أن يخترق هذا الغشاء ويمزقه..

نعم، غشاء البكارة مهم، ذلك أنه ليس مجرد غشاء، إنه مجموعة قيم ومنظومة أخلاقية متكاملة، يرتبط فيها الفرد بالمجتمع بروابط العفة والإخلاص والعائلة..

غشاء البكارة مهم، وهو ليس مجرد غشاء رابط، والكيفية التي يتمزق بها تعبر عن أشياء أعمق بكثير من مجرد التمزق والنزيف الذي يحصل عندها..

إنها قيم كاملة، منظومة متكاملة من القيم الأخلاقية، غشاء البكارة يعبر عنها، **إنه لم يخلق هكذا اعتباطاً، ولم ينشأ بيولوجياً دونما غرض.**

غشاء البكارة ليس (زائدة دودية)، انتفت الحاجة إليها مع تطور أنواع الأغذية، فضمرت واضمحلت وصارت بلا وظيفة..

لقد بقي!. على الرغم من كل الإحصاءات، وعلى الرغم من كل هذا المشاع الجنسي، بقي موجوداً.. ولا تزال الإناث يولدن عذراوات..

أقف بوجه الإعصار، وبوجه من يقول (لا تهتمون إلا لغشاء البكارة)..

.. وأصرخ: غشاء البكارة، نعم. لأنه أكثر من مجرد غشاء..

ولست هنا أنادي بعفة المرأة مقابل السماح بحرية جنسية للرجل..

فغشاء البكارة- الاجتماعي- لا يعني أن المرأة عفيفة فقط.. ذلك أن فض البكارة يتطلب اثنين رجلاً وامرأة.. والحفاظ عليه، يعني أن العفة سائدة بين الجنسين.

سيقولون- مطمئنين -: كلا، لن تصل الأمور إلى هذا الحد، تقاليدنا ثابتة وراسخة، مهما لبسنا و(تمدنا)!، ومهما تابعت بناتنا ونسوتنا الموضة، ومهما أخذنا من مظاهر الحياة الأمريكية واستمتعنا بها.. مع ذلك كله، على الرغم من ذلك كله، سيبقى حصن الشرف ذلك حصيناً لا يمسه أحد..

نعم، هكذا سيقولون، أي شيء إلا غشاء البكارة،..

إنها العولمة فانتبهوا: الأرقام تصدَّر ايضاً أيها السادة..

و(أي شيء إلا غشاء البكارة) سيكون معناه أن هناك عمليات جنسية أخرى (شاذة غالباً) ستجري. وأن غشاء البكارة- غشاءً بيولوجياً- سيكون سليماً، لكن منظومة القيم الأخلاقية ستكون قد انتهكت..

عندما نأخذ نمط الحياة، بكل محفزاتها ودوافعها، بكل البريق والوهج الذي يدفع نحو (المتعة، الآن، وهنا).. ونتصور أن بإمكاننا التوفيق مع مفاهيم الشرف، والمحافظة على غشاء البكارة، فإننا لا نخدع إلا أنفسنا (.. ولوقت بسيط جداً).. ستكون هناكَ تلك العمليات الشاذة

(الجارية حالياً بوصفها جزءاً من انحلالنا الذي لا توثقه إحصاءات)، وربما سيكون هناك بعض الترقيع الجراحي لحل المشكلة..

لكن في النهاية، هذا التوفيق لن ينفع..

وسيطلع علينا إحصاء، يكشف الأمر، ويوثقه..

..عندما تنتهك القيم، وتدنس، وتستبدل.. نتوقع، أن غشاء البكارة، سيدنس، وينتهك.

ولو بعد حين..

أتوقف عن الصراخ الآن.

وألجأ إلى الهمس.. أفكر ببناتي، وبنات الآخرين، أفكر أيضاً بأولادي.. وبأولاد الآخرين، فالأمر يتطلب اثنين دوماً، الزنا يتطلب اثنين، والعفة كذلك، تتطلب أن تكون الإناث عفيفات والذكور كذلك.

..أهمس بدعاء من أجل الستر، على الجميع.. من أجل ألا تكون أرقام الجيل القادم مثل أرقام الفردوس المستعار..

تذكروا أنه قبل مئة عام فقط، كانت أمريكا بلداً محافظاً جداً.

..ولأن الرقم يجر رقماً، فقد انتهت إحصاءات المتعة والحرية الجنسية إلى نتائج اجتماعية خطيرة، هدمت من بنية الأسرة التقليدية دون أن تقدم بديلاً لها..

.. بعد أن تنتهي اللذة العابرة، والجنس العابر، و(المتعة، الآن وهنا) يحدث أن ينتج (طفل) عن تلك اللحظة الممتعة العابرة..

تروح السكرة، وتأتي العبرة، مع كل التعليمات والتحوطات ووسائل منع الحمل.. تأبى سنة البيولوجيا إلا أن تفرض نفسها على الأرقام، ويحدث الحمل..

ما بعد اللذة: طفل يصرخ

ما كان متعارفاً على تسميته بطفل (غير شرعي) في النصف الأول من القرن العشرين، صار اسمه بالتدريج (خارج نطاق الزواج) (out of wedlock)، أو غير زوجي (non-martial birth).. هذا التغيير في التسمية لا يعكس تغييراً في الفكرة لتلك الولادات فحسب، بل يعكس زيادة عدد تلك الولادات إلى الحد الذي صارت تعد أمراً طبيعياً جداً.

ومن المؤكد أن تعبير (طفل غير شرعي) لم يعد له معنى، إذ إن ما هو شرعي، وما هو غير شرعي، تعرض لمعايير جديدة لا يمكن أن تنتمي لأي شرعية، بأي شكل من الأشكال.

بشكل عام، ارتفعت أرقام الولادات غير الشرعية من ٥٪ فقط عام ١٩٦٠ إلى ٣٢,٦٪ عام ١٩٩٤..، وظلت تواجه صعوداً في كل الأعراق المكونة للنسيج الاجتماعي في الفردوس المستعار كل سنة تالية[(١)].

معدلات الزواج أيضاً شهدت انخفاضاً، فبعد أن كانت تتراوح بين ٩٢-١٤٨ (امرأة فوق سن الزواج) من كل ألف امرأة، وصلت عام ١٩٩٥ إلى رقم قياسي في الانخفاض بالرقم ٥١، وعام ١٩٩٦ كسرت هذا الرقم بالهبوط إلى رقم ٥٠..

مع بداية القرن الجديد شهدت أعداد أولئك الذين لم يتزوجوا قط ارتفاعاً تاريخياً، ثلث الرجال، وربع النساء، في عام ٢٠٠٠ ميلادية.. في الفردوس المستعار.. لم يتزوجوا قط (أي إن هذا لا يشمل الأعداد الهائلة للمطلقين..).

---

(١) TRENDS IN THE WELL-BEING OF AMERICA'S CHILDREN& YOUTH,1997 Edition
by Office of the Assistant Secretary for Planning and Evaluation U.S Department of Health and Human Services 1997

ومع كل هذه الأرقام، نستطيع أن نتخيل كيف أن شكل العائلة الأمريكية (التي غزت أفكارنا بنموذج السيارة، والزوج والزوجة في المقعد الأمامي والأطفال في الخلف) تغير تماماً..

في الستينيات، العائلة التقليدية (المكونة من زوج وزوجة وأطفال) شكلت ٧٥٪ من كل العوائل (households)...

مع عام ٢٠٠٠، نسبة العائلة التقليدية هبطت إلى ٥٣٪ (يشمل هذا طبعاً أن يكون الزوج هو ذكر آخر غير الأب البيولوجي للأطفال، لكن مجرد وجود رجل وامرأة وأطفال يجعل هذه العائلة في الخانة التقليدية.. ويشمل هذا ألا يكون هناك زواج قانوني يربط بين الاثنين)..

مقابل هذا الهبوط، نشأت مفاهيم جديدة، فرضت نفسها بقوة على الإحصاءات، منها مفهوم المنزل غير العائلي (non family household)، أي منزل يعيش فيه شخص وحده، وبلغت نسبته ٣١٪، وظهرت -بقوة- العائلة المكونة من والد واحد مع الأطفال (single parent family) وممكن أن يكون هذا الوالد هو الأم، أو الأب.. ونسبة هذا النوع بلغت ٢٧٪ [١]..

(وها هم أولاء يبشروننا الآن، بالعائلة الجديدة، المكونة من زوجين شاذين، قد يكونانِ رجلين، أو امرأتين..، مع أطفال متبنين، أتصور أن تركهم يرتعون في الشارع أفضل بكثير من مصير عائلة مرعبة الأم والأب فيها رجلان من قوم لوط..)

إنها صورة مرعبة. وهي الناتج النهائي الذي لم يكن في الحسبان ساعة الشهوة، ساعة (الآن..وهنا..).

---

(١) The Changing American Family Herbert S.Klein Hoover digest no.3 summer Issue2004

(ما هو الأب؟)

أتذكر الآن نكتة كلاسيكية عن صورة العائلة الأمريكية.

طفل صغير، خمس سنوات أو أكثر، يتهجأ إعلاناً عن الاحتفال بيوم الأب fathers day، تبدو عليه الحيرة وهو يسأل، بكل بساطة (what is a father?)..

ما هو (الأب)

هل ضحكتم؟.

سأفترض ذلك.

(سأفترض أيضاً أنني ضحكت قليلاً..).

لكن لا شيء يضحك في هذه النكتة، لو فكرنا أنها ستحدث عندنا..

لن نضحك، لو أننا فكرنا أن واحداً من أحفادنا، بعد جيلين، سيسأل ذلك السؤال..

ما هو الأب؟.

لن نضحك، لو تذكرنا أن أمريكا، التي تسخر منها النكتة، كانت محافظة جداً قبل مئة سنة من الآن.

لن نضحك، لو فكرنا، أن روافد هذه النكتة، وخلفياتها، قد تسربت إلينا، سارت في نمط حياتنا.. دون أن نشعر.. دون أن نعي.

لن نضحك، لو تذكرنا، لو انتبهنا إلى تلك الدبابة الأمريكية التي مرت للتو أمامي، في قلب عاصمة (الخلافة!).. لم تأت تلك الدبابة من أجل النفط فقط، كما يحلو لنا أن نتوهم، ولا من أجل الديمقراطية كما يزعمون، ولكنها القيم.. القيم..

.. سأعيد النكتة الآن، وأفترض أنكم لن تضحكوا هذه المرة، طفل صغير، خمس سنوات أو أكثر، يتهجأ إعلاناً..

:ما هو الأب؟.

..أكرر هنا أني لست بصدد تعداد هذه الأرقام من أجل تعيير الغربيين عموماً والأمريكيين خصوصاً بها، هذا شأنهم وحدهم. يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون بأنفسهم سواء مارسوا الجنس مع أمثالهم أو مع محارمهم أو مع جثث موتاهم، لا شأن لي بهذا، إنما الأمر، أن هذه الأرقام معرضة للتصدير لنا، فالأمركة هي مجموعة من القيم قد تؤدي - ضمن ما تؤدي إليه- إلى هذه الأرقام.. لا يمكن أن نفصل حقاً بين نتائج نريدها ونتائج أخرى (لا نريدها)..

هناك رقم فظيع آخر، تجنبت أن أذكره حتى الآن.

ربما فحواه ليست فظيعة مثل زنا المحارم، الجنس مع الأطفال، أو ممارسة الجنس مع الجثث، لا شيء أفظع من هذه الأمور..

لكن هذا الرقم الأخير فظيع بنسبته العالية.

فظيع في انتشاره.

حسب استطلاعات الـABC، فإن ٥٧٪ من الأمريكيين، قاموا بممارسة الجنس في الأماكن العامة (sex outdoors)..

(هناك استطلاع آخر يشير إلى أن ٦١٪ منهم قاموا بذلك).

٥٧ أو ٦١٪.. قاموا بفعل ذلك، في أماكن عامة..

لماذا يا ترى؟. لماذا هذه النسبة الهائلة التي تشمل أكثر من نصف الأمريكيين والأمريكيات؟.

هل اضطروا إلى ذلك؟. ألم يجدوا المكان الملائم لفعلتهم تلك؟. هل ضاقت عليهم شققهم؟ ماذا عن الفنادق؟. والموتيلات المنعزلة؟. هل صعب الأمر عليهم، وغلبت عليهم شهواتهم لدرجة أنهم اضطروا لذلك، وفعلوها في الحدائق العامة، أو دور السينما أو في القطار أو في مرآب السيارات؟ لا، في الحقيقة لم تكن المشكلة مشكلة (مكان)، لو كانوا يريدون أن يفعلوا ذلك، بينما هناك احتمالية أن يتلصص عليهم أحد، كانوا يقولون، حسب الاستطلاع نفسه، إن اللذة تزيد مع تلك الاحتمالية. واللذة كما تعلمون هي ما يهم، وهي الهدف من الحياة، وأي شيء يزيد هذه اللذة (أو يزيد احتمالية زيادتها) هو شيء مرغوب به يفعله الناس حتى وإن كان القانون (المتخلف) يعاقب عليه..

..جنس في الأماكن العامة إذن.

و٥٧٪...

وليس من أجل الاضطرار أو عدم توافر المكان..

بل من أجل أنه جنس في الأماكن العامة، من أجل أن يشاهد أحد هذا الفعل..

هل قلت إنه فظيع؟. أقول الآن إنه حزين جداً. نعم، هو حزين..

الحزن هو ما أشعر به بعد أن مررت بالرعب والقرف والتقزز..

الآن الحزن، الحزن على هذا الإنسان الذي يصر على الانحدار لمستوى البهائم وأكثر، حزن على هذا الإنسان الذي وصل لمستوى تأنف منه حتى الحيوانات.

حزن شفاف ومخلص، على ما انحدرت إليه الإنسانية، في نموذجها الذي يدعي أنه الأرقى والأكثر تقدماً..

٥٧٪؟.

بعد الصدمة، والقرف، والتقزز..

لا أجد سوى حزن عميق في داخلي. إنهم بشر بعد كل شيء. وهذا الانحدار الذي وصلوا إليه هل للإنسان أن يسقط لهذا الحد..؟.

(وهو أمر محزن جداً، عندما نتذكر تلك القمة التي كان فيها الإنسان ابتداءً)..

نعم، لقد انحدر من تلك القمة، إلى أسفل سافلين..

.. وهو أمر محزن للإنسان بالمطلق.. بغض النظر عن الانتماء الحضاري، أو العرقي، أو الديني..

..والمخيف- بالإضافة إلى كونه محزناً- هو أن تلك الأرقام.. هي بصدد التصدير..

سيكون محزناً أكثر أن نتذكر أن أمريكا، كانت بلداً محافظاً قبل مئة سنة فقط.

محزن ومخيف..

تذكرني هذه النسبة، وذلك الجنس الوقح في الأماكن العامة، بشيء آخر، لم أفكر فيه من قبل..

إنه الحد على الزنا في الشريعة القرآنية، الذي يستوجب أن يكون هناك أربعة شهود على (الفعلة) من أجل أن يطبق الحد.

(إضافة إلى حالات الاعتراف..).

أربعة شهود. لا ينقصون واحداً. أربعة شهود، شاهدوا الفعلة بحذافيرها، لا مقدماتها، ولا مقارباتها، ولا أي شيء أدنى من ذلك..

الفعلة بتفاصيلها، وأربعة شهود شاهدوا التفاصيل، ولا واحد منهم شاهد أقل من ذلك.

كل منهم يجب أن يكون قد شاهد الحد الفاصل من الأمر، **الذي يفرق الجماع من غيره..**

عملياً وفي حالات الزنا الاعتيادية، الأمر شبه مستحيل..

من الصعب جداً على أربعة شهود أن يكونوا قد شاهدوا فعلاً تفاصيل الأمر، (إلا إذا كانوا شهود زور!).

حتى لو اقتحم شهود خلوة اثنين يزنيان، فإن رد الفعل المتوقع والانسحاب التلقائي الذي سيحدث عند الاقتحام، سيخرب تفاصيل الشهادة، وينزع على الفور من الأربعة صفتهم بأنهم شهود.

عملياً، الأمر شبه مستحيل.

أو هكذا كنا نظن.

فقهياً، صنف (الشهود الأربعة) و (التفاصيل التي يجب أن يكونوا شاهدوها) على أنها عقبة من أجل عدم تطبيق الحد، وتسهيل التوبة، والرأفة بالعصاة، وإعطائهم فرصة أخرى.

كل ذلك ممكن، ومنطقي.

لكن..

اتضح أن مسألة الشهود الأربعة أعمق من مجرد ذلك..

لم يدر بخلد فقهائنا قط، أنه سيأتي حين من الدهر **يهبط فيه الإنسان إلى هذا المستوى من الانحدار..**

﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.. حيث كل مرتبة من الانحطاط، تتخيل أنه لا يوجد ما هو أسف منها..

ثم تتفاجأ بالأدنى.. والأدنى..

تتفاجأ بشيء هو ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾..

نعم، لم يدر بخلد فقهائنا، أنه سيأتي على الإنسان حين من الدهر يتلذذ فيه بأن يمارس الجنس في الأماكن العامة، من أجل أن يشاهده الناس..

لكن، ها نحن أولاء نرى، في تلك الـ٥٧٪ ..**القمة العالية، حيث يحرص الإنسان على النزول إلى أسفل درك، أسفل سافلين..**

الآن يبدو حد الزنا - الذي لا ينفذ إلا بأربعة شهود - شيئاً طبيعياً..

لم يعد الزنا هنا زلة، لم يعد مجرد ضعف بشري أمام غريزة في داخله. الأمر وقد وصل إلى هذا الرقم المحزن يعني أن الزنا لم يعد مجرد تلك الغريزة، ولا حتى الاستسلام لها، لقد خرج الأمر من هذا، خرج من إطار العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، إلى غياهب بهيمية معتمة يتمتع فيها الاثنان لا بالعلاقة بينهما رجلاً وامرأة، بل بتلصص الناس عليهما..

إنه أمر بعيد جداً، ويستحق من ينزلق إليه، أن يقف عند (حده).

يستحق، بل يستوجب أن يكون هناك شيء يوقفه..

يستحق أن يكون هناك (حد).

عندما أتأمل الآن في لفظة (الحدود) تلك اللفظة التي استهلكناها، وأشبعناها ابتذالاً واستعمالاً في غير موضعها.. أفهمها الآن بشكل جديد..

أراها الآن **كوابح استباقية للمجتمع من أجل ألا ينحدر إلى أسفل سافلين..**

الأمر لا يبدو طبعاً بشكل فجائي من تطبيق الحدود على ممارسي الجنس في الأماكن العامة، والذين تتوافر فيهم شروط تطبيق الحد..

الأمر يبدأ قبل ذلك بفترة طويلة، الكابح يعمل استباقياً، على كل

فرد، داخل المجتمع، إنه ينظم (سدادة) كل فرد، بحيث لا تتأثر شبكة الأواني المستطرقة التي يتألف منها المجتمع كله..

الأمر يبدأ بالحد وهو يغرس في داخل كل فرد، ليس رجماً ولا جلداً، ولكن بحزمة المفاهيم الأخرى، حزمة المفاهيم البديلة، التي تمنع وصول الفرد- ومن بعده المجتمع- إلى تلك المرحلة وتلك الأرقام وتلك الإحصاءات التي انحدر إليها مجتمع الفردوس المستعار..

يبدأ الأمر من تلك القيم التي تنظم علاقة الفرد بنفسه، بشهواته، بجسده، وبأجساد الآخرين..

وبالمجتمع كله..

يبدأ الأمر من (حدود) معينة تغرس في الفرد: تعلمه أن يتعامل مع غرائزه وشهواته، دون أن يتجاوزها، ودون أن يجعلها تتجاوزه..

.. يبدأ الأمر من التعود على (الحلال) و(الحرام)، من تكريس (العفة).. وتأجيل (المتعة)، من مفهوم منقرض اسمه (العيب).. وآخر اسمه (الحياء)..

هناك، في أعماق النفس، يبدأ تطبيق الحدود الحقيقية (.. تلك حدود الله)، التي تكون استباقية (..وبشكل ما) مانعة للتنفيذ الحرفي لحد الزنا فيما بعد، لأنها ستعطل إمكانية حصول شروطه (شبه المستحيلة في الظروف العادية).. مع أنها في ظروف أخرى تصل لـ ٥٧٪.

هناك يبدأ التطبيق..

في قيم مغروسة، منذ البدء..

بعدها يكون الأمر شبه مستحيل.

إضاءة

ويجرني هذا الرقم المرتفع المؤدي إلى تلك الهاوية السحيقة، فأتذكر موقفاً قرآنياً شتان ما بينه وما بين هاوية الإحصاءات في الفردوس المستعار..

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٢].

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه: ٢٠/ ١٢١].

إنها تلك اللحظة الصعبة، لحظة ما بعد العصيان، حيث آدم وزوجته **يكتشفان ويتواجهان مع الحقيقة، وتبدو لهما سوءاتهما**، على الرغم من المعصية، ومع أنهما اقترفا أمراً بعدم الاقتراب منه، فإنهما يسرعان بعدما (بدت لهما سوءاتهما) **يخصفان عليهما من ورق الجنة، أسرعا يستران ما بدا منهما..**

لم يقولا، ولم يفكرا قط، أن اللذة ستكون أكثر، لو أن أحداً نظر إليهما.. (لعلهما لم يتصورا أن هناك من يفعل ذلك..).

أسرعا يستران سوءاتهما.. ولم يتصورا أن العري، (بمعنى كشف السوءة بشكل عام) يعبر عن الذات، أو يحسن مستوى احترام الشخص لنفسه، كما يتفلسفون عن هذا في حضارة الفردوس المستعار..

بل طفقا يخصفان.. يواريان ما بدا منهما..

.. عندما أفكر في تلك الأرقام، وتلك الإحصاءات، أقول، بلا تحفظ، إن الناتج النهائي للمعضلة كان أن مساوئ الكبت أقل بكثير من مساوئ هذا الانفتاح الذي بشرونا بمحاسنه..

لا أروج هنا للكبت، فسمعته سيئة، لكني أنبه إلى أن الانفتاح حقيقته الإحصائية سيئة جداً، ولا أستطيع أن أتصور واقعاً أسوأ مع الكبت أو سواه..

لا أروج لـ(الفلقة) والعصا هنا- وأعترف أيضاً أن مساوئهما لا تعد ولا تحصى- لكن لا شيء، لا شيء على الإطلاق، ينافس ما انحدر إليه الفردوس المستعار في هذا المجال.

قيل لنا إن الصنبور يجب أن يظل مفتوحاً حتى لا ينفجر ما في الداخل، فكانت النتيجة أن الماء فاض وأغرق المكان، وتسرب إلى أسس البناء، وأضعفها، وزادها ركاكة على ركاكتها..

لا أنكر أن سد الصنبور وإغلاقه قد يفجر المواسير الداخلية، لكن **الخطة القرآنية، لا تشمل سد الصنبور فحسب، بل تشمل بناء شبكة أنابيب قوية ومختلفة، تشمل (حدوداً) تغرس منذ البداية، وهي (حدود استباقية) متدرجة، تضع العوائق والموانع أمام وصول الأمر لحد تطبيق الحد القانوني للزنا..**

وتشمل الخطة القرآنية ربما، مواراة السوءة، خصفها (بورق من الجنة).

ورق من الجنة..

للمرة الأولى أتأمل اللفظة فأرى فيها معنى مختلفاً تماماً عن المعنى الذي رسخته (هوليوود) قسراً وغصباً في أذهاننا: معنى ورقة التوت المزعومة التي ساد تصورها في الأدب والفن والثقافة..

الآن أرى أن ورق الجنة هذا يمكن أن يكون الآن شيئاً آخر ..إنه **الورق الذي تسطر عليه الأفكار المستمدة من ذلك الفردوس الذي يجب**

أن يكون؛ الفردوس المستعاد.. إنه ورق المفاهيم الأخرى، ورق المفاهيم البديلة..

ورق من الجنة، هو ورق الثوابت، التي علينا أن نواري سوءاتنا بها.. التي علينا أن نجعلها تتسرب إلى دواخلنا، لتكون عوائق استباقية تمنعنا من الهبوط، إلى أسفل سافلين..

﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.. أتأمله، ليس ورقة توت تزيد الإثارة والإغراء، بل ورق الفكر البديل، فكر ثوابت ذلك الفردوس الآخر.. المستعاد..

وكان أن خصفا على سوءاتهما، بذلك الورق، أول خطوة على درب الاستعادة.

ماذا بعد الانطفاء..؟ (سوى أن تهرب إلى انطفاء آخر)

حسناً إذن. هذا الجنس و(المتعة- والآن وهنا).. وهذه الأرقام والإحصاءات كلها.. ماذا بعد؟

حقاً، ماذا بعد؟. ماذا بعد تلك المتعة العابرة، ماذا بعد اللحظة القصوى؟ لحظة اللذة؟ ماذا بعد أن تنتهي الإثارة والمقدمات والمناورة، ومن ثم الهجوم نفسه؟..

ماذا بعد أن تنطفئ الشهوة وتخبو.. ماذا بعد أن تنتهي متعة الآن وهنا؟

لاشيء سوى السقوط المدوي من حالق. لا شيء سوى الارتطام بالواقع المدبب. لا شيء سوى قضبان ذلك القفص تضيق وتضيق، قفص الآن وهنا..

لاشيء سوى الخواء بعد تلك اللذة. لاشيء سوى الخيبة..

..والضجر..

ولا شيء سوى أن تعاود الكرة مرة أخرى، وأخرى. وتعود لتصعد إلى تلك الهاوية، مجدداً، مثل سيزيف يحمل صخرته أبداً إلى القمة، أو السفح أو إلى الهاوية، ويعود بعد أن يسقط كل مرة، ليتسلق وصخرته على ظهره..

سيكون هناك بعد الإشباع، الإثارة المصطنعة، لن يعود الجنس وسيلة لإشباع الغرائز الطبيعية، بل سيكون هناك إثارة وتحفيز للحوافز، من أجل الاستمتاع بإطفائها وإشباعها..

سيكون هناك العقاقير، والسموم، والمخدرات، والكحول.

كلها ستساعد على التحليق نحو تلك الهاوية..

.. وفي كل مرة، سيحدث التحليق، وسيحدث بعدها السقوط، وسيكون الواقع، في كل مرة، مدبباً أكثر، ومؤلماً أكثر.. وستكون قضبان قفص (الآن وهنا) أشد قسوة وصلابة في كل مرة..

وفي كل مرة، ستتكرر محاولة الهروب من ذلك القفص، عبر الأدوات نفسها التي ستجرهم بعد انطفائها إلى الواقع نفسه..

وسيكون هناك المزيد من كل ذلك. جنس وعقاقير ومخدرات وكحول من أجل الهروب من قفص (الآن وهنا)..

لكن ذلك الهروب لن يكون إلا عابراً، لن يكون إلا وهماً جميلاً لدقائق أو ساعات..

بعدها سيعود كل شيء كما كان، وأسوأ..

لن يجدي هذا الهروب، عبر الكحول، والمخدرات، ولن تجدي المصحات والعيادات العلاجية التي تخلص من الإدمان، وتعيد (التأهيل)، لن يكون ذلك سوى اهتمام بالتفاصيل دون الجوهر. لن يكون

ذلك سوى نظرة فردية لمشكلة حضارية في حقيقتها. سيكون ذلك التهاءً بالأعراض المرضية دون التركيز على السبب الحقيقي للمرض..

لكن هل يمكن حقاً إلا أن يكون الأمر؟. أعني أنها عقلية (الآن وهنا) التي تفكر في إيجاد الحلول، وفي التشخيص، فهل يمكن أن تشخص المرض إلا من منطلقاتها هي؟.. وهل يمكن أن تجد دواءً إلا ويكون متوافقاً مع قضبان (الآن وهنا)؟؟..

بدأ كل هذا من ذلك الثابت في حضارة الفردوس المستعار، الثابت الذي يلغي التاريخ من الوجود، ويلغي من ثم الحاسة التاريخية، ويركز على اللحظة العابرة على أنها كل ما هناك.

.. بدأ من ذلك الثابت الذي يعد كل مرحلة تاريخية هي بالضرورة تمثل تقدماً أكبر من كل المراحل التاريخية التي سبقت..

بدأ من ذلك الثابت الذي رأى أن الأبدية هي (الآن وهنا)..

وجاءت المتعة - على أنها ثواب- التحصيل الحاصل لتلك الأبدية العابرة.. وسارت الأمور كما رأينا بعدها، من فرويد إلى كينزي،ووصلنا الآن إلى تلك الأرقام المريعة..

إنه ثابت (الآن، وهنا) الذي جاء بكل هذا...

ثابتنا الخامس والأخير..

على الضفة الأخرى من الواقع، وفي الاتجاه المعاكس لتيار الفردوس المستعار، هناك فردوس آخر، ينتظر منا أن نستعيده، ونستكشف أسرار بنيانه، وتركيبة الخلطة الداخلة في أركانه..

هذه المرة، مع هذا الركن الأخير الثابت الخامس، أرى مرة أخرى التناقض بين الفردوسين: المستعار الذي يغزو العالم أجمع، ويغزونا في

رؤوسنا أيضاً، وبين المستعاد الذي قد يكون الدرب إليه صعباً وخطراً، لكن أي شيء آخر غيره يبدو أنه لن يؤدي إلا إلى الجحيم.

مرة أخرى التناقض جلي وواضح، فلا داعي للتهرب منه، ولا داعي للاختباء خلف الألفاظ والمناورة من خلالها..

إذا كان ثابتهم اسمه (الآن وهنا)، فثابتنا اسمه (الآخرة).. وإذا كانت الأبدية عندهم لحظة عابرة، فالأبدية عندنا زمن مستديم لا ينتهي..، وإذا كان قفصهم اسمه (الآن وهنا) فإن حدودنا لا تقف عند الأفق، بل تتجاوز الزمان والمكان، وتنطلق نحو ذلك الأبد الحقيقي، الأبد المطلق..

نحو (الآخرة).

الآخرة..

مفهوم الآخرة في الإسلام هو من أشد مفاهيمه ثباتاً ورسوخاً.. (وتميزاً).. ليس من ثوابت الفردوس المستعار فحسب، بل من ثوابت أي حضارة أخرى..

لا أقول هنا إن فكرة (الآخرة) اختص بها الإسلام، بل أقول: إنها لم تكن موجودة بهذا التمايز، وهذه الفاعلية، وهذا الوضوح..

مفهوم (الآخرة) موجود في بقية الأديان بشكل غامض حيناً، وعابر حيناً آخر، وهو غير موجود إطلاقاً في الحضارات التي قامت على هذه الأديان، أي إن وجوده بوصفه مفهوماً لم يتحول إلى قيمة حضارية ذات فاعلية.. ومن ثم لم يعد للمفهوم جدوى..

أما في الإسلام فالآخرة ركن لا يمكن تجاوزه أو إنكاره.. إنها تدخل في كل شيء، مثل خلطة بناء إسمنتية تتداخل مع البناء بأكمله، ولا يمكن فصلها أو حتى التمييز بين مكوناتها ومكونات البناء الأخرى..

(الآخرة) شديدة الحضور في كل ما هو إسلامي حقاً. لا يمكن إلغاؤها، أو تغييبها، أيّ محاولة من هذا النوع، ستجعل هذا الشيء يكف عن أن يكون إسلامياً.. يمكن أن يصير أيّ شيء آخر، إلا أنه، مع انتزاع الآخرة منه لن يكون إسلامياً..

دعونا نقبل بالحقائق كما هي، سيقولون عنا إننا غيبيون أو متخلفون، أو غير علميين، أو لا سبيل لإصلاحنا (!) ما دمنا متمسكين بمفاهيم العصور الوسطى، والدجل والشعوذة..

دعونا نقبل بحقيقة ديننا، ولا نخجل من كون (الآخرة) ومفاهيمها أساسية فيه، فبعض الإسلاميين المعاصرين يتهربون من ذلك كما لو أنه عيب، وهم يتكلمون عن الآخرة، عندما يضطرون لذلك، على أساس المصالح الدنيوية التي ستترسب نفسياً وذهنياً عند الفرد عندما يؤمن بفكرة الآخرة، أي، إن الآخرة هنا ستكون، دون أن يجرؤوا على التصريح، هي فكرة برغماتية من أجل جعل الناس يتصرفون بشكل أفضل..

ربما هناك منافع (دنيوية) في فكرة الآخرة، لكن هذا أمر ثانوي، بشكل أفضل، ستحدث فعلاً، سواء كان الناس سيؤمنون بها ويتصرفون بشكل أفضل، أم كانوا يؤمنون دون أن يؤثر ذلك في أفعالهم، حتى لو كانوا لا يؤمنون، (فالآخرة) ستقع. هذا هو ثابتنا الذي يجب ألا نخجل منه لأنه لا يتأقلم مع معطيات علم الفردوس المستعار.. (الذي عرفنا من الثابت الأول أنه علم (الظاهر)، العلم الذي لا يرى غير المادة، غير القمة الظاهرة من ذلك الجبل الهائل الغاطس في المحيط..)

الآخرة ستقع أيها السادة. وسواء كان ذلك موافقاً لعلوم الغرب، أم مناقضاً لها، فإنها ستظل حداً فاصلاً بيننا وبينهم، ستظل ثابتاً لا يمكن تمييعه ولا تجاوزه..

نعم، إنها ستقع، ولولا أنها ستقع لكان العالم كله سيقع في الهاوية..

الطرف المحذوف من معادلة متوازنة

الآخرة، تشبه عنصراً أساسياً ومفقوداً في معادلة كل أطرافها (عناصرها الأخرى) واضحة وموجودة..

غياب هذا العنصر- أو ترك مكانه فارغاً في المعادلة- لا يعني أنه غير موجود، فعدم وجوده سيجعل المعادلة غير متوازنة، بل سيجعل من المعادلة باطلة أساساً، لأنها لن تكون معادلة..

هذا العنصر الذي لا نراه، هو ركن أساسي في تلك المعادلة، وكونه غير مكتوب (بوضوح) كما العناصر الأخرى، لن يلغي وجوده، ولن يلغي أهميته..

إننا نؤمن بوجوده، لأن المعادلة موجودة، ولأنها متوازنة، ولأنها مستمرة..

ولذلك فهذا العنصر (حتمي) الوجود..

تشبه الآخرة، بعبارة أخرى، قطعة منفردة متميزة، منقوصة من لوحة (puzzle) رائعة ومتقنة وكاملة إلا من هذه القطعة..

لن تتم اللوحة إلا بهذه القطعة، ونحن نعرف حدودها وتفاصيلها دون أن نراها، لكننا متيقنون من وجودها لأن اللوحة لن تتم إلا بها، واللوحة الرائعة لا يمكن أن تترك من دون أن تتم..

نعرف أنها موجودة، نؤمن بها، دون أن نراها.

إنها الجبل الغاطس الذي لا نرى إلا قمته الطافية.

وبعبارة أخرى، فإن كوناً بهذا الجمال والروعة، وبهذا الإتقان، وبهذه القوانين الدقيقة التي تسيره، لا يمكن أن يكون في النهاية مجرد (عبث)، دونما هدف..

كوناً بهذه الدقة، وبهذه السنن التي تتداخل لجعله يستمر بهذه الطريقة المذهلة، كوناً بهذا التنظيم، لا يمكنه أن ينتهي إلى الهباء..

لا يمكنه أن يجري نحو ثقب أسود يبتلع كل شيء كما لو أنه لم يكن..

كوناً بهذا الإتقان، بهذه العظمة، بهذا الإعجاز.. لا يمكن أن ينتهي إلى العدم...

العدم، العدم.. العدم.

.. عقلية الفردوس المستعار، أو طريقة التفكير التي ينتجها الفردوس المستعار، وتنتجها ثوابته لا تفهم هذا، لا تلتقطه، لا تستطيع أن تنتبه للعنصر غير المرئي الذي يوازن طرفي المعادلة.. لا تستطيع أن تفهم أن اللوحة مكونة من قطع متداخلة، وأن النقص لن يسده إلا قطعة (الآخرة)..

تلك العقلية لن تنظر للمعادلة، بل ستقصر تركيزها على كل عنصر على حدة، إنها لن تنظر للوحة بكليتها، ولذلك لن تكتشف أن فيها نقصاً يجب أن تسده قطعة غير مرئية، بل ستنظر إلى كل قطعة على حدة، كما لو كانت لوحة منفصلة بحد ذاتها، بل سيكون هناك اهتمام بكل قطعة على حدة، دون الانتباه إلى أنها تشكل في مجموعها، وفي تداخلها، تلك اللوحة، الخلابة المتقنة التي لا يتمها غير مفهوم الآخرة..

عقلية الفردوس المستعار، الحبيسة داخل قفص (الآن وهنا)، والحاضر الذي لا يتعدى معدل عمر الفرد في أحسن الأحوال، لا يمكنها أن ترى أبعد من ذلك...

ولذلك فهي تعجز عن الإحساس بالآخرة بوصفها حتمية، بوصفها التحصيل الحاصل، بوصفها الناتج النهائي للمعادلة، التي كل شيء في هذا الكون طرف فيها..

الحاسة التاريخية تطلقك من القفص الضيق

لكي تفهم هذا، عليك أن تتسلل، ولو بصعوبة، من قفص (الآن وهنا).. من بين قضبانه الضيقة، وتخرج من ذاكرتك الشخصية، ومعدل عمرك المتوقع، وغير المتوقع.. عندما تخرج من (الآن وهنا)، ستكف التفاصيل عن إلحاحها، وتعود إلى حجمها الطبيعي- وكانت تبدو كبيرة جداً عندما كانت داخل قفص (الآن وهنا)-سترى أن الصورة، عندما استطعت أن تلحظها من بعيد، خارج القفص، صارت أكثر وضوحاً، وقد كنت ترى الأمور مشوشة بسبب قربك الزائد..

عندما تتسلل من رؤيتك الحبيسة داخل الزمن العابر، سترى بوضوح أكبر كيف يسير الأمر حقاً، سترى الدول التي كنت تراها عظمى داخل قفصك، ستراها وهي تحبو وقد نشأت للتو، وسترى دولاً أخرى، لا تكاد تراها مهمة اليوم، وهي (عظمى) و(إمبراطوريات) تتصارع فيما بينها على القارات ومقدرات الشعوب.

.. سترى دولاً تنشأ، وتزدهر، ثم تذبل، وتنهار، وتحل محلها دول أخرى، تمر بالدورة نفسها، نشوءاً وازدهاراً، ذبولاً، وانهياراً..

وهكذا دواليك.. سترى دولاً تنبعث من مواتها، وقد كنت ظننتها أصبحت رميماً، فإذا بها تنهض من تحت الرماد، سوف ترى الشعارات تختبئ خلفها المصالح، والمصالح تبرر الحروب والكوارث، سوف ترى شعارات الحرية والتحرير والتحرر تطلق في كل مرة تستعبد فيها البلاد والعباد، وسوف تجد، في كل مرة، أن هناك أناساً يصدقون تلك الشعارات ويخدرون أنفسهم بها..

سوف تنمو لديك (حاسة تاريخية)، تخرج بك من قفص زمانك العابر والقصير، وتمدك عبر الزمان والمكان، لتجعلك ترى بشكل أوضح،

وتمنحك رؤية أكثر شمولية. عبر الحاسة التاريخية، سترى كيف أن ما يبدو أنه فردي، وعابر، يمكن أن يؤثر في الجميع فيما بعد، سوف ترى كيف أن الانهيار، يكون مسبوقاً بأفراد، يقدمون شهواتهم، أو حرياتهم الشخصية، أو فرديتهم، أو أياً من الشعارات الآنية العابرة على حقوق أممهم، ومجتمعاتهم.. سوف تجعلك حاستك التاريخية لا تنبهر بالزهو والازدهار والبريق الذي يخطف العيون، فأنت تعرف أن كل ذلك آني وعابر، وأنه تكرر عبر التاريخ كله..

حاستك التاريخية سوف تخبرك أن ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٦]فالأمر ليس سوى ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٧] عندما تنظر إليه من خارج منظور (الآن وهنا)..

حاستك التاريخية تجعلك ترى ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ [الفجر: ٨٩/ ٦-١٢] فلا يعود الأمر متعلقاً بعاد وثمود وفرعون ذي الأوتاد فحسب، بل بكل حضارة ومدنية ظنت، وظن السائرون في فلكها، أنها ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾. لا يعود الأمر متعلقاً بحكايات قديمة قضت ومضت، بل يصير، مع هذه الحاسة متعلقاً بكل من (يطغى في البلاد).. وكل من (يكثر الفساد)..

.. تمدك حاستك التاريخية بهذا البعد.. تجعلك فوق تفاصيل الانتصار الآني، والازدهار العابر.. تجعلك كائناً تاريخياً، غير قابل للانقراض، لأن حاسته التاريخية هذه ستمنحه المناعة والحصانة تجاه هذا الشعور العابر (بالمكوث)..

حاستك التاريخية هذه هي جزء من دينك، لو أنك فهمته كما يجب أو كما هو.. وهذا أمر يتعارض على الفور مع حضارة الفردوس المستعار التي هي بصدد احتلال رأسك قبل بيتك.. واستنزاف قيمك قبل ثرواتك..

حاستك التاريخية هذه ستستفز أمريكا، التي نشأت بلا تاريخ، وتصورت بسبب هذا، أن لا تاريخ هناك على الإطلاق.. وتحول هذا التصور إلى أيديولوجية ترى أن لا زمن غير الوقت الحاضر presentism. الآن وهنا.

حاستك التاريخية هذه لن تنسجم مع أمريكا التي ليس لديها تاريخ أصلاً، ولا رؤية تاريخية، حتى يكون لها حاسة تاريخية..

ولأن الأمر أكبر من مجرد(تاريخ)، فإن ذلك سيكون حداً فاصلاً بين حضارتين، وبين فردوسين..

تقول لك حاستك إن هناك هدفاً وراء التاريخ، وإن هناك رسالة عميقة في كل حدث تاريخي.. تقول لك إن التاريخ يسير إلى هدف محدد وواضح، وإن كان كل حدث كبير فيه هو تفصيل صغير في تلك المسيرة، ويقول لهم (تاريخهم) إن الأمر هراء وإنه ليس بالإمكان أفضل مما هو كائن الآن، وإن كل مرحلة تاريخية هي الأفضل من التي سبقتها لمجرد أنها انتصرت عليها، فالتاريخ كائن دارويني أيضاً، مثله مثل الإنسان، ومثل الطبقات الاجتماعية، ومثل الدول في صراعها من أجل البقاء..

حاستك التاريخية، ستقول لك: إن التاريخ، في دورانه، ودوراته، وتكرار بعض محاوره، واختلاف بعضها الآخر. في انعطافه، وازدهاره، وانهياره، لا بد أن يكون له معنى، مغزى..

.. وإن هذا التاريخ، المحكوم بقوانين وسنن تسيره، وتتحكم فيه، لابد أن يكون له (آخرة)..

..لا بد أن يكون له نهاية..

الآخرة هي آخرة المطاف، هي نهاية ذلك كله، هي النتيجة النهائية لكل ما مر.. ولأنك تعرف، عبر رؤياك وحواسك، وعبر عقلك (القرآني)-

المبني على الربط بين الأسباب والمسببات - أن هذا الكون كله لم يخرج من ثقب في الحائط..

فإنك تعلم يقيناً، أنه لن يبتلع في غياهب ثقب أسود..

وأنه يسير إلى آخرته، وليس إلى العدم..

حاضر وماض ومستقبل

استخدام مفهوم الآخرة في الخطاب القرآني يختزل ثلاثة المفاهيم الأساسية للزمان.. المستقبل والحاضر، والماضي. الاستخدام القرآني يجعل المفاهيم الثلاثة في حزمة واحدة، (الآخرة) نفسها هي (مستقبل)، زمان لم يأت بعد، ولكن وضعيتك فيها ستتحدد عبر (الماضي)، أو عبر (ماض) بالنسبة إلى تلك الآخرة، وهو في الوقت نفسه قد يكون حاضرك، أو ماضيك، ومستقبلك القريب..

والتفاعل مع هذا المفهوم سيكون عبر هذا الحاضر المضارع المستمر.. الذي يتفلت من بين يديك..

الاستخدام القرآني **لمشاهد الآخرة** خصوصاً هو استخدام معجز جداً، كما في كل شيء مع هذا الكتاب الذي أجهدنا أنفسنا في قتل إعجازه بالتكرار والرتابة ومع ذلك ظل يفاجئنا- كل مرة- بإعجازه المتجدد..

الاستخدام القرآني لمشاهد الآخرة يعكس تحديداً جدلية الماضي والمستقبل، وعلاقتهما المتداخلة، المتشعبة، المتداخلة..

نعم، يتداخل الماضي والمستقبل، بداية التاريخ ونهايته يلتحمان معاً في مشاهد الآخرة التي يميزها النسيج القرآني..

ويعبر في مشاهد قد تبدو للوهلة الأولى أنها للترغيب والترهيب، لكنها في جوانبها الأعمق أكثر من مجرد ذلك بكثير..

كهف مثل قبعة الساحر: لا تنتهي مفاجآته

يمكن لنا أن نرى في سورة الكهف مثالاً على ذلك. (وعلى أشياء أخرى كثيرة أيضاً..) لكن مفهوم الزمان خصوصاً شديد الوضوح في تلك السورة، وهي، كما كل سور الخطاب القرآني، تتعامل بإعجاز خارق لكل عادة..

لا أريد هنا أن أستعرض السورة من هذا المنظور، فذلك سيدخلنا في تفاصيل إعجازها اللانهائي.. لكني سأشير إلى نقاط معينة، تتعلق بمفهوم الزمان، وسنرى أنها ستظل تسير معنا حتى آخر السورة..

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢-٣].

إنه وعد بالمكوث الأبدي إذن.

سيقابل ذلك ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤].

فكرة اتخاذ الله لولد ليست مجرد انحراف عقائدي عن مبدأ التوحيد الصافي والنقي، ولا مجرد اختلاط بالعقائد الوثنية التجسيمية، **بل هي أيضاً فكرة (الآن وهنا) في واحدة من أقدم أشكالها.. وأعقد أشكالها أيضاً..**

هذه الحاجة إلى مفهوم (التجسيد)، تجسد طغيان مفهوم (الآن وهنا) على العقلية التي تؤمن بالتجسد، عبر الإيمان بناسوت هو في حقيقته نسخة آنية (الآن وهنا) من الله الأبدي الأزلي الذي يتعالى عن الزمان والمكان..

وعبر الأزمان، وعبر كل الانحرافات عن عقائد التوحيد، كانت عقلية (الآن وهنا)، والعجز عن التقاط مبدأ (الأبدية) وفهمه.. منبعاً للكثير من الانحرافات والتجسدات والتجسيمات..

.. سنرى في السورة، عبر طولها وعرضها، المفهومين وهما يتواجهان: (الآن وهنا) مقابل الأبدية.. أو الآخرة..

في واحد من المحاور الرئيسية لسورة الكهف، محور فتية الكهف، يتجلى هذا الصراع بين المفهومين، ويتحول إلى واحد من أروع الأمثلة وأكثرها إعجازاً، مع أننا عاملناها كما لو كانت حكاية من حكايات الخيال العلمي..

عرجنا سابقاً على هذا المثال من ناحية أخرى في موضوع البرغماتية، والآن نمر من ناحية أخرى، وتعدُّد المحاور الإعجازية في القرآن ظاهرة فريدة، وجديرة بالاهتمام..

في السورة، نرى كيف أن الأمر قد سار لغير مصلحة الفتية من منظور الزمان العابر، من منظور (الآن وهنا)، منظور معدل العمر الفردي، لكن منظوراً آخر، لن يكون الأبدية بالتأكيد ولن يكون الآخرة، لكنه سيمهد لها، هو الذي سيحسم الأمر. إنه المنظور الذي يتجاوز (الآن وهنا) إلى ما هو أبعد، ثلاثة قرون وأكثر قليلاً.. سنرى كيف أن النتيجة اختلفت، وأن ما بدا أنه انتصار في (الآن وهنا)، لم يعد كذلك في المنظور الأبعد، عندما ضبط البعد البؤري على رؤية شمولية.

سنلاحظ هنا، تلك الإشارة القرآنية إلى الخلاف حول عدد الفتية..

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٢] ما أهمية ذلك حقاً؟ ما أهمية أن يكونوا ستة أو سبعة أو ثمانية أو عشرة؟. ربما تلك تفاصيل قد تبدو مهمة من المنظور الآني العابر- منظور (الآن وهنا)- لكنها ستبدو ثانوية وغير مهمة على الإطلاق إذا كانت الرؤية من منظور أبعد، من منظور ما يبقى، منظور ثلاثة القرون التي مرت، والتي لا يصمد فيها ما هو مهم..

❀ ❀ ❀

سيكون هناك محور ثان، لرجلين وهما يتحاوران (٢٢-٤٣)..

وسيكون هذا المحور مثالاً يتجاوز الأزمنة والأماكن، على الجدل بين من يؤمن بغير (الآن وهنا) من جهة، وبين من يؤمن بالآخرة من جهة أخرى، فقوة (الآن وهنا) مقومات الثروة والجاه جعلت من المؤمن بها يتصور أنها ستكون أبداً مقيماً ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٥].

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٦].. لماذا لا تظن يا هذا؟ لأني أعيش اللحظة. لأني أعيش (الآن وهنا)، ولا أفهم أن هناك شيئاً (آخر) غير هذا.

.. لكن لأن (الآن وهنا) يخدع ولكنه يتفلت، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٢] لقد مرت اللحظة وانتهت، واتضح أنها ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٢]

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٥]، إنها الدورة التي لابد من المرور بها..

النمو، الازدهار، ومن ثم الانهيار: مجرد هشيم تذروه الرياح..

ولكن مع هذا الهشيم، وعلى الرغم من الريح التي تصفر وهي تهدد بأن تفرقه، سيكون هناك ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٦].

إذن ليس كل شيء زائل، ليس كل شيء سيكون هشيماً تذروه الرياح.. هناك ما سيصمد. هناك ما سيبقى. بل سيكون اسمه (الباقيات الصالحات).. ولن يكون مما تهتم به حضارة (الآن وهنا)، ليس الثروة ولا الرصيد ولا الشهرة ولا شيئاً من هذا، إنه شيء آخر يتحدى الخواء،

ويتحدى الهشيم، ويتجاوز اخضرار النبات واصفراره، إلى **(الثمر) الذي يصمد ويظل يمنح للأجيال ما تستمر به..**

❁ ❁ ❁

وفي محور ثالث، نرى كيف أن مفهوم (الآن وهنا) يمكن أن يتسرب حتى لفهم الشريعة، فيجعلها قاصرة، ويقزمها عن حقيقة معانيها العملاقة التي تتجاوز حدود الزمن العابر إلى مفهوم أكثر سعة وشمولية..

فبين موسى وصاحبه (المعروف عندنا بالخضر) يدور ذلك الحوار الشهير في الرحلة الأكثر شهرة (٦٥-٨٢ الكهف) وفي كل نقطة من نقاط الحوار نكتشف كيف أن مفهوم (الآن وهنا) يمكن أن يتسرب إلى تعليمات الشريعة فيقتل مقاصدها ويحجر معانيها الواسعة.

في كل مرة نتوهم أن موسى، وأحكامه التي يصدرها على الأشياء، كان على صواب، فنحن ننظر إلى الأمور من المنظار نفسه، منظار الواقع العابر، (الآن وهنا)، لذلك سنعترض على خرق السفينة، وقتل الغلام، ونطالب بالأجر، لكن منظاراً آخر أخروياً، أكثر شمولية، سيركز في نتائج الأمور وخواتيمها، أكثر مما يركز على تفاصيل (الآن وهنا)..

ولذلك سيخرج من الشريعة بنتائج مختلفة، نتائج تغير الواقع، أكثر مما تتغير به..

❁ ❁ ❁

.. وسيكون المحور الرابع والأخير، هو القمة التي تنتهي بها محاور السورة، والتي بدأت من فتية الكهف المطاردين في (الآن وهنا)، إلى الحوار مع صاحب الجنة، إلى البحث عن المعاني الأكثر قرباً من الشريعة عبر منظور شمولي يتجاوز (الآن وهنا)..

❁ ❁ ❁

أما المحور الأخير، فهو محور حضارة مرتكزة على مفهوم غير (الآن وهنا)، حضارة ترتكز على مفاهيم من بينها مفهوم الآخرة، إن الآخرة من بين ثوابتها غير القابلة للمساومة..

إنها حضارة حقيقية هذه المرة، ليست حلماً أو عقيدة ينادي بها فتية الكهف المطاردون من قبل سلطات مجتمعاتهم، وليست حواراً فلسفياً وعظياً بين اثنين متخالفين، ولا حتى رؤية مختلفة لأحكام الشريعة...

إنها هذه المرة حضارة حقيقية، مشروع بديل، حضارة (ذي القرنين) التي ليس فيها انعزال عن الواقع بدعوى التفرغ للآخرة، بل على العكس، فيها اتباع لأسباب لن تقود إلى الإيمان بـ(الآن وهنا)، بل ستكرس مفهوم الآخرة وتزيده ثباتاً ..﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ، وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٧-٨٨].

صور الآخرة تبدد ظلمة الكهف

الأمر المعجز، أن بين كل تلك المحاور، تبث السورة صوراً من صور الآخرة، تدور مع المحاور، وتسير معها، وتكرس هذا الإحساس الذي يقهر (الآن وهنا) ويتجاوزه إلى ما هو أكثر شمولاً وصموداً..

فبعد قصة فتية الكهف تأتينا ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩].

إنها (أعتدنا) هنا، لقد أعدت النار وانتهى الأمر، وهي الآن معدة. **الآخرة قد بدأت فعلاً. والنار معدة الآن، بينما نحن نتحدث ونتناقش، لقد بدأ الأمر، ربما في بعد آخر، ربما في إطار آخر. لكنه بدأ..**

ثم إنك ستشعر أن سرادق النار قد نصب فعلاً، وأنه أحاط - من الآن، من اللحظة التي تقرأ فيها تلك الآية - الظالمين..

وسيتحول المشهد- عبر هذا الأسلوب- من كونه بعيداً جداً في مستقبل بعيد، إلى مضارع حاضر ومستمر (الآن وهنا)، وستنتقل الصيغة على الفور من الماضي المستعمل في (أعتدنا) إلى المضارع في ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩].

وسيكون ذلك التداخل صفة مميزة، لا لمشاهد الآخرة، في هذه السورة خصوصاً، ولكن لكل مشاهد الآخرة في القرآن عموماً..

وسيكون ذلك له مغزى عميق، يعبر عن ذلك المفهوم المختلف للزمن، والذي يجعل من الآخرة، بوصفها مستقبلاً بعيداً، حاضرة في الواقع الحالي، الواقع المضارع..

بعد مشهد الحوار بين صاحب الجنة وصاحبه تأتي الآخرة مرة أخرى بذلك التداخل بين ما هو مستقبل بعيد وما هو حاضر مستمر وما هو ماض بعيد.. [الكهف: ١٨-٥٣]

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٧] إنه مزج بين صيغة الاستقبال وصيغة المضارع، وفجأة تنتقل الصيغة إلى الماضي ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٨].

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٩].

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٢-٥٣].

هذا التداخل بين صيغتي الحاضر (التي قد تفيد الاستقبال) والماضي، يوحي بذلك المفهوم الراسخ للآخرة، والذي يجعل منها شديدة الحضور في كل صغيرة وكبيرة، فالخطاب القرآني يستعمل صيغة الماضي لتصوير مشاهد من يوم القيامة، مشاهد مستقبلية، أي إنها وفق

مفهومنا للزمان، لم تحدث بعد، لكن القرآن يستعمل صيغة الماضي في الوصف، ليرسخ الأمر، أمر التداخل؛ أَمْرَ أن هذه الآخرة واقعة لا محالة، **بل أنها قد وقعت فعلاً، على منعطف آخر، يسبقنا بقليل، على دائرة الزمن..**

هذا الأمر واضح جداً في سياق الوصف، فالكتاب قد وضع، والمجرمون مشفقون مما فيه، وهم رأوا النار فعلاً فظنوا أنهم مواقعوها..

استعمال (الماضي) لوصف المستقبل، يفيد التقريب والتأكيد كما يقول علماء اللغة.. لكنه أيضاً، وفي سياق السورة بكليتها، وفي نطاق ارتباط تلك المشاهد بمحاور السورة، فإنه يرمز إلى أكثر من هذا بكثير..

إنه يرمز لمفهوم خاص بالآخرة، وبمفهوم خاص للزمان، يتداخل فيه المستقبل مع الماضي مع المستقبل..

.. وتبلغ قمة مشاهد الآخرة، مع نهاية السورة ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٩٩-١٠٠]

لقد (تركنا).. انتهى الأمر إذن. لقد تركوا هناك، ولقد نفخ في الصور، حتى إنك ستظن أنك سمعت النفخة، وأنك قد جمعت معهم (جمعاً)..، وجهنم عرضت للكافرين عرضاً.. وهي قد عرضت حتى إنك تكاد ترفع رأسك لتراها.

وستحاول أن تعرف أي (نزل) هو لك، هل هو جهنم التي ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٢]. أم نزلك سيكون جنات الفردوس ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٧].

وسيكون ذلك التداخل بين ما هو قادم، وما هو ماض، علامة مميزة لذلك المفهوم المميز المعجز للزمن، وللآخرة خصوصاً، وعلاقتهما

بالحاضر الذي لن يعود عابراً كما هو الآن مع حضارة (الآن وهنا) ومفاهيمها..

وما إن تفهم ذلك مع نهاية السورة حتى تفاجئك آية، وأنت متلبس الشعور ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٩].

نعم، سينفد البحر، بحار العالم كلها تنفد، ولكن هذا الإعجاز لن ينفد..

المهم أن نستخرجه.

الثلاثة في واحد، وقد صارت شعيرة

ومع أن الأمر سيبدو غريباً جداً، إلا أني أزعمه، بل وأؤكده؛ لدينا في الإسلام شعيرة، أو بالأحرى فريضة، تضع هذا المفهوم الزماني- الأخروي في إطار شعائري تعبدي..

نعم. هناك فريضة إسلامية، تعبر عن هذا المفهوم المعقد الذي تحار الكلمات في التعبير عنه.. أما تلك الفريضة، فتأتي به على الفور، دونما (أدلجة)، دونما تعقيدات ودونما تصعيدات لفظية.. تلك الفريضة، تقدم ذلك المفهوم، في إطار شعائري يؤديه الملايين كل عام، ومئات الملايين عبر الأعوام، لن أدعي أن هذه الملايين تفهم ما تريده الفريضة، ولن أدعي هنا أن هناك شعارات على هذه الفريضة تشير إلى مفهوم الزمان، والتاريخية، والآخرة..

لا ، لن يكون هذا إلا افتراء، لكن تلك هي مشكلة الملايين- وبالأخص مشكلة الوعاظ ورجال الدين الذين تسلطوا على هذه الملايين وادعوا احتكار مفاتيحه وتأويله- وليست مشكلة الفريضة بحد ذاتها..

الفريضة؟ مرة أخرى هي ركن من أركان الإسلام. لو أردت أن أفبرك أو أصطنع شيئاً لما أتى بهذا الإتقان.. لكنه صنع الله الذي أحسن كل شيء صنعه..

الركن الخامس عندنا، يقابل ذلك الثابت الخامس عندهم..

وممكن جداً، أن يتسرب ثابتهم إلينا، ونبقى نحن نؤدي ركننا الخامس، دون أن نشعر بأي تناقض، بأي تعارض..

ذلك أننا لم نفهم من الشعيرة غير طقوسها..غير تفاصيلها الظاهرية، لم نفهم غير القشور، ولم نحاول أن نتعمق في المعنى، اللب، منها.. ولذا يبدو ظاهرياً أن لا تعارض..

❁ ❁ ❁

إنه الحج طبعاً؛ تلك الفريضة الخامسة، الركن الخامس من أركان ديننا الذي تعودنا أن نسوره بمفاهيم معينة آن الأوان لإعادة النظر فيها..

فالحج، في نظر كثيرين، هو لكبار السن، وأولئك الذين أشرفت أعمارهم (تقريباً على الانتهاء)، وهو بذلك فرصة لإلغاء الذنوب التي تراكمت عبر سنيّ أعمارهم..، والاستعداد للموت عبر صفحة ذنوب فارغة إلا من تلك التي سترتكب بعد الحج وقبل الوفاة..

يعامل الحج كما لو كان طقوساً مجردة من معانيها، انطلق من هنا وأنت ترتدي كذا، وإياك أن تنسى التلفظ بالنية، وادع كذا عند هذا، يفضل أن تبدأ بكذا قبل أن يدخل وقت الغروب من يوم كذا، تفاصيل، تفاصيل، تقدم مجتزأة عن معانيها، ومنفصلة عن أسبابها، وشبح (الكفارة) يخيم على الرؤوس خشية الخطأ أو السهو..

وإذا تجرأت وسألت عن تفصيل، سيأتيك ذلك الجواب الذي يستند على فعله عليه أفضل الصلاة والسلام، كما لو أنه فعل شيئاً دونما قصد

أو معنى، حاشاه، كما لو أن سنته عليه الصلاة والسلام كانت منفصلة عن عملية إعادة تكوين الواقع...

نعم، هذا ما فعلوه بكل الفرائض والأركان، والحجّ ضمنها. تاهوا في التفاصيل والهوامش، وضاعوا عن العناوين الرئيسية. بذلوا جهداً كبيراً في فروع الفرعيات، وفي تفاصيل التفصيلات، وتركوا اللب الأصلي...

لكن ذلك، يجب ألا يستمر أكثر من هذا، خاصة بعدما وصلنا إلى ما وصلنا إليه..

رحلة الحج رحلة في التاريخ

تأخذنا فريضة الحج إلى نبي الله إبراهيم، تأخذنا على الأخص إلى رحلته تلك، التي رأيناه يخرج فيها أولاً من كل المكرسات التقليدية الآفلة التي استخدم عقله ليرفضها، ورأيناه يخرج من مسقط رأسه متجولاً بين حضارات العالم القديم باحثاً عن شيء ما، عن مجتمع ما، عن فردوس مفقود ما؛ كان يريد، عبر رحلته تلك، أن يستعيده.

ستتذكر كيف أنه تجول بين تلك المدنيات، وكيف أن ظلمها وطغيانها وفسادها دفعه بعيداً عنها، متيقناً أن الفردوس المستعاد لن يكون هناك..

وستذكرك تلك المدنيات بمدنيات اليوم، بظلمها وطغيانها وفسادها، ستشعر أن الأمر لم يتغير كثيراً على الرغم من مرور آلاف السنين على رحلة إبراهيم، كل الذي تغير هو القشور والمظاهر والأدوات، لكن جوهر الظلم والطغيان الذي رآه إبراهيم ظل نفسه..

سيبدو لك طريق الحج إلى مكة مختلفاً، إذ إنه سيكون الجزء الأهم من رحلة استعادة الفردوس، سيكون ذلك عندما وعى إبراهيم حقيقة أن الفردوس المستعاد لن يكون في تلك المدنيات التي تبدو زاهرة على

الرغم من خوائها الداخلي، بل سيكون في تأسيس مجتمع من نوع آخر، في بذر أساسات جديدة لحضارة مختلفة.. في مكان سيبدو للوهلة الأولى أنه غير مهيّأ لاحتواء تلك البذرة ونموها..

مكان أجرد غير ذي زرع، لن يصلح حتى ليكون تجمعاً لسكان، فكيف يصلح أن يكون بذرة لحضارة جديدة..؟

نعم، هذا ما سيبدو للوهلة الأولى، وفق مقاييس كل المدنيات الأخرى وقيمها..

لكنه لن يكون المقياس نفسه هذه المرة مع الحضارة الجديدة، ومع الفردوس المستعاد، بل سيكون هناك ميزان جديد لكل الأمور..

وها أنت ذا تحاول أن تستعيد هذا الميزان، من أجل أن تستعيد ذلك الفردوس..

وها أنت ذا، عبر الحج، تقتفي خطوات إبراهيم، عندما وضع قدميه على الطريق الصحيح، عندما عدل عن البحث في المدنيات الأخرى، بعدما خبرها وعرف ثوابتها، وانطلق نحو تأسيس حضارة جديدة بثوابت مختلفة..

ها أنت ذا تضع قدميك على الطريق نفسه، تلتفت برأسك يميناً وشمالاً بين مدنيات اليوم، ثم تتوجه نحو ذلك الطريق الذي سار فيه إبراهيم ليضع فيه حجر أساس مختلفاً، ومميزاً، لحضارة أخرى.. هي الفردوس المستعاد..

..وها أنت ذا تضع قدميك على الطريق نفسه..

ويربطك ذلك على الفور بتاريخ سحيق العمق لدرجة أنك لا تعرف- ولا أحد يعرف- مدى عمقه..

فعلاً، لا أحد يعرف متى كانت تلك الرحلة الإبراهيمية، خمسة آلاف سنة من الآن، أو أقل أو أكثر.. لا أحد يعرف لها تاريخاً محدداً.. وهذا يزيد من عمق الأمر، إنك ترتبط (بالتاريخ) هنا بشكل مطلق ودون أن تدخل في تفاصيل السنين والقرون التي تفصلك عن الحدث، وسيذكرك ذلك بالتفاصيل غير المهمة عن عدد فتية الكهف التي تترفع عنها السورة لتركز على ما هو مهم..

نعم، ها هو ذا الحج، ذلك الركن الخامس، يربطك بتاريخ عميق سحيق، يجعله فريضة، يجعله شعيرة..

يقول لك إنك لم تولد البارحة، وإن قيمك ومثلك لم تولد البارحة، وإن خلفك تاريخاً طويلاً عريضاً.. وإنك لا يمكن لك أن تتخلى عنه، إلا إذا قررت أن تتخلى عن دينك، عن أركانه.. واستبدلت به مجموعة قيم أخرى، تفتقد التاريخ، وتفتقد الحس التاريخي، بل وأكثر من ذلك، تعد التاريخ عبئاً ثقيلاً لا جدوى منه، والمهم هو (الآن وهنا)..

ولعله من المهم هنا، الإشارة إلى أن مناسك هذا الحج، هذه الفريضة، لم ترتبط في أي تفصيل من تفاصيلها، برحلة قام بها الرسول عليه الصلاة والسلام. كان يمكن مثلاً أن يكون هناك في المناسك تمثل لرحلته عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة مهاجراً، وواضعاً لأسس المجتمع الإسلامي، والحضارة الإسلامية..لكن ذلك لم يحدث، لأنه لو حدث وقت الرسول عليه الصلاة والسلام لكف عن أن يكون (تاريخاً عميقاً).. بل لصار مجرد حادثة قريبة- (معاصرة) لزمن الرسول ﷺ- لكن مناسك الحج ألقت بجذورها بعيداً منذ ذلك الوقت، لقد كان الأمر تاريخاً منذ يومها- وكان آلاف السنين منذ يومها- كان تواصلاً بين التاريخ والحاضر (الحاضر الذي صار تاريخاً فيما بعد) ..**وسيظل الأمر كذلك،**

ستظل تلك الفريضة تمثل ذلك التواصل التاريخي الذي يمتد إلى آلاف السنين إلى حيث أول مجتمع قام على التوحيد..

.. ستدخلك مناسك تلك الفريضة، في مناخ خاص، قد يكون غريباً كما تعودنا، لكنه في حقيقته منسجم أشد الانسجام مع قيم الفردوس المستعاد.. منسجم بشكل خاص مع استعادة ذلك الفردوس المفقود..

منذ أن تدخل في نية (الإحرام) ستعرف أن الأمر جد، وأنك ستترك كل شيء وراءك، وستقول لك تلك التفاصيل الصغيرة المتعلقة بقص الأظافر والشعر وعدم التطييب: إنك هنا تدخل مرحلة تتبدل فيها أولوياتك، وإن تلك الأمور المتعلقة بجسدك ستكون هنا محض توافه لا قيمة لها، وإنك ستنقطع عنها لأنك ستدخل مرحلة جديدة؛ مرحلة عليك أن ترتفع فيها عن أظافرك وشعرك وجسدك إلى ما هو أعمق من ذلك.. ربما إلى داخل رأسك، أو في أعماق روحك..المهم أنك ستترك الأجزاء الظاهرة، أظافر وشعراً وجلداً لن تطيبه.. لتدخل إلى ما هو أعمق..

وعندما تقوم بجمع الماء في منسك (التروية) فإن ذلك سيذكرك بصعوبة الأمر يوم كان..، سيذكرك بذلك الجهد الذي بذل، والمشاق التي اجتيزت..

سيذكرك جمع الماء، في تلك الصحراء الجرداء، كيف أن الأمر هو بالأساس عن أساسيات الحياة، عن ثوابتها، عن أولوياتها، سيأخذك ذلك من أوهامك التي بثتها حولك حياتك وتفاصيلها، وسيرجع بك إلى ما هو أساسي ومهم ولا يمكن لحضارة أن تقوم من دونه... وستشعر كيف أن الأمر كان صعباً آنذاك، مثلما هو صعب الآن..

.. وعندما تجمع الحصى، سيذكرك ذلك بأنك دوماً يجب أن تكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن قيمك ومعتقداتك، **وأنه حتى لو لم يكن هناك**

خطر (داهم).. فإن هناك دوماً خطر (كامن).. سيذكرك جمعك للحصى بأن درب استعادة الفردوس لن يكون بلا محاولات ممن أزلك وأخرجك من الفردوس في المقام الأول لكي يزلك عن درب استعادته.. سيذكرك جمعك للحصى، بأن الخير والشر، سيظلان يتصارعان في هذه الحياة، وأن كلاً منهما سيرى مداً، وسيمر بجزر، والمهم أن تعرف أنت مع من تقف..ومع من سيكون مدك وجزرك..

.. وسيذكرك رميك للجمرات، والطريقة التي تؤدي فيها ذلك، وتحريك إصابة الهدف، بأنك يجب أن تحدد عدوك وتعرفه.. وتميزه..

سيذكرك ذلك بأنك جزء من الصراع، شئت أم أبيت، وأنك مهما حاولت أن تسير قرب الحائط، (كافياً خيرك وشرك) فإن الأمر سيظل يشملك، شئت أم أبيت.. وسيظل عليك أن تحدد عدوك ومكانه وماذا يريد منك.. سيظل عليك أن تكون مستعداً...

وستذكرك (الحصى الصغيرة) التي تقضي المناسك بأن تجمعها، أن الأمر ليس بالحجم وبالضخامة، التي قد تؤذي الآخرين من أصحابك.. وإنما هو التوازن والانتقاء الذي يحميك ويحميهم، ويؤدي في الوقت نفسه دوره ضد الشر ورموزه.

ستذكرك تلك الحصى الصغيرة، بحقيقة أن دورك بوصفك فرداً لن يكون مؤثراً في الصراع إذا عزل عن دور الآخرين، الذين سيكون دورهم أيضاً غير مؤثر إذا عوملوا أفراداً معزولين، لكن الحصى الصغيرة، إذا اجتمعت، إذا توحد هدفها، إذا اتجهت بالرمي نحو هدف واحد.. تصير ذات تأثير بالغ جداً..

ستذكرك الحصى الصغيرة أنها لن تكون مؤلمة ولو قليلاً إلا إذا قيس أثرها عندما تجمع، أثرها التراكمي الذي يعكس ذوبان الفرد في الجماعة، واللاأنا) في (نحن)..

.. وسيذكرك تعدد مواقع رمي الجمرات، أن عدوك لن يكون له عنوان واضح أو ثابت، وأنه يغير وجوهه دوماً، وأنه يغير شعاراته، وراياته، وأنه قد يتستر أحياناً خلف شعارات جذابة، لكن ذلك لن يغير من حقيقة جوهره..

ستذكرك الحصى الصغيرة، وأنت ترمي بها نحو رمز الشر، أن المواجهة بينك وبين الشر لا تشترط - بل إنه على الأغلب لا تستلزم- مواجهة عسكرية، بل إنها قد تكون مواجهة قيم، مواجهة خيارات، مواجهة وجود مجتمع بديل وخيارات بديلة..

.. وسيذكرك استلامك الحجر الأسود بحقيقة أنه مجرد حجر، لا ينفع ولا يضر، ولكنه (الحجر الأساس) الذي وضعه إبراهيم ليكون اللبنة الأولى لذلك المجتمع المختلف، اللبنة الأولى لتلك الحضارة التي ستقوم، لأول مرة، على التوحيد، على فكرة التوحيد للإله الواحد الأحد..

سيذكرك الحجر الأسود - وعلى الأخص بكونه ظل حجراً أسود متمايزاً عن بقية بناء الكعبة- أنه سيظل حجراً أساساً لبناء سيظل يتطاول.. لبناء سيظل مستمراً، وسيكون استلامك له كجزء من المناسك بمنزلة تحملك لمسؤولية هذا البناء، على أساس هذا الحجر..

..وستذكرك أشواط الطواف حول الكعبة، بأن الأمر كله، في هذا الدرب، درب الاستعادة والبناء، يتمحور حول هذا الحجر الأساس الذي وضعه إبراهيم، وأن كل القيم، وكل الثوابت، ستكون منبعثة من ذلك الحجر الأساس: التوحيد.. بأوسع معانيه وأشملها وأسماها...

سيذكرك الطواف، أن الأمر ليس بالقرب أو بالبعد بمقدار ما هو بالدوران حول المحور، حول البؤرة.. حول المنطلق الواحد ...حول حزمة ثوابت لن تتغير..

ستطوف وتطوف، وسيكون الرقم (سبعة) هنا ترميزاً للتكرار والاستمرار، سيكون طوافك هذا بمنزلة رحلة حياتك المفترضة كلها، وفي كل مرة، تقترب فيها من الحجر الأسود، ستستلمه مجدداً، كما لو **كنت تبايع تلك القيم، وتجدد تلك البيعة، مرة تلو مرة تلو مرة..**

وسيذكرك السعي بين الصفا والمروة، بلحظات الشدة التي مرت به التجربة الإبراهيمية، وستذكر جزع هاجر، وخوفها على وليدها من الموت عطشاً، وستعلم هنا أن الأمر ليس مجرد طفل رضيع تخاف أمه عليه، بل **إنه تجربة حضارية، وقيم كاملة، علينا أن نخاف عليها، ونحميها، ونسعى من أجلها، كما تخاف وتحافظ وتسعى أم حنون على طفلها الباكي..**

وسيذكرك النحر، وتوزيع الأضاحي على الفقراء، بحقيقتين أساسيتين، أولاهما أنك **أنت السيد في هذا العالم، وأن هذا العالم بثرواته وموارده ومخلوقاته، قد خلق من أجلك..**

وثانيتهما، أن تصرفك أنت، في هذه الموارد والثروات، يجب أن **يظل محكوماً بتوازنات العدالة الاجتماعية ومتطلباتها..**

وسيذكرك التحلل من الهدي، وعودتك لتفاصيل جسدية صغيرة، أنك بعد كل شيء إنسان، وأنك لم، ولن، تدع رهبنة وتبتلاً لم تصمم أساساً من أجلها، كل ما في الأمر أن أولوياتك مختلفة، وأن جسدك، موجود على قائمة اهتماماتك، لكنه ليس أولها..

❊ ❊ ❊

.. إنه التاريخ، بل عمق التاريخ، ممثلاً في فريضة.. ممثلاً في شعيرة تعبدية، تؤديها، إذا بك ترتبط بعمق التجربة الحضارية التاريخية.

وإذا بالحاضر الذي تعيشه، الآن وهنا، يتمثل ذلك التاريخ ويتقمصه؛ إذا بالتاريخ يعود حياً، ينفض عنه غبار الزمان، غبار القرون المتطاولة،

غبار آلاف السنين، ويعود ليسكن الحاضر، هذه اللحظة خصوصاً، من خلالك أنت..

إنه التاريخ، لم ينته كما يزعمون، بل لا يكف عن الاستمرار.. عبر فريضة، تنتقي من التاريخ تجربته الأهم.. وتجعلك عضواً فاعلاً في هذه التجربة..، والأهم من هذا أنها تجعلك عضواً فاعلاً في هذه التجربة..، والأهم من هذا أنها تجعلك تستلهم هذا التاريخ، في تغيير هذا الحاضر..

(أو هذا على الأقل، هو ما يجب أن تكون عليه الأمور).

لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، مع هذه الفريضة، فهي لا تكتفي بوضع التاريخ في الحاضر من أجل إنشاء مستقبل آخر.. بل إنها أيضاً، تضع كل ذلك ضمن مناخ أخروي، يجعلك تدرك، وأنت على المحك، أن (الآخرة)، فكرتها وحقيقة وقوعها والإيمان بها، كان موجوداً خلال كل تلك الرحلة، تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً..

ستكون الآخرة هناك في كل المناسك، تتغير المناسك، وتتدرج من واحدة لأخرى، ولكن تظل الآخرة موجودة في كل التفاصيل، تظل الآخرة، فكرتها وحقيقتها، جاثمة هناك، قريبة عليهم، بمثل قرب جلدك إليك..

بالضبط ستكون الآخرة تلبسك.. تتلبسك..

كيف؟.

ببساطة شديدة، ودونما تعقيدات أيديولوجية، أو عمليات (غسيل مخ مدعومة)، سيكون ذلك عبر ملابس الإحرام، التي سيرتديها الجميع قطعاً وحتماً في تلك الرحلة، والتي لن تكون في حقيقتها سوى (أكفان)، بل ستكون بالضبط، كأكفان، لوناً وهيئة وتفصيلاً، وسيتساوى الجميع في هذا؛ الغني والفقير، العالم والجاهل، الكبير والصغير، الأمير والفقير،

الجميع سيتساوون مع ملابس الإحرام، كما سيتساوون مع تلك الحقيقة التي لن تجامل أحداً بلا استثناء: الموت...

سترتدي كفنك، سيكون اسمه هذه المرة ملابس الإحرام، وسيرتدي الآخرون أكفانهم أيضاً، رجالاً ونسوة، سيكون اسمها ملابس الإحرام.. ستضيع الفوارق كلها هنا، ستضيع الألقاب. ستضيع الشهادات. ستضيع المظاهر، ستخلف وراءك كل ما كان يميزك ظاهرياً من غيرك..

ستخلف قناعك وجاهك وعزك ورياءك، لن يبقى مع كفنك هذا سوى حقيقتك الداخلية، حقيقتك التي طالما أخفيتها عن الآخرين، وستلاحظ- في زحام المكفنين من حولك- أنك تشبههم جداً، وأنك لا تكاد تميز نفسك عنهم، وأنهم قد يكونون داخلياً، وعلى المحك، أفضل منك، وسيضعك ذلك كله في لحظة الحشر، عند البعث، والناس قد خرجوا للنشور ليس عندهم غير حقائقهم.. ليس عندهم غير ما فعلوا حقاً، بغض النظر عما ادعوه..

سيغير ذلك من الأمر كله. ها أنت ذا **تعبر الحاضر**، **متقمصاً التاريخ**، **ومتلبساً الآخرة**..

سيكون الأمر كله مثل صيغة جديدة تضع المفاهيم كلها في عبوة واحدة.. (ثلاثة في واحد)..

التاريخ، التاريخ السحيق العميق، الحاضر، الآن وهنا، والآخرة.. تلك الحقيقة الواقعة لا محالة..

وسيكون ذلك كله عبر تلك الفريضة- التي ستبدو مجرد شعيرة تعبدية للوهلة الأولى- الركن الخامس، ثابتنا الأخير الذي من دونه لا يقوم البناء..

واجه ذاتك بدلاً من ان تتهرب منها

ولن يكون من قبيل المصادفة أن يؤدي الانغماس في الحاضر، ومفهوم (الآن وهنا) إلى الانغماس في اللذات والمزيد منها، ومن ثم الانغماس في الكحول والمخدرات، تهرباً من إحباطات قفص (الآن وهنا)..

سيكون (التهرب) ظاهرة من ظواهر (الآن وهنا) عبر تلك العقاقير والمخدرات والكحول، التي يستهلكها المجتمع من أجل خلق عالم أكثر رحابة وسعة من قفص المادية الذي حدد الآفاق والخيال..

..وعلى العكس من ذلك: فإن مفهوم الآخرة، عبر شكلها الفرائضي في الحج خصوصاً، سيؤدي إلى (مواجهة الذات) بدلاً من الإنكار..

فبينما أنت هناك، فإنك لن تهرب من أي شيء اقترفته، حتى تلك الأشياء التي اقترفتها وأنكرتها ليس أمام الآخرين فحسب، بل أنكرتها حتى أمام نفسك، حتى هذه الأشياء ستتذكرها هنا، وستعترف بها، **من أجل أن تنجو منها، من أجل أن تغفر لك، من أجل أن تمسح من صحيفتك..**

بدلاً من ذلك (الإنكار) الذي يميز حضارة (الآن وهنا)، هنا توجد فرصة لمواجهة الذات..

..وبينما تؤدي (الآن وهنا) إلى الولوغ في عالم المتع الحسية، وإلى التطبيق العملي والجماعي لفلسفة اللذة HEDONISM، فإن المفهوم الإسلامي البديل، الذي يتجسد عملياً في الركن الخامس، يقود إلى متعة أخرى، متعة تتجاوز الحواس الخمس، وتتجاوز كل المفاهيم المادية للاستمتاع..

.. ربما لن يكون ذلك مفهوماً حسب مقاييس الاستمتاع والتلذذ التي يسير العالم وفقها اليوم.، لن يكون هناك في مكة جبال تخلب الألباب

وشلالات تفيض سحراً، ولن يكون فيها مناظر طبيعية دائمة الخضرة.. إنما هي جبال جرداء في واد غير ذي زرع..

مع ذلك، وربما بسبب ذلك، سيكون هناك نوع آخر من اللذة والمتعة، شيء آخر يتجاوز كل ما هو معلوم ومعتاد من لذات الحس والجسد، **ستكون هنا تلك الرعشة القصوى التي لا توجب غسلاً، بل إنها تغسل الروح وتطهرها، ترفعها في سماوات النشوة السبع وفضاءاتها اللامتناهية..**

يحدث ذلك على الرغم من الزحام، على الرغم من أن لا مناظر طبيعية، على الرغم من أن كل ما تعودناه من مفاهيم المتعة غير متوافر..

لكنه يحدث، وإذا بالروح والجسد يحلقان معاً عبر اللحظة العابرة إلى التاريخ العميق، وإلى الأبد السديمي في آن واحد....

وإذا بالنشوة القصوى تمر في الروح والجسد في آن واحد.. فإذا بها متعة أخرى مختلفة كماً ونوعاً عن كل تلك المتع الصغيرة التي تعود الناس على الانغماس فيها وبرمجة حياتهم الآنية على أسسها..

.. ولذلك فهم يتجشمون عناء تلك الرحلة، مرة، بعد مرة، بعد مرة..

صرخة مريرة من أجل حقنا في التساؤلات والأجوبة

أود هنا، أن أصرخ صرخة مريرة في وجه المؤسسة الدينية التقليدية، التي حرمتنا من التساؤلات، وحرمتنا من ثم من معرفة الأجوبة، وجعلتنا نؤدي الطقوس والشعائر دون أن نعرف كم هي عميقة، ودون أن نعرف أن عمقها هذا هو الهدف الأساسي من تلك الشعائر..

أصرخ تلك الصرخة، الطويلة المريرة، وأنا أتذكر ملايين الحجاج عبر السنين، عشرات ومئات السنين، ووعاظنا الكرام يفتون أن افعل كذا

ولا تفعل كذا، ويغرقون ويغرقوننا معهم في دوامة تفاصيل، وفي كل خطوة أربعة أقوال مختلفة، كلها تدعي وصلاً بسنة محمد عليه الصلاة والسلام، وسنة محمد لا تقر لأي قول بذاك، فهي لا تتصل بغير المقاصد..

.. أصرخ صرختي، وأنا أتذكر كيف أن تلك التفاصيل شوشت دوماً على المقاصد، وألهت الملايين، بل مئات الملايين، عن السبب الحقيقي وراء تلك الشعائر..

إنها صرخة طويلة ومريرة..لكنها ليست محبطة..

نعم، الآن، وقد وصلنا إلى ما وصلنا إليه، فصرختي، فيها من التحذير أكثر مما فيها من الإحباط..

بعد كل هذا، هل يكون غريباً أن تفتتح سورة الحج، لا بالحديث عن الشعائر أو الطقوس، بل ببساطة عن الآخرة، فهي المقصد الأساسي من الفريضة؟.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ١-٢].

الآخرة، وارتباطاتها الزمنية، عبر تاريخ عميق عريض، هي بمنزلة الثابت الخامس، بوجه ثابت الفردوس الأمريكي المستعار، الذي يرى أن لا شيء غير (الآن وهنا)، وأن ليس هناك غير حياة واحدة هذه التي يعيشها الإنسان، فليغتنمها بالتمتع بالحواس واللذات..

الآخرة، والحس التاريخي المرتبط بها، الذي يقول لك إنك لم تخلق عبثاً، وإنك لم تخرج من ثقب الحائط لتسقط في النهاية في ثقب أسود،

هي ثابتنا، بوجه ثابتهم الذي يلغي التاريخ، لأنهم ببساطة لا يملكونه.. وحتى لو مضت القرون على بنيانهم، فسيظلون بلا تاريخ، لأن فكرتهم من ثوابتها إلغاء التاريخ، وعدّه إما منتهياً، كما فوكوياما، أو مرحلة تاريخية، تنتصر على أخرى، كما داروين..

إنه ثابتنا، مقابل ثابتهم..

خمسة مقابل خمسة.

خمسة أركان وثوابت، مقابل خمسة أركان وثوابت.

الشهادة التي تعني الإيمان بالغيب، كانت الثابت الأول ضد ثابت المادية التي لا ترى غير تلك القمة الطافية من جبل الجليد، وتتجاهل كل ما هو غاطس في العمق، لمجرد أنها لا تراه بالعين المجردة..

والصلاة، التي تعني ذوبان الفرد داخل الجماعة، كانت الثابت الثاني، ضد ثابت الفردية الأساسي والمهم في تكوينهم الحضاري، الذي يرى الفرد أولاً، **وأن الفرد هو المقياس، وأن المجتمع ليس سوى شركة لتنظيم خدمة الأفراد..**

والزكاة، التي تعني التدخل من أجل إحداث التوازن بين الفقراء والأغنياء، هي الثابت الثالث، مقابل رأسمالية ترى أنه يجب عدم التدخل، وترك (السوق) كما هو، وترك العرض والطلب ينظمان الأمر، وسيؤدي ذلك إلى المزيد من الأرباح.. وهذا هو المهم..

..الصيام، الذي هو الانقطاع عن الاستهلاك، هو الثابت الرابع، **مقابل الاستهلاك بلا حدود**، الذي صار ركيزة أساسية من ركائز حضارة السلع الاستهلاكية.

والآخرة، ومفهومها الزمني التاريخي، **الممثلة بالحج، هي الثابت ..**

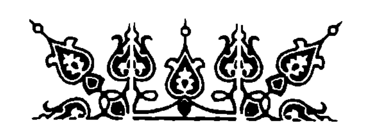
الخامس، مقابل حضارة (الآن وهنا)، وحضارة إلغاء التاريخ، وحضارة الانغماس بالمتع الجسدية..

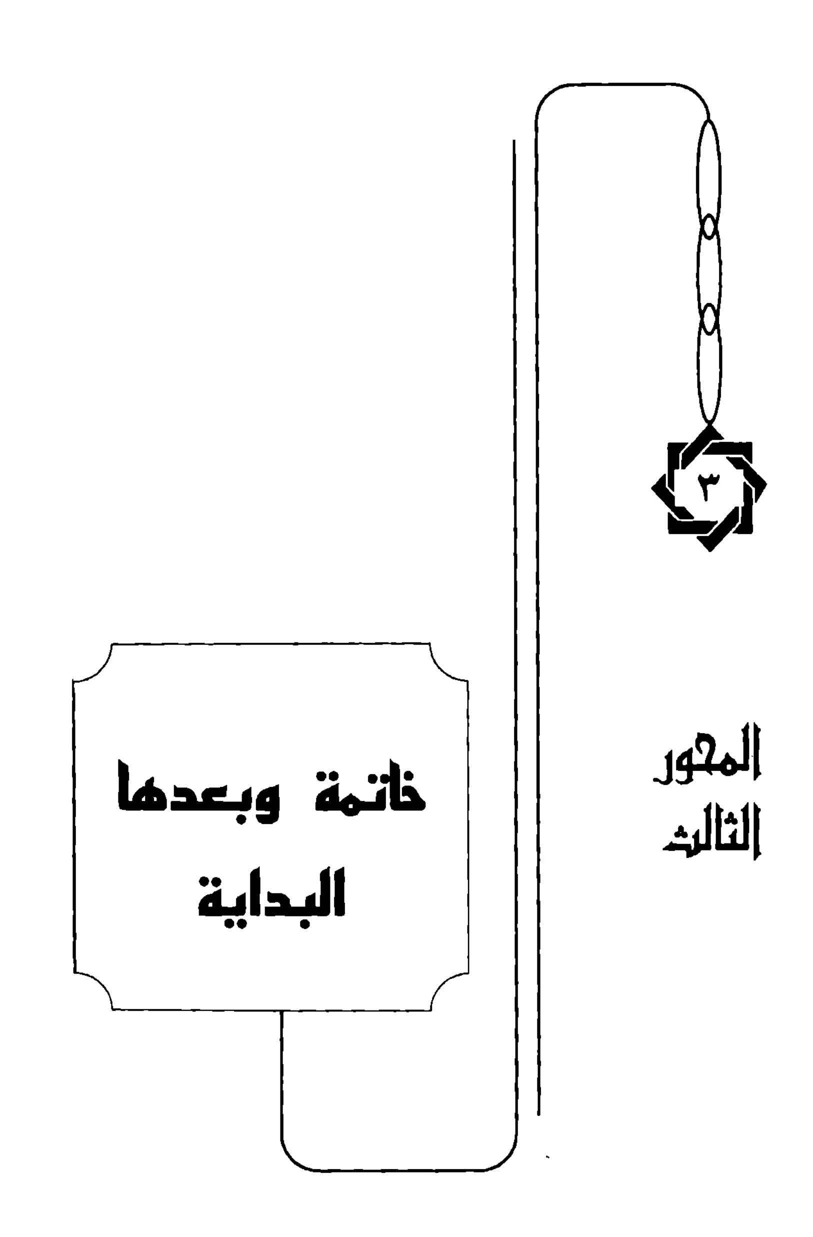
خمسة مقابل خمسة..

ولا أظن، أن تأدية تلك الأركان شعائرياً، على أنها مجرد طقوس، بمعزل عن معانيها، ومقاصدها سيجعل منها أركاناً حقاً كما أرادها الله أن تكون لذلك البنيان..

الفرائض، دون هذه المعاني، لن تكون أركاناً أو ثوابت، بل سيكون البناء كله مجرد هيكل فارغ معرض للانهيار في أي لحظة.. ولكن عندما نهضم المعاني العميقة المبثوثة عبر تلك الفرائض، فإنها تكف عن كونها مجرد فرائض.

.. وتتحول إلى أركان..




٣
المحور
الثالث
خاتمة وبعدها
البداية

خاتمة وبعدها البداية

.. لكن هذه المواجهة بين الثوابت، خمسة مقابل خمسة، لن تكون إلا في رؤوسنا.

حلبة الصراع والمواجهة لا تستلزم أبداً أن تكون في الحروب وساحات القتال، أدواتها أبعد ما تكون عن القاذفة، والبارجة والصاروخ والكلاشنكوف والسيارة المفخخة..

(ناهيك عن طائرة ركاب مدنية..!!!).

حلبة الصراع هي في الرؤوس، فيما تحويه الرؤوس من أفكار وقيم ومبادئ. حلبة الصراع هي في المشروع الحضاري، في البدائل الحضارية، والانتصار الحقيقي، أو الهزيمة الحقيقية هناك، **في الرؤوس والعقول..**

بمعنى آخر، إن أمريكا، قد تتعرض لهزيمة عسكرية، لهذا السبب أو ذاك..، ذلك أمر غير مستبعد، وقد حصل عدة مرات خلال العقود الماضية-(مع أن ظاهرة انعدام الحس التاريخي قد تمنع بعضهم من ملاحظة ذلك)، لكن الهزيمة العسكرية لأمريكا غير مهمة على الإطلاق **إذا لم يصاحب هذه الهزيمة مشروع حضاري بديل للمشروع الأمريكي..**

.. وبعبارة أخرى، لا فائدة من انسحاب القوات الأمريكية، ومن إخلائها لقواعدها، إذا كانت قواعدها الأصلية، راسخة بثبات، في

الرؤوس والعقول.. لا فائدة حقاً من نزول العلم الأمريكي من السارية، إذا كان الحلم الأمريكي متربعاً في الأذهان..

ليست هذه دعوة لبقاء القوات الأمريكية نظراً إلى أن الأمر سيان، سواء خرجوا أو بقوا، أو دخلوا محررين أو فاتحين..

لا ، ليست هذه دعوة لذلك أو لتبرير ذلك، لكنها تذكرة بأن الصراع الحقيقي، والصراع المهم ليس عسكرياً في حقيقته، لكنه صراع قيم وأفكار ومبادئ حضارية، وإذا كان هناك (طرف ما) قد تعمد إشعال الصراع العسكري، فإن ذلك يجب ألا يلهينا عن الجوانب الأكثر أهمية من الصراع.. مع أن غبار المعركة وضجيجها، وضوضاءها، يزيد من التشويش على التحسس للقيم والثوابت الحضارية..

الأخطر من هذا حقيقة لا بد من التذكير بها، وهي أن (المتصارعين عسكرياً)، ليسوا بالضرورة متعادين حضارياً، قد يكون لهم من القواسم المشتركة أكثر بكثير مما قد يتبادر للذهن بالنسبة إلى المتصارعين أنفسهم أو المتفرجين عليهم.

لا أقصد هنا الإشارة إلى مؤامرات خفية تربط بين تلك الأقطاب المتصارعة في العلن (على الرغم من أن هذه الإشارة قد قيلت مراراً وتكراراً بناءً على علاقات ربطت تلك الأقطاب المتصارعة في الماضي فعلاً)..

ما أقصده هو، أن المثيلين قد يتصارعان أيضاً، مع أن لديهما قيماً مشتركة، بل إن ذلك كثيراً ما يحدث، حيث تختلط المنافسة والمصلحة وتؤدي إلى الصدام ثم الصراع..

وحقيقة أهم هي أن الصراعات الدولية لا تخلو من ذلك، فالحربان العالميتان لم تكونا بين أنماط حضارية مختلفة، كالديمقراطية مقابل

النازية أو الفاشية كما يدعون، بل كانتا بين دول رأسمالية بالدرجة الأولى، أي إنها تنتمي لقيم حضارية متماثلة، لكن مصالحها تعارضت، وتصادمت، فأدى ذلك إلى وصول الأمر إلى الحرب..

وأستطيع أن أقول تحديداً، في ظرفنا الراهن، أن (عسكرة) الصدام، بالشكل الذي حدث، قد أدى إلى التغطية على ما هو أساسي وجوهري.. وتحويل مسار الصراع كله إلى اتجاه آخر..

وخلال هذا، وبسبب من طبيعة التداخل، فإن كثيراً ممن يحاربون أمريكا (أو يعلنون ذلك) يفعلون ذلك بوسائلها هي، لا أقصد الأسلحة، والمعدات، **وإنما طريقة التفكير، والقيم المحركة، ومقاييس الأمور،** وهم في غمرة انشغالهم بالصراع، ينسون أو يتناسون، أو ينقصون من أهمية الثوابت والقيم، ويصير كل همهم إيقاع أكبر عدد من الخسائر، مهما كان ذلك مؤثراً في القيم الأساسية..

مولود في الحادي عشر من سبتمبر

لا أستطيع أن أهرب من ضرب مثال مركزي، وأساسي، شكل في حقيقته مشهداً أساسياً من مشاهد الصراع الدائرة.

إنه ذلك المشهد السبتمبري المعروف حيث اصطدمت طائرتان بمن فيهما من ركاب بمركز التجارة العالمي، بمن فيه من موظفين، وما روج له لاحقاً من عناوين وملصقات من أنه غزوة نيويورك(!)، وحملات إعلانية ربطت كل ما حدث بالإسلام والمسلمين..

لن أروج هنا لنظرية المؤامرة التي ترى اليهود والصهيونية العالمية وراء كل كارثة، مع أني أقر أنهم استفادوا، /تحصيلاً حاصلاً/ وربما عرفوا بالأمر استخباراتياً (وناموا عليه) من أجل استثمار نتائجه لاحقاً..

سأفترض حسن النية في مخططي هجوم سبتمبر ومنفذيه، حسن النية بمعنى أنهم، انطلاقاً من عقليتهم، ومن طريقة تفكيرهم، ومن فهمهم المحدد للنصوص، كانوا يتصورون أنهم (**يحسنون صنعاً**) فيما خططوا له ونفذوه.. وكانت هنا حقائق، تتفاعل مع فهمهم للنصوص، وهي حقائق سياسية، اجتماعية، تتمثل أساساً في الدعم اللانهائي الذي قدمته أمريكا للكيان الإسرائيلي، والذي يصل في أحيان كثيرة إلى حدود التوحد معه، بكل ما يشكل ذلك من استفزاز للمشاعر الإسلامية، خصوصاً، بعد استقرار القوات الأمريكية في الخليج.. وخصوصاً في ظروف ظلم واستبداد مؤصلة بتراث فقهي تمارسه حكومات هي مدعومة من قبل أمريكا بشكل أو بآخر.

كل هذا، أدى بهؤلاء ـ الذين أفترض هنا أنهم غير مدفوعين من أطراف أخرى ـ إلى أن يفكروا بالانتقام من أمريكا، وخططوا بدقة لذلك الانقضاض على رمز عزة أمريكا، وقوتها الاقتصادية، المتمثل في مبنى مركز التجارة العالمي.

ذلك الشاب، الذي درس الهندسة المدنية، وأكمل دراسته العليا في ألمانية، كان قد كرس حياته، تخطيطاً، ومن ثم تنفيذاً، لذلك المشروع.. (**الذي هو مشروع هدم ليس مشروع بناء**) وقضى فعلاً في تلك المحرقة التي قضى فيها الآلاف، في مشهد تابعه مئات الملايين، على الهواء مباشرة..

لكن الأمر لم ينته هناك، فبينما ارتطمت الطائرتان بالمبنى في نيويورك، فإن البرجين الشهيرين قد سقطا على رؤوسنا نحن، وتوالت التداعيات في ذلك المشهد، لتكون مشاهد أخرى، بعيدة كل البعد عن نيويورك ..**لكنها حصلت بحجة ما حدث هناك وذريعته..**

..وعاد الغبار، المتصاعد من حطام البرجين، ومن ساحات المعارك يغطي على جوهر الأمر، وتنادى الفقهاء والوعاظ والسياسيون منددين

ومؤيدين، شامتين سراً أو معلنين، سمعنا كل ما يمكن أن يقال، وأيضاً كل ما لا يمكن أن يقال، عن (سمعة الإسلام)، و(خواتيم الأمور)، و(السن بالسن) و(البادئ أظلم) وكلام عن الأبرياء وآخر عن غير الأبرياء، و(تلك الأيام نداولها بين الناس). وسمعنا أيضاً تشبيهاً لمركز التجارة العالمي بقافلة قريش يوم بدر!.. إلخ.

لكن كل ذلك الغبار، أثارته المعركة ولم يكن ليثار لولا أنها أثارته..

الأمر الحقيقي كان أبعد من كل ذلك.

كان الأمر الجدير بالطرح، ومنذ البداية: **هل احتوى ذلك المشروع الذي أسقط البرجين، على أي مشروع إسلامي على الإطلاق؟**.

لا أقصد هنا فقط مسألة قتل المدنيين..

إنما أقصد شيئاً آخر..!

للعلم فقط: الرأسمالية الأمريكية أكبر من مجرد برج عال...

كانت (غزوة نيويورك) كما يسميها منفذوها ومروجوها تستهدف كما ذكرنا تحطيم رمز الرأسمالية الأمريكية.

وأنا أعترف، بل وأصر، أن الرأسمالية الأمريكية شيء بغيض جداً، خاصة في مراحلها الأخيرة..

لكن التحطيم المادي- الشكلي- لهذا الرمز لا ينتمي إلى الإسلام الذي يتجاوز المادة إلى ما هو أعمق، وإلى ما هو أبعد..

التحطيم المادي لهذا الرمز والذي لن يحطم الشيء المرمز له، الرأسمالية، ينتمي إلى مفردات ثقافة أخرى، لن أقول إنها **أمريكية حصراً، لكنها ثقافة مادية حتماً..**

وقد تسربت هذه الرؤية المادية، بمفرداتها تلك، إلى ثقافتنا، وتفاعلت مع ما تفاعلت معه، وتأثر سير التفاعل بذلك الاستكبار الأمريكي، والطغيان الصهيوني..

وانتهى الأمر إلى ذلك المشروع- مشروع الهدم- الذي أجرؤ أن أقول إنه لا يحتوي على أي مشروع إسلامي في داخله، والذي حطم مادياً رمز الرأسمالية الأمريكية، ولكنه بالتأكيد لم يحطم الرأسمالية الأمريكية.

وعندما أقول إن مسألة التحطيم المادي للرموز **مسألة غير إسلامية بتاتاً**، فإني أعني ما أقول..

ودليلي يمتد لفترة زمنية بين نزول أول آية في القرآن إلى فتح مكة..

أي نحو إحدى وعشرين سنة من عمر مسيرة لم تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة..

ما أقصده هنا هو أن الأوثان والأصنام بمختلف الأشكال والأحجام والأسماء كانت تملأ الكعبة طيلة سنوات الدعوة المكية، ومعظم المراحل المدنية..

وكان من السهل جداً على الصحابة، لو أنهم أرادوا أن يقوموا بعملية (استشهادية!) لتحطيم الأوثان والأصنام التي تدنس الحرم المكي.. حتى لو كلفهم ذلك حياتهم، وقام كفار مكة بقتلهم، ما كان ذلك ليثنيهم عن هذه المهمة، فليس بينهم وبين الجنة إلا ذلك..

لكن ذلك لم يحدث إطلاقاً.

ليس من أجل موازين المصلحة العامة ودفع المفسدة التي تقدم على جلب المصلحة، إلى آخر السلسلة التي سيتمنطق بها فقهاء المؤسسة التقليدية..

الأمر أبسط من ذلك..

لم يحدث ذلك لسبب بسيط جداً، ونابع من تلك الثوابت التي ترى أن الأمر أعمق مما يبدو، وأن الجزء المادي الظاهر من (الأوثان)، يخفي (غيباً) عميقاً لا يرى بالعين المجردة، لكن ذلك لا يلغيه..

عقلية الثوابت كانت سترى أن الأوثان محض جزء ظاهر مادي من واقع عقائدي واجتماعي وسياسي واقتصادي، كانت الأوثان والأصنام مجرد ترميز مادي له، مجرد تجسيم مادي له، والتحطيم المادي للأوثان ما كان سيلغي ذلك الواقع..

إنما الأمر هو، كما حدث بالضبط، تقديم مجتمع جديد، بواقع علاقات جديدة، ونمط متوازن من العدالة الاجتماعية المرتكزة على قيم ثقافية وأخلاقية مختلفة، وعندما يثبت هذا المجتمع البديل نجاحه، وعندما يطرح مجتمع (التوحيد) بديلاً، فإن مجتمع (الأوثان)، سيضعف، وسيتكشف عن خوائه، وعن مدى تناقضاته، وسيسقط المجتمع بلا مقاومة.. بالضبط كما حدث في (فتح مكة)..

.. وستسقط الأوثان، تحصيلاً حاصلاً، ذلك أنها كانت مجرد رمز مادي لواقع شديد التشعب..

كذلك الأمر مع أمريكا، مع فردوسها المستعار، مع رمز قوتها الاقتصادية.. مركز التجارة العالمي..

محاولة تحطيم (الرمز) المادي، لن يحطم الرأسمالية الأمريكية بالتأكيد. ولن يكون ذلك إلا رؤية (مادية) قاصرة بعيدة عن الرؤية العميقة للإسلام..

مع الإسلام، الأمر هو تقديم البديل، تقديم المشروع الحضاري البديل، تقديم النموذج الاجتماعي الذي سيكشف تناقضات المجتمع الآخر، موضع الصراع والتنافس.. وعندها سيكون مجتمع الثراء الفاحش واللاعدالة واللاتوازن مكشوفاً.. مفضوحاً..

وسيكون المجتمع البديل، مركز جذب، ومركز إشعاع ومركز بناء..

وسيلتفت إليه الناس، حتى في المجتمع الآخر..

.. وسيكون سقوط (الرمز) تحصيلاً حاصلاً. ليس عبر التفجير والانقضاض.. بل عبر ترك النموذج الرأسمالي، نحو نموذج (بديل) أكثر توازناً وأكثر تلاؤماً مع الطبيعة الإنسانية.

.. هكذا كان سيكون الأمر، مع ثوابت إسلامية حقاً، تنتج طريقة تفكير إسلامية حقاً. لا يمكن للفردوس المستعار، أن يتكشف عن خوائه، ولا يمكن لأمريكا أن ترحل عن قواعدها الكامنة في رؤوسنا.. إلا إذا قدمنا البديل، الفردوس المستعاد.

هذا هو..

الفردوس المستعاد، يقابل الفردوس المستعار..

آه، هكذا إذن؟. اظهر وبن على حقيقتك، تريد إلغاء آية السيف والجهاد.. بعد كل هذا اللف والدوران، إذن (أنت منهم!)..

لا، لم أقل ذلك، تحتاج إلى السيف لتحمي تجربتك الوليدة، لن تقدم نموذجاً بديلاً وتتوقع أن يتركك الآخرون تقدم هذا النموذج وتروج له دون أن يحاولوا تدميره..

النموذج البديل، لن يكون بديلاً، ما لم يكن يمتلك القوة اللازمة للدفاع عن التجربة، بل إنه يجب أن يمتلك قوة تهديدية، **تجبر أصحاب التجارب الأخرى، على النظر إليه بجدية..**

نعم، هكذا نعم، سيف وسلاح واستعداد للقتال، **لكن ليس دون المشروع الحقيقي البديل**، ليس دون النموذج الذي يخرج المبادئ من نطاق الكتب والمجلدات والأقوال المأثورة، لتصير واقعاً معاشاً، لتصير

واقعاً مجرباً، جاذبيته الحقيقية ليست في الأقوال والأمثال، بل في ملاءمته لمتطلبات الفطرة الإنسانية وتوازنات العدالة الاجتماعية التي تقلص الهوة بين الفقراء والأثرياء، وتمنح الضمانات والحقوق، وتصون العلاقة بين الفرد والجماعة بشكل يثري الجماعة ويرتد إيجابياً هذا الثراء على الفرد في شبكة أوان مستطرقة لا يمكن فصل أنابيبها الواحدة عن الأخرى..

عندما يكون لك تجربة كهذه، دون أن تحلم بمدينة فاضلة، فإنك تعلم أن التجارب الأخرى ستتهاوى عند المقارنة، وستحاول مهاجمتك..

الأمر مختلف عندها..

(لذلك أقول: إن الصراع الذي فرض علينا، عندما تعمد طرف ما إشعاله في هذا الوقت، يجب ألا يلهينا عن التخطيط لثوابت ذلك النموذج البديل وقيمه وأولوياته..).

وفي الوقت نفسه، علي أن أذكر، ما لا مفر من التذكير به، من أن هذا النموذج البديل- الفردوس المستعاد- ليس بأي حال من الأحوال (دولة خلافة بالمعنى التقليدي) بقدر ما هو **حضارة استخلاف..**

فدولة الخلافة التي يروج لها بعضهم لن تكون وفق ما يروجون له، غير انقلاب عسكري، يتسلط علينا بعده من يسمي نفسه خليفة مسلماً، فيحكم في رعاياه، بحسب فقه المؤسسة الدينية الطويل الذي كرس الاستبداد والسلبية والسياط والخوازيق والابتعاد عن المعاني الحقيقية للخطاب القرآني.

.. النموذج البديل هو مشروع استخلاف لنماء الإنسان وعمارة الأرض، وهو لا يتم وفق قراءة المؤسسة للنصوص الدينية، بل ينطلق من النصوص الدينية ليتفاعل مع العالم، مع تجاربه الحضارية، ومع موروثه الثقافي، مع أديانه، ومع انتصاراته.. ومع هزائمه..

مشروع الاستخلاف، ينطلق من النصوص، ليفهم العالم، ويتفاهم معه، ويعود وقد صار أكثر فهماً للنص، وأكثر فهماً للعالم، وأكثر فهماً لنفسه..

ومن ثم أكثر قدرة على التغيير..

لا معرفة للذات بلا معرفة للآخر..

أقول هذا وأنا شديد التيقن منه، فعندما أبحرنا في ثوابت الفردوس المستعار ازددنا فهماً لثوابتنا، وللنصوص التي تحدد هذه الثوابت..

التعرف على الفردوس المستعار، من منطلق البحث والتمحيص، لا من منطلق الانبهار الأعمى، جعلنا نتعرف على ما يجب أن نكون..

الإبحار في التجربة الأمريكية، جعلنا نبحر في تجربتنا كما يجب أن تكون. وتحديد ثوابت الفردوس المستعار، جعلنا قادرين على تحديد ثوابت فردوسنا الذي يجب أن نستعيده..

.. هذا الإعصار الذي يعصف بنا، جعلنا نعرف ماذا يجب أن تحتوي الخلطة الإسمنتية لذلك البناء الذي نريد تشييده، حتى يظل صامداً بوجه الإعصار..

.. نعم.. إنه (الآخر) يجب أن نعرفه، نفهمه ننفتح على تجربته، من أجل أن نعرف (الأنا) التي هي نحن..

«.. لكن في تعرفك على هذا (الآخر) ركزت على السلبيات وتركت الإيجابيات، لذلك فإن بحثك ليس موضوعياً في استنتاجاته..».

ليس بحثي عما هو إيجابي، أو سلبي في التجربة الأمريكية، ليس هذا ما كنت أروم البحث فيه، كنت أتحدث عن (ثوابت تأسست عليها الحضارة هناك) خارج نطاق السلب والإيجاب.

وهذه الثوابت قد يكون لها نتائج سلبية أو إيجابية على المدى البعيد من وجهة نظرنا، لكن ذلك لن يغير من حقيقة كونها (ثوابت).

المادية مثلاً، ثابت أساسي وجوهري في الحضارة الغربية، ورأيُنا بها لن يغير من ذلك، كذلك (الفردية) والرأسمالية وكل الثوابت المتبقية، إنها أساسية وجوهرية عندهم، والمسألة ليست كونها إيجابية أو سلبية من وجهة نظرنا، إنما هل تتعارض أو تتلاءم مع ثوابتنا..؟

قد تكون ملائمة لهم، وجيدة من وجهة نظرهم هم، وهذا شأنهم وحدهم، الأمر هو: هل تتلاءم معنا، مع ثوابتنا، ومع قيمنا. أم تتعارض معها؟.

بعبارة أخرى، أنا لا أحاول أن أغير مسار الإعصار، أو ألغيه، أو حتى لا أحاول أن أكتب في ذمّه أو توصيفه، إنما أريد أن أعرف قوته، ومواصفاته، لكي أحدد البناء الذي سيصمد أمامه.. وما هو إيجابي بالنسبة إلى الإعصار، لا يشترط أن يكون كذلك بالنسبة إلى البناء المواجه..

لكن ذلك كله لا يعني أن نلغي وجود مظاهر قوة ممكن استلهامها من التجربة الأمريكية، وعلى الأخص مسألة حرية التعبير وحرية الفكر، كذلك لا يمكن نفي وجود رؤية نقدية أمريكية، من داخل أمريكا، للتجربة الأمريكية. هناك تيار يمثل نخبة مثقفة تملك رؤية شديدة النقد والراديكالية لعدد من الثوابت (خصوصاً الرأسمالية والاستهلاكية) وهناك تيار (يساري عموماً) هُمش من الإعلام الأساسي mainstream media ومن الحياة السياسية، لكنه ما يزال يمارس دوره الثقافي وإن بنسبة محدودة ومتناقصة، يجب أن ننفتح عليه وعلى رؤ اه على الرغم من أننا سنختلف معه في ثوابت أخرى، لكن الانفتاح عليه، سيزيد من ثراء رؤيتنا النقدية ويزيدها خصوبة وتنوعاً..

.. في الوقت نفسه، هناك في أمريكا تيار أخلاقي ديني، قد يبدو للوهلة الأولى ومن خلال الحكم المتسرع أنا قد نتفق مع بعض مفردات خطابه الأخلاقي، لكن الواقع أن منطلقاته مختلفة تماماً، وأن التفاصيل الأخلاقية التي يثيرها ليست سوى جزء صغير من لوحة كبيرة، فهذا التيار مختلط تماماً مع الطبقة الرأسمالية العليا على الرغم من استشراء الفساد والانحلال فيها، وهو-بصفته عرّاباً لهذه الطبقة- يستخدم اسم الدين والأخلاق من أجل المحافظة على المصالح الاقتصادية والسياسية للنخب التي يدافع عنها هذا التيار، على سبيل المثال، حملة معارضة إقرار زواج الشواذ جنسياً ساهم فيها هذا التيار بشكل أساسي، ومعه النخب الرأسمالية التي يدافع عنها، وصار ذلك الشعار دعائياً انتخابياً في المعركة بين الديمقراطيين والجمهوريين (الذين يتصدرهم الآن المحافظون الجدد).. وطبعاً سيبدو أن ذلك من أجل عيني الفضيلة والأخلاق والقيم العائلية، لكن في الوجه الآخر من القمر، ستكون هناك الحقيقة التي تدفع بهذا التيار إلى تبني شعارات كهذه، فالأمر لم يبدأ ضد الشذوذ الجنسي بحد ذاته، وليس الدفع باتجاه تجفيف منابعه، أو بتجريمه، **وإنما فقط ضد جعل الأمر يأخذ شكل الوضع القانوني للزواج**، أي إن التيار (الأخلاقي) لم يهتم بالمعاشرة الجنسية بين اللوطيين وعيشهم معاً كالأزواج، لكنه اعترض على المطالبة بإقرار الزواج بينهم قانوناً، وذلك لأسباب اقتصادية بحتة، حيث إن الزواج يخفض الضرائب، ويقدم ضمانات وتأمينات، مما يقلل من أرباح النخب الرأسمالية المسيطرة ويزيد من أعبائها المادية، ولهذا فقد استخدم هذا التيار شعارات الدين والأخلاق لكي يخدم مصالح الطبقة الرأسمالية.

هذا التيار يجب ألا يخدعنا بمقولاته، فثوابته بعيدة عن ثوابتنا، المنطلقات مختلفة، وإن تشابهت بعض الطروحات بصورة عرضية.

❁ ❁ ❁

إنني أعي تماماً أن كلامي السابق كله لن يعجب أحداً من التيارات الرئيسية المتصارعة في المشهد..

فأولئك الذين يرفعون راية الإسلام ويحاربون باسمه، يريدون من الفكر أن يقوم بوظيفة المسوق لتجنيد إجباري لشباب الأمة ينتهي عادة باستنزافهم في موت عليّ أن أصفه بأنه عبثي في أحسن أحواله، وهم في الوقت نفسه، لا يتفقون مع الكثير من الطروحات الجديدة المناهضة للفكر التقليدي، فهم، في حقيقة أمرهم يمثلون حلقة أخيرة من حلقات الفكر المؤسساتي التقليدي، وناتجاً نهائياً من نتائجه المتأخرة، وإن تمردوا عرضاً على بعض رموزه وشخوصه.

وأمريكا، الفردوس المستعار، لن يعجبها هذا الطرح أيضاً، بل لعلها تفضل ألف مرة أن يكون عدوها متحزماً بعبوة ناسفة، على أن يكون موجهاً بفكر بديل، ومخططاً لبناء نموذج بديل، فهي تعلم أن معركتها مع أولئك المتحزمين بالعبوات الناسفة ستكون سهلة ومحدودة الخسائر، لأنهم، بحكم طبيعة ما يفعلون، محدودو العدد، ولا يقدمون نموذجاً للبناء.. وكذلك فإن شكلهم الإعلامي سيكون مفيداً جداً لجني الأرباح لميزانيات الدفاع..

أما الفكر البديل، الذي يبشر بعالم آخر أكثر عدالة وتوازناً ونماءً، فمن الصعب محاربته واجتثاثه، ومن الصعب أكثر إلغاؤه.. إنها تعي تماماً أن هذا الفكر يتناسل وينتشر أكثر فأكثر كلما حورب وقمع، ولهذا فهي تفضل أساساً ألا يظهر.. لأن حربها معه ستكون مختلفة- وشاقة- والمواجهة العسكرية وميزانية البنتاغون أفضل لها بكثير من ذلك..

.. وفي الوقت نفسه، فإن التيار الإسلامي[1]، الذي يدعي الاعتدال، والذي انتشر إعلامياً وجماهيرياً- بديلاً عن تيارات التشدد- لن يتفق مع

(١) بعضه على الأقل!

هذه الرؤية المختلفة، فهو يجهد نفسه في تقديم (إسلام) هو في حقيقته نموذج أمريكي مع تعديلات و(إكسسوارات) إسلامية، بل إنه يتبنى بعض ثوابت ذلك الفردوس الأمريكي، خاصة ثوابت **(الفردية، الرأسمالية، والاستهلاك)** ليعمدها ويقدمها بشكل يدعي الصلة بالإسلام. لا أحب هنا أن أفترض وجود مؤامرة ما، ولا أحب أيضاً أن أشكك في نوايا رموز هذا التيار، على الرغم من أنه صار من الواضح جداً طبيعة الدعم الذي يتلقونه، والجهات التي تفعل ذلك، لكني لا أتصور غير أنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وأنهم يتصورون أن ما يقدمونه هو الإسلام الحقيقي، وأن جهات معينة تستغل ذلك وتروج له..

ينسى هؤلاء، أنهم في غمرة ممارستهم وتركيزهم على جوانب معينة إضافة إلى الجانب الأخلاقي وحسن المعاملة، إنما يسلبون من الإسلام أهم ما فيه: تميزه. لا أقصد هنا أن (الخلق الحسن) غير مهم إلا في الإسلام، لكني أعني أنه موجود في كل الأديان، لا أعرف ديناً لا يدعو إلى حسن الخلق، حتى الديانات غير السماوية والوثنية تدعو أيضاً إلى حسن الخلق، والإسلام يدعو إلى حسن الخلق أيضاً، لكن الجانب الأخلاقي في ذلك هو جزء من بناء الحضارة والمجتمع بكليته، وليس هدفاً منفصلاً ونهائياً بحد ذاته..

هؤلاء الدعاة ينسون ذلك، ومشروعهم الحضاري- إن وجد- قائم على أسلمة الحضارة الغربية عبر وضع شعارات ونصوص دينية إسلامية على ثوابت الحضارة الغربية..

والمؤسسة الدينية التقليدية أيضاً لن يعجبها هذا الطرح الذي ينطلق من منطلقات مختلفة، وينتهي إلى نتائج مختلفة، ويكشف خلال ذلك عن مدى عجز المؤسسة وسطحيتها. ويثبت خلال ذلك، إمكانية أن توجد لغة مختلفة غير اللغة التقليدية التي تستخدمها المؤسسة، وهي، بما تتصور

أنها تحتكره من فهم للدين، وبما تعتقده عن نفسها من كونها المتحدثة الرسمية الوحيدة باسم الإسلام، لن تتساهل أبداً فيما تتصور أنه سيسحب البساط من تحتها، **على الرغم من أنه بساط مهترئ وبال بكل الأحوال، ولا يغري أحداً، بسحبه من تحتها..**

۞ ۞ ۞

إذن، هذا الكلام لن يرضي أحداً.

لكن،.. لم علينا أن نتصور أن (**فكراً ما**) عليه أن يرضي أحداً بالتحديد؟.

لم نتصور أن الفكر البديل عليه أن يكون حسب مواصفات ومقاييس وقوالب يسندها أي تيار أو طرف أساسي في المشهد؟.

لا.. لن يكون الفكر البديل، فكر الفردوس المستعاد، فكراً يرضي أيّاً من هذه الأطراف في المشهد..

وإلا ما كان (بديلاً).. بأي حال من الأحوال..

إنما يتجه هذا الفكر، نحو مشهد آخر، مختلف تماماً..

۞ ۞ ۞

«لكنك تصعب الأمور جداً هكذا، ما تقوله عن المشروع البديل والحضارة الأخرى و الفردوس المستعاد هو أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، والظروف المحيطة، والمستقبل القريب- وحتى البعيد- يبدو مختلفاً جداً عن الطرح الذي تطرحه..».

خيار الفردوس المستعاد لا يبدو مطروحاً أساساً، وكل ما نطمح إليه هو ظروف معيشية أفضل..!!

نعم، إنه أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، أقر بذلك.

لكن، ألا يبدأ كل بناء شامخ، بتصميم في الخيال، ثم بتخطيط ينزل على الورق، ثم بخطوط على الأرض تحدد، ثم بأساسات تحفر؟.

ألا تبدأ كل الأمور التي تشكل الواقع، من خيال مختلف، ولا يبدو أنه سيتحقق أبداً..

ثم، مع الوقت، يستحيل خياراً، ومن ثم نموذجاً بديلاً، ومن ثم واقعاً حقيقياً..؟

مع ذلك فالأمر صعب. أقر أنه صعب جداً، والأمر هو أن نثبت أنه **صعب، لكنه ليس مستحيلاً.**

والفرق شاسع بين الاثنين..

❁ ❁ ❁

الدرب الصعب...

الدرب إلى ذلك المشروع البديل، الفردوس المستعاد سيكون صعباً، خطراً، ومليئاً بالعوائق..

إنه، لو أردنا التشبيه، يشبه رحلة في قلب الصحراء الجرداء المترامية الأطراف، لعائلة صغيرة مكونة من رجل وزوجته وطفل رضيع، بلا دليل، بلا زاد يكفي لأكثر من أيام.. بلا أي وسيلة اتصال حديثة، بلا خريطة حديثة..

منطقياً، مجرد نجاة هذه العائلة وبقائها على قيد الحياة هو أمر أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع.. وكل (المعطيات المادية) ستشير إلى عكس ذلك، ستشير إلى الضياع في قلب الصحراء أو الموت جوعاً أو عطشاً أو في واحدة من عواصف الصحراء..

لكن ما حدث، على أرض الواقع، كان مختلفاً تماماً، وبينما كان مجرد النجاة والبقاء على قيد الحياة احتمالات بعيدة وأقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، فإن ما حدث كان أبعد بكثير من مجرد النجاة..

لقد منحت هذه العائلة طوق النجاة للملايين، وصارت تلك الرحلة فريضة، وصار الملايين يتبعون تلك الخطوات، عبر الصحراء..

بل إن ذلك المكان الذي انتهت إليه تلك الرحلة، صار قبلة، مئات الملايين يتجهون إليه، خمس مرات كل يوم..

..بالمنطق، كان ذلك كله خيالاً- بعيداً عن الواقع- لو أن أي أحد وقتها قال إن الأمر سينتهي بتلك الرحلة إلى أن تصير ما صارت إليه، لعدّ ذلك جنون وسخرية..

لكنه حدث.

ولقد كان الأمر صعباً، بالتأكيد..

لكنه لم يكن مستحيلاً، **مادام أنه حدث..**



نقطة البداية هناك!

وعلينا هنا أن نتذكر أن تلك الرحلة بدأت أصلاً من تلك الليلة التي تقلب فيها إبراهيم بين الآفلين، **وجد بعقله** الدرب إلى المعبود الحق. ممهداً التربة لاستلام مسؤولية النبوة..

نعم. تلك الرحلة بدأت من رأس إبراهيم.. من عقله الذي رفض، وقرر أن يبحث..

وانتقل الأمر من رفض الآفلين إلى رفض حضارات الأفول والمجتمعات الآفلة..

وكانت تلك الرحلة- في قلب الصحراء- تتمة لليلة البحث تلك..

ولقد بدأ الأمر من العقل الذي رفض الفكر التقليدي، ورفض المسلمات الاجتماعية، وعبَر نحو الجانب الآخر من الحقيقة عبر سبر أغوارها غير المكتشفة..

بدأت تلك الرحلة من العقل..

من العقل!

۞ ۞ ۞

كذلك يبدو المشروع البديل، مشروع الفردوس المستعاد، والدرب إليه، يبدو أمراً أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، وتبدو كل المؤشرات المنطقية مشيرة إلى أن الأمر لن ينجح، وتبدو البيئة المحيطة به أنها مثل واد غير ذي زرع، وأنها لن تحتمل أن تِحتضن مشروعاً كهذا.. وتنميه.. سيبدو الأمر نشازاً جداً وسط كل تلك الأصوات والتيارات التي تكون المشهد..

وستبدأ الشرارة من عقل: سيبدأ الأمر من العقل أيضاً، من الرؤوس التي ترفض الفكر التقليدي والأجوبة القديمة..

سيبدأ من فكر بديل..

.. سيكون المؤمنون به قلائل، وسيكون دربهم صعباً وموحشاً مثل تلك الصحراء التي احتوت الرحلة الأولى..

لكن، مع صعوبة الأمر ووعورته فإن الخيارات محدودة وقليلة.

بالضبط كما أن خيارات مريض السرطان قليلة ومحدودة؛ إنه إما أن يستسلم ويموت، فقط لأن درب النجاة يبدو صعباً..

أو أن يحاول: يتشبث بإرادة الحياة في داخله، يقاوم، يبحث عن بدائل، يستكشف طاقاته، يستجمعها، يوقظ ذلك المارد في الداخل ليقهر السرطان..

كل ذلك صعب جداً، وسيبدو للوهلة الأولى خيار مقاومة السرطان خياراً خيالياً..

لكنه يحدث!

والخيار نفسه مطروح أمامنا، إذ إننا أمة تكالبت عليها الأمراض المزمنة إلى أن جاء السرطان الحضاري الكاسح ليوقظنا من أوهام الخدر والسلبية..

والخيار محصور ومحدود: بين **خيار الاستسلام** لذلك السرطان الذي يستبدل بقيمنا قيمه وبخلايانا خلاياه.. و يتصرف كما لو كان هذا السرطان هو الحالة القصوى من الصحة و العافية.. وهو خيار سلبي وسهل ظاهراً، لكن عواقبه وخواتيمه تذكر بذلك المصير الذي يصيب أي عرق أو حضارة تعجز عن المقاومة: **الانقراض**.

وبين مقاومة السرطان ولو بتغيير الذات ورفع كل ما تراكم فيها من أنقاض وخرائب تعودنا عليها وتآلفنا معها، والتخطيط لبناء آخر، لمجتمع آخر بثوابت وأركان مختلفة، إنه خيار صعب.. **لحضارة أخرى**....

غير حضارة السرطان، غير حضارة الفردوس المستعار..

إنه خيار الفردوس المستعاد.



صعب جداً؟ نعم.. صعب جداً..

إنما ليس مستحيلاً..

يجب ألا يكون مستحيلاً..!!

٢٠٠٥/٤/٢٩

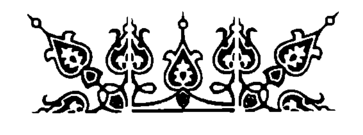
بدأ العمل في الكتاب ٢٠٠٤/٤/١٨

انتهى يوم ٢٠٠٥/٤/٢٩

أنهيت كافة التعديلات يوم ٢٠٠٥/٦/٣٠

الموافق ٢٣ جمادى الأولى ١٤٢٦

لمراسلة الكاتب: ahmed_k_alomari@hotmail.com



المصادر

1- ABCs Of American Culture Author: Nussbaum,Stan Publisher: Global Mapping,1999

http://www.gmi.org/products/abcs_ten.htm

2- God Rides a Harley in the Land of the free, by Ian Johnson

http://www.mala.bc.ca/~johnstoi/introser/adam.htm

This is the text of a lecture delivered by Ian Johnston in a series of public lectures sponsored by the Liberal Studies department at Malaspina University-College, Wednesday, February 19, 1997. The essay has been revised slightly and a counter installed on May 1, 2000. This text is in the public domain, released June 1999]

3- Christopher Columbus msn Encarta

4- The New, Improved American Adam

Or, The Mass-Production of Adamism Based on The American Adam: Innocence, Tragedy, and Tradition in the Nineteenth Century by R.W.B. Lewis by Kevin Walker

Chabot College 1990

http://www.exhibitresearch.com/kevin/media/adam.html

5- The American Dream

Materialism - Religion - Values

What has happened to the Spirit of America?

Is America Losing Its Religion?

Copyright (c) 2004 Geela

Author of the book "The American Dream"

http://www.geela.com/articles/religion.html

6- Materialism Is as American as Apple Pie!

by Tom Sine BARCLAY PRESS1984 http://www.barclay-press.com/cafe/articles/viewarticle.php?articleID=54

7- MATERIALISM GEORGE J. STACK From: Routledge Encyclopedia of Philosophy, ed. Edward Craig. 1998 Routledge, New York

http://members.aol.com/NeoNoetics/Materialism.html

8- Cultural Materialism: A Sociological Revision

by Frank Elwell

Rogers State University Adapted from Industrializing America: Understanding Contemporary Society through Classical Sociological Analysis, 1999, Westport Connecticut: Praeger Press http://www.faculty.rsu.edu/~felwell/Theorists/Harris/SocioMat/

9- Pragmatism from Wikipedia, the free encyclopedia

10- Adventures in Philosophy AMERICAN PHILOSOPHY AMERICAN PRAGMATISM - http://radicalacademy.com/amphilosophy7.htm

11- Pragmatism and Its Critics, Christopher Phelps from Mary Kupiec Cayton and Peter W. Williams (eds.), The Encyclopedia of American Cultural and Intellectual History (Charles Scribner's and Sons, 2001)

http://www.philosophy.uncc.edu/mleldrid/SzAmPhil/Phelps.html

12- Pragmatism and Character

Winter 2003

Volume 29, Number 2

by: Amanda Anderson

http://www.uchicago.edu/research/jnl-crit- inq/issues/v29/v29n2.anderson.html

13- What is Pragmatism (1904), from series of eight lectures dedicated to the memory of John Stuart Mill, A New Name for Some Old Ways of Thinking, in December 1904, from William James, Writings 1902 - 1920, The Library of America; Lecture II

http://www.marxists.org/reference/subject/philosophy/works/us/james.htm

14- William James. Pragmatism: A new name for some old ways of thinking. New York: Longman Green and Co (1907).

http://www.emory.edu/EDUCATION/mfp/james.htm

15- Why is the philosophy of pragmatism important pragmatism right for postmodern America?

16- The Reader's Companion to American History

SOCIAL DARWINISM Houghton Mifflin-college http://college.hmco.com/history/readerscomp/rcah/html/ah_079700_socialdarwin.htm

17- Social Darwinism wikipedia the free encyclopedia

18- DARWIN'S INFLUENCE ON RUTHLESS LAISSEZ FAIRE CAPITALISM

- IMPACT No. 333 March 2001 by Jerry Bergman, Ph.D.1 http://www.icr.org/index.php?module=articles&action=type&ID=2

19- Darwin's Impact: Social Evolution in America, 1880-1920 THOEMMES CONTINUUM HISTORY OF IDEAS

http://www.thoemmes.com/american/darwin_intro.htm

20- SOCIAL DARWINISM: SCIENCE AND MYTH IN ANGLO-AMERICAN SOCIAL THOUGHT: By Robert C. Bannister.

Temple University Press, Philadelphia, 1979

21- In Search of Human Nature: The Decline and Revival of Darwinism in American Carl N. Degler, Publisher: Oxford University Press

22- Social Darwinism in European and American Thought, 1860-1945 : Nature as Model and Nature as Threat by Cambridge: Cambridge University Press, 1997Mike Hawkins

23- Herbert Spencer. Development of Sociological Theory (University of Minnesota Duluth) http://www.victorianweb.org/philosophy/socdar.html

24- Religious Capitalism's Embrace of Social Darwinism, By Dr. Gerry Lower, Apr 19, 2005 From AxisofLogic.com

25- The American Experience Andrew Carnegie People & Events Herbert Spencer.htm

http://www.pbs.org/wgbh/amex/carnegie/peopleevents/pande03.htm

26- The Art of the American West and The Culture of the Cowboy. By Joanne M. Hattrup, Burgwin Elementary School http://www.chatham.edu/pti/AmericanHistorythroughArt/AmericanW est_curricul um.htm

27- An Angel and A Brute:

Self-Interest and Individualism in Tocqueville's America

Tom Murphy, O. Carm /http://brtom.org/sjc/sjc4.html

28- Individualism wikipedia the free encyclopedia

29- What is individualism, by Raymie Stata (raymie@larch.lcs.mit.edu)

Copyright (C) 1992, Raymie Stata\

http://rous.redbarn.org/objectivism/Writing/RaymieStata/WhatIsIndividualism.html

30- What is the Basis of American Culture? What is it that intercultural communication students cannot afford to miss about the American Culture? By, M. Gene Aldridge Professor of Intercultural Communication, University College, Troy State University President/CEO, New Mexico Independence Research Institute, Inc

http://www.immi.se/intercultural/nr5/aldridge.htm

31- Individualism, Community and the American Character

By Erin Elizabeth Blankley http://www.drake.edu/artsci/PolSci/ssjrnl/ssjournal.html

32- Habits of the Heart by Robert Bellah, Richard Madsen, William M. Sullivan, Ann Swidler, and Steven M. Tipton. 1986. Berkeley, California, University of California Press. Updated with a new introduction 1996.

33- The contents of our character - can anyone, anywhere learn how to be an American?

Reason, Dec, 1995 by Brink; Lindsey, Andrew; Ferguson, Gary Alan; Fine, Joseph Epstein, Charles Paul Freund, Steven Hayward, John Hood, Marcus Klein, Chavez Linda, William Barclay Allen, Paul Rahe, Virginia Postrel, Jonathan Rauch

http://www.findarticles.com/p/articles/mi_m1568/is_n7_v27/ai_17782264

34- HOW AMERICAN INDIVIDUALISM IS EVOLVING

The Public Perspective February/March 1998

by Daniel Yankelovich http://www.danyankelovich.com/howamerican.html

35- Democratic Individualism

Delivered by Dr. Henry Levinson at RC's 2000 Commencement

http://www.uncg.edu/res/individualism.html

36- You Are The Most Important Person In Your Life by Russ Stiffler Copyright 2003 Russ Stiffler. All Rights Reserved http://www.cedarfire.com/art.important-stiffler.shtml

37- Culture of Narcissism: American Life in an Age of Diminishing Expectations

By: Christopher Lasch Publisher: W. W. Norton & Company, 1991

38- Self-Worship: The God of Democracy

March 1 2001, By Steven Farrell part 5. Missing the Mark with Religion http://www.geocities.com/Athens/Crete/4516/Farrell/mmwr/5.html

39- Sociology of Celebrity, September 1, 2004 version

http://condor.depaul.edu/˜dweinste/celeb

40- Cbs news june 18 2004 Another American 'Idolized' www.cbsnews.com/stories/2003/05/22/entertainment/main555064.shtml

41- LOS ANGELES, May 22, 2003 cbs news.com

Holy 'American Idol'!

www.cbsnews.com/stories/2004/06/18/entertainment/main624666.shtml

42- The American idols ,dr. David Cameron

http://www.uu.edu/centers/rglee/Fellows.html

43- Mercantilism wikipedia the free encyclopedia

44- It All Started with Adam

The Freeman: Ideas on Liberty - May 2001, by Mark Skousen

www.markskousen.com/article.php?id=1119 - 24k October 12, 1999

45- It Came in the First Ships: Capitalism in America by Thomas K. McCraw http://hbswk.hbs.edu/topic.jhtml?t=bizhistory

46- Adam Smith - Wikipedia, the free encyclopedia.htm

47- Wealth of the nations wikipedia

48- Adam Smith, The Wealth of Nations (New York: Modern Library, 1965 [1776]), p. 11

49- "The End of Laissez-Faire," Essays in Persuasion John Maynard Keynes (New York: Norton, 1963 [1931]), p. 312. Keynes's speech was given in 1926

www.panarchy.org/keynes/laissezfaire.1926.html - 55k

50- Ludwig von Mises, "Why Read Adam Smith Today," in The Wealth of Nations (Washington, D.C.: Regnery, 1998), p. xi

www.mises.org/efandi/ch24.asp - 20k

51- Milton and Rose Friedman, Two Lucky People (Chicago: University of Chicago Press, 1998), p. 582.

52- Invisible hand: From Wikipedia, the free encyclopedia

53- Science Studies 8 (1995): Invisible hand and science, Petri ylikoski /

54- The tyranny of the invisible hand http://www.mutualaid.org

55- Adam Smith; Capitalism's Prophet . by Robert L. Formaini (RePEc:fip:feddei:y:2002:n:v.7no.1)

http://dallasfed.org/research/ei/ei0201.html

56- How economics can be seen as religion . Samuel Brittan: Financial Times 15/08/02

http://www.samuelbrittan.co.uk/text121_p.html

57- The Promise of Absolute Wealth: Capitalism as a Religion? Christoph Deutschmann

http://the.sagepub.com/cgi/content/abstract/66/1/32

Tohoku University, Sendai, Japan Thesis Eleven, Vol. 66, No. 1, 32-

56 (2001)(c) Thesis Eleven Pty, Ltd., SAGE Publications

58- Economics as a religion-from samuelson to Chicago and beyond -by Robert H. Nelson PA: Pennsylvania State University Press, 2001

59- The market is the new religion by Daniel singer -the nation magazine

http://www.thenation.com/doc.mhtml%3Fi=19881226&s=-singer

60- Toward a Theology of Economics: Arresting Congenital Scarcity by Developing Exchanges

Francis Woehrling -journal of markets and morality vol6, no.2 fall 2003

www.acton.org/publicat/m_and_m/2003_fall/woehrling.html

61- The Global Market Doctrine: A Study in Fundamentalist Theology

JOHN McMURTRY / Centre for Research on Globalisation 26mar04

: http://www.globalresearch.ca/articles/MCM403A.html 26mar0 4

62- Natural sciences- wikipidia the free encyclopedia, 63U$ Bioethics? Capitalism is UnNatural!

by Narky Commo Tuesday February 01, 2005 Melbourne Indymedia http://www.axisoflogic.com/artman/publish/article_15334.shtml

63- U$ Bioethics? Capitalism is Unnatural!

by Narky Commo Tuesday February 01, 2005 Melbourne indymedia http://www.axisoflogic.com/artman/publish/article_15334.shtml

64- "Is Economics a Natural Science? Julie A. Nelson" http://www.ase.tufts.edu/gdae/Pubs/wp/04-03economicsascience.pdf

65- Herman E. Daly and John B. Cobb, Jr., For the Common Good (Boston: Beacon Press, 2nd ed. 1994), p. 178

66- /Capitalism's Pillar: Self-Responsibility

by George F. Smith from The Laissez Faire Electronic Times, Vol 1, No 25, August 5, 2002

Editor: Emile Zola Publisher: Digital Monetary Trust freedom.orlingrabbe.com/lfetimes/past_2002.htm

67- How capitalism saved America:the untold history of our country ,from pilgrims to the present by Thomas dilorenzo- Crown Forum, 2004

68- When Corporations Wield the Constitution, by Richard L_ Grossman and Ward Morehouse, Nov 2002.htm

www.ratical.org/corporations/WCWtC.html

69- Edward N. Wolff, "Recent Trends in Wealth Ownership, 1983-1998," April 2000

http://papers.ssrn.com/sol3/papers.cfm?abstract_id=235472

70- Income and inequality: millions left behind Americans for democratic action-February 2004

www.adaction.org/Income2004.pdf

71- Income and inequality

http://www.inequality.org/execsummay04.html-

72- Economic Indicators

Compiled by the Progressive Review 2001 http://prorev.com/statsec2.htm

http://www.ceogo.com/CEOPAY/statistics/

73- Time for a Wealth Tax? Edward N. Wolff http://bostonreview.mit.edu/BR21.1/wolff.html

74- Democracy at risk: rescuing main street from wall street-a populist vision for the 21st century by Jeff gates -published by peruses books may 2000

75- When the bubble burst? Socialism today issue 37 April 1999
www.socialismtoday.org/55/japan.html

76- Working paper no.300 recent trends in wealth growth 1983-1998 Edward N. Wolf
econwpa.wustl.edu:8089/eps/mac/papers/0004/0004047.pdf

77- The Matthew effect and federal taxation by martin J. McMahon http 78
: http://papers.ssrn.com/sol3/papers.cfm?abstract_id=608967

78- RESPONSIBLE WEALTH by Donella H. Meadows http://www.lightparty.com/Economic/Wealth.html

79- The Iron Fist behind the Invisible Hand
Corporate Capitalism as a State-Guaranteed System of Privilege by Kevin A. Carson
http://raforum.apinc.org/article.php3?id_article=2420

80- U.S. poverty rate up in '03, census reports, By Joyce Howard Price and S.A. Miller THE WASHINGTON TIMES http://www.washingtontimes.com/national/20040827-1211074449r.htm

81- Homeless And Starving In The Land Of The Free http://www.scoop.co.nz/stories/HL0308/S00011.htm
Friday, 1 August 2003, 9:47 pm, Column: Jay Shaft

82- Top Wealth Shares in the United States: 1916-2000: Evidence from Estate Tax Returns Wojciech Kopczuk (wkopczuk@nber.org) and Emmanuel Saez (saez@econ.berkeley.edu) No 10399, NBER Working Papers from National Bureau of Economic Research, Inc http://elsa.berkeley.edu/~saez/estate6.pdf

83- Don't Narrow My Gap! Why Narrowing "Income Gaps" is Unjust by: Joseph Kellard (February 28, 2004) capitalism maga-

zine www.capmag.com/article.asp?ID=3524 - 20k

84- Some Fundamental Insights Into the Benevolent Nature of Capitalism* By George Reisman This article was originally presented as a speech at the Ludwig von Mises Institute on October 19, 2002 and then posted on the Institute's web site on October 25, 2002.

*Copyright (c) 2002 by George Riesman. All rights reserved http://www.mises.org/story/1079

85- The Morality of Capitalism, Published in The Freeman: Ideas on Liberty - September 1985

by E. Barry Asmus and Donald B. Billings

http://www.fee.org/vnews.php?nid=1551

86- The Moral and the Practical by Robert W. Tracinski http://moraldefense.com/Philosophy/Essays/The_Moral_and_the_-Practical.htm

87- The Moral Basis of Capitalism by Robert W. Tracinski http://moraldefense.com/Philosophy/Essays/The_Moral_Basis_of_-Capitalism.htm

88- The truth about capitalism by D.Gude

http://members.aol.com/dxgude/capital.htm#top

89- HOMELESSNESS IN URBAN AMERICA a review of literature by Heidi Sommer

http://www.igs.berkeley.edu/events/homeless/NewHomeless-nessBook1.pdf

90- How Many People Experience Homelessness?

NCH Fact Sheet #21 Published by the National Coalition for the Homeless, September 2002

http://www.nationalhomeless.org/numbers.html

91- Self-made? Not In America Vol. 1 No. 12 Lead Story, Debunking the Myth of the Self-Made Man

By Richard Mohammad http://straightwords.typepad.com/straightwords_ezine/2004/07/

92- BORN ON THIRD BASE:

The Sources of Wealth of the 1996 Forbes 400 by Paul Elwood, independent researcher, Cambridge, MA.; S.M. Miller, Commonwealth Institute, Cambridge, MA. and Marc Bayard, Tara Watson, Charles Collins and Chris Hartman from United for a Fair Economy in Boston, MA.

http://www.faireconomy.org/press/archive/Pre_1999/forbes_400_study.html

93- learn all about bill gates

http://encyclopedia.lockergnome.com/s/b/Bill_Gates

94- The Birth of a Giant

Powered by Thunayan Al Emair http://www.agu.edu.bh/elun/Vol4-No4/birthofJiant.htm

95- how to be as rich as bill gates by Philip green span 53

http://philip.greenspun.com/bg/

96- Teaching Indigenous Languages, edited by Jon Reyhner Chapter 23 -the invisible doors between cultures by Robert N .st.clair (pp. 287-291). Flagstaff, AZ: Northern Arizona University. Copyright 1997 by Northern Arizona University

http://jan.ucc.nau.edu/~jar/TIL_23.html

97- Henry Ford wikipedia, the free encyclopedia

98-Hours of Work in U.S. History

Robert Whaples, Wake Forest University,EH.NET ENCYCLOPEDIA

www.eh.net/encyclopedia/?article=whaples.work.hours.us - 90k

99- HENRY FORD:WHY I FAVOR FIVE DAYS WORK WITH SIX DAYS PAY,by Samuel Crowther From World's Work, October

1926 pp. 613-616 http://www.worklessparty.org/timework/ford.htm

100- Captains of consciousness: Advertising and the social roots of the consumer culture. Ewen, Stuart. (1977) New York: McGraw-Hill

101- The fall of public man: On the social psychology of capitalism. Sennett, Richard. (1978). New York: Vintage1988

102- All consuming images: The politics of style in contemporary culture. Ewen, Stuart New York: Basic Books/Harper Collins

103- TRANSMISSION OF VALUES The Information Age Crisis in Socialization by Robert N.st clair and John A. Busch http://www.louisville.edu/~mstcl01/TRANSMISSION-VALUES.htm

104- Shopping Till We Drop by WILLIAM GREIDER April 10, 2000 The Nation

www.thenation.com/doc.mhtml%3Fi=20000410&s=greider - 26k

105- The Culture of Consumerism ,Christopher Lasch http://educate.si.edu/ap/essays/consume4.htm

106- A Consumers' Republic, The Politics of Mass Consumption in Postwar America Lizabeth Cohen

Knopf | January 2003

107- Consumerism as patriotism fronline Volume 19 - Issue 11, May 25 - June 07, 2002 http://www.frontlineonnet.com/fl1911/19111130.htm

108- The landscape of mass consumption

by Lizabeth Cohen, nthposition online magazine

www.nthposition.com/landscapeofmass.php - 45k

109- Shop Till You Drop or You're a Terrorist

November 27, 2002

By Charles Sullivan / www.democraticunderground.com/articles/02/11/27_shop.html - 23k

110- THE 1950s: POST-WAR AMERICA HITCHES UP AND heads for the 'burbs

Tyson FreemanSep 30, 1999 national realestate investor

www.nreionline.com/mag/ real_estate_postwar_america_-hitches/ - 48k

111- msn-encarta encyclopedia united states- population

112- digital history. postwar America:1945-1960 http://www.digitalhistory.uh.edu/database/article_display.cfm?HHID=511

113- Institutionalizing Over consumption

Culture... how ours has been twisted by economic values:

by Don Mayer, Oakland University. The oil industry and destruction of public transport

http://www.bilderberg.org/ncl.htm

114- POST WAR AMERICA

http://www.nrilinks.com/usa/History/ch11_4.htm

115- The Growth of The Suburbs and The Loss of The Sense of Community parameters of the new urbanism-mcmaster university

\http://www.eng.mcmaster.ca/civil/sustain/designparam/background1.htm

116- keeping up with the joneses ,wikipedia the free encyclopedia

117- An All-Consuming Century

Why Commercialism Won in Modern America

Gary Cross Columbia University Press http://www.columbia.edu/cu/cup/catalog/data/023111/0231113129.HTM

118- credit card ,wikipedia

119- history of credit cards- www.didyouknow.cd/creditcards.htm - 8k

120- Kingwood College Library

American Cultural History

The Twentieth Century1940-1949 http://kclibrary.nhmccd.edu/decades.html

121- Toward A Critical Theory of Advertising By John Harms Southwest Missouri State University, Douglas Keller

The University of Texas at Austin Homepage: http://www.gseis.ucla.edu/faculty/kellner/kellner.html

Curriculum Vitae: http://www.gseis.ucla.edu/faculty/kellner/DK97CV.htm

122- Brands R Us: How Advertising Works

by Stephen garey -media and values magazine issue 51 summer of 1990

www.medialit.org/reading_room/article50.html - 28k

123- Measuring Up: How Advertising Affects Self-Image by Vickie Rutledge Shields with Dawn Heineken. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2002

124- Ideology of advertising

http://www.mediaknowall.com/Advertising/adideol.html

125- "The Impact of Variety on Consumer Happiness: Marketing and the Tyranny of Freedom." Desmeules, Rémi. 2002. Academy of Marketing Science Review [Online] 2002 (12) Available: http://www.amsreview.org/articles/desmeules12-2002.pdf

126- Is Subliminal Advertising Effective? By: Selena McIntyre

http://bpsoutdoor.com/articles/subliminalads.htm

127- Subliminal Advertising 20th Century Brainwashing and what's hidden in the Microsoft's logo, by Dr. Lechnar

http://prisonplanet.tv/articles/july2004/120704subliminaladvertising.htm

128- 'Little elves and mind control: advertising and its critics' Helen Irving

The Australian Journal of Media & Culture, vol. 4 no 2 (1991) Television and...Edited by John Hartley http://wwwmcc.murdoch.edu.au/ReadingRoom/4.2/Irving.html

129- Happiness through consumption: towards a theoretical approach based on human needs satisfaction

Monica Guillen Royo

University of Bath http://dipeco.economia.unimib.it/happiness/accepted_papers/royo.pdf

130- SUSTAINABLE CONSUMPTION AND HAPPINESS Rut Veenhoven

Erasmus University Rotterdam, Netherlands

Paper presented at the international workshop 'Driving forces and barriers to sustainable consumption' University of Leeds, UK, March 5-6, 2004 http://www2.eur.nl/fsw/research/veenhoven/Pub2000s/2004d-full.pdf

131- What can economics learn from happiness research? BRUNO S. FREY and ALOIS STUTZER Journal of Economic Literature

(final version dated 7 January 2002)

http://www.wcfia.harvard.edu/conferences/socialcapital/Happiness%20Readings/Frey_Stutzer_JEL.pdf 132-

Will money increase subjective well being? literature review and a guide to needed research by ED DIENER and ROBERT BISWAS- DIENER/ HARVARD UNIVERSITY CONFERENCE 14 September 2001 http://www.wcfia.harvard.edu/conferences/socialcapital/Happiness%20Readings/Diener_-Biswas-Diener_2002.pdf

133- Consumption, Identity-Formation and Uncertainty

Alan Warde Sociology, Vol. 28, No. 4, 877-898 (1994)

DOI: 10.1177/0038038594028004005

(c) 1994 BSA Publications Ltd.

http://soc.sagepub.com/cgi/reprint/28/4/877

134- Identity, Self and Consumption: A Conceptual Framework Hogg, M. K. & Mitchell, P. C. N. (1996) Journal of Marketing Management 12; 629-644

- www.csrs.ac.uk/Publications/BAMdisabled.pdf

135- The Commercialization of Intimate Life

by Arlie Russell Hochschild

University of California Press, 2003

136- Consumption: A Gateway to Self-Identity KNOWLEDGE BED SOCIOLOGY ARTICLES AND RESEARCH

Written by Michael Black http://knowledgebed.com/sociology/consumption.html

137- Compulsive Shopping by Greg Nigh, August 19, 2003 znet daily commentaries http://www.zmag.org/sustainers/content/2003-08/19nigh.cfm

138- "I shop therefore I am:" the new scholarship on 18th century consumption;

or, LIFE IN A NETWORK OF HUMANS AND NONHUMANS"

William B. Warner English, UC Santa Barbara

http://dc- mrg.english.ucsb.edu/committee/warner/Ishop.html

39- I Shop, Therefore I Am: Compulsive Buying and the Search for Self

by April Lane Benson-Publisher: Jason Aronson July 2000

40- medicinenet.com -compulsive shopping disorder

41- Our new epidemic: compulsive buying Growing army of us shop because we can't stop; debt gets out of control By Mary Ethridge Beacon Journal business writer, Beacon journal Sun, Jul. 11, 2004

www.ohio.com/mld/beaconjournal/business/9129320.htm - 34k

142- TEMPLES OF CONSUMPTION SHOPPING MALLS AS SECULAR CATHEDRALS -by Ivan Illich http://www.trinity.edu/˜mkearl/temples.html

143- ROBERT A. NISBET, "THE IDEA OF PROGRESS
Updated: February 23, 2004
THE ONLINE LIBRARY OF LIBERTY
(c) 2004 Liberty Fund, Inc http://oll.libertyfund.org/Essays/Bibliographical/Nisbet0190/Progress.html

144- Condorcet wikipedia fee encyclopedia

145- Historicism, wikipedia the free encyclopedia

146- The End of History and the Last Man Francis Fukuyama (1992) publisher: Penguin books-
Francis Fukuyama & the end of history by Roger Kimball
http://www.newcriterion.com/archive/10/feb92/fukuyama.htm

147- America's Amnesia Walter E. Williams
May 14, 2001 http://www.worldnetdaily.com/news/article.asp?ARTICLE_ID=22851

148- Can America Remember Its Past? Stephen Bertman Current magazine (12/2000"

149- The Philosophy of Time Cheryl Chen, Department of Philosophy
http://serendip.brynmawr.edu/local/scisoc/time/chennotes.html

150- Presentism wikipedia the free encyclopedia

151- Presentism and Consciousness
Neil McKinnon /Australian journal of philosophy 81,4.p305 /
http:// taylorandfrancis.metapress.com/ index/G4NL07TNYX9TL3TN.pdf

152- Hedonism- wikipedia the free encyclopedia

153- The Hedonistic Face of Humanism

Robert L. Waggoner Copyright (c), Robert L. Waggoner, Selma, Alabama, 1996 www.biblicaltheism.com/hedonface.htm

154- It's A Playboy World: William S. Banowsky, publisher: (Old Tappan, NJ: Fleming H. Revell Company, Spire Books, 1969)

155- Vital Signs: Emerging Social Trends and The Future of American Christianity George Barna and William Paul McKay y (Westchester, IL: Crossway Books, 1984),.

156- The Declaration of Independence http://www.usconstitution.-net/declar.html

157- Psychological hedonism , wikipedia ,the free encyclopedia

158- Freud , wikipedia, the free encyclopedia

159- Freud's Psychosexual Stages of Development

David B. Stevenson '96, Brown University http://www.victorianweb.org/science/freud/develop.html

160- Comstock laws -wikipedia the free encyclopedia

161- Twentieth century: An American sexual history, The SIECUS Report, Dec 1999/Jan 2000 by Czuczka, Dana

http://www.24hourscholar.com/p/articles/mi_qa3781/is_199912/ai_n8875395

162- Margaret Sanger wikipedia the free encyclopedia

163- Edward Barnays wikipedia the free encyclopedia

164- Bernays, Edward L., 1891-
Title: Crystallizing public opinion
Publisher: New York, Live right Pub. Corp. [1961]

165- Bernays, Edward L., 1891-
Title: Propaganda, by Edward L. Bernays
Publisher: New York, H. Live right, [1933, c1928]

167- Bernays, Edward L., 1891-

Title: The engineering of consent. [Contributors] Howard Walden Cutler [and others] publisher Norman , university of Oklahoma press

168- The Father of Spin: Edward L. Bernays and the Birth of Public Relations Larry Tye Crown Publishers, Inc 1998

169- Edward Bernays, Biography of an Idea: Memoirs of a Public Relations Counsel

Simon and Schuster, New York. 1965

170- How Freud got under our skin

Tim Adams

Sunday March 10, 2002

The Observer

http://observer.guardian.co.uk/review/story/0,6903,664666,00.html

171- Toxic Sludge Is Good For You :Lies, Damn Lies and the Public Relations Industry

by John Stauber and Sheldon Rampton

Publisher: Common Courage Press, Monroe, Maine /2000

172- Freudian Fraud: The Malignant Effect of Freud's Theory on American Thought and Culture

By E. Fuller Torrey. 362 pp. New York, HarperCollins, 1992.

173- Kinsey, Alfred(1894-1956) gale encyclopedia of psychology by Margaret Alic

174- Alfred Kinsey wikipedia the free encyclopedia

175- Sexual Behavior in the Human Male

by Alfred Kinsey, Wardell Baxter Pomeroy, Clyde E. Martin WB Saunders 1948

176- Data from Alfred Kinsey's studies

http://www.kinseyinstitute.org/research/ak-data.html

177- Encyclopedia Britanni zoophilia

http://www.britannica.com/eb/article?tocld=9001423

178- Doctor Sex, Ph.D.

Are we all Kinseyans now?

Julian Sanchez

http://www.reason.com/0502/cr.js.doctor.shtml

179- Kinsey, Crimes & Consequences,

The Institute for Media Education, Crestwood, KY, 1998, 2000.

180- FRAUD OF THE CENTURY?

J.Gordon Muir and John H. Court / may 1992 edition 0f catholic medical quarterly

http://www.catholicdoctors.org.uk/CMQ/May_1992/kinsey_-sex_fraud.htm

181- The Kinsey Report: Modeling a Frankenstein Man

Copyright (c) P. Meehan March, 2002. All rights reserved www.literatus.net/essay/KinseyReport.html - 16k

182- Kinsey: Science or Crime By Elizabeth Wright Issues & Views, Winter 1999

http://www.issues-views.com/index.php?print=1&article=2065

183- Kinsey and the Homosexual Revolution by Judith Riesman

http://www.leaderu.com/jhs/reisman.html

184- Hugh Hefner wikipedia the free encyclopedia

185- Hugh Hefner and the Playboy Lifestyle

By Steve Gallagher

http://www.purelifeministries.org/Unchained/02-Feb_Files/Articles/0220-Playboy_lifestyle.htm

186- The American experience the pill ,people and events http://www.pbs.org/wgbh/amex/pill/peopleevents/e_fda.html

187- Masters and Johnson wikipedia the free encyclopedia pornography wikipedia the free encyclopedia

188- Homosexuality and psychology wikipedia the free encyclopedia

189- 'Pure Sex' by Tony Payne and Phillip D Jensen, published by Matthias Media 1998

190- Understanding Changes in Sexual Activity Among Young Metropolitan Men: 1979-1995

By Leighton Ku, Freya L. Sonenstein, Laura D. Lindberg, Carolyn H. Bradner, Scott Boggess and Joseph H. Pleck family planning perspectives Volume 30, No. 6, November/December 1998 http://www.agi-usa.org/pubs/journals/3025698.html

191- Increased Condom Use among Teenage Males, 1988-1995: The Role of Attitudes

By Joseph J. Murphy and Scott Boggess family planning perspectives Volume 30, No. 6, November/December 1998

http://www.agi-usa.org/pubs/journals/3027698.html

192- Primetime Live Poll: American Sex Survey

A Peek Beneath the Sheets Analysis

By GARY LANGER, with CHERYL ARNEDT and DALIA SUSSMAN

abcnews.go.com/Primetime/ News/story?id=156921&-page=1 - 38k

193- Multiple Sexual Partners Among U.S. Adolescents And Young Adults By John S. Santelli, Nancy D. Brener, Richard Lowry, Amita Bhatt and Laurie S. Zabin, family perspective planning Volume 30, No. 6, November/December 1998 www.guttmacher.org/pubs/journals/3027198.html - 47k

194- Her Way : Young Women Remake the Sexual Revolution

by PAULA KAMEN ,A STATISTICAL PORTRAIT OF A GENERATION

From "HER WAY www.paulakamen.com/index.php?module=pagemaster&PAGE_user_op=view_page&PAGE_id=4&MMN_position=... - 19k

195- MR. RIGHT VS. MR. RIGHT NOW http://www.oprah.com/health/omag/health_omag_200410_casualsex.jhtml

196- Survey of Adolescent Males National Center for Health Statistics. 1995 National

http://www.agi-usa.org/pubs/fb_teen_sex.html#sa

197- The Janus Report on Sexual Behavior. Janus, S., and Janus, C 1993. New York: John Wiley & Sons.

198- Sex survey

http://www.survey.net/index.html

199- Rape statistics

http://oak.cats.ohiou.edu/~ad361896/anne/cease/rapestatisticspage.html

200- American rape statistics

http://www.paralumun.com/issuesrapestats.htm

201- TRENDS IN THE WELL-BEING OF AMERICA'S CHILDREN & YOUTH, 1997 Edition

by, Office of the Assistant Secretary for Planning and Evaluation U.S. Department of Health and Human Services 1997

202- The Changing American Family

Herbert S. Klein Hoover digest no.3 summer issue 2004

www.hooverdigest.org/043/klein.html - 23k

203- American exceptionalism ,wikipedia free encyclopedia

204- American Exceptionalism: A Double-Edged Sword by: Lipset, Seymour M

Norton, W. W & Company, Incorporated. Publisher

Publication Date: May 1997

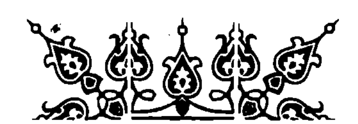
205- An outline of American history: early Americans
http://zslt.klucznet.pl/mh/usa_historia.html

206- Automotive History - A Chronological History 1940 1959
http://www.aaca.org/history

207- THE BOOMING OF THE BURBS The Seattle Times on August 18, 1996 By Sharon Boswell and Lorraine McConaghy Special to The Times
http://seattletimes.nwsource.com/centennial/august/burbs.html

208- How We Became a Consumers' Republic by Sean Silverthome, Editor, HBS Working Knowledge
February 10, 2003 http://hbswk.hbs.edu/pubitem.jhtml?id=3262&t=bizhistory

209- Encyclopedia info please, installment buying and selling
http://www.infoplease.com/ce6/bus/A0825286.htm



مستخلص

الكتاب من ثلاثة محاور أساسية، المحور الأول عنوانه (وجهٌ آخر للصراع)، يطرح في فصليه فكرة أن الصراع الحالي ليس صراعاً عسكرياً بالضرورة، بل هو حضاري ثقافي وقيمي في أساسه. في الفصل الأول من هذا المحور (دينٌ جديدٌ)، يناقش فكرة أن أمريكا أصبحت بمثابة دينٍ جديدٍ يغزو العالم بأفكاره ومعتقداته ونمط حياته أكثر منها مجرد دولةٍ إمبراطوريةٍ عظمى كسالف الدول التي سادت العالم سابقاً. لبُّ هذا الدين الجديد وأساسه المتين يرتكز على فكرة الحلم الأمريكي: الرفاهة والترف، والعيش في فردوس السلع الأرضية.

في الفصل الثاني (سيناريو الفقدان وخطة الاستعادة) يربط الكتاب بين الحلم الأمريكي الذي اجتاح العالم، وبين محاولات الإنسان العودة إلى الفردوس منذ خروجه منه، عبر تكوين فردوسٍ أرضيٍّ، وهي الرحلة التي ابتدأت بآدم خروجاً، وبإبراهيم بحثاً، وبسيدنا محمدٍ ﷺ انتهاءً، وهو يقلب وجهه بين مختلف الوجهات.

المحور الثاني من الكتاب (ثوابت الأركان)، يناقش ثوابت الفردوس الأمريكي الخمسة: المادية، الفردية، الاقتصاد الحر، الاستهلاك، العيش في الحاضر (الآن وهنا)، ويحاول أن يقارن ويمايز بينها وبين ثوابتنا وأركاننا: هل يمكن لهذه الثوابت أن تتأسلم وتشهر إسلامها بمجرد وضعنا لشعاراتٍ إسلاميةٍ عليها؟ أم إن الفرق والتمايز بينهما أبعد من ذلك بكثير؟

ينتهي المحور الثالث باستشرافٍ لضرورة وجود بديلٍ للأفكار التقليدية السائدة التي انتهت مدة فعاليتها وصلاحيتها، دون أن يعني ذلك أبداً أن يكون البديل نسخةً مستعارةً من فردوسٍ أمريكي، حتى لو كان هذا الفردوس واقعاً حقيقياً عندهم.

Abstract

The book consists of three main pivots, the first is titled "Another Face of Conflict". In its two chapters, it discusses the idea that the real conflict is not military by nature; rather, it is a cultural conflict involving paradigms, ideas, and values. In the first chapter, "New Religion", the book discusses the fact that America has become more like a religion that sweeps the world by its way of life. It is not just another empire that controls the world like previous empires that ruled the world. The core of this new religion is based on the American dream concepts: the luxurious life in the earthly paradise of everlasting merchandise.

In the second chapter, " Scenario of a Loss and a Plan for a Regain" the book links the American dream with the trials of Man to go back to Paradise. It tarts from Adam when he was expelled, Abraham when he was searching and ends with Muhammad (pbuh) when he was moving his face for the final destination.

The second pivot, "Foundations and Pillars", drills deep into the structure of this American paradise, especially in its five foundations: materialism, individualism, free market economy, consumption, and the "Here and Now" concept. The author tries to lay comparison between these pillars and our pillars: Can these pillars be Islamized, just by putting Islamic labels on them? Or, is the issue of difference much deeper?.

The third pivot ends in the necessity of making an alternative system of values instead of the traditionally expired thoughts which shouldn't be a borrowed copy of the American paradise.

FORGED PARADISE
REGAINED PARADISE

Aḥmad Khayrī al-'Umarī

أمريكا حقيقة لا سبيل لإنكارها، ولا داعي لذلك أصلاً. أمريكا حقيقة من حقائق العالم اليوم، العالم الذي لا يمكن أن نفهمه دون أن نفهم أمريكا..

لكن قوة أمريكا لا تتأتى من أساطيلها وبوارجها وقاذفاتها فحسب، لكنها تأتي أيضاً من قوة (الحلم الأمريكي)، حلم الحرية والرفاهية والحياة الرغدة السعيدة.. وهي أشياء جذابة في كل زمان ومكان..

لكن هذه القيم تكون جذابة أكثر عندما تكون حياتك تشبه الصحراء في جدبها وقحطها ويأسها..، ستبدو قنينة (الحلم الأمريكي) كما لو كانت واحدة فردوسية هبطت عليك من السماء..

لكن قبل أن تأخذ هذه القنينة لتروي عطشك وتسد ظمأك وتنتعش بها، عليك أولاً أن تقرأ مكوناتها، أن تفهم خلطة تكوينها..

لا جدل في أن القنينة منعشة، وربما تكون مفيدة ومغذية.. لكنها قد تحتوي في مكوناتها على بعض المواد التي تسبب لك الحساسية..

قد تكون القنينة منعشة، قد تنقذك.. ولكن قد تكون أيضاً غير ذلك..

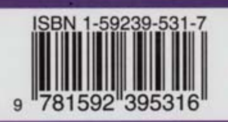
ومع أنك ظمآن جداً، إلا أن عليك أن تعرف محتوياتها قبل أن تفرغها في جوفك دفعة واحدة..

وفي كل الأحوال **لن تتمكن من صنع قنينتك الخاصة، إن لم تفهم هذه القنينة، وتعرف مكوناتها..**



www.furat.com
موقع عربي رائد لتجارة الكتب والبرامج الالكترونية

SROUR ALWANI 2005



ISBN 1-59239-531-7
9 781592 395316